المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية



البحوث والدراسات

المقدمة للمؤتمر

الجزء السابع

عني بطبعه ومراجعته
خادم العلم
عبد الله بن إبراهيم الأنصاري

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت
☎ ٢٣٧٥٤٠ - بيروت ص.ب ٨٣٥٥
☎ ٧٢١٦١٢ - صيدا ص.ب ٢٢١



الطبعة الأولى

١٤٠١ هـ ١٩٨١ م

الطِّبُّ النَّبَوِي

صلاح الدين كشريد
"تونس"

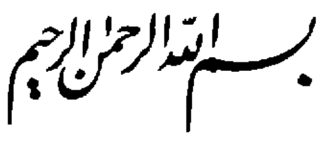


المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ


البحوث والدراسات
المقدمة للمؤتمر

بسم الله الرحمن الرحيم



الطب النبوي

للدكتور صلاح الدين كشريد، الصيدلي والكاتب الاسلامي

تونس

بسم الله الواحد الأحد والحمد لله حمداً بلا عد والصلاة والسلام على نبينا الأسعد.

حضرات المشائخ والأساتذة الأفاضل- سادتي الكرماء.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

إنه لمن سوابغ نعم الله علي ولمن دواعي الفخر والاعتزاز أن أتلقى من هذا البلد العربي المسلم المضياف دعوة كريمة للمشاركة في هذا الحفل البهيج الذي نريده اشراقة فجر ساطع بالأنوار وسفير خير وبشير فتح مبين لهذا القرن الجديد الذي أهل على الأمة المحمدية باليمن والبركات.

وإني وإن رحبت بهذه الفرصة السعيدة التي تجمعني الآن بأطيب وأخلص وأزكى ما أنجبته أمتنا اليوم من رجالات أفذاذ يعيشون للإسلام وفي الاسلام ويعملون جاهدين بما آتاهم الله، من صدور منشرحة ومن بصائر

متفتحة ومن قلوب عامرة ومن آذان واعية ومن أرواح شفافة ومن عقول كشافة، يعملون في سبيل هذا الدين الحنيف وهذه المحجة البيضاء لإظهارها من جديد بوجهها الحقيقي ولإجلاء ما تراكم عليها من غبار الإهمال والنسيان ولدحض الأراجيف والترهات التي طالما نسجتها وحبكتها خفافيش الظلام وعناكب المكر الخبيث والحقد الدفين.

إن كنت شديد الاغتباط بهذه الفرصة السعيدة فإني مشفق على نفسي من هذا التكليف الخطير الذي قبلته بدون أي تردد رغم عظمة الموضوع وعلو مقام صاحبه، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، ورغم بضاعتي المزجاة وقصر باعي وضيق معرفتي ولكني إذ تطاولت عليك يا رسول الله، وإذ ظلمت نفسي بتحميلها ما لا تطيق، فلعلمي بأنك مثال الحلم والتواضع وبأنك لعلى خلق عظيم.

وحين نتناول اليوم بالبحث شخصية سيد الأنبياء والمرسلين من هذا الجانب فليس لنزيده رفعة وجلالاً إذ يكفيه شرفاً وتقديراً أن اصطفاه ربه وفضله على العالمين بالنبوة والرسالة، ويكفيه فخراً وعزاً أن الله سبحانه وتعالى أنزل عليه القرآن الكريم الذي لو أنزله على جبل لرأيته

خاشعاً متصدعاً من خشية الله- «ولقد أتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم»- (الحجر: ٨٧).

ولكنك يا رسول الله محط الأشواق وقرة الأعين وكعبة العشاق ولا بد لمن أحب الشيء أن يتنعم بجميع نواحي جماله، وإنك كالماسة بأضلعها المتعددة التي يضيء كل ضلع منها بنوره الخاص فلا تدري أيها أشد نوراً وأيها أبهر إشراقاً.

والعبقري ترى عبقريته من كل جوانبه ولله در القائل في هذا النبي الكريم:

لو لم يقــل اني رسول لكــا
ن شاهــد في هديــه ينطــق

ذلك أن رسول الله، ﷺ، ليس كما يدعي بعضهم مجرد آلة لالتقاط الوحي وليس واسطة جامدة بين السماء والأرض وصل عن طريقها القرآن الكريم، ولكنه هو والقرآن حدثان مرتبطان وظاهرتان ملتزمتان لا يكتمل كلاهما إلا بالآخر، وإذا كان القرآن الكريم كتاب الله المكتوب في الصحف والمنقوش في سويداء القلوب، فسيدنا محمد ﷺ، هو بسيرته كتاب الله المرئي والملموس والمعاش، ولولا تعلق صحابته المتين بذاته وتلقفهم لكل ما صدر منه من كلمات وحركات

وإشارات، ما كان يمكن فهم القرآن على حقيقته ولبقي هذا الكتاب الجليل معنى فلسفياً مغمضاً وقاموساً مجرداً ومرتعاً سائباً للتأويلات الخاطئة وتصورات الخيال.

- إنك كنت في مدينتك الفاضلة التي بعثها الله على يدك الطاهرة المباركة، كنت الرائد الحكيم والمعلم الكيس والصاحب الكريم والزوج العطوف الحليم، والقاضي الذي لا تأخذه في الحق لومة لائم، والقائد الموفق والمجاهد المغوار الذي لا تلين قناته. والأب العادل الحنون والملاذ الذي لا يمل ولا يتبرم، تجيب دعوة الحر والعبد وتبدأ الصبيان بالسلام وتأكل مع المساكين وتأخذ بيد المظلوم ولا تتأثر أبداً لنفسك بل كنت تدرأ بالحسنة السيئة وتقابل الصلافة بالإحسان.

فلا عجب إذا كنت المرجع الأوحد في كل ما يعتري حياة قومك ولا عجب أنهم توسموا فيك العلم والكمال واطمأنوا لنصائحك وتعليماتك في كل ميدان.

وهكذا أصبحت طبيبهم في أسقام أبدانهم بعد أن كنت الطبيب المنقذ لأرواحهم والمطهر لقلوبهم من كل العلل والأدران.

ولقد صور لنا الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي حالة

الطب العربي في الجاهلية في مقدمة كتاب « الطب النبوي » للعلامة المرحوم ابن قيم الجوزية الذي حققه الدكتور وعلق عليه تعليقاً علمياً شيقاً تظهر من خلاله معرفة جيدة بالطب المعاصر مع ثقافة اسلامية واسعة وعقيدة ايمانية راسخة (إنما يخشى الله من عباده العلماء) ولا أجد خيراً من أن أقدم لكم نبذة من هذه المقدمة التي يقول فيها الدكتور قلعجي:

« وعند عرب الجاهلية، والبيئة التي نشأ بها رسول الله ﷺ، كيف كانت تبدو صورة الطب في مطالع البعثة المحمدية؟... وكيف كان حال المعارف العلمية الطبية والعلاجية؟... لم تكن معارف العرب الطبية قبل القرن السابع للميلاد إلا بعض معلومات فن الشفاء التي كانت شائعة بين معاصريهم تلك الأيام والمبنية على تجارب قاصرة ووصفات متوارثة عن مشائخ الحي وعجائزه؛ إلا أنه ليس على قانون طبيعي أو... بعقاقير وأدوية من نبات وأغذية وكان الكي عماد معالجتهم كل مرض معضل.

واعتقدوا كذلك بالأرواح الشريرة وأنها سبب الأمراض ولا يشفي منها إلا السحر والتمائم على يد الكهان والعرافين وزاجري الطير والسحرة والمشعوذين.

وقد زعموا أن بين طلوع النجوم وغروبها أمراضاً

وأوبئة وعاهات وكانوا ينسبون إليها التأثيرات من خير وشر، وأنه إذا فشا الموت في الجرذان خصب الناس، وأنه إذا أن ديك في دار فشا فيها مرض الرجال وإن أَنَّتْ دجاجة فشا مرض النساء... «انتهى كلام الدكتور قلعجي».

وأما في البلاد الأوروبية المسيحية فكان يعتبر كل مرض عقاباً ولعنة من الله وكان المجنون يضرب ضرباً مبرحاً حتى يخرجوا، بزعمهم، الشيطان الساكن فيه.

وكانت العجائز الباحثات عن خصائص النباتات الطبية تحرق بتهمة السحر والاتصال بالعوالم الشيطانية.

وكان الهنود والفرس يعتمدون في التداوي على كثير من النباتات وبعض المعادن وكان أغلب أدويتهم المفردات في حين أن البيزنطيين كانوا يفضلون المركبات.

ولقد تعلم بعض العرب من هؤلاء وهؤلاء بعض القواعد الطبية وعلموها في بلادهم ومن أشهرهم: الحارث بن كلدة، من الطائف، تعلم الطب في مدرسة «جندي سابور» وتمرن هناك وحصل على معارف في الداء والدواء- وكان رسول الله ﷺ يوصي بالتطبيب عنده، وكان له معالجات كثيرة ومحاورة شهيرة مع كسرى وقد جاء فيها قوله عن الداء: «إدخال الطعام على الطعام، هو الذي يفني البرية»- وله

تلك الحكمة البليغة التي كثيراً ما تنسب غلطاً إلى الحديث الشريف: «المعدة بيت الداء والحمية أصل الدواء».

ولقد توفى الحارث أيام معاوية ومنهم من يقول إنه مات هو وسيدنا أبو بكر رضي الله عنه في نفس الأسبوع متضررين بطعام مسموم أكلا منه جميعاً، والله أعلم.

كما اشتهر في الطب- النضر بن الحارث بن كلدة- الذي أظهر عداوة وبغضاً لرسول الله ﷺ، وقد قتل على الكفر بعد معركة بدر.

وكذلك- ابن أبي رمثة التميمي- المشتهر بصناعة الجراحة.

و- ضماد بن ثعلبة- الذي أسلم على يد رسول الله قبل الهجرة.

و- الشفاء بنت عبد الله- اشتغلت بالطب في الجاهلية بالرقى ومعالجة «النملة» (وهي قروح في الجلد كعضة النملة) أسلمت وبايعت الرسول: ﷺ بمكة واستأذنته لمتابعة عملها فأذن لها وعلمها دعاء: «اللهم رب الناس أذهب الباس، اشف أنت الشافي وعاف أنت المعافي... ولقد جاء القرآن الكريم محرماً كل أنواع السحر والكهانة والدجل ومعلناً سلطان العقل على كل الأشياء، ومبيناً أن الله عز وجل جعل في هذا الكون قوانين ثابتة واضحة وأن

هناك أسباباً يجب على العقل أن يطلبها عن طريق التجربة العلمية والبحث، وهذا رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى التداوي «تداووا عباد الله، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء» وفي حديث أبي الزبير عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله عز وجل» وفي مسند الإمام أحمد من حديث زياد بن علاقة عن أسامة بن شريك قال: «كنت عند النبي ﷺ وجاءت الأعراب فقالوا: يا رسول الله أنتداوى؟ فقال: نعم يا عباد الله- تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء غير داء واحد فقالوا: ما هو؟ قال: الهرم.»

وجاء في نفس الوقت ينهى عن الشعوذة وأنواع التدجيل في أحاديثه الشهيرة.

«من علق تميمة فقد أشرك» التِّوَلة: السحر والتمائم والرقى من الشرك» المنجم كاهن والكاهن ساحر والساحر كافر.

وسوف نبحث عن الطب النبوي في ما جاء به القرآن الكريم من قواعد حفظ الصحة واجتناب الأمراض وفيما جاءت به الأحاديث الشريفة من حكم وتوصيات لا زال العلم المعاصر يؤيد صحتها وجدواها.

والقرآن الكريم سن للحياة دستوراً محكماً لو اتبعه الناس بصدق وإخلاص لسلم المجتمع... الانساني من أشد الأمراض فتكاً وأصعبها علاجاً والتي تستعصي اليوم على كل ما وصل إليه الفكر من اكتشافات علمية ومن أدوية شديدة المفعول كمشتقات السلفا (Sulfamides) المواد المضادة للحيوية (Antibiotiques) والكرتيزون وغيرها من الاختراعات الباهرة التي تمثل مفخرة هذا القرن العشرين.
إن القرآن جعل الصلاة عماد الدين ولقد أوضحت لنا السنة المطهرة شروطها وكيفية إقامتها وما يسبقها من تطهر ووضوء وسواك ونظافة الملبس والمكان وما تشتمل عليه من حركات رياضية معتدلة ومنشطة لكل عضلات الجسم.

فالطهر الأكبر واجب بعد كل اتصال جنسي يقظة أو مناماً وبعد النفاس والحيضة وهو مندوب قبيل صلاة الجمعة وصلاة العيدين. ومن البديهي أن غسل جميع البدن وتدليكه باليد ينشط الدورة الدموية ويهدىء الأعصاب ويفتح المسام ويزيل الأوساخ والروائح الكريهة ونحن نعلم أن على سطح الجلد تعشش أنواع كثيرة من الجراثيم الخطيرة. (Staphylocoque, Streptocoque) التي تعيش في شبه

نعاس حتى إذا وجدت المناخ الصالح عادت إلى الحياة النشيطة وتسببت في أخبث الأمراض.

والوضوء يتكرر عدة مرات في اليوم الواحد مبتدئاً بغسل اليدين غسلاً محكماً كما أنه من السنة غسل اليدين قبل الأكل وبعده وهذا من أحسن أسباب حفظ الصحة كما تعلمون.

ثم تأتي المضمضة وهي تطهير للفم واللثة والأسنان وقد تبين علمياً أن بعض أمراض القلب تنشأ عن تعفن الأسنان زيادة على ما يتسبب فيه وسخ الفم من رائحة كريهة ومن تسوس الأسنان ومن التهاب الحلق واللسان.

أما الاستنشاق والاستنثار فهما يغسلان داخل الأنف والأنف هو باب التنفس ومدخل الهواء للحلق والرئتين وإذا لم تتجدد مواده المخاطية كانت حقلاً خصباً للجراثيم والفطريات (Champignons) الفتاكة وتضاءلت من جرائها حاسية الشم.

وغسل الوجه والعينين يزيل عنهما رواسب الغبار والعرق ويحفظ لها نضارتها وجمالها

وكذلك غسل الذراعين والمسح على الرأس وتخلل الأذنين وغسل الساقين. والصوم أصبح اليوم من أنجح

الوسائل العلاجية لأمراض القلب والشرايين الناتجة عن ارتفاع نسبة المواد الشحمية ومن أخطرها مادة « الكولستيرول »- وإني جربت منذ أعوام صيام الأيام البيض من كل شهر فأغناني ذلك، والحمد لله، عن تناول أدوية كثيرة وشعرت بتحسن كبير رغم ترك الدواء جملة. والصوم تقوية للجهاز الهضمي الإرادي واللاإرادي وينظم هكذا عمل الغدد ويقويها- وهو في نفس الوقت يعطي الجهاز الهضمي مهلة للراحة يستفيد منها خير استفادة مع أنه يقوي قدرة امتصاص الأمعاء للمواد الغذائية النافعة التي كان يضيع الكثير منها مع الفضلات.

وأريد أن ألاحظ أن بعض المسلمين اليوم جعلوا من شهر الصيام شهر الشره والانهاك في تناول أنواع المآكل الدسمة فتضيع هكذا كل الفوائد الصحية والروحانية من صيامهم، بل تنقلب إلى كوارث لا تحمد عقباها حتى إن بعضهم يرتكز عليها ليقدح باطلاً في شعيرة الصوم.

والحج ارتحال عن الأوطان بما في ذلك من مشقة السفر ومن ترك عادات الراحة المنزلية ومن التزام تدبير شئون المأكل والمنزل في كل مرحلة من مراحله الكثيرة ولهذا سماه رسول الله ﷺ « جهاد النساء ».

والحاج ينام على الأرض بعد الفراش الوثير وفي ذلك فوائد جمة، منها التخوشن وهو من أكبر أسباب الرجولة في حين أن الترف والبذخ من أسباب التخنث وقد قال رسول الله ﷺ: (اخشوشنوا، اخشوشنوا)، والنوم على اليابسة شرط أساسي في معالجة أنواع البرد (Rhumatisme) وخصوصاً منها عرق النسا (Sciatique) وهو كذلك منشط للدورة الدموية ومساعد على إزالة الترسبات الشحمية في الجلد (Cellulite). هذه في عجالة الفوائد الصحية لما أوجبه الله من فرائض لا يتم الاسلام إلا بها. وأما فوائد ما حرمه القرآن والسنة فقد أصبحت من باب تحصيل الحاصل إذ لا ينكرها أحد مهما كان تعصبه وتحامله على الاسلام.

فتحريم الزنا يجنب الفرد والمجتمع أمراضاً وعاهات يعسر علاجها وتذهب في ذلك العلاج أموال طائلة بدون طائل. ومن تلك الأمراض- الزهري (Syphilis) الذي يؤدي إلى الجنون (Tabes) أو الموت بالسكتة القلبية، ويتسبب في أمراض جلدية عديدة ومشوهة كأكل الأنف وشق الشفة وفي اسقاط الجنين قبل أوانه وفي إضعاف مخ المولود واختلال مداركه الذهنية.

وكذلك مرض- السيلان الأبيض (Blennorragie) الذي

يفتك بالرجال وهو أخطر بكثير عند النساء ويمكن الجزم بأنه من أعسر الأمراض مداواة رغم البنسلين والمواد الأخرى المضادة للحيوية. وهذا المرض العضال يؤدي إلى العقم ويتسبب في أوجاع مؤلمة في بعض المفاصل كالرسغ. وإذا وصلت جرثومته إلى العين كثيراً ما يؤدي إلى عماها.

وتحريم الخمر والمخدرات يتطلب مجلدات لتبيين ما فيه من فوائد عظيمة لصحة الفرد والمجتمع ولسلامة هذا المجتمع من العنف والإجرام والعربدة وسقوط الأخلاق ويوفر للبلاد أموالاً تمثل نسبة هائلة من ميزانيتها. وتحريم تزويج المحارم فيه حفظ للجنس من التقهقر الذاتي والانحلال والضعف. وتحريم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير فيه وقاية من أخطر الأمراض والتسممات- ذلك أن السائمة إذا ماتت من مرض كانت حاملة لجراثيم ذلك المرض الذي يتسرب إلى الإنسان عن طريق الأكل. والدم سريع التعفن والانحلال،وإذا لم يفرغ من الحيوان بعملية الذبح أو النحر تعفن في البدن وجعل اللحم غير صحي. ولحم الخنزير غني بأنواع الديدان الخطرة وبمادة الكولستيرول وبمواد سرطانية اكتشفت أخيراً. وتحريم قرب النساء عند المحيض وفي فترة النفاس يقي الرجل والمرأة من أمراض عديدة. ويمكننا

هكذا أن نرى أن الإسلام لو طبق بصدق وإخلاص لخلق مجتمعات سليمة، بعيدة عن الرخاوة والميوعة والمسخ، محصنة عن أشد الأمراض فتكاً وأغلاها معالجة وأعسرها دواء. وهذا رسول الله ﷺ جاء متمماً لهذا الدستور القرآني البديع بحكمه الصحية ومنهجه في ممارسة الحياة من كل جوانبها.

إنه يؤكد النظافة في كثير من أحاديثه: «النظافة من الإيمان والوسخ من الشيطان» «الطهور شطر الإيمان»- «خمس من الفطرة: الاستحداد والختان وقص الشارب ونتف الابط وتقليم الأظافر»- «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك قبل كل صلاة». وكان ﷺ يوصي بتغطئة الإناء وإيكاء القربة- وكان يفضل الماء البائت في الشنان لحكمتين بليغتين:

فالأولى هي اعطاء الماء مهلة لترسب المواد الرملية وغيرها وهكذا يصفو الماء.

والثانية أن الماء يرشح من مسام الشنة ويتبخر فيبرد الماء. ومن خصائص الشنان والقرب أنها تطلى عادة بشيء من القطران والقطران غني بعقاقير ماحقة للجراثيم ويعطي الماء البارد نكهة خاصة. وكان يحذر من الأمراض الكثيرة

التي يتسبب فيها الكلب إذا ولغ في الإناء أو إذا مسح عليه الإنسان. ذلك أن الكلب كثيراً ما يحمل في لعابه جراثيم الكلب أو بويضات أنواع خطيرة من الدود وأخطرها ما يسمى «Toenia echinococcus» الذي يحدث أكياساً في حجم البيضة أو البرتقالة في الرئتين أو الكبد أو الأعضاء التناسلية وهو ما يسمى بمرض الكيس (Kyste hydatique) وهذا الكيس يضغط على الشرايين والأعصاب ويتسبب في أوجاع كبيرة، وإذا انفلق في العضو استوجب ذلك الأمر العملية الجراحية السريعة.

وكثيراً ما يحمل جلد الكلب حشرة الجرب فتنتقل منه إلى الإنسان. ولهذا فإن الأحاديث تؤكد نجاسة الكلب وتحث على الوقاية من أضراره. «إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليرقه ثم ليغسله سبع مرات احداهن بالتراب.»

وكان ﷺ ينهى عن دخول البلد الذي فيه الطاعون (Peste) وعن الخروج منه. فلا ينبغي دخوله اجتناباً للعدوى ولا ينبغي لمن كان فيه أن يخرج منه حتى لا يحمل المرض إلى بلد آخر- وهذا ما هو متبع اليوم في الأمراض المعدية والوبائية. وكان يوصي باجتناب المجذوم (Lepreux) في قوله:

« فر من المجذوم فرارك من الأسد » ونظراً لأن البدن القوي النشيط أقل تعرضاً للأمراض وأكثر قدرة على مقاومتها ، فإنه ﷺ كان يحث على ممارسة الرياضة منذ الصبا وفي الحديث: « علموا أولادكم السباحة والرماية » وفي حديث آخر: « كل شيء ليس من ذكر الله لهو ولعب إلا أن يكون أربعة.. ملاعبة الرجل امرأته ،وتأديب الرجل فرسه ، ومشي الرجل بين الغرضين،.. وتعليم الرجل السباحة » (رواه النسائي: صحيح).

وكان يحب المصارعة ويشجع على تعلمها كما كان يحض على تعلم الفروسية والرمي. وقد ورد في صحيح مسلم من حديث عقبة بن عامر: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ألا أن القوة الرمي » يرددها ثلاث مرات- ولقد صرع رسول الله ﷺ أشد معاصريه قوة وبطشاً منهم ركانة وأبو الأسود الجمحي ويزيد بن ركانة.

وأما في شئون الأكل فأنه سن أسلم القواعد الصحية إذ كان يلتزم أقسى أنواع التقشف وكان يعيش على الأسودين: التمر والماء- ومن أحاديثه الشهيرة: « نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا فلا نشبع » وفي مسند الإمام أحمد وغيره:

«ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه. بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ،فإن كان لا محالة: فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه (رواه أحمد والترمذي).

وفي القرآن الكريم: (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين)- الأعراف: ٣١.

وكلنا يعلم أن ما يؤكل فوق الحاجة يتعب المعدة والكبد وبقية الجهاز الهضمي ويخلف ترسبات شحمية تثقل البدن وترهق القلب وتعطل عمل الأعضاء وتزيد في خثورة الدم وتتسبب في تجلط الشرايين. ومن الأكيد أن الذين يموتون من التخمة أكثر بكثير من الذين يموتون جوعاً.

والسمنة تتسبب في مرض البول السكري وارتفاع الضغط في الشرايين والذبحة الصدرية والسكتة القلبية.

كل ما ذكرناه يتعلق بالطب الوقائي ونحن نعلم أن الوقاية خير من العلاج. أما في الطب العلاجي فبالرغم من أن دائرة العلوم الطبية في ذلك الوقت كانت ضيقة بالنسبة لما وصل إليه العلم المعاصر فإننا نلاحظ بكل اعتزاز أن رسول الله ﷺ كان على علم لا بأس به في هذا الميدان وكل ما أوصى به من طب له حكمته وتفسيره المنطقي.

هديه في معالجة الحمى:

إنه كان يوصي بصب الماء البارد على المحموم وقد جاء

في الصحيحين عن نافع عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «إنما الحمى- أو شدة الحمى- من فيح جهنم، فأبردوها بالماء»، ومن أكبر أسباب الحمى في الجزيرة العربية ضربة الشمس التي يذهب ضحيتها الكثير من الحجيج في الصيف. وخير علاجها بالماء البارد أو الثلج مع تناول أقراص الملح. وحتى في الأمراض الأخرى التي تتسبب في ارتفاع الحرارة كمرض الحصبة أو التيفود، فلا بد من وضع كيس من الثلج على الدماغ وإلا أصيب المخ بتشويهات كثيراً ما تخلف عند الصغار مرض الصرع التشنجي (Epilepsie) الذي لا يعرف له دواء.

رأيه في العسل:

ومن سنن ابن ماجة أن رسول الله ﷺ قال: «عليكم بالشفائين: العسل والقرآن» وكان ﷺ يشرب العسل بالماء على الريق، وربما امتنع عن شرب العسل بالحليب تواضعاً منه وفراراً من الترف. وكان يصف العسل في كثير من الأمراض والتسممات. وفوائد العسل أصبحت من الحقائق الثابتة وقد كتبت البحوث المطولة في شأنها وسوف نسوق منها الأهم حتى لا نخرج عن دائرة الموضوع.

يحتوي العسل على نسبة ٧١,٤٪ من المواد السكرية

وأغلبها سكر العنب (Glucose) الذي تمتصه الأمعاء بدون أي عملية هضم فينتفع منه القلب والمخ وجميع العضلات بعد وقت قصير من تناول العسل وهو بمثابة حقنة شرجية (Injection I. M) من مادة الـGlucose ويحتوي كذلك على عدة فيتامينات منها.

الفيتامين ج (C) المساعد في علاج أمراض الدم والاسقربوط (Scorbut).

الفيتامين ك (K) المضاد للنزيف الدموي.

الفيتامين د (D) المضاد للكساح (Rachitisme).

مجموعة فيتامينات ب (B1 B6 B12) (B) الصالحة لمعالجة عدة التهابات... والمساعدة على عمليات التمثيل الغذائي.

الفيتامين أ (A) الضروري للتنمية البدنية وللوقاية من الأمراض التعفنية ولتقوية البصر ولتجديد البشرة واندمال القروح الجلدية وإزالة مخلفات الحرق.

والعسل يحتوي كذلك على معظم الأملاح اللازمة للحياة كالكلسيوم (Ca) والفسفور (P) والحديد (Fe) والكبريت (S) والمغنسيوم (Mg) والكلور (Cl).... واليود (I) والصوديوم (Na) والبوتاسيوم (K) وبه كذلك عدة خمائر (Levures) وأنزيمات (Enzymes) تساعد على هضم وتمثيل المواد، ولهذا فإن المصابين بمرض البول السكري لا يتضررون من تناول

شيء معقول من العسل في حين أن السكر العادي يزيدهم توعكاً وهزالاً.

والعسل نافع لأقراح المعدة والاثني عشر (Duodenum) ومَلين للسعال ومضاد للسموم ومسهل للطبيعة- فمن أجل ذلك ذكر بالقرآن الكريم في سورة النحل «يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس» الآية: ٦٩.

هديه في معالجة الاستسقاء (Hydropisic)

جاء في الصحيحين من حديث أنس بن مالك قال: «قدم رهط من عُرَيْنة وعُكْل على النبي ﷺ فاجتووا المدينة (يعني كرهوا المقام بها) فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ فقال: لو خرجتم إلى إبل الصدقة فشربتم من أبوالها وألبانها، ففعلوا...» والاستسقاء هو تورم يقع في البطن إما لضعف في القلب أو في حالة تشمع الكبد (Cirrhose) أو انتفاخ الطحال (Rate) الناتج عن عدة أمراض منها حمى المستنقعات (Malaria) التي كانت متفشية بالمدينة حتى سميت «يثرب» قبل مجيء الرسول.

وحليب النياق فيه سكر الحليب (Lactose) الذي له مفعول في ادرار البول وفيه خلاصة الأعشاب العطرية التي ترتعي فيها الجمال كالاكليل والسعتر التي تنشط الكبد

وتيسر خروج المرة الصفراء من غدتها. وإني أذكر أننا في الحرب العالمية الثانية فررنا من الغارات الجوية إلى البادية وأني أصبت هناك باليرقان (وهو ما تسميه العامة أبو صفير) فلم تنفعني أدوية الطبيب طيلة شهر كامل وقد أنهك المرض قواي حتى كنت أشعر بالدوران- فنصحني بعض الشيوخ بشرب حليب النياق، فكنت تراني أنتقل بين مراعي الإبل لأحصل على هذا الدواء ولقد شفيت فعلاً في أيام قلائل.

وأما البول ففيه زيوت الأعشاب العطرية المذكورة سابقاً وفيه مادتان مدرتان للبول وهما الـUrobiline والـ Bilirubine

هديه في كف النزيف الدموي:

لما اشتدت معركة أحد واقتحم الكفار صفوف المسلمين حتى انكشف رسول الله ﷺ، تزاحم عليه المشركون من قريش لقتله فقاومهم هو ومن معه بشجاعة الأبطال وصبر الصالحين ولكنهم هشموا بيضته على رأسه الشريف وشجوا وجهه الكريم وكسروا رباعيته فكان الدم ينزف من هاته الجروح.

وفي الصحيحين عن أبي حازم أن فاطمة الزهراء كانت تغسل الدم عن وجه أبيها، وكان علي بن أبي طالب يسكب

عليها بالمجن (الترس). فلما رأت فاطمة الدم لا يزيد إلا كثرة أخذت قطعة حصير فأحرقتها حتى إذا صارت رماداً ألصقته بالجرح فاستمسك الدم ».

ويفسر الدكتور قلعجي هذه الظاهرة بأن الحصير كان من ورق البردي (Papyrus) وأن رماده يعمل عمل المواد القابضة مثل الشب والدباغ- « فإنها عندما تستعمل على الجروح ترسب البروتين السطحي وتكون طبقة التهتكات وتحميها من المخترقات، وفي الجروح توقف النزيف بواسطة ترسب بروتين الدم ولها خاصية قتل البكترية حيث ترسب بروتينها فتموت ».

ونحن نعلم أن أي مادة جافة تختلط بالمادة الليفية (Fibrine) الموجودة في مصل الدم (Serum) تجعلها تترسب في الثقوب والثغرات فتسدها وينقطع هكذا النزيف.

الحجامة والكي:

في صحيح البخاري عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: « الشفاء في ثلاث.. شربة العسل وشرطة محجم، وكية نار- وأنا أنهى أمتي عن الكي ». والحجامة تنقسم إلى حجامة جافة وحجامة رطبة. فالحجامة الجافة هي وضع كأس على الجلد وبالكأس قطعة قطن أو

قرطاس مشتعلة، فحين يلصق الكأس بالجلد يفرغ منه بعض هوائه المحترق ويمتص الجلد فيأتي هكذا الدم المحتقن بداخل العضو إلى سطح الجلد ويستريح العضو. وهي طريقة كانت تستعمل في حالات الاحتقان الصدري التي تصيب القلب أو الرئتين.

وأما الحجامة الرطبة فهي نفس العملية مع إحداث جروح داخل الكأس فيقع امتصاص الدم الزائد وكانت تستعمل في بعض أوجاع الرأس أو المفاصل.

وشرطة المحجم تستعمل لاستفراغ الدم الزائد في حالات ارتفاع الضغط الدموي وكانت تجنب المريض النزيف المخي الذي يخلف الفالج الشقي (Hemiplegie).

وأما الكي بالنار فهو من المعالجات القاسية التي ربما زاد ضررها على نفعها ولا تستعمل إلا عند الضرورة القصوى مثل تعقيم بعض التعفنات الخطرة كالأكال (Gangrere) أو لإيقاف النزيف إذا تعذر الربط وهو ما يسمى الآن (Thermocauterisation).

وكان رسول الله ﷺ يوصي بالحجامة وكان يحتجم في بعض الحالات. في الصحيحين من حديث طاووس عن ابن عباس أن النبي ﷺ احتجم وأعطى الحجام أجره- وفي

حديث آخر رواه البخاري: (خير ما تداويتم به الحجامة).

وفي حديث آخر قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ يحتجم في الأخدعين (وهما عرقان في صفحتي العنق) وفي الكاهل (وهو ما يلي الرقبة من الظهر)- وأما في شرطة المحجم فكان يقول:

«لا يتبيغ (أي يتقوى- يطغى) بأحدكم الدم فيقتله»

(من سنن ابن ماجة عن أنس بن مالك)

هديه في علاج عرق النسا (Sciatique)

وروى ابن ماجة في سننه من حديث محمد بن سيرين عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «دواء عرق النسا إلية شاة أعرابية تذاب ثم تجزأ ثلاثة أجزاء ثم تشرب على الريق في كل يوم جزء».

هديه في علاج القبض أو الإمساك:

روى الترمذي في جامعه وابن ماجة في سننه من حديث أسماء بنت عميس قالت: «قال رسول الله ﷺ بماذا كنت تستمشين؟ قلت: بالشبرم، قال: حار، حار ثم قلت: استمشيت بالسنا فقال: لو كان شيء يشفي من الموت لكان السنا».

وفي سنن ابن ماجة عن ابراهيم بن أبي عبلة قال:

« سمعت عبد الله بن أم حرام (وكان ممن صلى مع رسول الله ﷺ القبلتين) يقول: « سمعت رسول الله ﷺ يقول: « عليكم بالسنا والسنوت فإن فيهما شفاء من كل داء إلا السام » قيل: يا رسول الله وما السام؟ قال: الموت.

والغالب على الظن أن السنوت وهو عسل فيه قليل من السمن. والسنا شجرة صغيرة تنبت بالحجاز والسودان وأوراقها نافعة لمقاومة الإمساك وهي كثيرة الاستعمال في وقتنا الحاضر وتصنع منها حبوب ومركبات أخرى.

والعسل ملين لطيف للبطن وهو من نفس الوقت يقلل من حدة مفعول السنا.

هديه في علاج ذات الجنب (Pleuresie):

وروى الترمذي في جامعه من حديث زيد بن أرقم أن النبي ﷺ قال: « تداووا من ذات الجنب بالقسط البحري والزيت ». والقسط هو العود الهندي المسمى عامة بالقماري والمستعمل في البخور. وهو غني بمشتقات الحامض البنزويكي «Ac. Benxoique» الذي يذيب البلغم ويقتل الجراثيم ولا زالت مشتقاته تدخل في كثير من الشرابات المضادة للسعال. واستعماله مسحوقاً من الزيت المحمى إما للتدهن أو للّعق على غاية من المعقولية وكان آنذاك من أنجح أدوية ذات الجنب.

هديه في علاج العذرة أو التهاب الحلق واللويزتين:

ثبت في الصحيحين أنه قال: «خير ما تداويتم به الحجامة والقسط البحري- ولا تعذبوا صبيانكم بالغمز من العذرة».

فكان يوصي بحك القسط بالماء ثم ادخال هذا الماء إلى الحلق عن طريق المناخر، وهو ما يسمى بالسعوط.

هديه في علاج الصداع والشقيقة:

روى ابن ماجة في سننه حديثاً في صحته نظر هو: أن النبي ﷺ كان إذا صدع غلف رأسه بالحناء ويقول: «انه نافع بإذن الله من الصداع» وفي الترمذي عن سلمى أم رافع مولدة رسول الله ﷺ قالت: «كان لا يصيب النبي ﷺ قرحة ولا شوكة إلا وضع عليه الحناء» وكان يوصي كذلك بالحجامة لإزالة الصداع.

هديه في توازن المأكولات:

ثبت في الصحيحين من حديث عبد الله بن جعفر قال: «رأيت رسول الله ﷺ يأكل الرطب بالقثاء» والقثاء نوع معروف من الخيار (Concombre) يمتاز بكثرة مادة السليلوز (Cellulose) فيه وبما يحتويه كذلك من مواد لزجة ومن بعض فيتامينات (ب). ولهذا فإن القثاء إذا أكلت بدون افراط

ساعدت على الهضم ومنعت الامساك في حين أن التمر والرطب غنية بالمواد الغذائية الأساسية في حجم صغير وهي من أبطأ المأكولات السليمة. وكان ﷺ يأكل التمر بالبطيخ وكان البطيخ والعنب أحب الفواكه إليه.

وكان يحب اللحم ويقول إنه أكل أهل الجنة وأنه سيد الطعام. وكان يفضل الذراع والعنق لقلة شحمها ويسر هضمها.

هديه في التزام الحمية في بعض الأمراض:

في سنن ابن ماجه وغيره عن أم المنذر بنت قيس الأنصارية قالت: «دخل علي رسول الله ﷺ ومعه علي، وعلي ناقه من مرض ،ولنا دوال (يعني عراجين بسر) معلقة فقام رسول الله ﷺ يأكل منها وقام علي يأكل منها فطفق رسول الله ﷺ يقول لعلي: «انك ناقه- حتى كف - »

قالت: وصنعت شعيراً وسلقاً فجئت به فقال النبي ﷺ من هذا أَصِبْ فإنه أنفع لك. ولقد نهى عليا عن أكل الرطب وهو مرمد وكذلك نهى صهيبا عن أكل التمر ما دام به رمد. ونحن نعلم أن التمر غني بالسكر وأن السكر يزيد في تعفن الأقراح ويبطىء اندمالها.

ارشاده إلى دفع مضرات السموم بأضدادها:

لقد أتحفنا أخيراً الطبيب الفرنسي «موريس بوكلي» بكتابه (التوراة والانجيل والقرآن والعلم)، اذ بين فيه بأسلوب علمي نزيه وحجج منطقية دامغة أن القرآن هو الكتاب الوحيد الذي لا يتعارض مطلقاً مع معطيات العلم الحديث، بل كلما انكشفت لانسان حقائق هذا الكون ازداد يقيناً بصحة القرآن وتيسر له فهم بعض ألغازه التي لم يفهمها السابقون.

ولكنه تناول حديث الذباب بشيء من التسرع في الحكم وقلة التروي في حين أن هذا الحديث إن دل على شيء فإنما يبرهن عن عبقرية وإلهام هذا النبي الكريم الذي لا يقول إلا صدقاً ولا ينطق عن الهوى. في الصحيحين من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فامقلوه (أي أغمسوه) فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر شفاء».

فمن العلماء من قال بقبول هذا الحديث من باب الإيمان ولو غابت عنا حكمته. ومنهم من يقول إنه مجاني أي نظراً لقلة الماء في الحجاز فوقوع الذباب فيه يكون بمثابة السم لأنه يحرم الناس من هذه المادة الحيوية الثمينة وإذا غمس فيه

الذباب تكسرت النفس وأقبلت على شرب هذا الماء وفي ذلك يكمن الشفاء.

ولكن بعض العلماء المعاصرين، أو كما يؤكده الدكتور قلعجي في كتابه- الطب النبوي- ص/١٨١، اكتشفوا في أحد جناحي الذبابة نوعاً من الفطريات (Chapignons) التي تفرز مواد مضادة للحيوية لها مفعول شديد على الجراثيم السالبة لصبغة «غرام» كجراثيم الزحار (Dysenterie) والتيفويد والبراتيفويد وكذلك جراثيم الكوليرا (الهيضة) والكزاز (Tetanos) والتراخوما والسل وكلها أمراض فتاكة يتسبب الذباب في نشر عدواها.

ومن المعقول جداً أن كل حيوان حامل لسم له وقاية طبيعية ضد هذا السم بالذات ولولا هذه الوقاية لهلك. ولهذا فلا عجب أن يحمل الذباب في نفس الوقت السم ودواء السم والله ورسوله أعلم. وعلى بحاثينا وعلمائنا أن يدرسوا هذا الموضوع وسوف يكتشفون بدون أي شك ولا ريب ما يؤيد صحة هذا الحديث الذي اتخذه بعضهم مطعناً في السنة المطهرة ووسيلة للتشكيك في وصول هذا الدين، ولكننا نقول لهم مسبقاً ان حجتهم منقلبة لا محالة عليهم وسوف ينقلب البصر خاسئاً وهو حسير. وهذا

يذكرني أنني لما كنت صبياً بالتعليم الثانوي كنت أقرأ في كتب الجغرافيا أن الشمس قارة وأن الأرض والكواكب الأخرى تدور حولها- فكنت كلما مررت على الآية الكريمة: « والشمس تجري لمستقر لها » (يس) كنت أقول في نفسي في تحسر واشفاق: « ليته لم يقلها » حتى اكتشف العلم أخيراً ان نظامنا الشمسي ما هو إلا واحد من أنظمة أخرى تعد بالمليارات وأن الشمس تجري منذ خلقت في مجرتنا حسب خط حيلزوني وأنها سوف تستقر بنقطة ما من الفضاء لتتكور وتتفجر وتموت كما تموت كل يوم آلاف النجوم الأخرى تاركة ما يسمى في علم الفلك الحديث النوفا (Nova).

فلم يبق لي حين ذاك إلا أن ناديت في الظلمات مثل ذي النون: « لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ».

بقية الأدوية التي كان يوصي بها ﷺ:

الكمأة- كان عليه الصلاة والسلام يقول: « الكمأة » (Truffe) من المن وماؤها شفاء للعين » والكمأة هي نوع من الفطريات تعيش تحت الأرض وتشبه البطاطس ونسميها عندنا « الترفاس » ويقول الدكتور قلعجي أن العلماء

المعاصرين قد استخرجوا بالفعل من الكمأة دواء نافعاً للملتحمة. فهذا حقل آخر للبحث والاكتشاف موكول إلى همم علماء المسلمين.

الذريرة: ذكر ابن السني في كتابه عن بعض أزواج النبي ﷺ قالت: «دخل على النبي ﷺ وقد خرج في اصبعي بثرة (دمل) فقال: عندك ذريرة؟ فقلت: نعم قال: ضعيها عليها وقال قولي: اللهم مصغر الكبير ومكبر الصغير صغر ما بي» والذريرة دواء هندي يتخذ من قصب الذريرة وبها مواد عطرية لها مفعول في جلب الدم إلى الدمل وفي قتل الجراثيم الموجودة به.

وكان يوصي في الخرّاج وبعض الأورام الجلدية بعملية البط لاستفراغ مدتها.

الحبة السوداء: وكان يقول في الحبة السوداء (الشونيز): «عليكم بهذه الحبة السوداء فإن فيها شفاء من كل داء إلا السام» (يعني الموت). وكانت الحبة السوداء تستعمل بنجاح في تذويب حصى الكلى والمثانة وفي مرض اليرقان (Jaunisse). فكانت تسحق بالعسل وتلعق على الريق.

الثُّفاء: وفي حديث آخر «ماذا في الأمرين من الشفاء، الثّفاء والصبر»- والثفاء هو الحرف أو حب الرشاد

«Cresson»- والصبر نبات شوكي معروف تسيج به البساتين (Aloes) ويستخرج من الصبر مادة صمغية (راتنج) لها مفعول شديد ضد الامساك. ومن حكمته ﷺ أنه كان ينهى عن ممارسة حرفة الطب من لا علم له بهذا الفن وكان يحمل جهلة المتطببين مسؤولية اخطائهم. روى أبو داوود والنسائي وابن ماجة من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: «من تطبب ولم يعلم منه الطب قبل ذلك فهو ضامن (يعني مسؤول)»

نهيه عن التداوي بالمحرمات:

كان العرب في الجاهلية يتداوون بأنواع النجاسة كالجيفة والدم والحيوانات المستقذرة... كالضفادع والديدان، وكانوا يتداوون كذلك بالخمر، فجاء الاسلام محرماً تلك الممارسات المخلة بكرامة الانسان والتي تضر ولا تنفع. وروى أبو داود في سننه من حديث أبي الدرْداء قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله أنزل الداء والدواء وجعل لكل داء دواء،.. فتداووا ولا تتداووا بالمحرم» وفي السنن أنه ﷺ سئل عن الخمر يجعل في الدواء فقال: «انها داء وليست بالدواء» وفي حديث آخر: «من تداوى بالخمر (أو بنجس) فلا شفاه الله»

وبعد:

فهذه نبذة مختصرة من هديه ﷺ في معالجة الأمراض الموجودة في زمانه وانها رغم بساطتها تنم عن عقل حصيف وعن ذكاء نافذ وعن إلهام من الله عز وجل.

فهنيئاً لقوم قلت أمراضهم وانحصر طبهم في نطاق بسيط، ويا تعس أقوام كثرت أمراضهم وتكاثرت أدويتهم وعلاجاتهم فتضررت أبدانهم من كثرة الدواء أكثر مما تضررت من الأمراض نفسها. ذلك أنهم ابتعدوا عن الفطرة السليمة واخترعوا لأنفسهم أدوية بعيدة كل البعد عما تنتجه، فكثر مرض السرطان بأنواعه والأمراض النفسية والعقلية، في حين كانت الطبيعة لا تترك على قيد الحياة إلاّ نخبة ممن سلمت أبدانهم وعقولهم من الأمراض والعاهات الوراثية تدخل الانسان بحمقه وتطاوله على قوانين الطبيعة فقلل كثيراً من نسبة الوفيات بين الصغار مما أدى إلى ضررين عظيمين تقاسي منهما البشرية.

(١) لما منعنا الطبيعة من عملية التصفية والانتقاء تكاثرت الأمراض والعاهات الوراثية فضعف الجنس البشري وتكاثرت أسقامه.

(٢) كانت الطبيعة تنظم الولادات والوفايات بقدر

تحمل الأرض وتوفر الماء والغذاء ولكن الانسان بتدخله الغبي في قوانين الطبيعة خرم توازن فصائل الأحياء وجعل البشرية تتكاثر على نسق مهول، فضاقت الأرض بمن عليها وسوف يتزايد هذا الاكتظاظ الذي تتولد عنه الكراهية والعنف وتشنج الأعصاب وأنواع الشذوذ الجنسي فتصبح الحياة على الأرض جحيماً لا يطاق.

فنحن لسنا ضد التطور العلمي والاختراع ولكن ضد الخروج عن قوانين الطبيعة وكشف أستارها واستعمال الهرمونات بدون روية والتدخل في دورات الحياة بما أبدعناه تألها منا وتطاولاً على الخالق البارىء المصور مما يؤكد لنا صحة وحكمة الحديث الشريف: «كل جديد بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار». لقد تأله الإنسان ونسي حقوق الربوبية وترك التوكل على الله والافتقار إليه وآمن بحول نفسه وقوتها، وتعلق بالدنيا ونسي الموت والآخرة وكثر حرصه وقلت سكينته وتعقدت معيشته وتشعبت مسالكه وتزاحمت مشاكله وتبلبلت أفكاره، فأصبح متوتر الأعصاب ضيق الصدر والشرايين يسمم نفسه بنفسه بكثرة افرازاته الداخلية لشدة التشنج والانفعال، وزاد في شقاواته

أنه التمس دواءه في المحرمات من ممارسة الجنس والدعارة ومن تناول أنواع المسكرات والمخدرات ولقد صدق الشاعر الحكيم عبد الله بن المبارك حين قال:

رأيت الذنوب تميت القلوب

وقد يورث الذل ادمانها

وترك الذنوب حياة القلوب

وخير لنفسك عصيانها

فيكفينا النظر في الحيوانات البرية التي تعيش في تناسق كامل مع الطبيعة ولا تحيد قيد أنملة عن نواميس الفطرة التي فطرها الله عليها ، فهي تنام بالعراء ولا تأكل إلا وجبة واحدة ، ولا تعرف أي دواء سوى بعض الأعشاب ، وهي رغم ذلك بل من أجل ذلك أقوى بكثير من الانسان.

- والدين الاسلامي ما هو إلا نداء صريح إلى الرجوع إلى الفطرة وإلى ترك البدع والفضول وكل ما يزيد على الحاجة؛ في حين أن اقتصاد العالم اليوم لا يعتمد إلا على الاكثار من الحاجات المختلفة اختلافاً حتى إن الحياة أصبحت وكأنها لا تستقيم ولا تكتمل إلا بتلك الكماليات المبتدعة والآلات المعقدة سريعة العطب ، فأصبح الانسان مصداقاً حياً للآيات الكريمة من سورة الأعراف.

« واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين (١٧٥) ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتّبع هواه فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون (١٧٦) ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون (١٧٧)

ففي هذا الحفل المبارك وعلى مشارف هذا القرن السعيد نرفع أيدينا إلى الله مبتهلين ضارعين أن ينفعنا بجميع علوم سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وأن يعود بنا إلى اتباع كتابه العزيز وسنة نبيه الكريم في كل أعمالنا وأقوالنا وأن يكتب لنا جميعاً السلامة والعافية وحسن المنقلب.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

(الدكتور صلاح الدين كشريد)

في رحاب الطب النبوي

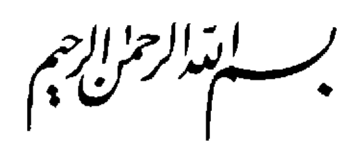
للدكتور نجيب الكيلاني

" مصر "



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ



في رحاب الطب النبوي

الطب النبوي مجال رحب فسيح، ونحن نتناوله هنا بإيجاز كبير، بأسلوب البحث العلمي المحايد الذي يستند إلى الدليل والبرهان والتجربة، وبهذا الخصوص توفرت لدينا، النصوص الصحيحة من أحاديث رسول الله ﷺ ثم السلوك الحي لمحمد وصحابته، ثم تأتي بعد ذلك الدراسات الحديثة التي تثبت بالدليل القاطع، والتي حاولنا أن نعقد بينها وبين تراثنا المقارنات الواضحة دون تحيز أو تحايل أو انفعال ذاتي، فالموضوعية في مثل تلك الدراسات العلمية أول ما يلزم الباحث الجاد المنصف... ومن المؤسف حقاً أن تراثنا العريق في العلوم عامة، وفي الطب خاصة، وقد ترجم منذ قرون إلى اللغات الاوروبية، فكان أساس نهضتها وتقدمها، فبدأوا من حيث انتهينا، بينما توقفت جهود الأقدمين، وتعثرت خطواتهم في أنحاء العالم الاسلامي المتمزق، وذلك لانحسار الثقافة الاسلامية، وغلبة المفاهيم المستوردة المنحرفة وتجاهل التراث العظيم الذي يعد بالكنوز

وبألوان المعرفة الحية الخالدة..

لقد بدأت رحلة الطب النبوي الشريف من الداخل.. من قلب الانسان وضميره ونفسه، ثم شملت بدنه، وانتقلت إلى بيئته التي يعيش فيها، وإلى أفراد المجتمع الذي يخالطه واهتمت بالجوانب العلاجية والوقائية والغذائية والترفيهية، وعلاقته الاجتماعية المتنوعة، ووضعت الانسان تحت منظار من الفهم الدقيق، والوعي الشامل، في اطار منهاج متكامل لا يغفل جانباً من الجوانب، في حياة الفرد، ولم يغفل حتى الجوانب الشديدة الخصوصية كالمسألة الجنسية فتعرض لها بشجاعة وإدراك، كجزء هام من حياة الرجل والمرأة فوضع لها آدابها، والاحتياطات الواجب اتخاذها، والهدف من ورائها، وحصّنها بالتوصيات التي تحميها من الخلل، أو تنحرف بها عن الجادة...

وربط الطب النبوي بين الصحة والعبادة، فكانت الصلاة وكان الصوم، وكان الوضوء، وكانت الرياضة، وكانت قواعد الغذاء والشراب والنوم والراحة، وكان العلاج والوقاية، كل ذلك في نسيج واحد..

الحق أن الطب النبوي جانب من جوانب الاعجاز التي يزخر بها ديننا الحنيف، وسوف نحاول في هذه الصفحات

أن نسلط الأضواء على معالمه الأساسية والله من وراء القصد..

(١) الطب النبوي ومفهوم الصحة والعلاج

لعل من الأمور الملفتة للنظر تلك الشمولية أو ذلك التكامل الذي تتصف به العقيدة الإسلامية فكراً وسلوكا، فلا نكاد نسأل عن قضية من القضايا أو مسألة من المسائل أو عِلْمٍ من العلوم إلا ووجدنا قدراً لا بأس به- قل أو كثر- في تراثنا العريق، وهذا لا شك جانب من جوانب الإعجاز، تتجلى فيه القدرة الإلَهية، فيزداد الانسان إيماناً ويقيناً ويظل يرد النبع الصافي للاسلام كي ينهل منه في أي عصر من العصور.

وحيث يقرأ الباحث في كتاب الله، أو يطلع على الأحاديث النبوية الشريفة، وسيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام وحياته مع صحابته واتباعه، وفي بيته ومسجده وفي جهاده وسلمه، وفي حله وترحاله، وفي علاقاته المتنوعة حينما يلقي الانسان نظرة شاملة على عالم الرسول الرحب الفسيح يجد للطب وللصحة مكانة كبيرة، ليس هذا فحسب، بل إن مفهوم الطب النبوي مفهوم شامل يبعث على الدهشة، ويدعو إلى الإعجاب، لأننا حينما نقيس الطب

النبوي بالمقاييس العلمية الحديثة في أسسه العامة، نجد أنفسنا أمام اعجاز قاهر لكل نوازع الشك والتردد. فالطب النبوي يتمثل كل ما له علاقة بصحة الانسان كالتغذية والنظافة والانحرافات العضوية والنفسية وبعض طرق العلاج، وكافة النواحي البيئية والاجتماعية والشخصية وغيرها مما يتعلق بالصحة العامة.

ونحن إذا نظرنا في التعريف الحديث الذي وضعته «منظمة الصحة العالمية» عن مفهوم الصحة، لوجدنا أن ذلك التعريف يؤكد أن الإنسان الصحيح ليس هو السليم بدنيا فحسب لأن صحة البدن جانب واحد من جوانب الصحة، ومن ثم لكي تكون الصحة في صورتها المثالية المكتملة لا بد وأن تشتمل على سلامة النواحي البدنية والنفسية والعقلية والاجتماعية، في هذا الإطار العام يتحدد مفهوم الصحة لدى تلك المنظمة الكبرى التي يديرها ويشرف عليها نخبة من كبار أطباء العالم، وأمهر الباحثين والخبراء في مجال الصحة..

وإذا عدنا إلى الطب النبوي لنتدارس من خلاله التعريف الصحيح للصحة لوجدناه يتفق وذلك المفهوم الحديث لدى منظمة الصحة العالمية إن لم يفقه برغم مرور

القرون الطويلة، وبرغم المنجزات الحديثة في مجال البحوث، وتطور الدراسة ووسائلها وامكانياتها المذهلة فكيف يمكننا أن نفسر هذه الظاهرة المبهرة؟؟ كيف استطاع النبي ﷺ أن يرسي تلك الأسس التي لم نستطع الوصول إلى بعضها إلا بعد أن استعملنا المجاهر (الميكروسكوبات) والمختبرات ومزارع الميكروبات، وأجهزة الكمبيوتر، والتجارب المضنية على الحيوان وعلى الإنسان أحياناً، كيف نستطيع أن نفسر ذلك إلا إذا آمنا أن المصطفى «ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى».

إن الرسول ﷺ يضع قاعدة صلبة لينطلق منها البحث العلمي والجهد الدائب، من أجل الوصول إلى أسباب الداء، والعثور على الدواء، بحيث لا يتقاعس الناس عن أداء الواجب إزاء عدوهم اللدود: المرض، ومن هنا كان أمره ﷺ بالتدواى، بل كان يبعث ببعض المرضى إلى طبيب العرب في ذلك الزمان «الحارث بن كلدة» كما كان يقترح عليه بعض الأدوية، وحينما يأمر النبي بالتداوى، فمعنى ذلك أنه يرفض التواكل أو الإهمال ويدعو الناس للأخذ بالأسباب، وبذل الجهد في محاربة الداء، حتى يقوى الانسان بدناً وروحاً وقلباً وعقلاً، فيستطيع أن يؤدي رسالته بين

مجتمعه، ويحمل الأمانة التي كلفه الله بها، ويسعد في حياته كما تسعد أسرته.

«روى مسلم في صحيحه من حديث ابن الزبير، عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال:

«لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء، برأ بإذن الله عز وجل»

وفي الصحيحين، عن عطاء عن أبي هريرة: قال رسول الله ﷺ:

«ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء».

وفي مسند الإمام أحمد، من حديث زياد بن علاقة عن أسامة بن شريك، قال: «كنت عند النبي ﷺ، وجاءت الأعراب فقالوا: يا رسول الله، أنتداوى فقال: نعم يا عباد الله. تداووا، فإن الله عز وجل لم يضع داء، إلا وضع له شفاء غير داء واحد، قالوا: ما هو؟؟ قال: الهرم» و«في لفظ»:«إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله».

وفي المسند والسنن عن أبي خزامة، قال: قلت يا رسول الله أرأيت رقى نسترقيها، ودواء نتداوى به، فقال وتقاة نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئاً؟؟ فقال هي من قدر الله» وهكذا وضع الرسول ﷺ قواعد هامة كان لها أعمق

الأثر في تطور العلوم الطبية سواء في مجال الأمراض والعقاقير وأساليب العلاج المختلفة، ومن ثم استطاع الأطباء المسلمون في القرون التالية أن يستنيروا بهديه، ويجدوا في البحث والتجارب والتأمل والمشاهدة والوصول إلى كثير من الحقائق العلمية وتطبيقها في مجال العلاج والتشخيص، منها ما يتعلق بالدواء، ومنها ما يتعلق بالغذاء، ومنها ما يتعلق بأسلوب حياة المريض من حيث العمل أو الراحة، والنوم أو اليقظة ومنها ما يتعلق بروحه المعنوية، أو حالته النفسية، فالأحاديث التي ذكرناها أقرت عدة حقائق: -

أولها: الأمر بالتداوي، وهو أمر من المصطفى ﷺ، يلتزم به المسلم لأنه يرتبط بما يتعلمه ويؤمن به من آداب اسلامية أو سلوك صحيح يرضى عنه، وهذا الأمر بالتداوى يتضمن رفضاً لأساليب التواكل والتراخي والإهمال.

ثانيها: إن إقرار الرسول بأن لكل داء دواء علمه من علمه، وجهله من جهله، يفتح باب الأمل دائماً، أمام الباحثين والعلماء كي يُطَوِّرُوا تجاربهم وأبحاثهم حتى يصلوا إلى الدواء المنشود، كما أنه يفتح باب الرجاء أيضاً امام المرضى حيث يستقر في قلوبهم

يقين بأن الدواء موجود ، وأن الله سبحانه قادر أن ييسر لهم أسلوب العثور عليه .

ثالثها : إن الاهتمام بالعلاج أو التداوي واجب ديني من ناحية أخرى قد تخفى على الكثيرين فقد يدهش البعض حينما يعرف أن العلاج جزء من الوقاية ، لأن علاج أي مريض قد تجنب غيره الإصابة بالمرض إذا كان المرض معدياً ، لأنه إذا بقي على حاله دون علاج تفشى الداء وكثر المرض ، وحاق بالأسرة أو المخالطين أو المجتمع عموماً ضرر بليغ ، ومن ثم فإن الأمر بالتداوي ليس مجرد حفاظ على فرد بعينه ، ولكنه وقاية للمجتمع ككل ، كما يمكننا أن نضيف إلى ذلك أيضاً أن ترك الداء دون علاج قد يؤدي إلى مزيد من المضاعفات أو العاهات ، فيصبح المريض حتى بعد أن يشفى من مرضه ، عاجزاً عن أداء دوره في الحياة ، بضعف في إبصاره أو شلل في طرف من أطرافه ، أو تلف في جهاز من أجهزة جسمه .

ولقد كان الرسول ﷺ يقوم بمعالجة بعض المرضى بنفسه

أو يصف لهم الدواء، كما أنه كثيراً ما كان يلجأ لعلاج بعض الأدواء التي تصيبه بالدواء أو الغذاء أو وسائل العلاج الأخرى وقيامه على هذا النحو، واهتمامه بالأمر، مما يؤكد لأصحابه وللمسلمين أن ذلك السلوك في مجال الصحة، يعتبر جزءاً من السلوك العام بالنسبة لكل فرد في المجتمع يثاب عليه، وينال رضى الله.

مثال ذلك ما جاء في الصحيحين، من حديث المتوكل عن أبي سعيد الخدري «أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: إن أخي يشتكي بطنه: وفي رواية استطلق بطنه فقال: اسقه عسلا، فذهب ثم رجع، فقال قد سقيته، فلم يغن عنه شيئاً، وفي لفظ: فلم يزده إلا استطلاقاً (اسهالا) مرتين أو ثلاثة، كل ذلك يقول له اسقه عسلا فقال له في الثالثة أو الرابعة: «صدق الله وكذب بطن أخيك».

ويرى ابن قيم الجوزية أن هذا الذي وصف له النبي العسل كان استطلاق بطنه، ويضيف رحمه الله[1]: وفي تكرار سقيه العسل معنى طبي بديع، وهو أن الدواء يجب أن يكون له مقدار وكمية بحسب حال الداء، إن قصر عنه لم يزله بالكلية وإن جاوزه أوهن القوى، فأحدث ضرراً

---

(١) ص ٢٧- الطب النبوي.

آخر ، فلما أمره أن يسقيه العسل ، سقاه مقداراً لا يفي بمقاومة الداء ولا يبلغ الغرض ، فلما أخبره ، علم أن الذي سقاه لا يبلغ مقدار الحاجة ، فلما تكرر ترداده إلى النبي ، أكد عليه المعاودة ليصل إلى المقدار المقاوم للداء ، فلما تكررت الشربات بحسب مادة الداء برىء بإذن الله . واعتبار الأدوية وكيفياتها بمقدار قوة المرض والمريض ، من أكبر قواعد الطب . . وفي قوله « صدق الله ، وكذلك بطن أخيك » إشارة إلى تحقيق نفع هذا الدواء ، وأن بقاء الداء ، ليس لقصور الدواء في نفسه ، ولكن لسوء حال المريض واستحكام الداء ، مما يحتاج لزيادة في كمية العلاج وفي الجرعات اللازمة .

هذا مثل من الأمثلة العديدة التي كان الرسول يقوم فيها مقام الطبيب ، فيوصي بالعلاج عن يقين وثقة ، مستنداً إلى وحي الله ، وإلى ماضي التجارب التي عايشها الناس في عصره ، وقبل عصره ، فالعسل ، كما ورد في القرآن الكريم - (فيه شفاء للناس) وأساطين الطب في ذلك الزمان كانوا ينظرون إليه كدواء وغذاء ، وفي عصرنا اليوم صدرت مؤلفات عديدة عن العسل تناولته من شتى الوجوه ، فهناك في روسيا أجريت دراسات عن استعمال عسل النحل في

علاج حروق العين، وقد كانت تلك الحروق تسبب في فقدان نسبة كبيرة من الأبصار، وقد أثبتت التجارب الروسية نجاح المحاولة بحيث ارتفعت نسبة التحسن، وقلت المخاطر، كما أجريت في أوربا دراسات عن امكانية احتواء العسل على مواد قاتلة للميكروبات فوضعت فيه أنواع مختلفة من البكتريا وغيرها مثل ميكروبات التيفود والتيفوس ومسببات الدوسنتريا والمكور السبحي والعنقودي وغيرها، وتبين أن تلك الميكروبات قد قضي عليها على فترات متفاوتة.. ثم ماذا يفعل الطب الحديث اليوم أمام النزلات المعوية أو ما نسميه نوبات الاسهال ذات الأسباب المختلفة؟ إن أول شيء يعطى للمريض هو المحاليل التي تقاوم الجفاف الناجم عن الإسهال، لأن خطورة المرض تكمن في فقدان سوائل الجسم وبعض الأملاح كالصوديوم والبوتاسيوم مما يؤدي إلى فشل الدورة الدموية، وتعثر وظائف الكلى أو توقفها.

وتخثر الدم والوفاة، مثال ذلك ما يحدث، في حالة النزلات المعوية عند الأطفال، وفي حالة الإصابة بمرض الكوليرا... والأطباء يرون أن العلاج الحاسم.. بل العلاج الوحيد في معظم الأحيان هو المحاليل أو السوائل التي

تعوض الجسم عما فقده، وتحميه من الجفاف، والعسل الممزوج بالماء، أو العسل الذي يتبعه شرب الماء، يعتبر خطوة هامة في مجال تحسن حال المريض بل انقاذه، لأن العسل يحتوي على ماء ونوع سهل الهضم من السكر الممتاز، بالإضافة إلى بعض المواد الأخرى الضرورية... ثم إمكانية وجود مواد قاتلة للميكروبات في العسل، وبالطبع نحن نعرف قيمة العسل من الناحية الغذائية، وسرعة استفادة الجسم من سكره وخاصة في تلك الظروف العاجلة الملحة... ظروف الجفاف القاتل الذي يهدم بنيان الجسم في وقت قصير!!

ولقد أشار ابن قيم الجوزية في معرض تعليقه على هذا الحديث إلى أمور جديرة بالاعتبار والنظر مما يؤكد متانة الأسس التي قام عليها الطب النبوي وخلودها، وهي أمور هامة اليوم في مجال العقاقير الطبية منها:

(أ) كمية الدواء وهو ما نسميه (الجرعة).

(ب) مدة العلاج.

(جـ) عدد الجرعات اليومية.

ونلاحظ أن الرسول ﷺ كان في بعض الأحيان يوصي بتعاطي العلاج لثلاثة أيام مثلاً، مرة كل يوم، وقد يوصي

باستعمال الدواء لسبع ليال، وقد كان ﷺ يلجأ لبعض أساليب ما نسميه بالعلاج الطبيعي في عصرنا، فيعصب رأسه في بعض حالات وهو ما يفعله بعض الأطباء في عصرنا إذ يضغطون على بعض الشرايين الموصلة للمخ فيقل فيه الاحتقان لقلة تدفق الدم، وتخف حدة الصداع، كما أوصى صلوات الله وسلامه عليه باستعمال ما نسميه «بالكمادات الباردة» في أيامنا هذه عند ارتفاع الحرارة، حينما قال: «الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء». وما زالت مستشفياتنا وعياداتنا تستعمل تلك الأساليب، وخاصة عندما تفشل العقاقير الطبية، أو نتوجس خيفة من استعمالها في بعض الحالات نظراً لما قد تؤدي إليه من مخاطر ومضاعفات جانبية.

والأطباء المحدثون يرى عدد كبير منهم أن فريضة الصوم من الناحية الصحية تلعب دوراً بارزاً في مجال الوقاية والعلاج، وسوف نتحدث عن ذلك فيما بعد، ولكن الذي يهمنا الآن هو التأكيد على أهمية الصوم في علاج كثير من الاضطرابات المعوية وعسر الهضم وأمراض القولون (المصران الغليظ) وعلاج مرض السكر عند البدناء أو في حالة مراحله الأولى ومساعدته على اخفاض ضغط الدم

المرتفع، والسمنة وما يلحق بها من مضاعفات.

وهكذا تتدخل الفرائض الاسلامية والآداب الدينية مع الأساليب السليمة في السلوك الصحي، حماية لصحة الناس وعلاجاً لأمراضهم، ومن هنا كانت نظرة الاسلام إلى الانسان جسداً ونفساً وعقلاً ولبنة في بناء المجتمع، فالذي يعالج بدنه يكتسب المنفعة الدنيوية كما يكتسب الأجر والثواب في الآخرة.

والذي يرتبط بالقيم الاسلامية المتعلقة بالنظافة والوقاية من مختلف الأمراض يدخل مع الطائعين والمنفذين لأوامر الله ورسوله، أنها داخلة ضمن طاعة الله، والآداب التي نادى بها نبيه ﷺ، فإنها تكسب أهمية تقترب من القداسة ما دام المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير.

ولقد لاحظت من خلال (تجاربي الشخصية وأنا أدبر شئون الثقافة الصحية) - التوعية الصحية - أن ربط شئون الآداب الصحية بالقيم الاسلامية، كان له أعمق الأثر في اقتناع الناس بالتعود على السلوك الصحي والعادات السليمة، مما انعكس أثره على الفرد والمجتمع بالفوائد الكثيرة، بل إشراك خطباء المساجد والوعاظ في حملات

التربية الصحية أتى بأكبر المنافع في هذا المجال...

وإذا كان المصطفى هو قدوتنا في مناحي الحياة المختلفة فإن طبه الخالد «يجب أن يظل منارة لنا في حياة صحية سليمة، حماية لنا ولأجيالنا من خطر الأمراض».

أسس الطب الوقائي النبوي.

إن الحكمة النبوية العليا تتجلى أروع ما تكون في مجال الطب الوقائي بالذات فقد وضع الرسول ﷺ الخطوط العريضة لما نسميه في عصرنا بالوقاية التي تعتبر خط الدفاع الأول ضد الأمراض المعدية وغير المعدية، ذلك لحماية الفرد والمجتمع من التعرض لخطر المرض، وصدق الشاعر العربي القديم حين قال:

توقى الداء خير من تصد
لأيسره وإن قرب الطبيب

ولنبحث في البداية عن بعض النصوص الصريحة التي وردت عن رسول الله ﷺ، فقد ثبت في صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله «أنه كان في وفد ثقيف رجل مجذوم. فأرسل الرسول ﷺ إليه: ارجع فقد بايعناك» وروى البخاري في صحيحه تعليقاً من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال:« فر من المجذوم كما تفر من الأسد»،

وفي الصحيحين، في حديث أبي هريرة «لا يوردن ممرض على مصح».

وفي الصحيحين: عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه أن النبي ﷺ- في مجال الحديث عن الطاعون قال: (فإذا سمعتم به بأرض، فلا تدخلوا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها، فلا تخرجوا منها فراراً منه).

ولقد ذكرت في كتب التراث واقعة زيارة الخليفة عمر ابن الخطاب «لعمواس» احدى مدن الشام وكان قد تفشى فيها الطاعون، وهو مرض معد، وتوقف عمر ولم يدخل إلى المدينة الموبوءة، وخاصة بعد أن روي له حديث رسول الله السابق.. ولقد قال أبو عبيدة بن الجراح لعمر: يا أمير المؤمنين: أفراراً من قدر الله تعالى؟ فقال له عمر: لو قالها غيرك يا أبا عبيدة!! نعم نفر من قدر الله تعالى إلى قدر الله تعالى، أرأيت لو كان لك ابل فهبطت وادياً له عدوتان احداهما خصبة والأخرى جدبة، ألست ان رعيتها الخصبة رعيتها بقدر الله تعالى وإن رعيتها الجدبة رعيتها بقدر الله.

ثم جاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيباً فقال: إن عندي في هذا علماً: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان الطاعون بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه وإذا سمعتم

به بأرض فلا تقدموا عليه ».
وهـذا التصرف يعني ما نسميه في عصرنا بالحجر الصحي « الكارنتينا » والمقصود بالحجر الصحي هو عزل الأماكن والناس عند تفشي الأمراض المعدية المعينة منها: الطاعون والكوليرا والجدري والتيفوس وغيرها، ولا شك أن منع دخول الناس إلى الأماكن الموبوءة وكذلك منع الخروج منها يساعد على حصر الوباء والتغلب عليه وعدم انتشار عدواه بين الناس، وإذا كانت اللقاحات، والطعوم قد اكتشفت في عصرنا هذا إلا أن الحجر الصحي ما زال هو الأساس أو القاعدة، وخاصة بالنسبة لبعض الأمراض التي لم يكتشف لها طعوماً أو لقاحات حتى الآن وأيضا بالنسبة للأمراض المعدية التي لا تساعد التحصينات اللازمة على الوقاية منها، فتطعيم الكوليرا مثلاً لا يكاد يقي إلا حوالي ٣٥٪ من مجموع المطعمين في رأي أغلب الأطباء والباحثين، ومن ثم فإن العزل أو الحجر الصحي يعتبر الوسيلة الفعالة لمنع انتشار المرض مضافاً إلى ذلك ما يقوم به الأطباء من اسعافات وعلاجات ثانوية أخرى، وفي مسند البزار عن النبي ﷺ أنه قال: « إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود،

فنظفوا أفناءكم وساحاتكم ولا تشبّهوا باليهود يجمعون الاكباء (الزبالة) في دورهم » كما صح عنه « إن لله حقاً على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام، وإن كان طيب أن يمس منه » ونحن نعلم أن القمامة وتراكمها في البيوت يكون سبباً في تكاثر الحشرات كالذباب والصراصير والبعوض، كما يساعد على تكاثر الميكروبات ونقل الأمراض الجرثومية والفطريات والطفيلية إلى الأصحاء، وقد نهى ﷺ عن أن تكون المراحيض داخل البيوت، وقد روى عنه أيضاً أنه أوصى بعدم قضاء الحاجة في الماء أو في الظل أو على قارعة الطريق وهذا ما نسميه في عصرنا بصحة البيئة التي تعتمد أساساً على نظافة البيت الذي نقضي فيه معظم أوقاتنا وخاصة أوقات الراحة والنوم وتناول الطعام، وقد وضع العلماء مواصفات عدة للسكن الصحي، وهي في جملتها لا تخرج عن الإطار الذي رسمته السنة النبوية الشريفة، كل ذلك من أجل الوقاية من الأمراض والعلل المعدية.

وقد حرص الاسلام على نظافة الفرد- والنظافة من الإيمان- فهي العامل الأساسي لحماية صحة الانسان من الأخطار لهذا نرى أن الوضوء يؤدي دوراً بارزاً في هذا المضمار، وفي دراسة لمنظمة الصحة العالمية في بنجلاديش ثبت

أن مجرد استعمال الماء النظيف في غسل اليدين مثلا يزيل حوالي ٩٠٪ من الميكروبات، كما أن الاسلام أوجب الاستحمام في أيام الجمعة والأعياد، وغيرها، وأوصت الآداب الاسلامية بنظافة الثياب (وثيابك فطهر) كما أوصى الرسول ﷺ بنظافة الشعر وترجيله ودهانه بالمواد الدهنية أو الزيتية وكان ﷺ يفعل ذلك قدوة لأصحابه، كما أوصى بتقليم الأظافر حيث أن الشيطان يختبئ في الأظافر الطويلة، وفي الدراسات التي أجراها الباحثون اتضح أن الترسبات التي تكمن تحت الأظافر تحتوي على عدد من الميكروبات الضارة المختلفة التي يمكن أن تنتقل إلى الطعام أثناء الأكل أو إلى البشرة أثناء حكها، بل إن طفيل «الاكزيورس» ممكن أن تنتقل عدواه من انسان لانسان عن طريق اليد، بل إن الانسان الذي لا يغسل يده بعد الذهاب الى المرحاض قد تنتقل العدوى من برازه إلى فمه وفي هذا يقول المصطفى ﷺ: «بورك في طعام غسل قبله وغسل بعده» كما أوصى أصحابه أن يغسلوا أيديهم بعد القيام من النوم قائلاً: «فإن احدكم لا يدري اين باتت يده».

وفي الصحيحين عن كعب بن عجرة قال: كان بي أذى من رأسي فَحُمِلْتُ إلى رسول الله ﷺ والقُمَّل يتناثر على

وجهي فقال: ما كنت أرى الجهد قد بلغ بك ما أرى « وفي رواية« أمره أن يحلق رأسه ».

ولذلك حلق النبي رؤوس بني جعفر، ومن المعروف أن يوضع الدواء بعد ذلك على الرأس، وما زال الأطباء في أيامنا هذه عند علاج القمل أو القراع يحثون على حلق الرأس كبداية للعلاج فلا تجد الحشرات وبيضها ما تلتصق به أو تختبىء فيه.

وقد جاء في حديث للرسول ﷺ: « إذا شرب أحدكم فلا يتنفس في القدح ولكن ليبين - أي يبعد الاناء عن فيه » وقد روى مسلم في صحيحه عن حديث جابر بن عبد الله قال:

« سمعت رسول الله ﷺ يقول: غطوا الاناء وَأَوْكُوا السقاء » روى البخاري في حديثه عن ابن عباس « أن رسول الله ﷺ نهى عن الشرب من في السقاء ».

ونستطيع أن نقول في إيجاز أن نظافة الفرد أو نظافة الشخصية وكذلك نظافة البيئة أو ما يسميه الأطباء بصحة البيئة من الأمور التي اهتم بها الرسول ﷺ وجعلها أساساً لوقاية البدن من العدوى والانحرافات التي تسببها العلل المختلفة.

وإذا انتقلنا إلى مجال صحة الأسنان والفم وحاولنا أن نقارن بين ما نرى عليه السلف الصالح من أداب صحية عريقة وبين ما يوصي به أطباء الأسنان اليوم من نصائح لوجدنا أن تلك القرون العديدة التي بيننا وبين عصر النبوة لم تضف كثيراً في هذا المجال، والمعروف أن الفم هو المدخل الذي يأتي إليه الطعام والشراب وأن صحة الانسان تتأثر سلباً وإيجاباً بحالة الأسنان، ومما هو معروف علمياً أن الفم لا يكاد يخلو من الميكروبات وأن بقايا الطعام وخاصة النشويات تلعب دوراً كبيراً في الإصابة بنخر (التسويس) الاسنان، وكل ما يستطيع أن يوصي به الأطباء ازاء هذه المشكلة هو نظافة الفم واستعمال الفرشاة التي هي بديل للسواك، وقد جاء في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة».

وفي صحيح البخاري تعليقاً عنه ﷺ: «السواك مطهرة للفم مرضاة للرب» وفي صحيح مسلم أنه ﷺ كان إذا دخل بيته بدأ بالسواك، وصح عنه أنه استاك عند موته.

إن عمل الاسنان هام جداً بالنسبة لمضغ الطعام وإتاحة الفرصة لبعض الانزيمات الموجودة في الفم كي تختلط





ومن المعروف أن كبار السن وخاصة مرضى القلب يتعرضون للنوبات القلبية التي قد تقضي عليهم عقب أكلة كبيرة يعقبها النوم مباشرة، ولهذا يوصي الأطباء بالبقاء متيقظين لمدة ساعة على الأقل بعد الأكل وقاية من تلك النوبات نظراً لأن التخمة ترهق القلب وخاصة القلب المصاب بقصور في الدورة الدموية.

إن الرسول ﷺ وضح أن العافية- وهي تمام الصحة- من أجلّ نعم الله على العبد بعد اليقين، ففي مسند الإمام أحمد عن أبي بكر الصديق قال سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«سلوا الله اليقين والمعافاة، فما أوتي أحد- بعد اليقين- خيراً من العافية».

وفي الترمذي أيضاً من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال:

«أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من النعيم أن يقال له: ألم نصح لك جسمك، ونروك من الماء البارد؟؟» ومن ههنا قال من قال من السلف في قوله تعالى:

«ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم»- قال عن الصحة.

نحن إذن أمام صورة متكاملة من صور الطب النبوي في مجال الاعتزاز بنعمة الصحة، ثم وقاية الجسم من الأمراض،

هذه الصورة الباهرة المعجزة تشمل عديداً من الواجبات التي تحمي الانسان من العلل والانحرافات نستطيع أن نوجزها في النقاط التالية:

أولا- الصحة نعمة من أجل نعم الله.

ثانيا- الصحة أمانة في عنق كل فرد، فليحفظ كل أمانته ويحمها من التلف والضرر.

ثالثاً- ضرورة حماية المجتمع من انتشار الأوبئة أو الأمراض الفتاكة، وذلك بتطبيق قوانين العزل أو الحجر الصحي.

رابعاً- تقف النظافة في مقدمة الحصون التي تحمي الجسم من تقبل العدوى وغيرها من الأمور التي تنهك الجسد.

خامساً- تجنب التخمة وما تجلبه من مضاعفات.

سادساً- نظافة المأكل والملبس والمسكن.

سابعاً- مكافحة الحشرات والميكروبات بالأساليب المناسبة.

ثامناً- ضرورة التداوي والعلاج لكبح جماح المرض، وتجنب المضاعفات والعاهات، ووقف تفشي المرض بين الأصحاء.



تلك العقاقير النفسية لم تعد ذلك السحر الذي يقلب الشقاء إلى نعيم، والتعاسة الى سعادة، والمرض إلى صحة، هذه العقاقير ثبت أنها قد تؤدي إلى الإدمان، وتؤثر في الجهاز العصبي إذا طال استعمالها- تأثيراً دائماً، فتضعف المواهب والقدرات، وتبعث الاضطراب والخلل في النسق الإلهي البديع الذي خلق على هداه الانسان، كما أنها تؤثر على الكلى والكبد والجهاز الهضمي وغيرها، فهي مهما تغيرت اسماؤها تمت من قريب أو بعيد للمخدرات.

لا أريد أن أستطرد في علاج الأمراض النفسية، أو أتصدى تفصيلياً للقيمة الحقيقية للعقاقير المهدئة أو المطمئنة، لكن الذي أود أن أشير إليه هو أن هذه العقاقير ليست كل شيء، بل مجرد عامل مساعد- كما يقول الأطباء النفسيون- لتحريك عملية العلاج- ولا يمكن الاعتماد عليها ولا الاستمرار في تعاطيها إلا لأجل محدود، حتى تمر الأزمة ثم يأتي بعد ذلك العلاج الأساسي، وهو البحث عن «السبب» الذي حرك كوامن النفس، وأثار فيها الاضطراب، ومكن فيها للقلق والحيرة والتوتر والاكتئاب والعزلة والخوف واليأس والملل والقنوط، بل الرغبة أحياناً في التخلص من الحياة.. فهل استطاعت العقاقير أو

الكيماويات أن تحل المشكلة.

ولقد سمي علم الأمراض النفسية في تراثنا الاسلامي القديم «بطب القلوب»، واهتم به الرسول ﷺ كما كتب عنه علماء المسلمين المتخصصون في الطب وغير المتخصصين، فترى مثلاً عالماً من أبرز علمائنا وهو ابن قيم الجوزية يسرد عشرين صفة للطبيب، ومن ضمن هذه الصفات (الصفة السابعة عشرة) يقول في مصنفه «الطب النبوي» ص/١١٣: «أن يكون له خبرة باعتلال القلوب والأرواح وأدويتها، وذلك أصل عظيم في علاج الأبدان فان انفعال البدن وطبيعته عن النفس والقلب أمر مشهود، والطبيب إذا كان عارفاً بأمراض القلب والروح وعلاجها كان هو الطبيب الكامل، والذي لا خبرة له بذلك- وان كان حاذقاً في علاج الطبيعة وأحوال البدن- نصف طبيب، وكل طبيب لا يداوي العليل بتفقد قلبه وصلاحه وتقوية روحه وقواه بالصدقة وفعل الخير والإحسان، والإقبال على الله والدار الآخرة فليس بطبيب، بل هو متطبب قاصر ومن أعظم علاجات المرض فعل الخير والاحسان، والذكر والدعاء والتضرع والابتهال إلى الله والتوبة ولهذه الأمور تأثير في دفع العلل، وحصول الشفاء أعظم من الأدوية





وكيف يجده، ويسأله عما يشتهيه، ويضع يده الشريفة على جبهته أو يضعها بين ثدييه، ويدعو له، ويصف له ما ينفعه في علته، ويدخل السرور على قلبه.

وأطباؤنا القدامى في مصنفاتهم ذكروا تفصيلياً أسباب بعض العلل والأعراض ولم يغفلوا الجانب النفسي كمسبب في بعض الأحيان، فمثلاً الصداع من الأعراض التي ترافق عديداً من الأمراض العضوية... والاضطرابات الوظيفية في جسم الانسان لكن الدراسات النفسية الحديثة، وقد أثبت (دكتور تالبوت) أن هناك نسبة عالية من حالات الصداع سببها نفسي، وبعض الباحثين قد يصل بهذه النسبة إلى أكثر من خمسين بالمائة من حالات الصداع... وعلى الرغم من أن اسلافنا لم يتعرضوا لنسبة حالات الصداع ما يحدث بسبب نفسي إلا أنهم سجلوا في مصنفاتهم أن من ضمن اسباب الصداع: ما يحدث من الأعراض النفسانية كالهموم، والغموم، والوساوس، والأحزان والأفكار الرديئة، هكذا قالوا..

لكن السؤال الهام هنا: ما هو أساس النظرة الإسلامية للأمراض النفسية وللعلاج النفسي؟؟

لقد استعرضنا فيما سبق بعض الشواهد والنصوص التي

توضح لنا أن الطب النبوي كان على بينة تامة بما نسميه المرض النفسي وكما اشتمل على ثبت كبير لوسائل العلاج النفسي وهي وسائل مهما كان قدمها إلا أنها ما زالت هي الأساس في العلاج حتى يومنا هذا..

فالانسان في العلاج في نظر الاسلام يولد على الفطرة، ثم يعايش ما حوله ومن حوله ويتلقف التجارب، ويختزن الخبرات، ولكل انسان امكانياته الحيوية والعقلية والنفسية والاقتصادية؛ فهناك القوي والضعيف، والجاهل والعالم، والهادىء والصاخب، والمنطوي والاجتماعي والمريض والصحيح، ويمضي الانسان- كل حسب طبيعته في رحلة الحياة الطويلة، ولا يستطيع أن يواصل سيرته بغير زاد..

وزاد المؤمن هو الإيمان بالله والاطمئنان بعدله، والرضى بقضائه وقدره، والصبر على بلائه والثقة في عونه ورحمته وحفظه، والقناعة برزقه، والعمل من أجل الكسب والطاعة، والحرص على أداء ما فرضه الله من عبادات ومعاملات من أجل دَرْك أي اختلال يتناول بناء الفرد الداخلي، أو يضعف من إيمانه أو يشحنه بالغضب والحقد، أو يورثه الفزع والقلق، فسوف يؤدي به حتماً إلى ما نطلق عليه الاضطرابات النفسية أو الأمراض النفسية.

بالإضافة إلى ما يحتاجه مثل هؤلاء المرضى من ترفيه وترويح، وقد ورد عن رسول الله ﷺ ما معناه «روحوا عن قلوبكم ساعة بعد ساعة فإن القلوب إذا كلت عميت» ولعل من الأمور المذهلة، تلك النزعة البناءة الخلاقة في العلاج النفسي، إذ يوصي الرسول بعض أصحابه في مجال علاج الهموم بدفعها بالجهاد وهو يقر ذلك النوع الفذ من العلاج الذي يلجأ إليه المعالجون النفسيون اليوم تحت عناوين مختلفة، فأحياناً يسمونها «التسامي بالغرائز» وأحياناً أخرى يطلقون عليها ملء الفراغ أو احلال أمر مكان آخر، وبتعبير أوضح يأخذون بيد المرضى النفسيين إلى حيث يمارسون هواياتهم الفنية المختلفة، أو يحببون إليهم عملاً من الأعمال يتفق وميولهم، ومن ثم ينصرفون إلى تلك الأعمال البناءة وينسون تدريجياً همومهم وأشجانهم فتصح نفوسهم، وتتضاءل أحزانهم.

والواقع أن الإسلام قدم حلولاً مبسطة وشاملة لقضايا الزواج والحب والعواطف المختلفة، وعلاجها من شتى جوانبها، بحيث لو طبقت على أي مستوى من المستويات لجنبت الكثيرين عديداً من الاضطرابات والانحرافات النفسية، ولقد ألمحنا قبل ذلك إلى موضوع ربط الآداب

الصحية بالعبادات ، ونضيف هنا أموراً عدة تتعلق بفريضة الصوم ، وأثرها من الناحية النفسية ، وهذا شيء أفاض فيه العلماء القدامى والمحدثون ، حيث شرحوا لنا أثر الصوم في تربية الإرادة القوية والعزيمة وتدريب المرء على الالتزام بالقوانين والشرائع وكسر شهوة النفس والبدن. بحيث تتعود على الحرمان والصبر عند المكاره ، وعدم الرضوخ بطغيان الملذات على اختلاف انواعها ، ثم إن الصوم يخرج بالصائم عن مألوف عاداته فهو مضطر إلى أن يترك فنجان قهوة الصباح ويبتعد عن التدخين إذا كان مدخناً ، ويتجاهل المادة المخدرة إذا كان مدمناً ، ويسكت نداء المعدة إذا كان شرهاً ، ولذا يصبح الصوم مدرسة نفسية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى .. أو بمعنى آخر مصحاً نفسياً تتخلص النفوس عن طريقة فورانها وعدوانها وجشعها ، وخاصة إذا ما تذكرنا أن الصوم مرتبط بأمور أخرى لها أهميتها التربوية وأثرها النفسي كالصلاة ، وزكاة رمضان وعدم الخوض في أعراض الناس ، وترك المفاسد وشهادة الزور والظلم .. الخ .

الواقع أن المجال الرحب الواسع للطب النبوي انما يكمن

أساساً في دائرة الطب النفسي تلك الدائرة التي تحفل بالكثير والكثير لأننا مهما حصرنا العقاقير والأدوية والممارسات المختلفة التي تتعلق بعلاج البدن وعلله في الطب النبوي، نقول مهما حاولنا حصر تلك الأشياء فإننا نجدها - برغم أهميتها- قليلة جداً إذا ما قيست بمئات الألوف من العقاقير المستحدثة أو إذا ما قيست بالانجازات الرائدة للطب النبوي النفسي..

الطب النبوي النفسي يعتبر- كما قلنا في مجال الطب الوقائي النبوي - آية فذة من آيات الله العلي القدير، وترتبط ارتباطاً وثيقاً بالبناء الاسلامي الكبير...

(٤) الغذاء والطب النبوي.

في أحاديث الرسول ﷺ ذكر لألوان من الطعام والشراب، لقيمتها وأهميتها، ثم تجد أيضاً تخصيص أنواع غذائية بعينها لحالات مرضية، هذا بالإضافة إلى اعتبار الغذاء المناسب أول بند من بنود العلاج بالنسبة للمرضى، فالطعام في ضوء الطب النبوي غذاء ودواء، وعندما نحاول أن نتحرى ما كان يأكله الرسول سوف نجد نماذج مختلفة تدل على معرفة حقيقية لماهية العناصر الغذائية، فمثلاً نلاحظ أنه ﷺ كان يشرب العسل ممزوجاً بالماء على

الريق، ومن وصاياه ﷺ- في جامع الترمذي يقول:... وإذا سقي لبناً فليقل: اللهم بارك لنا فيه، وزودنا منه، فانه ليس شيء يجزي من الطعام والشراب، إلا اللبن.

وكان صلوات الله عليه وسلامه يقبل على اللحم، ويقول عنه «هو سيد طعام أهل الدنيا والآخرة».[1]

وثبت في صحيح مسلم «أنه ﷺ كان ينتبذ له أول الليل، ويشربه إذا أصبح يومه ذلك، والليلة التي تجيء والغد والليلة الأخرى، والغد إلى العصر».

وهذا النبيذ هو ماء يطرح فيه تمر بحلية، ولم يكن يشربه بعد ثلاث خوفاً من تغيره إلى الإسكار.

وكان يأتدم الخبز والثريد باللحم، ويحب الفواكه، ولا يأكل الطبيخ البائت الذي يسخن ولا المتعفن، كما روى عنه الثقات انه لم يكن يلتزم بنوع واحد من الغذاء، بل يستفيد من الأصناف المختلفة التي تقبل عليها نفسه..

ونستطيع من خلال تلك النصوص وغيرها أن نوجز الأسس الغذائية العامة في اطار الطب النبوي على النحو التالي:-

أولا- شمول الغذاء على مختلف العناصر الضرورية

---

(١) رواه بن ماجه وغيره

كالبروتينات والدهنيات والنشويات والفيتامينات والمعادن، هذا في وقت لم تكن الدراسات الغذائية التحليلية قد تيسرت لها الأدوات والقوانين الكيميائية وغيرها..

ثانياً- التأكيد على أهمية بعض الأنواع الغذائية خاصة مثل اللبن- واللحوم- والعسل والتمر والفاكهة، فاللبن كما نعلم يعتبر بحق من أكمل المواد الغذائية لاحتوائه على نسبة معقولة من البروتينات والدهنيات والسكريات والمعادن وبعض الفيتامينات ولهذا جعله الله الغذاء الوحيد للطفل عند ولادته، وتعتبر العناصر المكونة للبن أسهل هضماً وامتصاصاً وأجل فائدة، وخاصة بالنسبة لكبار السن والناقهين والأطفال والحوامل والمرضعات، ويوصي علماء التغذية والأطباء بضرورة تناوله يومياً بالنسبة للاصحاء، وقد كثرت الصناعات الغذائية المستخرجة من اللبن، كما تعددت وسائل حفظه، وأنواعه وأشكاله.

فلا عجب أن تؤلف فيه الكتب، ويصبح من الأطعمة التي تلتزم بعض الحكومات بتوفيرها للشعب، باعتباره

ضرورة من الضروريات، ولا عجب أيضاً أن نقرأ لرسول الله ﷺ منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان يقول: « فإنه ليس شيء يجزي من الطعام والشراب إلا اللبن ».

أما اللحوم على اختلاف أنواعها فهي غنية بالبروتينات الحيوانيـة المتـازة وبالأحماض الأمينيـة- الأساسيـة الضرورية بالإضافة إلى نسبة كبيرة من الدهون الحيوانية تتفاوت من نوع لآخر فتكثر في البط مثلاً، وتقل في الدجاج والأرانب واللحوم الحمراء عموماً، كما أن اللحوم بها نسبة من المعادن الهامة وبعض الفيتامينات واللحوم كمصدر هام للبروتينات تلعب دوراً رئيسياً في نمو أنسجة الجسم وتعويض التالف منها. وخاصة عقب الأمراض والعنف وسوء التغذية والإصابات والحوادث المختلفة، والواقع أن البروتينات النباتية لا يمكن أن ترتفع إلى مستوى البروتينات الحيوانية، ولذا فإن القيمة الغذائية للحوم تتضح بجلاء من خلال الدراسات المختلفة التي جاءت مطابقة لقول الرسول ﷺ: « اللحم هو سيد طعام أهل الدنيا والآخرة. »

وبالنسبة للعسل فقد أوجزنا في مكان آخر مدى أهميته الغذائية للأصحاء، والنظر إليه كدواء بالنسبة للكثير من

الحالات المرضية، ذلك لما يحتويه من عناصر مفيدة ولما يتميز به من سرعة الهضم والامتصاص والوصول إلى الدم والأنسجة في وقت قصير، وامداده الجسم بطاقة كبيرة تقاس بالسعرات الحرارية، بالإضافة إلى خاصية قتل بعض الميكروبات التي ذكرها بعض الدارسين.

أما التمر والبلح فان احتواء كل منها على نسبة عالية من السكريات يرفع من القيمة الغذائية لها، فضلاً عن وجود بعض المواد المعدنية والألياف، القابضة للرحم فتمنع النزيف، وكذلك وجود مواد تقاوم الشيخوخة، ثم هناك الفيتامينات التي تتراوح نسبها كمّا ونوعاً طبقاً للحالة المتعلقة به، هل هو طازج أم لا؟

أما الفواكه والخضروات الطازجة، فقد تعرض لها الأطباء القدامى الذين تربوا في أحضان الطب النبوي العريق، وأثنوا عليها الثناء العاطر، وهو كلام في جملته لا يقل عما أبرزته الدراسات العملية أو المختبرية في العقود الأخيرة، والتي أكدت ضرورة احتواء الطعام اليومي على الفواكه والخضروات الطازجة لما تحتويه من فيتامينات هامة، ومعادن ضرورية ومواد سكرية ونشوية، وفيتوجينات وو.. الخ

وكلها تؤثر في حيوية الجسم وقوته، وحمايته من مختلف الأمراض.. وقد روى عن رسول الله ﷺ، أنه كان يأكل من فاكهة بلده عند مجيئها، ولا يحتمي عنها، وهذا أيضاً من أسباب حفظ الصحة كما يقرر الأقدمون- فإن الله جعل في كل بلد من الفاكهة ما ينتفع به أهلها في وقته فيكون تناوله- كما يقول ابن قيم الجوزية- من أسباب صحتهم وعافيتهم ويغني عن كثير من الأدوية. ولا نكاد نجد انساناً أهمل الفاكهة إلا وهو من أسقم الناس جسماً، وأبعدهم من الصحة والقوة..

وكان الرسول يوصي دائماً بوجبة العشاء، ولو بكف من التمر ويقول: «ترك العشاء مهرمة»(١).

هذا وقد ورد في القرآن أسماء أطعمة كثيرة كالعسل واللبن والتفاح والرمان والسمك واللحم والبقول والتين والزيتون والرطب والفاكهة عموماً.. وغير ذلك كثير أيضاً ورد ذكر بعضها في الأحاديث النبوية، بمناسبتها وأحياناً بفائدتها، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على اهتمام الطب النبوي بالأسس الصحية للغذاء، وأفضل الوسائل لاعداده، بل إن الرسول ﷺ رسم لنا طريقة الأكل ، وطريقة

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه.

الجلوس أمام الطعام، وعدم النوم بعد الأكل مباشرة، وعدم الشرب أثناء الأكل أو عقبه مباشرة، لأن كثرة الماء تؤثر- كما نعلم اليوم على عملية الهضم- وتخفيف العصارة الهاضمة، فيقل تركيزها، ويضعف مفعولها، وتسبب عسر الهضم ومتاعبه...

ثالثاً- التأكيد على خصوصية أكل المريض، بمعنى أن بعض ما يصلح للغذاء بالنسبة للأصحاء، قد يضر المرضى، ولهذا حرص الطب النبوي بالنسبة للمريض على أمرين هامين:

أ- عدم اجبار المريض على الطعام، والاستفادة من الحمية عند الضرورة.

ب - تقديم الطعام السهل الهضم الذي لا يثقل على معدة المريض..

فبالنسبة للنقطة الأولى، قد يصبح حجب الطعام العادي عن المريض أمراً ضرورياً، ولهذا نرى الأطباء الآن يستعيضون عن ذلك باعطاء المحاليل المختلفة عن طريق الوريد أو تحت الجلد أو عن طريق الشرج، خاصة وان بعض المرضى قد يكونون مصابين بالقيء الشديد فلا يكاد يستقر شيء في معداتهم، وقد يلجأ الأطباء لعمليات نقل الدم

كانقاذ لحياة المريض، وسواء أكانت هناك سوائل تعويضية مطلوبة أم لا ، فإن منع الطعام عن المريض في بعض الحالات يعتبر أمراً ضرورياً ، وقد روى الترمذي في جامعه وكذلك ابن ماجة ان الرسول ﷺ قال: «لا تكرهوا مرضاكم على الطعام فإن الله عز وجل يطعمهم ويسقيهم».

ولا يكون الاكراه في الطعام إلا في حالات معينة كمرضى التخلف العقلي أو المضطربين عقلياً ، ولا ينكر أحد أنه في بعض الحالات المرضية كثيراً ما يصاب الانسان بفقدان للشهية ولا تعود شهيته المفقودة إلا إذا تماثل للشفاء.

وتتصل هذه بالنقطة الثانية ألا وهي تقديم الطعام السهل الهضم للمريض، لأنه لا يثقل على معدته، ويلاقي القبول في معظم الأحيان، مثال ذلك بعض الأنواع من الحساء (الشوربة) وعصير الفواكه والمحاليل السكرية واللبن وغيره من الأغذية الخفيفة التي وردت في أحاديث الرسول وفي تصانيف علماء الطب النبوي في العصور التالية، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا قيل إن فلاناً وجع لا يطعم الطاعم، قال عليكم بالتلبينة فاحسوه إياها ويقول: والذي نفسي بيده انها تغسل بطن أحدكم كما

تغسل احداكن وجهها من الوسخ ».

« والتلبين » هو الحساء الرقيق المتخذ من دقيق الشعير بنخالته، وهناك أيضاً العنب وقد ذكره الله سبحانه وتعالى في ستة مواضع من كتابه، ويذكر عن رسول الله ﷺ أنه كان يحب العنب والبطيخ، ومن المعروف علمياً أن سكر العنب سهل الهضم والامتصاص والاحتراق، وهو من الأغذية التي يوصي بها الأطباء في حالات الحميات المختلفة، والتهاب الكبد الوبائي وغير ذلك من الأمراض.

رابعاً: حرص رسول الله ﷺ على نظافة الطعام والاستفادة منه بعد اعداده ما أمكن، وعدم رغبته ﷺ في البطيخ البائت، وهذا بأسلوب العصر يعني تحاشي تلوث الطعام من الحشرات أو الغبار أو المخالطين، وترك الطعام المطبوخ في أوانيه فترة طويلة، عند عدم توفر أساليب الحفظ المختلفة، يؤدي إلى تعرضه للتلوث والتسمم، فلو أضفنا إلى ذلك تأكيده ﷺ على ضرورة غسل اليدين قبل الطعام وبعده، ودعوته إلى تقليم الأظافر، وعدم التنفس في الإناء، أدركنا حرصه الشديد على نظافة ما نأكل وما نشرب، وقد أوردنا بعض الأحاديث والوقائع التي تشتمل على هذا المعنى الصحي الهام.

خامساً: عدم الإكثار من الطعام، أو تجنب الشراهة والتخمة، ولقد وضع الرسول الكريم قاعدته الشهيرة في ذلك حين قال عند قوم «لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع، وحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه»، ومما لا شك فيه أن التخمة وما تؤدي إليه من السمنة لم يعد الخطر فيها قاصراً على المضاعفات البدنية وحدها وإنما يتعدى ذلك إلى أضرار اجتماعية ونفسية واقتصادية وعقلية، وكانت التجربة أصدق دليل على ذلك في القديم أيام الرسول ﷺ وفي الحديث على أيامنا، وإذا تجولنا عبر التاريخ استطعنا أن نستشف المآسي المختلفة في عصور الرفاهة والشهوة والرخاء المادي مع الجفاف الروحي، وعلى النقيض من ذلك نرى الانجازات الباهرة والانتصارات العظيمة، حينما تسمو أشواق الروح على مطالب الجسد، ويلتزم الناس بالمبادىء والقيم الخالدة في سلوكهم ومعاملاتهم ومطعمهم ومشربهم وسكنهم، كما أن تصدي الزحف الاسلامي الأول- بقلة عدده وعدده - لجحافل الفُرْس والرومان (أقوى مملكتين آنذاك)، والنصر المؤزر الذي أفاض الله به على المسلمين- ، ذلك كله ما نهدف إليه من معنى، حينما نتكلم عن ضوابط الغذاء وشهوات الطعام والشراب والنساء في الاسلام.

سادساً: وكان رسول الله يقبل على المشوي من اللحوم ويطلبه، فعن عبد الله بن الحارث قال: «أكلنا مع الرسول ﷺ شواء في المسجد» وعن المغيرة بن شعبة قال: «ضفت رسول الله ذات ليلة، فأمر بجنب فشوي، ثم أخذ الشفرة فجعل يحز لي بها منه» الخ... الحديث.

ولقد أصبح من الواضح أن المشوي أقل دسامة من المقلي، ولذلك يوصي الأطباء الآن بتفضيل المشوي على المقلي تجنباً للمواد الدهنية التي أصبحت زيادتها في الطعام سبباً من أسباب تصلب الشرايين وعسر الهضم والبدانة وغير ذلك من المضاعفات والمتاعب المختلفة.

سابعاً: الجمع بين الطازج والمطبوخ في الوجبات الغذائية.

ثامناً: وضع آداب اجتماعية وسلوكية للأكل، كأن يأكل الانسان مما يليه، وأن يتناول طعامه في روية دون عجل، وألا يسرف فيما يأكل، بحيث يجعل ثلثاً لطعامه وثلثاً لشرابه، وثلثاً لنفسه على أقصى افتراض.

خلاصة القول أن الطب النبوي اعتبر الغذاء عنصراً أساسياً للصحة، لا يمكن الاستغناء عنه وميز بين أصنافه المختلفة، وأعطى تصورات حقيقية ثبت صدقها بالمقاييس

العلمية والتجريبية، لتأثير بعض الأنواع، وأرشدنا إلى الواجبات الصحية، والخطوات المختلفة الواجب اتخاذها لحماية هذا الطعام والشراب من التلوث والتلف، ومع الأهمية التي أعطاها للغذاء، إلا أن الطب النبوي وضع القاعدة للصحة حيث نفر من التخمة، وأوصى بالقصد في المأكل وفي المشرب، وحظر من مضار امتلاء المعدة بالطعام... لقد جمع الطب النبوي بين الأهمية الكبرى للغذاء. والمحاذير التي يجب الالتفات إليها بالنسبة لغذاء الأصحاء والمرضى... وهو كمال ما بعده كمال.

وصدق الله العظيم إذ يقول: «وكلوا واشربوا ولا تسرفوا».

«ومن أصدق من الله قيلا»؟؟

(٥) الطب النبوي والرياضة

قررت كتب الدراسات الطبية، والطب النبوي خاصة، فصولا للرياضة، الرياضة بمفهومها الواسع الشامل، رياضة البدن، ورياضة النفس، ورياضة الحواس.

والواقع أن الرياضة البدنية درجات، فان ما يصلح للصبية والشباب، يختلف عما يصلح لكبار السن، وما يصلح للأصحاء يختلف عما يصلح للمرضى، وتحتل الحركة مكانا

بارزا فيما نسمّيه اليوم بالعلاج الطبيعي (Physio – Therapy)
فهي ضرورية في الحالات التالية: –

١ – عقب كسور الأطراف.
٢ – الأطراف المصابة بالشلل الطارىء أو الدائم.
٣ – مرضى القلب.
٤ – مرضى عسر الهضم، واضطرابات الجهاز الهضمي.
٥ – ضعف العضلات أو ضمورها.
٦ – عقب العمليات الجراحية أو الولادة.
٧ – السمنة
٨ – تيبس المفاصل.
٩ – قصور الحركة ببعض الأعضاء... الخ. والرياضة في نظر الطب النبوي تساعد على تخليص الجسم من فائض أو زائد الغذاء، لأن الاحتراق الناجم عن الحركة يقضي على المختزن الزائد في الأنسجة من المواد الغذائية، فالأكل مع التراخي والكسل وقلة الحركة يضر بالجسم ويؤدي الى السمنة التي يعقبها مخاطر جمة، وللغذاء مخلفاته وسمومه مثل الدواء تماما، ولاخلاص من هذه التراكمات الضارة الا بالرياضة المناسبة أو الصوم. فالرياضة تكسب الجسم خفة

ونشاطا ولياقة، وتقوى العضلات والأربطة، وتحمي من الأمراض البدنية والامراض النفسية أو على حد تعبير مؤلف الطب النبوي «تؤمن جميع الأمراض المادية، وأكثر الأمراض المزاجية (النفسية) اذا استعملت بالقدر المعتدل منه في وقته، وكان باقي التدبير صواباً»[1] كما يحدد الطب النبوي وقتا للرياضة، فيشترط ان تكون بعد انحدار الغذاء، وكمال الهضم وهو ما يتفق مع النظرات العلمية الحديثة، لأن الرياضة بعد الأكل مباشرة لها مضارها اذ ان الأكل يتدفق بنسبة أكبر عقب الأكل مباشرة الى المعدة، فاذا ما مورست الرياضة في تلك الفترة، زاد العبء على القلب - وخاصة المسنين ومرضى القلب - والمصابين بقصور الدورة... الدموية التاجية - حاق بالقلب أضرار قد تكون بليغة...

وأنواع الرياضة كما وردت في الطب النبوي تتراوح بين المشي وركوب الخيل ورمي النشاب والصراع والمسابقة على الاقدام والسباحة، ورياضة النفوس بالتعلم.. والتأدب

---

(١) الطب النبوي ص /١٩٢.

والفرح والسرور، والصبر والثبات والاقدام والسماح وفعل الخير، ونحو ذلك مما ترتاض به النفوس ومن أعظم رياضتها الصبر والحب والشجاعة والاحسان، فلا تزال ترتاض بذلك شيئا فشيئا حتى تعير لهذه الصفات هيآت راسخة، وملكات ثابتة... ولا ريب أن الصلاة فيها حفظ للبدن، بالاضافة الى حفظ صحة الايمان، وسعادة الدنيا والآخرة، وكذلك قيام الليل من أنفع أسباب حفظ الضحة، وفي الصوم الشرعي من أسباب حفظ الصحة، ورياضة البدن والنفس مالا يدفعه صحيح الفطرة، وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن الصيام في رمضان اذا روعيت فيه الآداب السلوكية المختلفة، يقي الجسم من سموم الأغذية والأدوية، فكأنه يغسل الأنسجة من أدرانها، فتبدو في ثوب جديد، والعجيب أن أعضاء الجسم المختلفة لا تتأثر بالصيام بنفس الدرجة، فالجهاز العصبي لا يفقد شيئا من جوهره، وبنائه،... والقلب لا يفقد سوى ٣٪ اما الكبد (وهو مخزن لمواد غذائية مختلفة ومواد كياوية وبيولوجية) والطحال والعضلات فانها تفقد ما يتراوح بين ٣٪، ٦٥٪ وهي مواد في حكم الزائد الذي به ثقل البدن.

وأما الجهاد وما فيه من الحركات الكلية التي هي من أعظم أسباب القوة، وحفظ الصحة وصلابة القلب والبدن، وزوال الهم والغم والحزن ،فأمر يعرفه من له نصيب من العلم، وكذلك الحج وفعل المناسك والمسابقة على الخيل بالنصال.

ولقد ألمحنا الى تفاوت درجات الرياضة فالمسنون مثلا تناسبهم رياضة المشي، وقد لوحظ أن علاج ضيق شرايين القلب أو انسدادها، وهو من الأمراض القاتلة، لوحظ ان ذلك العلاج يعتمد في المفهوم الحديث على الرياضة المناسبة، تلك التي تساعد على نشوء دورات دموية جانبية لتعويض الشرايين المسدودة أو الضيقة، ومد عضلة القلب بما تحتاجه من دماء، كما وجد الأطباء ان الجهد العضلي يريح الجهاز العصبي وكأنه يقوم بعملية تشبه عملية التدليك المريحة، ولذلك نرى أن أمراض العصر تنتشر بين المرفهين والمرفهات الذين يحيلون معظم أعمالهم للخدم، ولا ينتقلون من مكان الى مكان، الا بواسطة السيارات، وقد أورثهم هذا الاسلوب من الحياة الكثير من الكسل، والثقل وهموم السمنة، ومضاعفاتها الخطيرة، وارتباك الهضم.. والسقوط في براثين العلل والقلق.

والواقع ان الطب النبوي في مجال الرياضة كما في مجال غيره - يحرص على حماية الأبدان والنفوس، وهو نوع من الكمال، لا زيادة فيه لمستزيد، على الرغم من مرور القرون الطويلة.

والواقع أن الطب الحديث يتجه في هذه السنين الأخيرة الى اللجوء لأبسط وسائل العلاج والوقاية، وهي تكمن أساسا في أسلوب الحياة السليم، والاهتمام بالحركة والرياضة والنزهات والأسفار. وتنظيم الغذاء أكثر من اعتماده على العقاقير الطبية الصناعية التي أصبحت برغم فائدتها في كثير من الظروف موضع اتهام في جميع أنحاء العالم، لما تخلفه من آثار جانبية ونتائج مشكوك فيها احيانا، وبخاصة بعد أن غلبت عليها الناحية التجارية، ورافقها أخبث أنواع الدعاية... وقد لاحظت أثناء متابعتي لبعض مرضى القلب، أن أطباءهم- وخاصة في انجلترا- قد سحبوا كل ما كان يعطى لهم من موسعات للشرايين، ومسيلات للدم منعا للتجلط، وتحولوا في أسلوب العلاج الى أنواع من الرياضة المتدرجة، وقد أتت هذه الأساليب القديمة (المستحدثة) بنتائج ممتازة عند الكثيرين منهم..

ولا يكون الأمر متروكا لرغبة المرء، لذلك فقد جمعت

الصلاة والصوم والجهاد والسعي لخدمة الناس ومجاملتهم، هـذه الأشياء، قد جمعت بين الوان الرياضة الجسدية والنفسية وأصبحت في صحيحها الزاما للمسلم باعتبارها فرضا (العبادات) على المؤمن، ويحاسب عليه اذا أهمله، وهكـذا امتزجت الرياضـة الجسدية والنفسية بالشعائر والعبادات، وأصبحت كيانا واضحا وواحدا، يصبغ حياة المسلم بصبغة ربانية، ويا لها من حكمة الهية سامية !!!

الطب النبوي والعلاج بالمحرمات

ذكر البخاري في صحيحه عن ابن مسعود:

« ان الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم » ومن حديث أبي الـدرداء قول الرسول صلى الله عليه وسلم: « ان الله انزل الداء والدواء، وجعل لكل داء دواء، فتداووا، ولا تداووا بالمحرم ».

ان أمر التداوي بالمحرم قضية شائكة، فهي ليست قاصرة على عدد قليل من العقاقير الطبية ولو كان الامر كذلك لهان الأمر، لكن المشكلة ان التداوي.. بالمحرمات بالنسبـة لكثير من الأمراض النفسية وبعض الأمراض العضوية قد أصبح شائعا لدرجة خطيرة، وتعدى المواد المحرمة الى سلوك شائن لا يتفق والمبادىء الأخلاقية، ونهج

الشريعة الاسلامية، ويتضاد مع صالح المجتمع والفرد.

ويمكننا أن نوجز تلك المحرمات في مجموعات أربعة رئيسية:

أولا- المشروبات الكحولية ومشتقاتها، التي تتفق معها في الأثر قلت تلك المشروبات أو كثرت، وازداد أثرها أو تضاءل.

ثانيا- المخدرات: وهي أنواع مثيرة، وتعد مشتقاتها ومنتجاتها الصناعية... والطبيعيةبالمئات، وهي تستعمل أكثر في المجالات الخاصة بالأمراض النفسية، كذلك بعض الأمراض العضوية كالآلام والامغاص.. وادمانها يعتبر كارثة بدنية ونفسية واجتماعية.

ثالثا- التسيب الأخلاقي، والحرية الجنسية، باسم التغلب على عقد الكبت النفسي، وعلاج الأزمات والاضطرابات النفسية الناتجة عن القيود الأخلاقية، وهذه نقطة خطيرة لم يتنبه إليها الكثيرون من الباحثين ولم يدرجوها في قائمة المحرمات العلاجية.

رابعا- وهذه المجموعات الاربعة تشمل بعض أنواع

الحشرات والحيوانات وأساليب الدجل الاخرى التي تراها في الشعوذة والخرافات المتنوعة التي تنتشر بين الجهات والطبقات الفقيرة دون استناد الى دليل علمي أو منطق مجرب يمكن دراسته وتحليله.

ويمكننا أن نتناول تلك المجموعات الأربعة بشيء من الايجاز في ضوء الطب النبوي، واستنتاجات علمائه وتعليماتهم.

أولا - المشروبات الكحولية:

لم يعد خافيا على أحد ما للمشروبات الكحولية من أضرار وخيمة على أجهزة جسم الانسان، وخاصة في حالة الادمان، اذ انها تؤثر على الجهاز العصبي المركزي والاعصاب الطرفية، ولها أيضا مفعول ضار بالجهاز الهضمي وخاصة الكبد والمعدة والاثنى عشر، ومن المعروف ان الجهاز العصبي هو المسيطر على كل أجهزة الجسم فمتى أصابه الخلل والاضطراب، أدى ذلك الى اثارة الانحراف في مختلف أجهزة الجسم والواقع أن هناك بعض الأمراض التي تزداد سواء اذا كان المصاب بها يدمن الخمر، مثال ذلك مرض الدرن (السل)، ومرض القلب والمعدة والكبد

وغيرها، ولذا نرى الأطباء يوصون المريض بعدم تعاطي المشروبات الكحولية والا عرض نفسه للخطر، فالخمر اذن لها تأثير على مختلف أجهزة الجسم بطريق مباشر أو غير مباشر وهذه حقائق علمية مؤكدة، تدرس لطلبة الطب في كل أنحاء العالم، لأنها من الأمور المتفق عليها، وعندما نقرأ في تراثنا نرى في صحيح مسلم، عن طارق بن سويد الجعفي أنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الخمر، فقال: «انه ليس بدواء، ولكنه داء».

وفي السنة« انه صلى الله عليه وسلم سئل عن الخمر يجعل في الدواء، فقال انها داء، وليست دواء»

ويذكر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من تداوى بالخمر فلا شفاه الله» وعن أبي هريرة: «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدواء الخبيث»

ويذكر صاحب الطب النبوي[1] في كتابه تعليقا يقول فيه: المعالجة بالمحرمات قبيحة عقلا وشرعا، وأما الشرع فما ذكرنا من هذه الأحاديث وغيرها، وأما العقل فهو ان الله سبحانه وتعالى حرمه لخبثه، فانه لم يحرم على هذه الأمة طيبا عقوبة لها، كما حرمه على بني اسرائيل بقوله: (فبظلم من الذين

---

(١) الطب النبوي لابن قيم الجوزية ص /١٢٢

هادوا، حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم)[1] وانما حرم على هذه الأمة ما حرم لخبثه، وتحريمه له حمية لهم، وصيانة عن تناوله، فلا يتناسب أن يطلب به الشفاء من الأسقام والعلل، فانه وان أثر في ازالتها؛ لكنه يعقب سقما أعظم منه في القلب، بقوة الخبث الذي فيه، فيكون المداوى به قد سعى في ازالة سقم البدن، بسقم القلب، وأيضا فان تحريمه يقتضي تجنبه، والبعد عنه بكل طريق، وباتخاذه دواء حض على الترغيب فيه وملابسته، وهذا ضد مقصود الشارع، وأيضا فان الخمر داء كما نص عليه صاحب الشريعة، فلا يجوز أن يتخذ دواء...

وأيضا فان في اباحته للتداوي به، ولا سيما اذا كانت النفوس تميل اليه، ذريعة الى تناوله للشهوة واللذة ولا سيما اذا عرفت النفوس أنه نافع لها، مزيل لأسقامها، جالب لشقائها فهذا أحب شيء اليها، والشارع سد الذريعة الى تناوله بكل ممكن، ولا ريب أن بين سد الذريعة الى تناوله، وفتح الذريعة الى تناوله،.. تناقضا وتعارضا... أيضا فان هذا الدواء المحرم من الأدواء، ما يزيد على ما يظن فيه من

---

(١) سورة النساء: ١٦٠.

الشفاء وليفرض الكلام في أم الخبائث، التي ما جعل الله لنا فيها شفاء قط، فانها شديدة المضرة بالدماغ... الخ.

ومن هنا نرى اتفاق الطب النبوي، ونصوص الأحاديث النبوية الصحيحة تتفق تماما مع الدراسات والحقائق العلمية الحديثة. تبقى نقطة هامة ان المشروبات الكحولية أو الكحول يدخل ضمن المطهرات أو المواد القاتلة للميكروبات، كما يدخل كمادة.. مذيبة لبعض العناصر الدوائية، ويدخل في الروائح العطرية، ومن ثم يضعه البعض على البشرة بعد الحلاقة مثلا ممزوجا بالروائح الطيبة، أو يطهر به البعض الخدوش،.. والبعض الآخر يتعاطى الأدوية التي يدخل فيها الكحول (الذي هو أساس المشروبات المسكرة) وخاصة بعض المقويات والأدوية الفاتحة للشهية.

والواقع أن رأى الفقهاء في مثل هذه الأمور في عصرنا واضح تمام الوضوح، فهم يحرمون مثل تلك الأمور اذا كان لها بدائل تغني عنها، ومن ثم فان المطهرات غير الكحولية تعد بالمئات بل بالآلاف، والمقويات والشهيات أنواعا عديدة جدا، ولا حاجة اطلاقا لأن تكون «كحولية» بالذات، فالمواد الحامضية، كالليمون مثلا، والمواد الحريفة... الخ

كلها تعتبر مواد مشهية، بل ان جمال اللون والرائحة قد يكون سببا في اثارة الشهية لدى الانسان.... وفي الامكان قصر استعمال الكحول في بعض الصناعات الأخرى غير الدوائية - كالاصباغ وغيرها، ولا حاجة لأن.. يدخل ضمن العقاقير التي يسمح بتعاطيها، لكن المشكلة ان معظم شركات الادوية، ان لم يكن كلها - شركات لا تلتزم بأمور الدين، وخاصة في العالم الأوروبي والأمريكي وفي كثير من شعوب آسيا وأفريقيا، ليست شركات الأدوية هي التي تفعل ذلك وحدها بل شركات الانتاج الغذائي هي الأخرى، تلك التي تدخل بعض المحرمات في الأطعمة التي تعدها للتوزيع كالأطعمة المحفوظة وبعض أنواع الحلوى، وبعض المنتوجات الشحمية التي يضاف اليها شحم الخنزير.. الخ.

والقضية ليست في الكمية، لأن ما أسكر كثيرة فقليلة حرام، وقد يعتقد البعض أن المواد التي تؤخذ بالفم فتسكر هي وحدها الحرام، والواقع أن عددا من المواد تستطيع أن تمتص من خلال البشرة في ظروف معينة، وبذلك يمكنها أن تصل الى الفم ولو بنسب ضئيلة، فهل من اللائق تجاهل هذا الأمر لأن أثره غير واضح، لأنه لا يؤخذ عن الطرق

الطبيعية، وبالكيفية المعروفة؟؟ تلك قضية تحتاج الى دراسة واعية، ورأي حاسم.

ثانيا - المخدرات.

تطلق كلمة المخدرات على كثير من المواد الطبيعية والكيماوية التي تؤدي الى خدر الجسم والعقل، والمواد المخدرة تختلف في آثارها ومضاعفاتها واستجابة الجسم والعقل لها، وكثير من هذه المواد قد يؤدي الى الادمان، بحيث لا يستطيع متعاطيه أن يستغنى عنه والا أصيب بأضرار مختلفة قد تصل الى الموت، وخاصة عند التوقف المفاجىء لمن اشتد الادمان لديه، وبعض هذه المواد قد يؤدي الى السكر أو غياب العقل أو يؤدي الى لون من التخيل وتصور أموز لا وجود لها، فكأن المتعاطي يعيش في أحلام مزوقة جميلة، فاذا ما انتهى أثر المخدر، شعر المدمن بحالة من الاضطراب وعدم الاستقرار والكآبة والتوتر، ويظل في تدهور وتوتر، بل ان أجهزة الجسم تتأثر على اختلاف أنواعها، فالعيون تحتقن وتدمع، والأنف يسيل، والبطن تمغص وتسهل وتقيء، كما في حالة التوقف المفاجىء عند تعاطي الأفيون، وهناك بعض المواد المخدرة، كالحشيش مثلا - تعطي للمدمن احساسا خاطئا بالزمن والمسافة،

وكذلك الحالة النفسية، فاذا أكل وهو تحت تأثير المخدر قدرا يسيرا من الطعام، خيل اليه أنه كان شرها لدرجة التخمة، واذا مشى مسافة تعد بمئات الأمتار، ظن أنه مشى مسافات طويلة تعد بالأميال، ونفس الشيء يحدث بالنسبة للاحساس بفترة «الجماع» اذ يظن بعض الناس أن تعاطي الحشيش يطيل مثل هذه الفترة، مع أن ذلك وهم خالص...

ولقد انتشرت الأدوية المخدرة في كل أنحاء الدنيا انتشارا رهيبا، وتفشت المخدرات بين الشباب وخاصة في أوربا وأمريكا، فسمعنا عن عقار الهلوسة أو عقار ل. س.د.، وتسبب هذه المخدرات في كثير من الانحرافات والكوارث الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية، بل زوقت الأوهام والخيالات، ووضعت فلسفات وسلوكا غريبا في الحياة، وأدت الى قيام بعض جرائم القتل الجماعية، ودمرت الكثير من الاخلاقيات وحطمت الكثير أيضا من أمن المجتمع وسلامته، والدراسات التي أجريت على المدمنين في مختلف الدول دراسات متنوعة، لكن الشيء الملفت للنظر أن الدارسين عندما حاولوا البحث عن أسباب الوقوع في كارثة الادمان وجدوا ان هناك عوامل كثيرة مساعدة لها: -

(١) الاصابة باضطراب نفسي، أو قلق وتوتر، وغير ذلك من الأعراض النفسية الناجمة عن ظروف خاصة أو عامة، هذا الاضطراب النفسي قد يورث الشخص المريض به استعدادا خاصا لتعاطي المخدرات كوسيلة من وسائل الهروب.

(٢) صحبة السوء: محاولة الأصدقاء الالتزام بتصرفات معينة موحدة، فاذا كان بعضهم ممن يدمنون المخدرات، اقتدى بهم الباقون، كاثبات لرجولتهم، وتأكيدا لقدراتهم على فعل ما يشاؤون دون خوف من أحد.

(٣) الآلام العضوية قد تدفع المريض الى تعاطي المخدرات في البداية بعض تخفيف الآلام، فاذا كانت تلك الآلام متكررة أو مزمنة، كالمغص الكلوي أو المراري أو الصداع... الخ، فان المريض يضطر لأخذ المخدر مرة أخرى (وخاصة الأفيون أو المورفين) وهكذا تتعدد نوبات الألم وجرعات المخدر، وبالتدريج يصبح المريض في أشد الحاجة الى تعاطي المخدر بصفة دائمة، وهكذا يصبح مدمنا.

(٤) تيارات الرفض بين الشباب في كثير من أنحاء العالم،

وسخطهم على الأوضاع القائمة وسياسات القوى الكبرى، ودمار القيم العليا، وسيطرة المادية، والفلسفات الحائرة كل ذلك دفع الشباب الى البحث عن واحة زائفة يستظلون فيها، فقدم لهم الأبالسة وتجار السموم أصنافا مختلفة من المخدرات، تهدف لتغطية الالآم، ودغدغة الحواس، والهاب الأحلام الجنسية، والتحلل من المسئولية، والاقدام على تصرفات طائشة غير مسئولة..

(٥) المشاكل الاقتصادية والعاطفية قد تجر الى كارثة الادمان على المخدرات.. وتفشي المخدرات ليس قاصرا على الاوساط القادرة اقتصاديا وحدها، بل ان تنتشر أكثر في الأوساط العمالية والبيئات التي ينتشر فيها الجهل والفقر والمرض، فهي مشكلة عامة في آسيا وأفريقيا أيضا، وليست في أمريكا وأوزربا وحدها... وتحريم المخدرات في الاسلام أمر قديم، وان سبقه تحريم الخمر، ولا شك أن ظهور الحشيش في أواخر المائة السادسة بعد الهجرة. هو الذي حرك العلماء والفقهاء لا صدار الفتاوى فيها، وهي مجمعة على تحريمه، وقد ذكر ابن تيمية في كتابه السياسة

الشرعية، وكذلك تلميذه (ابن القيم في كتابه «زاد المعاد» وغيرهما من العلماء القدامى والمحدثين، أن الحشيش حرام، وفي كلام سيد الخلق: «كل مسكر خمر، وكل خمر حرام»، وفي حديث أم سلمة: نهى صلى الله عليه وسلم عن كل مسكر ومفتر..» فالمسكر والمفتر حرام، أيا كانت المادة التي استعملت سائلة أو جامدة، مطبوخة أو غير مطبوخة، عن طريق الفم أو الحقن أو غير ذلك من الوسائل المختلفة.

والتداوى بالمخدرات، انما هو تداو بالمحرم، ومن ثم فان ما ينطبق على الخمر ينطبق عليها، ونستطيع أن نقرأ في أي مرجع من المراجع الطبية الآثار التي تتركها المخدرات في جسم الإنسان، والتغيرات الخطيرة التي تقلب النسق البديع لعمل الأجهزة، وتعادل السوائل وافراز المواد الزائدة، والاتساق.. النفسي والعصبي، ان العلاج بالمخدرات يكمن أساسا في نقطتين:

أولها - تسكين الالآم العضوية.

ثانيها - تهدئة الاضرابات والتوترات النفسية.

ونلاحظ انه في كلتا الحالتين ليست المخدرات علاجا بالمعنى العلمي الصحيح لهذا قلنا بالنسبة للنقطة الأولى (تسكين

الآلام) ولم نقل شفاؤها، وأيضا في النقطة الثانية لم نقل شفاء الاضطرابات النفسية، انما قلنا تهدئتها..... فالمخدرات أساسا أدوية ليست لعلاج النفسية أو العضوية، انما لمجرد تخفيف الأعراض الناجمة عن المرض، لأن العلاج الحقيقي انما يكمن في علاج السبب الذي صنع الداء وتخفيف الأعراض ليس علاجا حاسما للداء، ولكي نزيد الأمر توضيحا اذا كان هناك مريض يشكو من صداع، فليس العلاج الصحيح هو أن يتعاطى قدرا من المخدرات أو المسكنات لان أثر المخدرات أو المسكن سوف يزول، لان.. مفعول المسكن محدود بفترة زمنية محددة، وانما العلاج الصحيح هو أن نبحث أولا عن سبب الصداع... هل هو حمى معينة؟؟ هل هو ارتفاع ضغط الدم؟؟ هل هو الهم والغم والأرق؟؟ هل هو الامساك أو أمراض العين أو الأسنان أو الجيوب الأنفية أو أورام المخ.. أو.. أو.. الخ؟ لا بد من أن نجتث الداء من جذوره، عندئذ تختفي الآلام والأعراض والعلامات، وقد يكون علاج السبب جراحيا أو دوائيا أو نفسيا. وقد تكون هناك مشكلة من المشاكل الخاصة التي لا يفصح عنها المريض فلا يؤدي الى التشخيص

الصحيح للعلة...... والتشخيص هو البداية الصحيحة لخط سير العلاج.

فعلاج الصداع بالأفيون أو المورفين لن يقضي على سبب الداء، وهكذا يعاود المريض الألم ويتكرر أخذ المخدر، حتى يحدث الادمان، والادمان مرض من ألعن الأمراض وأخطرها، لأنه يتلف الجهاز العصبي، ويؤثر على الكبد والكلي، وكثير من الغدد، ويجعل الجسم يتعود على هذا المخدر، كما يتأثر القلب وتتأثر الشرايين والجهاز الهضمي مما تناولته الكتب الطبية بالتفصيل... لقد أراد البعض أن يعالج داءه.. بالمخدرات، فأصيب بمرض أخطر وهو الادمان الذي يسرع بخطى الانسان الى القبر، ويسبب الشقاء الأبدي، ويدمر كيان الفرد والمجتمع.. فتحريم المخدرات أمر يتفق وطبائع الأمور والآثار السيئة التي تنجم عنها عضويا ونفسيا، ولا يجد عن تلك الراحة الكاذبة التي يتحصل عليها المريض اذا تعاطى بعض الأدوية المخدرة...

وقد أفتى بعض العلماء بإباحة العلاج بالمخدر اذا لم يكن له بديل، وبشرط أن يكون على يدي طبيب مسلم موثوق فيه، وبالقدر الذي يحتاجه المريض فقط، ولقد تنبه الامام

ابن حجر لنقطة هامة في علاج المدمنين، فأوصى بأن يكون علاجهم تدريجيا، حتى تنقص الجرعة التي يتعاطاها المدمن من المخدر تدريجيا، حتى لا يصاب بالوفاة، وفي هذا الأسلوب التدريجي للتخلص من الادمان حفاظ على حياة المدمن.

وفي فتوى الشيخ جاد الحق علي جاد الحق يقول:[1]

الاسلام حرم مطعومات ومشروبات صونا لنفس الانسان وعقله ورفع هذا التحريم في حال الضرورة فقال «فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه[2]». وقال: «وقد فصل لكم ما حرم عليكم الا ما اضطررتم اليه[3]». ولقد استنبط الفقهاء من هذه الآيات ومن أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في الضرورة قواعد يأخذ بعضها بحجز بعض فقالوا: «الضرر يزال والضرورات تبيح المحظورات»، ومن ثم أجازوا أكل الميتة عند المخمصة، واساغة اللقمة بالخمر، والتلفظ بكلمة الكفر عند الاكراه عليها (الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان)[4] وقالوا أيضا ان الضرورة

(١) المخدرات في رأي الاسلام ص ١٠٠ - ١٠٢.
(٢) سورة البقرة ١٧٣
(٣) سورة الأنعام ١١٩
(٤) سورة النحل ١٠٦

تقدر بقدرها، وما جاز لعذر بطل.. بزواله والضرر لا يزال بضرر..

وقد اختلف الفقهاء في جواز التداوي بالمحرم، والصحيح من آرائهم هو ما يلتقي مع قول الله في الآيات البينات السالفات، بملاحظة أن اباحة المحرم للضرورة مقصور على القدر الذي يزول به الضرر، وتعود به الصحة، ويتم به العلاج، وللتثبت من توافر هذه الضوابط، اشترط الفقهاء الذين أباحوا التداوي بالمحرم شرطين: أحدهما أن يتحلّى الطبيب بالصدق والأمانة والتدين، والآخر ألا يوجد دواء من غير المحرم، ليكون التداوى بالمحرم متعينا، ولا يكون القصد من تناوله التحايل لتعاطي المحرم ولا يتجاوز به قدر الضرورة، وقد أفتى ابن حجر المكي الشافعي[1] حين سئل عمن ابتلي بأكل الأفيون والحشيش ونحوهما، وصار حاله بحيث اذا لم يتناوله هلك، أفتى بأنه اذا علم أنه يهلك قطعا حل له بل وجب لاضطراره لابقاء روحه.. كالميتة التي يأكلها المضطر، ويجب عليه التدرج في تقليل الكمية التي يتناولها شيئا فشيئا حتى يزول اعتياده،

(١) نقل هذا ابن عابدين في حاشيته المختارة جـ٥ ص /٤٥٦ في آخر الكتاب الحظر والاباحة.

وهذا - كما تقدم - اذا ثبت بقول الأطباء الثقات دينا ومهنة أن معتاد تعاطي المخدرات يهلك بترك تعاطيها فجأة وكلية... وترتيبا على هذا فاذا ثبت أن ضررا ماحقا محققا وقوعه بمتعاطي المخدرات سواء أكانت طبيعية أو مخلقة اذا انقطع فجأة عن تعاطيها جاز... مداواته، بإشراف طبيب ثقة متدين حتى يتخلص من اعتياده، كما أشار العلامة ابن حجر في فتواه المشار اليها لأن ذلك ضرورة، والا اثم في الضرورات الا اذا روعيت شروطها المنوه بها اعمالا لنصوص القرآن الكريم.

هذا وانه مع التقدم العلمي في كيمياء الدواء لم تعد حاجة ملحة للتداوي بالمواد المخدرة المحرمة شرعا لوجود البديل الكيميائي المباح.

والواقع أن المخدرات كدواء يختلف عن كثير من العقاقير الأخرى، فمثلا المضادات الحيوية تقتل الجراثيم والميكروبات، فيختفي المرض ويشفى المريض، والانزيمات الهاضمة تعوض الجسم عن قلة الانزيمات التي تفرز في جهازه العضمي، ولهذا تشفى من عسر الهضم حتى يتخلص الجسم من خلله، والأدوية التي تقتل الطفيليات أو ثعابين البطن أو الفطريات الجلدية وغيرها كل تلك العقاقير تعتبر

علاجا .. فهي تختلف عن المخدرات التي تسكن الالم ، أو تجلب النوم ، أو تزوق الخيالات ... والتصورات ، وتساعد الانسان على هروبه ... والعلاج بالمخدرات يكون في نطاق ضيق جدا ... فمثلا نحن في حاجة ماسة الى استعمال المخدر لاجراء العمليات الجراحية حتى لا يشعر المريض بمبضع الطبيب وهو يمزق في جلده وأحشائه .. فهذا أمر لا خلاف عليه ..

أما أن أتعاطى المخدر للصداع ... أو للمغص .. أو لمجرد الانسجام .... أو التخلص من أزمة نفسية طارئة ، فهذا سلوك غير علمي ... بالاضافة الى أنه سلوك غير ديني ..

وجناية العلاج بالمخدرات المصنعة قد تعدت المتعاطي الى الأجنة في بطون الأمهات ، فقد لوحظ ان بعض الاطفال الذين يولدون في أمريكا يصرخون ويتشنجون .. ويرفضون الغذاء ويستمرون هكذا لبضعة أيام ونسبة كبيرة منهم يلاقون حتفهم ، واتضح بعد الدراسة أن السبب هو ان أمهات هؤلاء الأطفال كن يدمن المخدرات أثناء فترة الحمل ، ونتج عن ذلك ان الجنين تعود على المخدر وهو في بطن أمه ، لهذا عندما خرج من بطن الأم بعد الولادة ، ولم يعد يصل اليه ، أصيب بنوبات الصراخ والبكاء والامتناع

عن الطعام والنوم مما يقضي عليه، ولهذا وجد الأطباء أنفسهم مضطرين الى اعطـاء هؤلاء المولودين جرعـات متناقصة من المخدر الذي كانت تتعاطاه الام، ويسحب تدريجيـا الى أن تمر الأزمة التي يمر بها الجنين ويشفى من الادمان، وهو نفس الاسلوب الذي أشار اليه العلامة ابن حجر في فتواه السابقة...

وهناك علاقة وثيقة بين الاقبال على المخدرات وبين ضعـف الوازع الديني.. أو الايمان، فان الارادة القوية والتمسك بالآداب الشرعية، والتوكل على الله والرضى بقضائـه، كلهـا من الأمور الـتي تحفـظ للنفس اتزانها وصمودها، وتعتصم بالصبر، وتتأثر وتبعد عن كل ما من شأنه أن يهوى بذاته، أو بضعف من شخصيته، أو تأخذ بيده الى مهابط الرذيلة، ومساقط العادات السيئة، أو الهروب الى جنة الوهم التي تصنعها المخدرات..

من هنا تتجلى حكمة الشارع حينما نهى عن التداوي بالمحرم سواء أكان خمرا.. أم مخدرات أم غيرها من الأمور الأخرى التي تتعارض مع القيم النبوية العريقة... والأمر لا يحتاج الى كبير تأكيد، بعد أن فرضت الدول العقوبات الشديدة على تجار ومتعاطي المخدرات تلك العقوبات التي

بلغت الاعدام لكن الامر الغريب هو التشدد في عقوبة المخدرات والتساهل في عقوبة الخمر في معظم البلدان، مما حدا ببعض المفكرين الظرفاء الى القول بأن «القانون يحابي الخمر على حساب المخدرات».

ثالثا - التسيب الأخلاقي:

ان الحرية الجنسية أصبحت سلوكا شائعا في كثير من بلدان العالم المتقدم أو.... المتمدين، والغريب ان هذا السلوك اعتبر علاجا لكثير من العقد النفسية والاضطرابات العاطفية تجنبا لما يسببه الكبت من أمراض مختلفة - وأصبح القانون يحرس التحلل الجنسي في كثير من الدول، ولقد خرجت بذور هذه الدعوة الخبيثة من فلسفة «فرويد» ومن الفلسفات الاجتماعية الجانحة مثل الوجودية والماركسية، وغيرها، فلم يعد غريبا أن تتصادم تلك الفلسفات والمدارس مع القيم الدينية العريقة، ولقد سار في هذا الركب الضال عدد غير قليل من الأطباء النفسيين وعلماء السلوك الانساني، ووضعوا القوانين التي تجعل من الاباحية بل ومن الشذوذ الجنسي حقا مكتسبا في بعض البلدان... واختلط هذا الأمر بالاقبال على المسكرات والمخدرات، مما زاد الطين بلة....

فهل نجحت الاباحية الجنسية كعلاج؟؟

ان الدراسات التي أجراها الباحثون أخيرا في أكثر الدول تحلُّلاً وتقدما أثبتت.. عكس ذلك تماما وشهد شاهدون من أهلها، فلقد لوحظ الآتي: -

أولا- انتشار الانهيارات العصبية، والاضطرابات النفسية في تلك البلاد بنسبة أكثر من البلاد التي تحتمي في ظل التقاليد والقيم الدينية، وبرغم التخلف والفقر كما كثرت حوادث الانتحار مللا وهروبا من الحياة التي أثقلتها الأحزان والآلام والضياع، وانعكس ذلك على أجيال الشباب مما جعل تلك الدول.. تعتمد اعتمادا أساسيا على الكوادر الفنية العاملة التي تستوردها من الخارج، وهكذا جر التحلل الجنسي الى اضرار بنفوس الشباب وطموحهم ورسالتهم في الحياة.

ثانيا- ازدياد نسبة الاصابة بالأمراض السرية (التناسلية) وخاصة السيلان.. والزهري، وما تجره تلك الأمراض من مضاعفات، على الرغم من أن تلك الدول، تمتلك امكانيات هائلة في وسائل الوقاية والعلاج، فضلا عن أنها تنظم تجارة الرقيق

الأبيض وتجعلها تحت الرعاية الطبية الدائمة، وتصدر لمن يمارسون تجارة الجنس التراخيص الطبية.

والاسلام منذ البداية نظم العلاقة بين الرجل والمرأة، وجعلها تمضي في اطار..، الشرعية والقوانين السليمة، عن فهم وادراك لحقوق الفرد والمجتمع، كما وضع.... العقوبات المناسبة لجريمة الزنا.. ان الزنا في نظر الاسلام جريمة وليس علاجا ولا حرية أو حقا مكتسبا للأفراد، ومن هناكانت عقوبة الجلد والرجم أو القتل حسب الظروف. هذا وقد تعرض الطب النبوي للجماع ووضع له بعض القواعد المنظمة (اذ لا حياء في الدين) لهذا نرى صاحب الطب النبوي يقول[1].

الجماع وضع في الأصل لثلاثة أمور هي مقاصده الأصلية: أحدها حفظ النسل، ودوام النوع الانساني... والثاني اخراج الماء الذي يضر احتباسه واحتقانه بجملة البدن، والثالث قضاء الوطر، ونيل اللذة، والتمتع بالنعمة... واحتباس المني قد يحدث أمراضا رديئة منها الوسواس والجنون والصرع وغيرذلك... ومن منافع الزواج

---

(١) ص ١٩٤ - ص ١٩٦.

غض البضر وكف النفس، والقدرة على العفة عن الحرام، وتحصيل ذلك للمرأة... وعنه صلى الله عليه وسلم: «اني أتزوج النساء وآكل اللحم، وأنام وأقوم، وأصوم وأفطر، فمن رغب عن سنتي فليس مني» وقال: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فانه أغض للبصر وأحفظ للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فانه له وجاء »ومن حديث ابن عباس قال: «لم تر للمتحابين مثل النكاح».. ومما ينبغي تقديمه على الجماع ملاعبته المرأة وتقبيلها، ومص لسانها، ويذكر عن جابر بن عبد الله قال:

«نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المواقعة قبل الملاعبة»... وأنفع الجماع ما حصل بعد الهضم، واعتدال البدن... ولا ينبغي أن يستدعي شهوة الجماع أمر يتكلفها، ويحمل نفسه عليها... وجماع الحائض حرام طبعا وشرعا... وهكذا نرى انه لا علاج بمحرم وأن الاسلام وضع الآداب والقواعد المنظمة للعلاقة الجنسية وحث على تهيئة الفرصة لزواج الشباب، وقرر أن الزواج هو الحل السليم لمشاكل الكبت الجنسي والنفسي، وعالج الاسلام هذه القضية بصراحة ووضوح تامين، وألفت فيها كتب كثيرة في التراث، تعرضت... لتفاصيل العملية الجنسية، والاشتراطات

الواجبة حيالها ، لهذا فاننا نقول بان الاباحية الجنسية ليست علاجا للكبت الجنسي والرواسب النفسية التي يخلفها الحرمان ، ولم يفت الاسلام هذا ، بل حذر بشدة من التبرج وابراز مفاتن المرأة ، ونهى عن الاختلاط الضار الذي يثير الشهوة ، ويؤدي للسقوط الأخلاقي ، ويغري بالفتنة والانحراف ، أي أنه تناول القضية من كل جوانبها ، ولم يغفل أي عنصر من عناصرها ..

رابعا - الشعوذة والخرافات العلاجية

في كل أمة من الأمم يلجأ بعض الأفراد وبخاصة الطبقات الجاهلة الى أساليب غريبة في العلاج ، يستخدمون فيها الشعوذة والدجل والخرافات ، كأن يسقي المريض مثلا شرابا معينا ، ممزوجا بدم حيوان ، أو تذبح دجاجات أو خراف ليس فيها علامات أو ذات لون خاص ، أو بالدخول الى القبور ، أو الطواف بالأضرحة ، أو التمسح بشجرة من الأشجار ، أو مبنى من المباني ، أو أكل بعض الحشرات أو الحيوانات التي تأكل وتؤكل ، وهذه أمور كلها تتنافى مع التجربة ومع الدراسات العلمية ، ومع الاساليب التي اتبعها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي سنن النسائي أن .. طبيبا ذكر ضفدعا في دواء عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

فنهاه عن قتلها ، وكان صلى الله عليه وسلم يوصي مرضاه في بعض الأحيان بالذهاب الى الطبيب ... الحاذق الماهر كجهة اختصاص ، ولم يعرف عنه الا أنه كان يوصي ببعض الرقى ، وهي لا تخرج عن كونها بعض أدعية لله وآيات من القرآن الكريم ، انطلاقا من القاعدة الأساسية وهي أن الطبيب يصف الدواء وأن الله هو الشافي ، فاللجوء الى الله القوي القادر أمر طبيعي ، ما دمنا نأخذ بالأسباب ، ونستفيد من التجربة ، ونملأ نفوسنا بالأمل وأخيرا أمرنا بالتداوي ، وأكد أن الله ما أنزل داء الا وأنزل له دواء كي نجد في البحث عنه ، بتوفيق الله وهديه .....

(٧) الطب النبوي والنوم

ظاهرة النوم من الظواهر المعجزة حقا ، لقد استطاع العلماء أن يحددوا مركزا للنوم في المخ ، وأُجري العديد من الدراسات على هذه الظاهرة كما أجريت تجارب خاصة على الانسان والحيوان وتبين منها ضرورة النوم لحياة الانسان ، وقد لوحظ أن هناك بعض الأمراض التي تسبب الأرق ولا يموت المريض بسببها مباشرة لكن السبب المباشر لانتهاء الحياة هو الأرق ، كما استطاع العلماء تقسيم النوم الى مراحل

وصفات وبيان كل مرحلة، وأهمية الأحلام للصحة البدنية وللصحة النفسية خاصة...

ومع ذلك فان النوم ما زال سرا من الاسرار العميقة.

ومن تدبر نوم الرسول صلى الله عليه وسلم وجده أعدل نوم وأنفعه للبدن والأعضاء والقوى لأنه كان ينام أول الليل ويستيقظ أول النصف الثاني ويستاك ويتوضأ ويصلي، فيأخذ البدن والأعضاء والقوى حظها من النوم والراحة وحظها من الرياضة مع وفور الاجر، وهذه غاية صلاح القلب والبدن والدنيا والاخرة، ولم يكن يأخذ من النوم فوق القدر المحتاج اليه، ولا يمنع نفسه من القدر المحتاج اليه منه، وكان يفعله على أكمل وجه من الوجوه فينام على شقة الأيمن، ذاكرا الله حتى تغلبه عيناه، غير ممتلىء البدن من الطعام والشراب ولا مباشر بجنبه الأرض، ولا متخذ للفرش المرتفعة، بل مضطجع من أدم حشوه ليف، وكان يضطجع على الوسادة ويضع يده تحت خده أحيانا.

ولقد مر النبي على رجل نائم بالمسجد منبطح على وجهه فضربه برجله وقال:

«قم واقعد فهذه نومة جهنمية» ولقد تعرض الذين كتبوا في الطب النبوي قديما لفائدة النوم على الصورة التي

ارتآها رسول الله وقالوا انها تساعد على الهضم، وتريح القلب وتمكن الأعضاء من الراحة والاسترخاء، ولقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن النوم في الشمس، ومن الامور البديهية أن الشمس قد تؤدي الى الاصابة بأمراض الجو الحار المعروفة وهي:

١ - الانهاك الحراري

٢ - الانهيار الحراري

٣ - ضربة الشمس.

٤ - تقلص العضلات المؤلم (الكرامب).

وهي أمراض لها علاماتها وأعراضها المختلفة ولا يتسع المقام لذكرها.

وفي الصحيحين عن البراء بن عازب ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن، ثم قل: اللهم إني أسلمت وجهي (نفسي) اليك، ووجهت وجهي اليك، وفوضت أمرى اليك، وألجأت ظهري اليك رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك الا اليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت، واجعلهن آخر كلامك، فان مت من ليلتك مت على الفطرة..»

وفي هذا الجو الروحي المريح يستلقي المؤمن متوضئا مؤمنا وقد اسلم أمره كله لله، هذه الكلمات الحلوة التي يتفوه بها المؤمن أفعل من أي منوم وأقوى من أي عقار يجلب النوم فهي تريح القلب والنفس وتؤدي الى الاستقرار والهدوء اليقين وتبعد عن النفس هواجسها وأوهامها...

والنوم الجيد كما يقرر الأطباء يساعد على الاسراع في عملية الشفاء، ويقلل من مضاعفات المرض، كما أنه يعيد الى الجسم حيويته، ويعمل على زيادة الوزن في فترة النقاهة، ولا عجب أن أقيمت في امريكا عيادات خاصة للنوم، يعالج فيها المصابون بالأرق وأغلبهم ممن يعانون من الامراض النفسية.

والواقع أن الطب النبوي لم يترك جانبا من جوانب الصحة العامة، نفسية كانت أو عضوية الا وتعرض لها وأثبت فيها اعجازه، الأمر الذي أكدته الدراسات الحديثة والتجارب التي أجريت على الانسان والحيوان، فالانسان الذي يمنع من النوم بالوسائل الصناعية يفقد القدرة على التفكير السليم والتركيز ويصاب بالتوتر وسرعة التهيّج وانحراف المزاج، كما يفقد الرغبة في الطعام والشراب ويتناقص وزنه تدريجيا، وتسوء حالته النفسية لدرجة

كبيرة، وقد يصل الى مرحلة الجنون،.. ونفس الشيء حدث بالنسبة لحيوانات التجارب.

ان التفات الطب النبوي الى أهمية النوم يدل على حكمة بالغة، والمام شامل بما.. يحفظ على الانسان صحته وسعادته وقدراته الجسدية والعقلية والنفسية.

(٨) الطب النبوي وآداب المهنة

ان احترام الاسلام للعلم بشتى فروعه وتقديره للعلماء على مختلف أنواعهم وتخصصاتهم ودعوته للناس الى التعليم والتحصيل وجعل العلم فريضة، كل هذا قد فتح الآفاق أمام نهضته العلمية الرائدة في العصور التي تلت عصر النبوة، وهذه حقيقة ثابتة لا خلاف فيها وقد يكون من الأمور الملفتة للنظر تنظيم مهنة الطب بعد الاعتراف بها ومزاياها ووضع الصفات اللائقة بالطب، ومحاربة السحر والشعوذة والدجل، كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم حدد مسئولية الطبيب المعالج اذا أخطأ،. وتعرض الفقهاء الى قضية التضمين والتعويض في حالة العلاج الذي يؤدي الى وفاة المريض.....

وفي مجال اختيار أحذق الأطباء، ذكر مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم: «أن رجلا في زمن الرسول صلى الله عليه

وسلم جرح فاحتقن الدم ، وأن الرجل دعا رجلين من بني أنمار فنظرا اليه ، فزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهما: أيكم أطب فقالا: أوفي الطب خير يا رسول الله؟ فقال: أنزل الدواء الذي أنزل الداء »

ولقد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على مريض يعوده ، فقال: ارسلوا الى طبيب فقال قائل: وأنت تقول ذلك يا رسول الله؟ قال: نعم ان الله عز وجل لم ينزل داء الا أنزل له دواء » أما فيما يتعلق بالمسئولية الملقاة على عاتق الطبيب ، والزامه بالضمان في أحوال معينة ، فقد جاءت على لسان رسول الله في بعض الأحاديث وتناول الشرح بالتفصيل ، وقد روى أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من تطبب - ولم يعلم منه الطب قبل ذلك - فهو ضامن » من هنا يتضح ايجاب الضمان على الطبيب الجاهل ، فاذا تعاطى علم الطب وعمله ، ولم يتقدم به معرفة ، فقد هجم بجهله على اتلاف الانفس وأقدم بالتهور على مالم يعلمه فيكون قد غرر بالعليل فيلزمه الضمان لذلك ، وهذا اجماع من أهل العلم.

ولقد[1] قسم ابن القيم الاطباء في مجال المسئولية أو الضمان الى خمسة أقسام كالآتي: -

١ - أحدها طبيب حاذق أعطى الصنعة حقها، ولم تجْن يده فتولد من فعله؛ المأذون من جهة الشارع، ومن جهة من يطبه - تلف العضو أو النفس، أو ذهاب صفة، فهو لا ضمان عليه اتفاقا....
(وهناك خلافات بين الفقهاء في هذه النقطة).

٢- القسم الثاني متطبب جاهل باشرت يده من يطبه فتلف به، فهذا ان علم المجني عليه انه جاهل ولا علم له وأذن له في طبه لم يضمن، ولا يخالف هذه الصورة ظاهر الحديث.
وإن ظن المريض أنه طبيب وأذن له في طبّه لأجل معرفته ضمن الطبيب ما جنت يده، وكذلك إن وصف له دواء يستعمله والعليل يظن أنه وصفه لمعرفته وحذقه فتلف به ضمنه...

٣ - القسم الثالث طبيب حاذق أذن له، وأعطى الصنعة حقها لكنه أخطأت يده وتعدت الى عضو صحيح فأتلفه مثل ان سبقت يد الخاتن الى الكمرة، فهذا

---

(١) الطب النبوي ص/١٠٩.

يضمن لانها جناية خطأ، ثم ان كانت الثلث، فما زاد فهو على عاقلته فان لم يكن عاقلة، فهل تكون الدية في ماله أو في بيت المال؟؟؟
على قولين هما روايتان عن أحمد، وقيل ان كان الطبيب ذميا ففي ماله، وان كان مسلما ففيه الروايتان... الخ.

٤ - القسم الرابع: الطبيب الحاذق الماهر بصناعته اجتهد فوصف للمريض دواء فأخطأ في اجتهاده فقتله، فهذا يخرج على روايتين: احداهما ان دية المريض في بيت المال، والثانية أنها على عاقلة الطبيب، وقد نص عليها الامام أحمد بن حنبل في خطأ الامام والحاكم.

٥ - القسم الخامس: طبيب حاذق أعطى الصنعة حقها فقطع سلعة من رجل أو صبي أو مجنونٍ، بغير اذنه أو اذن وليه، أو ختن صبيا بغير اذن وليِّه، فتلف فقال بعض أصحابنا يضمن لأنه تولّد من فعل غير مأذونٍ فيه، وإن أذن له البالغ أو ولي الصبي والمجنون لم يضمن... الخ.

هذا ويلاحظ أن الطبيب في الحديث السابق يتناول

من يطب بوصفه وقوله، وهو الذي يخص اسم الطبائعي وبمِرْوَدِهِ وهو الكحال، وبمبضعه، (مشرطه)... ومراهمه وهو الجرائحي (الجراح) وبموساه وهو الخاتن، وبريشته وهو الفاصد،.... وبمحاجمه ومشرطه وهو الحجام، وبخلعه ووصله ورباطه وهو المجبر، وبمكواته وناره وهو الكواء، وبقربته وهو الحاقن، وسواء كان طبه لحيوان بهيم أو انسان، فاسم الطبيب يطلق على هؤلاء كلهم.
ويدخل في اطار تلك المسميات التي ذكرناها الطبيب الباطني وطبيب العيون (الرمد) وطبيب العظام والجراحة وأخصائي الطب الطبيعي.... الخ.
ولم يكتف الشارع بتحديد المسئولية القانونية بالنسبة للخطأ الذي يقع فيه الطبيب وانما حدد من هو الطبيب والمريض وولي المريض.. ومتى يدفع الضمان، ومن أين يدفع؟؟

ولا أريد أن أستطرد في هذا الجانب الفقهي القانوني لانه ليس مجالنا الان، وانما أردت أن أوضح الصورة المحددة العتيقة لابعاد مهنة الطب، في اطار مفهوم الطب النبوي الشامل لانه مهنة دقيقة تتعلق بحياةو الانسان بدنيا ونفسيا وعقليا، وليس من المعقول أن تترك هكذا بلا ضوابط أو رابط، ولذلك كان الطب النبوي أسبق الى الشرائع

والآداب التي أحاطت المهنة بمفهوم شامل واضح.. بعيد عن الشذوذأو المبالغة أو الاهمال ولم يستطع المشرعون المعاصرون..أن يضيفوا أمورا جوهرية في هذا المجال.

ولكي يكون الطبيب ماهرا أو حاذقا، فقد وضع الدارسون الأقدمون، من أطباء ومؤرخين وفقهاء، تصوراتهم الواقعية المقبولة، مقتدين بالقيم والمبادىء التي جاءت بها الشريعة الغراء، وبتجارب المؤرخين السابقين في الدول التي سبقت الدولة الاسلامية الأولى. ومن هذه الصفات أن يكون الطبيب ملما بأنواع الأمراض حتى اذا ما ووجه بمرض من الأمراض عرف من أي نوع هو، وعلى الطبيب أيضا ان يبحث عن المرض (العلة)، ومن الأمور الهامةأن يعرف الطبيب مدى قوة احتمال مريضه، وقدرته على مقاومة المرض، ويقيم وضع مريضه تقييما سليما من كافة النواحي والوجوه، حتى يستطيع أن يمضي في علاجه على هدى وبصيرة، وعلى الطبيب أيضا أن يعرف عمر المريض، وعاداته، لان لذلك صلة بتشخيص المرض، واختيار العلاج المناسب، والطبيب الحاذق هو من يهتم ببلد المريض.وتربته، وصلة مرضه بفصول السنة، فمن الثابت حديثا انتشار أمراض معينة في بيئات معينة وارتباط

أمراض أخرى بحالة الطقس أو فصول السنة، ولا يقف الامر عند تشخيص المرض - والعثور على الدواء بل أن يكون الطبيب ملما بمضاعفات الدواء وأخطائه ان وجدت بحيث لا يستعمله الا تحت اشتراطات خاصة، وبجرعات معقولة، ولوقت محدود، والطبيب الماهر هو الذي لا يهدف الى ازالة العلة فحسب بل عليه الا يتسبب - بعلاجه - في حدوث مرض خطير، أو مضاعفات أشد والا كان من الأفضل ترك الأمر على ما هو عليه... والطبيب الحاذق عليه ان يعالج بأسهل السبل، فلا ينتقل من العلاج بالغذاء الى الدواء الا عند تعذره، ولا ينتقل الى الدواء المركب، الا عند تعذر الدواء البسيط، فمن سعادة الطبيب علاجه بالاغذية بدلا من الأدوية وبالأدوية البسيطة بدلا من المركبة.. وعليه أيضا أن ينظر في العلة هل يمكن زوالها أم لا؟ فان علم أنه لا يمكن زوالها هل يمكن تخفيفها أو تقليلها أم لا؟ فان لم يمكن تقليلها، ورأى أن غاية الامكان... ايقافها وقطع زيادتها، قصد بالعلاج ذلك...

وعليه ألا يتعرض للخلط قبل نضجه باستفراغ، بل يقصد انضاجه، فاذا تم نضجه، بادر الى استفراغه، أي لا يصلح للطبيب الجراح مثلا ان يفتح خراجا قبل اكتماله وتكوُّن الصديد فيه والا اضر بالمريض من عدة نواح، كما لا بد أن تكون للطبيب خبرة باعتلال القلوب والأرواح - (الأمراض النفسية) وأدويتها، وذلك أصل عظيم في علاج الابدان، فان انفعال البدن وطبيعته النفسية، والقلب أمر مشهور، وهذا الطبيب الذي يجمع بين طب البدن وطب النفس هو الطبيب الكامل، والذي لا خبرة له بذلك لعدم إلمامه بالطب النفسي اساسا فانه يعتبر نصف طبيب حتى ولو كان حاذقا في الامراض العضوية.

ومن المهارة والحذق في ممارسة مهنة الطب أن يتلطف الطبيب بمريضه، ويرفق به ويكتسب ثقته، وان يمزج في علاجه بين العلاجات الطبيعية والالهية، والعلاج بالتخييل ويستعين على المرض بكل معين..

وهناك أركان يدور عليها علاج الطبيب وتدبيره وهي: -

- حفظ الصحة الموجودة.
- رد الصحة المفقودة بحسب الامكان.

- ازالة العلة أو تقليلها بحسب الامكان.
- احتمال ادنى المفسدتين لازالة اعظمهما.
- تفويت أدنى المصلحتين لتحصيل اعظمهما.

ومن الحذق ان الطبيب حيث امكن التدبير بالأسهل، فلا يعدل الى الاصعب، ويتدرج من الأضعف الى الاقوى، الا اذا خاف فوات الفرصة، ولا يصلح ان يستمر في المعالجة على حال واحدة، فتألفها الطبيعة، ويقل انفعالها بها..

واذا اجتمعت أمراض، بدأ بالمرض الذي يكون برء الأمراض الاخرى موقوفا عليه أو يبدأ بازالة السبب، واذا كان هناك حاد ومزمن، فليبدأ بالحاد، دون أن يغفل المزمن واذا اجتمع المرض والعرض، بدأ بعلاج المرض الا اذا كان العرض أقوى فيكون تسكين الوجع أولا...

هذا ما ذكر عن صفات الطبيب الماهر لدى الدارسين في مجال الطب النبوي، وتلك هي النصائح التي يجب أن يترسم الطبيب خطاها، فهل بعد ذلك زيادة لمستزيد ».!؟

(٩)الطب النبوي وأمراض الوراثة

علم الوراثة من العلوم الحديثة، وما انجز في مجاله يعتبر حيزا ضئيلا اذا ما قيس بما لم يكتشف بعد، ومن الأمور

الاولية في هذا العلم الحقائق التي عرفت عند دراسة الخلية وبالذات النواة والنوية، واشتمالها على ما يسميه العلماء الكروموزومات والجينات تلك التي تحمل الصفات الوراثية المختلفة، كلون البشرة والطول والقصر والملامح والقدرات العقلية، والأنوثة والذكورة، وبعض الامراض المختلفة والوراثية و بخاصة أمراض الدم كالهيموفيليا، والبكم والصمم والتخلف العقلي وأحيانا أمراض البول السكري وارتفاع ضغط الدم الأولي والصرع وغيرها من الأمور الكثيرة التي تشمل بعض الامراض النفسية وثبوت انتقال هذه الأمراض أو بعضها وغيرها، من الآباء الى الأبناء أو الاحفاد، ومن خلال الجهاز الوراثي الذي تحمله الخلية، ونفس الشيء يحدث بالنسبة للحيوان والنبات وكما أسلفنا فان دراسات علم الوراثة ما زال أمامها الكثير من الجهد.

ويظن بعض العلماء المتفائلين انهم يستطيعون التدخل لتخليص الانسان من بعض الامراض أو الاضطرابات التي تنتقل عن طريق الوراثة، وفي بعض بلدان العالم اليوم نجد مكاتب خاصة لفحص الراغبين في الزواج وذلك لاكتشاف الأمراض التي يمكن أن.. تنتقل للأبناء والأحفاد وبخاصة اذا كان الزوجان مصابين معا بواحد من هذه الأمراض مما

يجعل تعرض الأبناء للإصابة من هذه الأمراض اكثر احتمالا ، ومن ثم تقدم مكاتب فحص الراغبين في الزواج النصائح المفيدة في هذا المضمار.

واذا ما نظرنا في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجدنا أنه صلى الله عليه وسلم يوصي المسلمين في قوله بحديث معناه « تخيروا لنطفكم ولا تضعوها في غير الاكفاء لأن العرق - كما يروى عن المصطفى صلى الله عليه وسلم: - دساس ».

وبذلك وضع الرسول اللبنات الأساسية لعلم الوراثة، والوقاية من الانزلاق الى الزواج من « غير الأكفاء » فترى فكرة الكفء هي التي تقترب من الصورة المثالية دينا وأخلاقا .. وجسما ونفسا وعقلا ، ولم يعد أحد في عالم اليوم ينكر ما للوراثة من أثر على الاجيال الجديدة فاذا كان الأب مصابا بمرض السكر ، وكذلك الأم، فان النسبة الكبيرة من الأبناء تكون معرضة للاصابة بهذا المرض، سواء من مرض البول السكري الظاهر أو الخفي واذا كان أحد الوالدين هو المصاب بهذا المرض، فان النسبة تكون أقل ، والامهات المصابات بمرض الزهري مثلا ، يؤثرن على الأجنّة وهي في بطونهن، ولذلك قد يصبن بالاجهاض أو

الولادة المبكرة، أو يولد الجنين ميتا أو مشوها، وقد يموت بعد الولادة بفترة غير طويلة، أو يعيش بعاهة من العاهات كالعمى والصمم والتخلف العقلي،..

وهكذا نرى حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على تعليمنا بأن نختار الزوجة الكفء أو الزوجة المناسبة، ولقد تنبه الأطباء الأقدمون الذين تربوا في أحضان الحضارة الاسلامية الى هذه الأمور عامة، وخاضوا فيها على الرغم من ضعف امكانياتهم العملية، وعدم امتلاكهم للأدوات والالات والوسائل المختلفة التي نكتشفها اليوم، كالمجاهر (الميكروسكوبات) الالكترونية والمواد الكيمائية المستعملة في صبغ اجزاء الخلية والتجارب المختلفة على النبات والحيوان... والانسان؛وأحاديث الرسول في هذا المجال متنوعة، ولكنها تحث على اختيار الاكفاء من الزوجات ونعود فنؤكد ان الطب النبوي لم يترك مجالا من المجالات المتعلقة بالصحة الا وتعرض لها، وفي اطار الامكانات العملية، والتجارب التاريخية، والملاحظات التي سجلها العلماء في صدق ونزاهة.

(١٠) خاتمة

لا شك أن وضوح التاريخ أمام الطب النبوي كان هو البداية الصحيحة للنهضة الطبية الاسلامية في العصور اللاحقة، ففي مدرسة الطب النبوي تخرج عمالقة الطب الانساني كالرازي وابن سينا والزهراوي وابن النفيس وغيرهم، واذا نظرنا الى تراث هؤلاء الاطباء وجدناهم قد قطعوا مرحلة كبيرة في الطريق، فوضعوا الكثير من الأمراض وعلاماتها وأعراضها وتشخيصها وما ينفع في علاجها، كالحصبة والجدري وأمراض الرئة كالسل، وأمراض الجذام والبرص والملاريا وأنواع الصداع المختلفة،.. وأمراض الجهاز البولي والهضمي والعصبي وغيرها وكذلك وصف لبعض الأمراض النفسية واساليب العلاج المتطورة فيها، كما انجز الصيادلة المسلمون قدرا لا بأس به من التقدم في مجال العقاقير الطبية وتحضيرها وحصرها واستخدام الاعشاب المختلفة لاستخلاص الادوية منها، وكثيرا منها ما زال معمولا به حتى يومنا هذا، فكانت هناك الادوية المفردة والادوية المركبة.

ولقد بدأت النهضة الأوروبية الطبية على أساس التراث

الطبي الاسلامي، فترجم الى اللاتينية وغيرها من اللغات الأوروبيـة المؤلفات العديدة لأطباء المسلمين في المشرق والمغرب وكانت هذه المؤلفات المترجمـة تدرس في الجامعات الأوروبية لقرون،.. وتحتفظ المتاحف العالميَّةُ حتى اليوم بتلـك المخطوطـات الطبيـة. وكذلـك الآلات الطبيـة الجراحية والآلات التي اخترعها الزهراوي طبيب الاندلس وبخاصة «الجفت» الخاص بالولادة المتعسرة، وهذه الآثار برغم العلم المتقدم المعاصر - تعتبر مفخرة من مفاخر العقل الانساني، وقدرته على التقـدم والابتكار.

ان تاريخ العلم الانساني حلقات متصلة، وقد ساهم العلم الاسلامي في هـذا المضمار بجهود خلاقة كثيرة كانت هي الأساس المتين الذي قامت عليه النهضة العلمية المعاصرة.. ان الانسان - في أي زمان وأي أرض - يقف مبهورا أمـام تلـك المنجزات، ويعجب أشد العجب وهو يرى الاعجاز العلمي الذي تنطق به أحاديث الرسول في الطب النفسي والطب العضوي والطب الوقائي، وتنظيم مهنة الطب وأصول علم الوراثة، وتلك النظرة الشاملة الواعية للانسان ككائن حي يتأثر بكل ما حوله من بيئة وجو وظروف متباينة وسلوك متنوع وعادات وتقاليد.. اننا في الواقع

نمتلك أعظم رصيد لنهضة كبرى لكننا لا نهتم بتراثنا الخالد الاهتمام اللائق به، ومن العجيب ان المؤلفات التي تناولت فلاسفتنا واطباءنا وعلماءنا، كتبها باحثون اجانب لا ينتمون الى جنسياتنا، ولا يؤمنون بديننا، ولكنهم لم يستطيعوا سوى ان يحنوا رؤوسهم احتراما لهذا التراث الرائع الذي يشكل فصولا ضخمة في تاريخ الابداع - الانساني، والتراث العالمي الذي أخذ بيد البشرية الى التقدم. والتطور، لا في نطاق الطب وحده، ولكن في نطاق العلوم والمعارف الانسانية المتنوعة، وصدق الله العظيم اذ يقول وقوله الحق:

« سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »

وبعد،

فما أحوجنا لأن ندرس لأبنائنا في المدارس، بل وفي كليات الطب هذه الأصول العلمية والجهود البارزة في مجال الطب النبوي، حتى تستأنس اجيالنا الجديدة بذلك الكفاح المشرف للرعيل الاول من بناة الدولة الاسلاميه، وعلى عاتق وسائل الاعلام الحديثة ايضا فى بلادنا-

كالتليفزيون والاذاعة والصحف والمجلات والسينما - أن تقوم بدورها في مجال التعرف بحضاراتنا العريقة، احقاقا للحق، وبعثا للأمل في قلوب الشباب، وبعثا لحركة اسلامية واسعة... على الاسس الصحيحة السليمة.....

المراجع

(١) زاد المعاد لابن قيم الجوزية.
(٢) الطب النبوي لابن قيم الجوزية.
(٣) احياء علوم الدين للغزالي.
(٤) الموطأ للامام مالك.
(٥) صحيح البخاري للبخاري.
(٦) الصحة دنيا ودين - منشورات وزارة الصحة/الكويت.
(٧) الاسلام والصحة - ثلاثون حديثا اذاعيا للمؤلف /اذاعة أبو ظبي.
(٨) الصوم والصحة - مطبوعات مجلة الوعي الكويتية الاسلامية.
(٩) السياسة الشرعية - ابن تيمية.
(١٠) المخدرات في رأي الاسلام - الدكتور حامد جامع والعقيد محمد فتحي عيد.
(١١) مجلات طبية:
أ - مجلة الدكتور.

ب - مجلة طبيبك الخاص.

(١٢) المؤلفات الطبية الأكاديمية في الأمراض الباطنية والطب الوقائي وغيرها (باللغة الانجليزية).

(١٣) الطب الاسلامي: الدكتور عبد اللطيف البدرى.

تقويم للطب النبوي
على
ضوء الفكر المعاصر

للدكتور غلام كريم

« جنوب أفريقيا »



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص:

من بين القرارات التي اتخذها المؤتمر العالمي الأول للتربية الاسلامية قرار يؤكد على أهمية إعادة النظر في جميع العلوم بما يتفق والتعاليم الاسلامية، والممارسة الطبية في العصر الحديث نموذج صالح للمادة العلمية التي يمكن إعادة النظر فيها وتقييمها وفقاً لما جاء في القرآن الكريم والسنة الشريفة.

إن الممارسة الطبية الحديثة على الأساس المادي قد أدت للأسف إلى الابتعاد عن الأسس النبيلة التي وجدت لخدمتها وتحولت إلى حالة من الفوضى وسوء الاستعمال والارتباك سواء في الطب أو الجراحة.

ويجب إعادة تشكيل الأخلاقيات الطبية لتنسجم مع الأسس الروحية التي يمكن أن تضمن أفضل النتائج للمعاناة الإنسانية وبحيث يتفق مع تعليمات كتاب الله المنزل

وما جاء في الأحاديث الشريفة. وهناك اتفاق عام الآن على أن ترك العادات الصحية في الحياة التي تتفق والاقتداء بسنة الرسول قد أدى إلى متاعب نفسية وما يتبعها من أمراض التوتر كارتفاع ضغط الدم والاضطرابات في القلب وإلى معظم الأمراض النفسية إن لم يكن كلها. ولو أننا فسرنا الأحاديث النبوية التي تتصل بالتفاعلات العقلية والنفسية تفسيراً صحيحاً، لأمكننا أن نؤكد بما لا يدع مجالاً للشك النظريات الغربية في الأمراض العقلية، وستكون دليلاً على أن وسائل العلاج المختلفة المتبعة في علاج الأمراض العقلية لن تؤدي إلا إلى نتائج لا قيمة لها، وإننا نعتقد أننا سنصل إلى نتائج أفضل في علاج هذه الأمراض إذا اتبعنا التعاليم الاسلامية، وأن الاقتداء بالسنة النبوية سيكون مقالاً في منع الأمراض العقلية وفي علاجها.

وقد استندت في هذا البحث أساساً على مؤلف الذهبي الشهير والمسمى الطب النبوي. وهو يتناول العديد من الأمراض الجسدية وعلاجها كما يحوي الوصفات الطبية التي كانت مستعملة في القرن السابع الميلادي وبينها الكثير مما يستعمل حالياً في الممارسة الطبية، ويصلح هذا الموضوع

ليكون نواة لإعادة احياء العلوم الطبية بما يتفق مع السنة الشريفة، ولن يخدم الأطباء المسلمين وحدهم بل سيخدم كل من يهمهم القضاء على المعاناة في هذا العالم.

تقويم للطب النبوي على ضوء الفكر المعاصر:

يعتبر الفكر المسلم أن الإنسان هو رمز الوجود، وعلى هذا الأساس كان الأطباء المسلمون يعتبرون الجسد متمماً للروح ومن ثم ارتبط الدين والطب ارتباطاً وثيقاً في الاسلام.

ولما كان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم يعتبرون دراسة الطب شيئاً غريباً عن الدين، وكانوا يرجعون بأصوله إلى ما جاء عن الرسول نفسه، وكان المسلمون ينظرون إلى الطب كشيء مقدس.

وتعتبر هذه النظرة إلى الطب الأساس في نظرية القاعدة الروحية للطب في الاسلام بينما ينظر إليه في العصور الحديثة على أنه ممارسة جسدية تستهدف إرضاء الانسان ورغباته دون اعتبار لآثارها في النهاية.

وكان الرسول يؤكد على العناية الإلهية في معالجة المرض وكان يشبه ممارسة الطب بزرع البذرة ثم التوجه إلى الله التماساً للمطر. بل إن الرسول لم يؤكد على مجرد العلاج بل

إنه كان يحث على الوقاية من المرض وأن ذلك أفضل من العـلاج، وهذه نظرية لم يأخذ بها الغرب إلا أخيراً. وسيتضـح هـذا عندما نستعرض المبادىء الطبية عند الرسول التي تسمى الضروريات الست والتي كان على من يتصدى لعلاج الأمراض وأسبابها أن يضعها في اعتباره:

١ - الهواء (بمـا في ذلـك أثر الطقس والرطوبـة والتراب).

٢ - الغذاء من حيث النوعية وأوقات تناوله.

٣ - راحة الجسد وأهمية الحركة (التدريب)

٤ - النوم.

٥ - المؤثرات العاطفية التي تعجّل بالشفاء أو تعوقه

٦ - الافراز والاحتباس (والجنس يعتبر افرازاً)

وفي العصر الحديث تعتبر هذه المبادىء مقبولة من الوجهة النظرية إلا أنهم يؤكدون على أهمية مسببات العدوى وعلى الأسباب النفسية العضوية، ويمكن أن نستنتج ذلك من بيانات الخدمات الصحية العامة في انجلترا التي تظهر من الوصفـات الطبية اعطاء الأولوية للمضادات الحيوية والمسكنات التي تدخل المخدرات ضمنها. ولا يعني هذا أن نعرف عن استعمال هذه العقاقير السحرية بل إننا

نعني أن استعمالها يجب أن يقيد بشدة وأن نولي الاهتمام اللائق للعوامل الأخرى التي تسبب الأمراض.

الغذاء كمسبب للمرض:

من المسببات التي ذكرناها يعتبر الغذاء من أهمها ويقول الذهبي: إن الطب كله يتركز في نصف آية في القرآن الكريم تقول «وكلوا واشربوا ولا تسرفوا» ويفسر الحديث الشريف ذلك بما روي عنه عندما شكا له طبيب أجنبي من أنه لم يستشر من قبل أي من المسلمين خلال شهر من بقائه في المدينة، فقال عليه الصلاة والسلام: «نحن قوم لا نأكل حتى نجوع فإذا أكلنا لا نشبع» وهذا الرد يفسر سر احتفاظ المسلمين بصحتهم، وهناك أحاديث شريفة أخرى تؤكد هذه الحقيقة بينها ما ذكره الرسول من أن المعدة بيت الداء والحمية أصل الدواء.

وهذه الحقائق تعتبر في العصر الحديث من الأسباب الرئيسية التي تؤدي بالمرء الى التهلكة، وأنها تسبب الجلطات القلبية وارتفاع ضغط الدم، وما ينتج عنه من نوبات ومرض السكر وكثير من أنواع السرطان.

وفي الدول التي تعاني من نقص في الغذاء يتسبب نوع الغذاء في كثير من الأمراض، كما أن نوعية الغذاء تسبب

بعض أمراض سرطان الكبد والقولون- والمعدة. وقد ثبت في الهند أن ورق البتل يسبب سرطان الفم كما أن التدخين قد ثبت أنه يقوي فرص الإصابة بسرطان الرئة.

والواقع أن دخان السجائر يحتوي على ٢٠٠٠ مادة تعد أكثرها مواد يحتمل أن تسبب أمراض السرطان.

وقد علم الرسول أن العلاج الغذائي ما دام يكفي للشفاء فلا مبرر للجوء إلى العقاقير، وقص ما حدث في بغداد عندما استدعي طبيب حكيم لعلاج امرأة تعاني من العقم فقال انه لاداعى لعلاجها حيث أنها ستموت خلال اربعين يوماً، وعقب ذلك اتجهت المرأة الى العويل ورفضت الطعام، وبعد مرور الأيام الأربعين دون وفاة المرأة استدعى الطبيب لسؤاله عن تشخيصه قال: انها ما دامت قد فقدت قدراً كبيراً من وزنها فإنها أصبحت قادرة على الانجاب.

ومن المعلوم أن السمنة المفرطة تحول دون الحمل، ولذا فإن ذلك الطبيب الحكيم يكون قد عالج مريضته دون اللجوء إلى العقاقير.

ويكفي أن نقول في موضوع أهمية الغذاء كمسبب للأمراض وعلاج لها، فإن الأحاديث النبوية تصدر عن وحي إلٓهي وأنها صحيحة اليوم بنفس درجة صحتها عندما

حدث بها الرسول منذ ١٤٠٠ سنة.

ولم يكتف القرآن بالنهي عن الاسراف في المأكل والمشرب بل إنه حث على تناول بعض الأطعمة كالتمر الذي يذكر الإمام الذهبي أنه لا يعلو عليه شيء كغذاء مستشهداً بأن الله قد أمر السيدة مريم بتناوله: «وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً» (سورة مريم آية ٢٥).

وروت السيدة عائشة كذلك كيف أن الرسول عليه الصلاة والسلام أوصاها بتناول الرطب والخيارهي وعائلتها لزيادة الوزن، كما أن الأحاديث تشير إلى فوائد جمة للرطب كغذاء وكواق من المرض، ويحوي البلح كمية كبيرة من السكريات كما أنه غني بالفيتامينات وبخاصة فيتامين (ب)، (جـ) اللذين يساعدان على التئام الجروح وتغذية الأعصاب.

كما أن القرآن الكريم قد بين فضل اللبن كمصدر للغذاء في موقعين يشير احدهما عنه على أنه «سائغاً للشاربين» والآخر على أنه من أطعمة أهل الجنة.

والحديث الذي رواه الترمذي عن ابن عباس من أن اللبن لا يعدله غذاء آخر يتلاءم تماماً مع المعلومات العصرية.

وفي حديث آخر لابن عباس أن الرسول كان يحب اللبن، وكان معتاداً على المضمضة بعد شرب اللبن رواه البخاري ومسلم. وذلك لأن بقايا الدهون تضر المحموم ومن يعاني الصداع. ومن المعترف به أن اللبن مثير قوي للحساسية ويسبب التهاب الجيوب الأنفية (آلام الرأس).

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يعرف بأن اللبن يزيد الوزن ويساعد التئام الجروح بسبب ما به من مواد بروتينية، فكان يصفه لجميع الأمراض وفي الحديث الذي رواه ابن مسعود من أن الله «خلق الداء وخلق له الدواء»- فكان يحث الناس على شرب اللبن حيث أن الانعام تتغذى على كل انواع النبات، وهذا يدلنا على أن الرسول ﷺ كان على علم بالقيمة الدوائية للنباتات وكان هذا حافزاً للمسلمين للبحث عن الدوام ولدراسة النبات وخصائصه الطبية.

ونهى الرسول عن النفخ في اللبن لفصل القشدة عنه وهذا النهي لا يمكن أن يكون قد صدر إلا عن وحي إلهي حيث أن الهواء الذي يخرج مع الزفير يحتوي على الكثير من البكتريا، واللبن وسط نموذجي لتكاثرها.

وقد أشار القرآن الكريم كذلك الى اللحم كأحد أطعمة

الجنة (السورة ٥- آية ٩٧ والسورة ٥٢ آية ٢٢). وتذكر السيرة أن من يأكل اللحم بصفة مستمرة لمدة اربعين يوماً يقسو قلبه. وهذا شاهد على الحقيقة التي تقول أن بعض اللحوم تحوي دهوناً قاسية تتسبب في ترسبات دهنية في الأوعية الدموية تنتج عنها الأزمات والنوبات القلبية. وكان يوصي بأن يكون أكل اللحم مقتصراً على يوم دون الآخر. وأوصى بأكل لحم الضأن والدجاج كغذاء صحي، وبأن يمضغ جيداً لضمان حسن هضمه وحتى في العصر الحاضر لن تجد نصيحة علمية تفضل هذه- كما وأن لحم الخنزير قد حرم وقد ثبت أنه يحوي شحوماً عسرة الهضم، ويكفي هذا التحريم تناوله على الانسان، ويضاف إلى ذلك مخاطره الأخرى كمصدر لنقل الديدان وغير ذلك.

ومن الفوائد البدنية لصلاة التراويح أنها تساعد على حرق الدهون التي تتحول خلال فترة الصيام، وبعد تناول الإفطار يزداد معدل دورة الدهون التي قد تسبب أضراراً إذا لم تستهلك في حركات بدنية مثل الصلاة.

وتقول الأحاديث أن أفضل ما يشربه المرء هو الماء وأن أفضل المياه ماء المطر، كما أشار القرآن الكريم. واختار الرسول الكريم أن يشرب ماءً ظل ساكناً مدة طويلة وقد

يكون تفسير ذلك ضمان استقرار العوالق كما أنه كان يفضل الشرب من وعاء من الجلد أو الفخار.

وقد أدرك رجال الطب الاسلامي منذ وقت طويل ضرر الماء المحفوظ في أوعية من الرصاص، إلا أننا لا نكاد حالياً نناقش الحقيقة أن كل مصادر المياه حالياً تستخدم أنابيب الرصاص، ومن العادات شديدة الخطورة استعمال المياه المشبهة بالهواء التي ثبت أنها تؤثر على المعدة وينتج عنها القرح والتهابات الأغشية المعدية وفقدان الشهية للطعام.

واستعمال المياه في الوضوء والتطهر (سورة المائدة، الآية السابعة) يعتبر تقدماً صحياً سبق بكثير القواعد الصحية التي سادت منطقة الهلال الخصيب، وحتى القرن الخامس عشر الميلادي كان الأوروبيين يكرهون استعمال المياه في الاغتسال ولم يكونوا يعلمون شيئاً من قواعد الصحة الشخصية.

وقد صنف البخاري عسل النحل كدواء وفقاً للنص القرآني

«يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس» (سورة النحل الآية ٦٩).

وقد كتب أحد الأطباء في مجلة طبية صدرت عام

١٩٧٩م أن أحدث المراهم المستعملة كمضادات حيوية لم تفلح في علاج قرحة كبيرة كان يعالجها ثم تذكر أن جده كان يضع عسل النحل على الجروح فاستعمله وسرعان ما شفيت القرحة ثم تساءل الطبيب إذا كان هناك من يجد تفسيراً لهذه الظاهرة الفريدة (٦)

ومن المعروف أن عسل النحل يحتوي على مضادات حيوية خاصة يدوم أثرها لأكثر من ٥٠٠٠ سنة، فقد وجد أن بعض العسل الذي عثر عليه في مقابر الفراعنة المصريين قد احتفظ بطازجيَّتِهِ طيلة تلك المدة. ولو أجريت بحوث على هذه المضادات الحيوية لأدى ذلك ولا شك إلى اكتشافات جديدة تساعد في القضاء على البكتريا. وكذلك فإن الرسول ﷺ قد أوصى باستعمال العسل في علاج السعال والاسهال وآثار الجروح. وقول الرسول ﷺ أن هناك علاجان للبشر قصد بهما العسل والقرآن، الأول لعلاج الأمراض الجسدية والثاني لعلاج العلل الروحية.

ولا يزال شراب الشعرور والسنامكة يستعملان لعلاج الامساك كما كان الحال في أيام الرسول ﷺ، كما أن وصفه للشعير ومنقوع التالابنا لها نظائر حديثة تستعمل للتغذية في فترة الحميات.

وكان الرسول (ﷺ) يستعمل زيت الزيتون لعلاج البواسير والتهاب البلورا وأمراض الجلد ولمقاومة حالات التسمم. ولا يزال نفس العلاج متبعاً اليوم كما كان الرسول يستعمل زيت الزيتون لطرد الديدان وكمخفف للآلام ومساعد على الهضم.

وكان يستعمل السواك ويوصي به لتنظيف الأسنان وغسل الفم ويحكى أن ابن عباس أوجز فضله على الصحة في عشر أمور « يعطر الفم ويقوي اللثة ويذيب البلغم ويذيب القشور ويفتح المعدة (مثير الشهية) وفيه اتباع للشريعة ومرضاة لله ويزيد الحسنات ويسعد الملائكة » (٧).

وقد صدر هذا القول في وقت لم يكن العالم يدري فيه شيئاً عن صحة الأسنان ويؤكد كل طبيب أسنان الآن أهمية هذه النصيحة بالنسبة لصحة الأسنان.

ويتضح من الحديث الذي رواه البخاري عن كراهية أكل الثوم والبصل قبل دخول المساجد لما لهذه الجذور من روائح غير مستحبه ما كان يوليه الرسول الكريم من اهتمام بالعلاقات الاجتماعية، فكان عليه الصلاة والسلام من الحكمة بحيث كان يفكر في راحة الآخرين وحساسيتهم لأن روائح هذه النباتات قد تؤذي الآخرين وتصرفهم عن الصلاة (٨).

ومن العوامل الهامة في اتقاء المرض ممارسة التدريبات فكان الرسول يوصي بممارستها حتى يعرق الانسان والحكمة من هذا الوحي الإلهي وقد اتضحت الآن واعترف بها جميع العالم حيث توصف الهرولة والتدربات المنتظمة لتجنب النوبات القلبية وللحفاظ على الصحة فما أسعد المسلمين بممارسة الصلاة كما سيتضح عند حديثنا عن المزايا الرياضية لها.

ولما كان الانسان مخلوقاً اجتماعياً بطبعه فإنه في حاجة إلى الاتصال بالناس يومياً ولا يوجد لتحقيق ذلك بين عادات البشر وطقوسهم خير من صلاة الجماعة. وقد نهى القرآن الكريم عن الرهبانية ونبذ الجماعة أو أن يعزل الانسان نفسه عن اخوانه (السورة ٥٧: الآية ٢٧).

ومن ضمن مزايا صلاة الجماعة أنها تقرب بين الناس إذ لا يمكن أن يؤدي الانسان صلاة الجماعة وحده أو أن يتجاهل جيرانه فإن مجرد التحية البسيطة كافية لإذابة الجفوة وتقوية الألفة بين الناس. كما تحض صلاة الجماعة على الأخوة والمساواة وتذيب الفوارق بين الناس مهما كانت مراكزهم الاجتماعية أو ثرواتهم، والمسجد هو النموذج الذي تختفي داخله اعتبارات اللون أو الجنسية ولا يتذكر فيه

الانسان إلا حق الله عليه وألاّ فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى. وهذا يقوي التعاون المتبادل واهتمام الانسان باخوانه ومتاعبهم وأحوالهم. وسنناقش فيما بعد الأثر المفيد لهذه العقيدة على صحة الانسان العقلية وعلى تنمية المواقف الإيجابية بين الناس.

الفوائد البدنية للصلاة:

لكل وضع من أوضاع الصلاة فوائده فالركوع والجلسة والسجدة تثير عضلات البطن مما يساعد على الهضم ويزيد من الدم العائد إلى القلب وبالتالي يؤثر على الدورة الدموية، كما تساعد السجدة على تصريف الجيوب الأنفية التي تسبب الصداع، وينصح الأطباء في هذه الأيام بعملية التصريف عن طريق الحركات لتخفيف آلام الصداع والجيوب الأنفية.

ويمكن مقارنة الفوائد البدنية للصلاة بالتمارين القياسية التي يمارسها رواد الفضاء في الأماكن المغلقة والتي تحافظ على عضلاتهم لعدة أشهر بعد توقف كامل، ولكن الفوائد الأساسية للصلاة تعتبر فوائد نفسية في المقام الأول بالإضافة إلى الفوائد الروحية التي لن نتناولها في هذا البحث.

فالفوائد النفسية تزيل «الأفكار السيئة» وتخمد ثورة

الغضب والإحباط والصراع إذ أن الصلاة تدعو الفرد إلى الخضوع والتواضع أمام الله الخالق، فتجعل من الانتقام شيئاً كريهاً والعفو شيئاً مشجعاً، وتضفي على الانسان نبلاً، وتزيل الآثار السيئة لأعراض التوتر. ومنذ ثلاثين عام عرض (دهانز سيلي) نظرية أعراض التوتر وأوضح أن التوتر والغضب والصراع تؤدي إلى إفراز عدد من الهرمونات وبخاصة هرمون (الكريترزنات) الذي يؤثر بشكل كبير على جميع أعضاء الجسم كما أنه الهرمون الذي يستطيع الجسد بواسطته مواجهة الأزمات وبتسرب الهرمونات والمواد الكيمائية يرتفع ضغط الدم الذي يزيد من سرعة القلب ويعبىء الجلوكوز والمواد الدهنية لتفرز مزيداً من المواد اللازمة لمواجهة الاحتياطات التي نتجت عن تلك الأزمة، فإذا استمرت تلك العمليات النفسية والكيمائية لأي مدة من الوقت، فإن الجسم بالتالي يصاب بالأضرار. ويشير القرآن الكريم في سورة الانفطار إلى ضرورة بقاء الجسم في حالة من التوازن حتى في أوقات الازمة، فيقول تعالى: «يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم. الذي خلقك فسواك فعدلك. في أي صورة ما شاء ركبك» - وكذلك في سورة

الأعلى حيث يقول: «الذي خلق فسوى. والذي قدّر فهدى».

ومع ذلك فانه يسبب التوترات المعيشية فانه لا بد من إفراز هذه الهرمونات فإذا استمرت تلك العملية لأي سبب من الأسباب فان تراكمها يؤدي إلى عدد من الأمراض مثل زيادة الضغط الشرياني وأمراض القلب وغيرها.

ولدى الأطباء المسلمين فرصة فريدة لمراقبة ظاهرة انخفاض حوادث زيادة الضغط بين الأفراد الذين يؤدون الصلوات بانتظام، ولا بد أن تقدم الحكومات الاسلامية لهؤلاء الأطباء كافة التسهيلات الممكنة لمساعدتهم على اجراء الابحاث في هذا الشأن. وقد فشلت كثير من المشروعات الحكومية الرسمية في منع الأمراض لأنها كانت ترتكز على المستودعات الحكومية ولم يكن بها اسهامات ومبادرات فردية، وما أعظم ذلك المشروع الذي يشارك فيه كل مسلم والذي يكتسب كل فرد فيه من الفائدة ما يتساوى على القدر الذي شارك به.

المبدأين الرابع والخامس من مبادىء الطب النبوي في غاية الأهمية ويسهان كثيراً في المعارف والعلوم، ويتعلق ذلك بأثر الانفعال على المرض والأمراض النفسية

والنكسات الذهنية.

فقد كان الرسول يدرك أثر الانفعالات وهذا واضح من حديثه الذي يروى عن رجل جاء إلى الرسول يرجو النصيحة. فقال له الرسول: «لا تغضب» وهو يعني أنه لا يجوز للانسان أن يتصرف بدافع الغضب، وأكد القرآن ذلك في سورة آل عمران الآية ١٣٤. وكذلك يقول الرسول ﷺ ما معناه أن الغضب من الشيطان الذي خلق من النار وكما أن النار تطفئها الماء فقد أوصى المسلم بالوضوء إذا غضب[١٠]

مثل ذلك العلاج الذي يقي من الأمراض البدنية والذهنية موفور حتى لأكثر الناس فقراً دون اللجوء إلى أدوية ولا عقاقير لا تخلو هي نفسها من الضرر. كذلك فقد وصف الرسول الكريم علاجاً فريداً للندم والخوف وهما من الاسباب الرئيسية للصراع والتفكك. وفضل استخدام هذا الاصطلاح عن المرض العقلي من أن تستخدم كلمة (الجنون) فقد أوصى الرسول أن يردد الانسان هذا الدعاء:-

«لا حول ولا قوة إلا بالله- العظمة لله» وهناك أيضاً دعاء لابن مسعود.[١١]

كذلك فقد ذكر القرآن النوم على أنه فترة للراحة-

(سورة النبأ- ٧٨) وفي سورة الفرقان (٤٧). وقد كشفت الدراسات الحديثة أن الحرمان من النوم يؤدي إلى أضرار نفسية جسيمة وتغيرات في الشخصية وقلة النوم تتدخل في كيمياء المخ، وقد اكتشف مؤخراً ان الاحلام ومعظم الأمراض يرجع إلى كيماويات المواد الهاضمة ومنذ قديم الزمان كتب المسلمون عدداً من الأبحاث حول الأحلام وأن ارتباطها بأحداث المستقبل قد أثبته القرآن وذلك بالنسبة لسيدنا يوسف وسيدنا ابراهيم (سورة يوسف)، كذلك فإن الاحلام لم تعد تعتبر في أيامنا هذه أحداثاً زائفة ولكنها ترتبط بعملية الخلق ولها آثار ثابتة على الصحة العقلية كما أنها قد تساعد على تخفيف التوتر النفسي. ويؤكد ذلك كله على أن الأطباء المسلمين كانوا قادرين على الاستنباط العلمي- ومن المأمول أن يفتح هذا المجال آفاقاً اكثر لأطباء المسلمين ليستعيد الطب النفسي الاسلامي مكانته في الصدارة مرة أخرى.

وقد أوضح البروفسور بدري في دراسة قام بها كيف أن نظرية فرويد حول الصراع الذهني والاضطراب العقلي ليس لها أساس فقد أرجع كافة الانشطة والدوافع الانسانية

إلى الجنس وبالتالي فإن آراءه عن التحليل النفسي لا يمكن تطبيقها.

ولأن فرويد استخدم المفاهيم التلمودية أساساً لنظريات التحليل النفسي والتي أثبت (البنجرجر) أنه لا أساس لها، فقد استطاع علماء النفس المسلمون أن يستنبطوا نظرية أكثر دقة عن الشخصية وذلك من دراسة للقرآن والسنة

وقد كان رسول الاسلام أول من درس السلوك النفسي للشاب اليهودي (ابن الصياد)، بينما لا يزال على علم النفس الحديث أن يدرس أنماط الإدراك اللاعقلاني[١٢٢]

ويمكن استنباط الأساليب الحديثة لعلاج المرضى النفسيين من القرآن والسنة كما يرى كل من الدكتور عبد الشكور رشيد أحمد والدكتور عطية سويلم في كتابيهما[١٣]

وقد وضع مستشفى الملك فيصل في الطائف اتجاهات جديدة في علاج المصابين بأمراض عقلية وذلك باستخدام Legotharapy9 هو اصطلاح ابتكره (فرانكيل) ومعناه (العلاج بالمؤثرات القرآنية) (كلام الله) – القرآن. فقد ثبت أن إذاعة آيات من القرآن على مرضى مستشفى الطائف قد حققت نتائج أفضل بكثير من العلاج الغربي لهؤلاء المرضى.

وقد نبذ علماء النفس السوفييتيون نظريات فرويد

واعتمدوا في علاجهم على الاسس العدمية المبنية على الإلحاد (١٤).

ولقد نتج عن نظريات فرويد عن تطور الطفل وعقدة أوديب أن قام علاج الاطفال على اعتبار انهم صور مصغرة من البالغين وبالتالي أدى ذلك الى انتشار السلوك المنافي للمجتمع بين شباب الغرب. ولقد كان الرسول متسامحا أشد التسامح مع الاطفال فقد كان يسمح لحفيده أن يلعب فوق ظهره وهو يصلي ولا يقوم من سجدته لكي لا يزعج الطفل. وبما أن القرآن قد وضع قواعد ثابتة لاحترام الابوين (سورة ١٧ - آية ٢٣) فليس عسيرا أن نفترض أن سلوك الشاب المسلم سيكون أفضل بكثير اذا اتبع أبواه الوصايا القرآنية في علاج مشاكل عائلته والعلاقات والصراعات داخل الأسرة.

الافراز: -

الفصد والحجامة:

تكرر ذكر هذه العملية في الحديث الشريف وتتطابق فوائدها مع ما ورد بالعلوم الحديثة وبخاصة فيما يتعلق بعلاج الصداع الناتج عن ارتفاع ضغط الدم.

كذلك تتضمن الآيـة (٢٢٣) من السورة الثانية اشارة الى

المشورة الجنسية، وقد ذكر عالم النفس الاستاذ/ بدري أن هذه الاشارة متقدمة كثيرا عن كل ما يعرفه علماء الجنس في الغرب. ويدحض القرآن ما جاء في الروايات السامية القديمة من أن اختلاف الاوضاع الجنسية قد يؤثر على المولود فقد نظم الجنس خلال فترات زمنية معينة كأيام الصيام وأيام الدورة الشهرية، ومن الغريب أن يدافع بعض علماء الجنس في الغرب عن ممارسة الجنس أثناء الدورة الشهرية باعتباره غير ضار، بينما يحرم القرآن ذلك باعتباره ضارا اذ أن ذلك الدم يعتبر وسيلة لنمو البكتريا وأن الذكور قد يتعرضون لاصابة الكلى أو المثانة.

ولان القرآن واضح ومحدد تماما فيما يتعلق بالامور الجنسية فان المسلمين يمكنهم تجنب كثير من الآلام الجنسية مثل العجز أو البرود الجنسي الذي يرتبط في المجتمع الغربي بالشعور بالذنب أو الخطيئة بينما وضع القرآن كل الحدود لما هو مسموح بين الجنس الواحد، نجد أن القرآن قد حرّم ذلك في سورة النمل (٥٤ - ٥٦) وسورة الأعراف (٨٨) كما وضع الارشادات اللازمة حول ذلك الموضوع الذي طالما ارتدى ثوب الخرافة والجهل.

كذلك فان القرآن يمدنا بمعلومات عن أصل أنسجة

الخصية المستمدة من الكلية الأساسية، وتلك حقيقة لم تكتشف الا في هذا القرن، بينما يعلن القرآن أن الانسان يخرج من (بين الصلب والترائب) (سورة ٨٦ آيات ٦، ٧) وهذه المنطقة تشير الى الكلية فقط.

يؤكد علم الأجنة الذي يتضمنه القرآن الدليل الكافي على أن القرآن من أصل رباني، كذلك يشير القرآن الى الحقائق التشريحية الخاصة بالأوعية الرئيسية للدم، وأهمية الوريد المذكور في الآية القرآنية، (ونحن أقرب اليه من حبل الوريد). كل هذه الحقائق أعلنها القرآن قبل أن يبدأ الانسان في استكشاف الدورة الدموية بوقت طويل.

ان خلق الانسان من حيوان منوي وزرع البويضة المخصبة في الرحم وتطورها لتصبح جنينا بعظم ولحم وارد بوضوح في (سورة المؤمنون) (الآيات من ١٢ - ١٦)

مما يؤكد بما لا يقبل الشك أن القرآن لا يضم الاّ حقائق مؤكدة، وتتناول هذه الآيات أيضا خلق الانسان وموته وبعثه في الحياة الآخرة - بينما لا يزال الغرب يجادل فيما لو كانت هناك حياة بعد الموت. والكلمات الثلاث التي تحيط بالجنين والمذكورة في سورة الزمر (الآية ٦) تشير الى الحقائق التشريحية لجدار البطن وجدار عضلة الرحم والكيس

الغشائي الذي يغلف الجنين - تلك الآيات لا تقبل المناقشة.

الرضاع:

يحدد القرآن فترة الرضاع بعامين وهذا يؤكد أحدث الاكتشافات العملية للطب فقد ذكرت احدى دراسات منظمة الصحة العالمية أن اللبن الجاف والأغذية الصناعية لا تحتوي على المواد الغذائية التي يتضمنها حليب الأم، كما أن نسبة الدهنيات الى البروتين في لبن الأبقار تختلف عن تلك النسبة في حليب الأم (١٥).

عموميات:

لقد كان الرسول على معرفة دقيقة بمسببات المرض فقد كان يوصي بتغطية أواني المياه ويبين البخاري أن الرسول قال ما معناه أن الوباء والمرض ينزلان من السماء ليلا (أي أن الهواء يحملها) ولم تكن هذه الحقيقة معروفة عند الاغريق، كما أن ذلك المبدأ النبوي كان مطبقا في الممارسات الطبية في الأيام الاولى للاسلام، وعندما كان المسلمون يضعون تصميما لمستشفى جديدة في بغداد، قام الأطباء بتعليق قطع من اللحم في أجزاء مختلفة من المدينة ليروا أي الأماكن منها يستغرق فيه التعفن وقتا أطول.

والحديث الخاص بغمس ذبابة في اللبن يستند الى مبدأ طبي على عكس ما يراه العامة، وقد قال الرسول أن أحد جناحي الذبابة يحتوي على المرض بينما يحتوي الآخر على الترياق.

وكان ذلك في وقت لم يكن معروفا فيه أن الذباب يحمل المرض، وهناك مفهوم خاطىء أن جميع أنواع البكتريا ضارة وحقيقة أن العكس هو الصحيح وأن معظم البكتريا نافعة وجزء ضئيل منها هو الذي يسبب المرض، وتعاليم الرسول في هذا الصدد كانت تعتمد على مبدأ الانتفاع، فالحليب له فوائد كبيرة وضياعه قد يسبب مصاعب في أرض يندر فيها هذا الغذاء - والفكر الحديث يهتم كثيرا بالصحة فمنذ عقدين شاهد العالم وباء شلل الأطفال الذي كان منتشرا في المناطق الحضرية بصورة اكبر، ذلك لأن القواعد الصحية المطلقة لم تسمح للأطفال بتكوين الحصانة ضد المرض. واذا أخذنا حالة شلل الأطفال فقط فان الحديث الشريف هنا يؤكد صلاحيته ويقول الذهبي أن ذلك كان احدى معجزات الرسول. كذلك فقد عرف الرسول أن البرص غير معد ودعا أحد المصابين به لمشاركته الطعام، وقد ثبت صحة تلك الحقيقة في هذا القرن فقط.

المخدرات والكحول:

تمتلىء كتب الأدب الغربي بالحديث عن الآثار السيئة للكحول ولكن الأصوات التي نادت بمنعه منعا تاما ذهبت أدراج الرياح، ففقدان الطاقة البشرية والتفكك الاجتماعي والمعاناة التي تسببها أكبر بكثير مما تسببه الحروب للانسان - ومع ذلك فالعالم يصر على تجاهل تعاليم القرآن في هذا الشأن (١٧).

كذلك فالعالم يواجه ادمان المخدرات كنتيجة مباشرة لوصفات طبية تعتمد أساسا على (مذهب المتعة واللذة) وكذلك بسبب استخدام الادوية المهدئة لمعالجة المشاكل النفسية بلا تمييز - أما الهدي القرآني فهو بسيط جدا إذ يدعو الانسان للسعي الى عون الله بالصبر والصلاة كما ورد في الآية (٤٥) من سورة البقرة (واستعينوا بالصبر والصلاة) بدلا من اللجوء الى المخدرات. والاستجابة للصبر تساعد على تنمية الشخصية بينما تؤدي المخدرات الى القضاء عليها فهي ليست سوى وسيلة للهروب حتى يحين وقت الجرعة التالية ولا تحل المشكلة بأي حال من الأحوال.

هذه الملاحظات تنطبق أيضا على التدخين اذ أنه يرتبط بشكل قاطع بمسببات سرطان الرئة وقد حرمه

الرسول، كذلك فالقواعد التي حددها الرسول عند زيارة المريض ومواقف المسلمين في هذا الشأن تتناقض بشكل حاد مع العادات السائدة في الثقافات الغربية الغارقة في الظلام. فزيارة المريض في الاسلام عبادة ووضع اليد على المريض فرض (الترمذي) وعلى المسلم أن يستفسر عن صحة المريض، وفي ذلك حكمة بالغة فالذهبي يقرر أن التعاطف مع المريض يجعل الزوار يفكرون في مرضه ويدركون الآخرة.

وعلى أي حال، فطبقا لما رواه أبو هريرة فان الرسول لم يزر ثلاث حالات وكانوا لأفراد مصابين بالدمامل والرمد والصم - ويمكن تقدير حكمة التحريم بالنسبة للحالتين الأوليين فالأطباء لا يزورون حالات الاصابة بالعفن أولا كيلا تنتشر العدوى بين الآخرين، أما الحالة الثالثة فتحتاج الى ايضاح وتفسير، كما هو الحال بالنسبة للحديث الخاص بالذبابة الذي قد يبدو غير منطقي أو غير صحيح والذي ثبت ببحث الخبراء أن فيه نسبة معقولة من الحكمة ولا يمكن للفرد على هذا الاساس وحده أن يرفض أحد الأحاديث لأن القرآن يؤكد أن الرسول يعمل بأمر الله وحده.

ويقول الذهبي إن المرض هو اكبر حافز للمؤمن ليتوب

ويقول الصدق ويرفع وجهه للسماء وقد قال الرسول ما معناه أن من يموت على سرير المرض يعتبر شهيدا ويأمن حساب القبر، وقد اعتبر المرض والحمى من المطهرات من الذنوب وهذه نظرة تتعارض تماما مع ما ورد عند الساميين القدماء الذين اعتبروا المرض لعنة أو نقمة من الله، وقد أحدث الرسول ثورة على هذه الأفكار وأعطى دافعا لدراسة الأمراض وأسلوب علاجها حيث ان الله قد خلق لكل داء دواء، وقد أدى ذلك الى استبدال اليأس بالأمل ودعمت محاولات الاستشفاء وطلب العلاج.

ولقد أوصى بأن يقول المريض (الحمد لله) قبل أن يتحدث عن مرضه وبذلك يمكنه أن يتحمل الآلام.

هذه النظرة الموضوعية للمعاناة تتناقض مع الآراء السائدة في الغرب حيث لا يوجد للألم والمعاناة أية أسس دينية فالمسلم لا بد أن يتحمل الألم ويتبع ما أمر به القرآن من الاستعانة بالصبر والصلاة فذلك يساعد المريض على تحمل الألم بأقل دواء ممكن، ومن ناحية أخرى فان المريض الذي لا يستند الى اسس دينية تزداد حاجته للدواء، ولقد أدرك الأطباء المسلمون الأوائل هذه الملاحظة.

وعند ما يقترب الموت، فان للرسول في هذا الموقف

تعاليما، فعلى المحتضر أن يكرر الجزء الأول من الشهادتين وأن يطلب من الناس أن يساعدوه لكيلا يخطىء أو يتلعثم، ويذكر أبو داود الحديث القائل بأن مثل ذلك الانسان سيدخل الجنة بلا شك،

وعلى أسرة المحتضر أن لا تبكي وأن يخضعوا لارادة الله وأن لا يرفعوا أصواتهم في قراءة القرآن وأن يكونوا مثالا طيبا في السلوك - وهنا أيضا نصيحة للأطباء طالما أن القدر المحتوم قادم لا محالة فلا يجب عليه أن يلجأ الى الأجهزة والأدوية الكيماوية المعقدة من أجل المحافظة على الحياة.

هذه الاعتبارات الاخلاقية هي التي جعلت الأطباء يفكرون في فكرة الموت الهادىء سلبا وايجابا، وحيث أن تلك الفكرة محرمة تماما في الاسلام فانه لا بد من بذل كل الجهود لراحة المريض والسعي لشفائه.

ويقول أبو داود أنه يجب قراءة سورة (يس) أو سورة (البقرة) لتخفيف مشاعر الخوف والقلق لدى المريض ومنحه الطمأنينة.

وعندما تغلق عينا المريض يجب أن يردد المرء هذه الكلمات: «باسم الله وعلى دين رسوله محمد صلى الله عليه وسلم».

اما عن دفن الميت فهذا شيء واجب وقد أوضحه القرآن عندما بيّن الغراب لقابيل كيف يدفن أخاه (١٨).

كل ذلك يبين أن القرآن والسنة فيهما ما يهدى لكل سبل الحياة من المهد الى اللحد، وليس لهما في ذلك نظير، وما أصدق الآية القرآنية التي تقول:

«لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة»

وأخيرا، فانها مأساة كبرى أن القرآن لا يزال مجهولا لدى الغرب، وإنه لتحد كبير يواجه المسلمين في أن ينقلوا هذه الرسالة العظيمة الصادقة ليساهموا في رفع المعاناة والارتفاع بمستوى حياة كل أهل الأرض.



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

الرّسُول

صلى الله عليه وسلم

وَموقفُه مِنَ العِلم

للشيخ حسين جوزو
« يوغسلافيا »



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الرئيس:

أخواني وأصدقائي الاعزاء:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد،

فانه ليسرني أن أقدم أخلص شكري للقائمين بتنظيم هذا المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية، لما فيه من عمل جليل وخدمة بالغة لخير الاسلام والمسلمين وليس هذا بمستبعد من أخواننا المسؤلين في دولة قطر مثل أخينا العزيز الشيخ عبد الله بن ابراهيم الانصاري.

كما اتشرف بتقديم شكري الخاص لرئيس اللجنة التحضيرية للمؤتمر فضيلة الشيخ عبد الله بن ابراهيم الانصاري على أن شرفني بتوجيه الدعوة حيث مكنني من الحضور والمشاركة في هذا المؤتمر الذي له أهمية تاريخية بل في منتهى الأهمية. ويكفي في بيان مدى أهميته

التاريخة أن ينعقد في مستهل السنة التي ينتهي بها القرن الرابع عشر الهجري، وتدخل الهجرة بها في القرن الخامس عشر. وفي هذه المدة الطويلة من التاريخ مرّ الاسلام والمسلمون بمراحل وأطوار مختلفة تداول وتبادل وتناوب فيها المدّ والجزر، والتقدم والتأخر، والانتصار والتقهقر، وكانت هناك محن متعددة ونكسات وكوارث ذات عبر وآيات ونُذُر، وعلى الرغم من كل ما مرَّ به من المحن والابتلاء والفتن ذات الانواع والألوان المختلفة، فإن الاسلام حينما يدخل في القرن الخامس عشر الهجري يدخله وهو حيّ وقائم وثابت وصامد كل الصمود أمام جميع المحاولات العدوانية والهجمات، وأمام جميع الافكار والنظم والفلسفات والتيارات الهدامة التي استهدفت ولا تزال تستهدف القضاء عليه.

ولا يفوتني أن أُحيّي بهذه المناسبة أصحاب المعالي والفضيلة والسادة المشاركين في هذا المؤتمر وأحمل إليكم تحيات إخوانكم مسلمي يوغوسلافيا الذين كان لهم، بدون شك، نصيب لا يستهان به في القيام بالدعوة الاسلامية وأداء رسالة الاسلام ونشره في جزء مهم من البلاد الأوروبية ، ولا يزالون يقومون بهذه الرسالة غير مبالين بما

يواجهونه من ظروف وصعوبات وتضحيات وما يلاقيه المسلم في البلاد الاوروبية من الغزو الفكري الذي قد لا يمكن أن تتصوروا شدة ضغطه وزحفه على النشء الجديد، لأن بلاد أوروبا، كما هو معلوم، غنية جدا بأفكار متنافرة ونظم مختلفة ومذاهب عقائدية متضاربة... وفلسفات وآراء وإن تعدوها لا تحصوها لكثرتها وآختلاف أنواعها. فالقيام بمهمة الدعوة الإسلامية في مثل هذه البلاد ليس بأمر سهل.

وبعد كلمة التحية هذي بودي أن أتكلم باختصار بكلمة قصيرة في موضوع: (الرسول وموقفه من العلم) ولكن بإسلوب يختلف عن الأسلوب التقليدي الكلاسيكي الذي اعتاد الباحثون في الموضوع اتخاذه واستعماله، وكان منهجهم ينحصر دائما في ذكر الآيات والاحاديث التي تحثّ على طلب العلم وتدلّ على فضله وفضل أهله.

إن أسلوب ومنهج بحثي لا يقوم على سرد وترديد تلك الآيات والاحاديث التي سمعناها مئات المرات فحسب كيف وهو لا يبلى على كثرة الترداد؟

ومن زمن بعيد وأنا أفكر في موضوع الاسلام وموقفه من العلم بدا لي أن هناك ناحية مهمة جدا في الموضوع لم

يتصد لها الباحثون ولم يوجهوا إليها عنايتهم واهتمامهم العلمي. وإنما أهملوها إهمالا تاماً وتغافلوا عنها وهذه الناحية تتلخص فيما يلي:

من المعلوم بالضرورة أن رسالة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم اختتمت بها سلسلة النبوات ولذلك كان رسولنا ونبينا محمد عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين والمرسلين ولا نبي بعده.

والثابت أن برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وبعبارة أخرى بالقرآن بوصفه الكلمة الاخيرة للوحي انتهت فترة الخوارق التي كان أصحاب الرسالات في الأزمان السابقة من الأنبياء يثبتون بها صدق وصحة رسالتهم وبعثهم.

ولا حاجة بنا أن نستعرض هنا ما قصّ علينا القرآن من أنباء تلك الخوارق التي أيد بها سبحانه وتعالى رسله بالآيات المعجزات لأن ذلك معلوم لكل من له أدنى المام بالدين، وقد ذكر وسجل القرآن كثيرا من تلك الخوارق المتعلقة بالتحدي للكفار وبإثبات صدق دعوة الأنبياء وبعثهم.

وقد انقضى عهد الخوارق - كما قلنا ببعثة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم واستثناه سبحانه وتعالى عن غيره من الأنبياء السابقين، فلم يؤيد بعثته بالخوارق والايات الميتافيزيقية فقط، وإنما أيدها بالقرآن وآيات الكون. وقال الله تعالى مخاطبا لخاتم أنبيائه ورسله: (قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير، وما مسني السوء إن أنا إلاّ نذير وبشير لقوم يؤمنون) (الاعراف ١٨٨). وقال: (وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين. إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم اليه يرجعون) (الانعام ٣٥)

وقد ثبت أن القرآن أنهى عهد الخوارق وفتح عهد العقل والعلم والتفكير والتدبير والنظر الى آيات الكون والى ما تحتوي عليه الطبيعة من الاسرار والعجائب، كما اطلق للانسان حريته الكاملة بجميع أنواعها بما فيها حرية الضمير والعقيدة والرأي فحريته غير مقيدة، إنه حر في إرادته واختيار ما يقدم عليه مما يباشر من أعماله وأفكاره وآرائه واعتقاده. يقول الله تعالى: (وقل الحق من ربكم فمن شاء

فليؤمن ومن شاء فليكفر . إنا اعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه . بئس الشراب وساءت مرتفقا) (الكهف ٢٩ - ٣٠). وجاء في القرآن الكريم: (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين. وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون. قل انظروا ماذا في السماوات والارض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون (يونس ٩٩ - ١٠٠).

ومن المؤكد أن ما يمتاز به عهد رسالة محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ومن أخص خصائصه هو سيادة الوحي والعلم والاعتماد عليها بدل الخوارق والكهنة والعرافة والتنجيم طبعا في حدود إمكاناتها كما سنبين ذلك في مكان آخر من هذا البحث.

دعا القرآن إلى السير في الارض والنظر الى آيات الكون، والتأمل فيها والى ما جرى في التاريخ من حوادث والى أخذ العبر لامم وأقوام ودول يقول الله تعالى في كتابه الكريم: «أفلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثرمنهم »(غافر ٨٢).

« قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض »(آل عمران ١٣٧).

« قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين » (النمل ٦٩).

« قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق» (العنكبوت ٢٠).

إن التفكر والتفكير في نظر الاسلام من أفضل العبادات، ومن المأثور أن فكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة وأقرب الناس الى درجة النبوة أهل العلم والجهاد (وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب)[١].

ويكفينا في معرفة منزلة العلم ومكانته في الاسلام أن نلاحظ أن الله تعالى اختار الانسان أن يكون خليفته في الارض، وسخر له كل ما في السماوات وما في الارض، وشرفه بهذه المهمة العظيمة، وفضله على سائر المخلوقات على الرغم مما أبداه الملائكة وأشاروا الى بعض خصائص الانسان

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والبيهقي وقال: الترمذي: لا يعرف الا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة وليس اسناده عندي بمتصل.

السلبية من إفساد وسفك للدم، وذلك لأن الانسان يحمل في طبيعته وجوهر كيانه القدرة على العلم والمعرفة. وقد ميزه الله تعالى وفضله على سائر المخلوقات بالعقل الذي يمكنه من إدراك حقائق الاشياء وكشف نعم الله في الكون. و(علم آدم الاسماء كلها ثمّ عرضهم على الملائكة فقال: انبئوني باسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، قالوا سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم) (البقرة ٣١ - ٣٢).

هذا، ولكن يجب أن نعرف أن عقل الانسان وعلمه يجري في حدود متناهية ونطاق معين ودائرة محدودة. إن العقل وما ينتج منه من علوم وفنون واكتشافات تكنولوجية غير كاف وغير واف لاسعاد البشر وتحقيق رفاهيته ورخائه. وغير قادر.. لادراك كنه الحقيقة المطلقة، وإنما يدرك مظاهرها وتجليات صفاتها، لأن الحقيقة المطلقة وراء الكون والكون ليس إلاّ آية من آيات هذه الحقيقة.

ومن الخطأ الفاضح والانخداع الخطير، الاعتماد المطلق على العلم فقط، والثقة التامة به ظنا أن الانسان يكتفي به في حياته، ولا يحتاج الى غيره، وهذا ما وقعت فيه الحضارة الحديثة واتسمت به. وقد آمنت بالعقل والعلم إيمانا

مطلقا ، واعتمدت عليها اعتمادا كاملا ، وتجاهلت وتناكرت لسواها ، فحدث لها ما حدث من انحراف وانحلال وانكار للفضيلة والقيم الروحية ، ومن عدم الطمأنينة والاستقرار في الحياة وفي نفوس الناس. ان الانسان يعيش في قلق مستمر واضطراب متواصل وخوف دائم. وعلى الرغم من التقدم الباهر والمنتجات والمنجزات الضخمة في جميع حقول الحياة فان العالم المعاصر في مأزق لعل الله يجعل منه مخرجا ، وقد طغت فيه الماديات طغيانا لا مثيل له في التاريخ ، وأصبحت القوة تسيطر بجبروتها وتتحكم في جميع الامور وصار الانسان عبداً للآله وانحطت قيمته وحلت محله وقامت مقامه العقول الالكترونية - كومبيوتر ، وبهذا اصبح الانسان بمثابة دودة زائدة بدون وظيفة وكأنه لا حاجة اليه ، قد يستغنى عنه.

ومن هنا تبيّن لنا وثبت ثبوتا لا يتطرق اليه أي شك أن الانسان لفي خسر ، وأنه لفي خسر مهما تقدم في العلوم ، ومهما أنتج من مختلف المنتجات ومهما وصل اليه من حضارات وانجازات مادية ، والواقع أن الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا

بالصبر فهؤلاء لفي سعادة ويمن وبركة.

ومعنى ذلك أن العلم بدون الايمان بالله لا يضمن السعادة وفي الغالب يساء استعماله، كما حصل ذلك في الواقع في عهدنا، فإنه قد أسيء استعماله واصبحت اكتشافاتُهُ تهدد البشرية بابادتها مباشرة أو غير مباشرة، أعني بالاسلحة النووية أو بتلوث النفوس والهواء والماء وكل هذا قائم يعمل عمله وينذر بالويلات والنتائج الوخيمة المؤلمة

العلم بدون الايمان غير مفيد، لذلك قال الله تعالى في أول آية نزلت على الرسول: (اقرأ باسم ربك)، فالعلم باسم رب العالمين معناه استعماله في خير الانسان والمجتمع الانساني ويتعذر إساءة استعماله، وكما يتعذر استخدامه في القتل والتخريب والتدمير، وهذا ما حدث مع الأسف الشديد في عهدنا.

ومع ذلك فإن الانسان لا يستغني عن العقل، ولكنه لا يستغني كذلك عن أنه بحاجة الى العلم، ولكن حاجته الى القلب أشد، لان إنسانيته تعتمد وتتوقف على القلب والهدى أكثر من توقفها على العقل والعلم. الانسان يدرك بالعقل ويكتفي بالعلم، ولكنه يقبل الهدى، ويقبل عمل الصالحات بالقلب، فالقلب يمثل ناحية مهمة من

الانسان، وهو مصدر الفضيلة والهدى والالهام والايمان، ومن ثم يجب الاهتمام بهذه الناحية.

وبهذه المناسبة يحسن بنا أن نذكر هنا أن الحضارة المعاصرة التي نسميها بالحضارة الاوروبية قد ارتكبت خطأ آخر، وهو عنايتها البالغة بالتعليم واهمالها التام للتربية. أعني عنايتها بالعقل وإهمالها العناية بالقلب، فتجد العالم المعاصر خاليا من القيم الروحية، وغنياً حقا بالقيم المادية والمذاهب العقائدية والنظم الفلسفية والسياسية الاقتصادية، التي تنحصر برامجها في تحقيق وإنتاج ما يحتاج اليه الكيان الجسمي المادي للانسان. وفي هذا يكفي أن نذكر لك نظرية داروين وفرويد وماركس. وهذه النظريات كلها على اختلاف نزعتها الفلسفية والعقائدية اجتمعت على إنزال الانسان ووضعه في درجة الحيوان من حيث نشأته ودوافعه النفسية وعلاقته بالكون، فالانسان في رأي أصحاب هذه النظريات كائن لا هدف ولا غاية من وجوده ولا رسالة له سوى إرضاء شهواته من الجنس والاكل، وقد اتجه الفكر الاوروبي وعلمه وفنه هذا الاتجاه المادي العلماني، فكان ما نشاهده اليوم من إنكار وجود الله وفقدان

التوازن بين القيم الروحية والقيم المادية، وبين حاجات الجسم والروح.

إن مهمة العلم في نظر الاسلام هي كشف نعم الله وجعلها في خدمة المصلحة العامة، أعني في خدمة الانسان والمجتمع، وهو وسيلة خير اذا أحسنّا استعماله ووسيلة شرّ اذا اسأنا استعماله. وإن استعماله اذن يتوقف على الانسان. فاذا كان العلم في يد رجل صالح يصبح أداة خير وبناء وإصلاح، أمّا إذا كان في يد رجل شرير وذي فساد يصبح أداة تخريب وتدمير وقتل، لذلك كان الرسول عليه صلوات الله وسلامه يستعيذ بالله من علم لا ينفع.

معناه أن الانسان مع حاجته الى العقل والعلم فإنه في أشد الحاجة كذلك الى هدى من الله وتقواه، وهدى الله هبة وإلهام منه يعطيه لمن يشاء ويهدي اليه من يشاء. وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى أن نطلب منه الهداية: «إياك نعبد وايّاك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين» وهدايته تعالى مربوطة ومشروطة بتقواه «ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين» ولم يقل هدى للعالمين والعارفين. لأن الهداية في

القلب لا في العقل. والدليل القاطع على ذلك هو عالمنا المعاصر الذي يسود فيه العقل والعلم سيادة كاملة، ولكنه خال من الهداية والايمان والفضيلة، اذ يموت فيه كل سنة جوعا اكثر من عشرين مليون نسمة، وفي نفس الوقت تصرف وتنفق الدول الغنية الراقية في التخريب والتدمير والقتل مئات المليارات..من الدولارات. فياللانسان إنه لفي خسر، إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات

وعندما نبحث عن موقف الرسول من العلم كان أجدر بنا أن نتعرض لواقع المسلمين وموقفهم من العلم. إن موقف الرسول من العلم هو بعينه موقف القرآن منه، وموقف القرآن من العلم معلوم، ولكن ما الفائدة من التغني والترنم بهذا الموقف وحالة المسلمين وواقعهم من التخلف والضعف ونسبة الامية بينهم مما يؤلم ويؤسف له.

ولنا أن نتأمل لماذا هذا الواقع؟ ولماذا هذه الأمية بين المسلمين لا تزال منتشرة ونسبتها مرتفعة جدا تصل في كثير من البلاد الاسلامية مثل بنجلاديش وباكستان واندونيسيا وماليزيا وفي البلاد العربية وغيرها من البلاد الافريقية الى ٨٥٪ حتى في الأقليات الإسلامية التي تعيش في أوروبا

وغيرها من البلاد تجد نسبة الأمية بين أفرادها تزيد على نسبة غيرهم، وإن كانوا يعيشون في نفس الظروف.

يجب أن ندرس هذا الواقع وأن نجيب على هذه التساؤلات وأن نجد المخرج والخلاص منه. أقول مقدما بأني أعارض كل المعارضة، وأرفض كل الرفض محاولة تبرئة أنفسنا وإدانة غيرنا والقاء المسئولية عليه لما أصابنا من الضعف والتأخر، وأعتقد أن الرأي القائل بأن الاستعمار وحده سبب ضعف المسلمين غير صحيح باطلاق والواقع أن الاستعمار وحده ليس سببا لهذا الضعف وإنما جاء نتيجة له.

ورأيي أنه يتحتم علينا أن نعود الى أنفسنا ونبحث عمّا فينا من أسباب ضعفنا وما أصابنا من كوارث ونكسات ومصائب. فما أصابكم من مصيبة فمن أنفسكم، وأن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

هذه قاعدة القرآن تجري عليها الحياة منذ وجدت، فهل لنا أن نعتبر؟

موقف الإسلام من العلم

وأثر الرسالة الإسلامية

في الحضارة الإنسانية

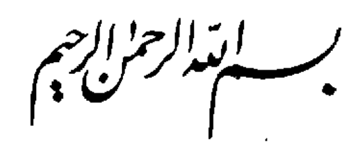
للدكتور محمد معروف الدواليبي

« سوريا »



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ



موقف الاسلام من العلم
وأثر الرسالة الاسلامية في
الحضارة الانسانية

مقدمة:

(١) يسرني أن أستجيب للمساهمة في المؤتمر الثالث. للسيرة والسنة النبوية الذي تقرر إقامته في الدوحة عاصمة دولة قطر العزيزة. وأشكر القائمين على تنظيم هذا المؤتمر، وعلى إحاطتهم بمعظم المواضيع الهامة التي اقترحوها على الباحثين لهذه السنة ليتألف من مجموعها خير مجموعة علمية حديثة للدعوة الى الاسلام، وللتعريف به عن طريق سيرة رسول الاسلام وسنته لخير بني الانسان. كما أشكر الدولة القطرية في شخص أميرها العظيم سمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني على احتضانها لهذا المؤتمر واستضافتها له، ولا عجب في ذلك لما عرف في شخص صاحب السمو أمير البلاد

وإخوانه ورجال حكومته من روح إسلامية عظيمة يحرصون بها على التجديد دوما لدعوة الاسلام، فجزاهم الله خيرا عن الإسلام والمسلمين.

موضوعنا وخصائص الاسلام من أجل نظام جديد للحياة:

(٢) وبعد فقد اخترت لكلمتي موضوعين من أصل أربعة وأربعين موضوعا اقترحتها اللجنة التحضيرية لهذا المؤتمر، جمعت بينهما لأجعل منهما موضوعا موحدا، وشاملا لعرض أعظم خصائص الاسلام من أجل «نظام جديد للحياة الانسانية المتطورة اليوم»،وذلك من خلال الموضوع المقترح الأول وهو: أثر الرسالة الاسلامية في الحضارة الانسانية»، ومن خلال الموضوع المقترح الخامس عشر وهو: الرسول وموقفه من العلم»..........ووضعتها تحت العنوان أعلاه: «موقف الاسلام من العلم وأثر الرسالة الاسلامية في الحضارة الانسانية» مبتدئا بموقف الاسلام من العلم، وذلك لأن «الدعوة الى العلم في الاسلام» تؤلف الميزة الأولى التي امتازت بها دعوة الاسلام على غيره من الأنظمة والمنظمات والأديان التي عرفتها الانسانية حتى اليوم، اذ أن.. الاسلام هو نظام الحياة الوحيد الجديد حتى اليوم الذي

أوجب طلب العلم على كل مسلم ومسلمة، وجعله من مقتضيات الاسلام، سواء كان المسلم ذكرا أو أنثى، عملا بقوله عليه الصلاة والسلام: « طلب العلم فريضة على كل مسلم »، وذلك للنهوض بمستوى الانسان لأول مرة في التاريخ على أساس من العلم والايمان.

(٣) ولماذا « النظام الجديد للحياة الانسانية المتطورة اليوم »؟........

- وما هي « أعظم المشكلات الانسانية الاساسية » التي أقلقت مجتمعاتنا الدولية اليوم؟

- وهل عجزت الأنظمة الدولية القائمة اليوم عن وضع الحلول الناجعة لهذه.. المشكلات الانسانية الأساسية » حتى بتنا في حاجة ماسة الى « نظام جديد للحياة الانسانية »؟.......................................

- وما هو موقف نفس أصحاب هذه الأنظمة السائدة في عالم اليوم تجاه هذه..الحاجةالى نظام جديد للحياة؟....

- وهل يستجيب الاسلام اليوم لهذه المقاييس التقدمية؟............. - وماذا كان موقف رسالة الاسلام من هذه المقاييس من قبل حينما جاء الاسلام

يدعو العالم الى تكوين الانسان الجديد وفقا لنظامه الجديد، ومن أجل حياة إنسانية جديدة عالمية؟

هذه هي مجمل الاسئلة التي أردت، من خلال الاجابة عليها أولا أن أجعل منها حجر الزاوية لموضوعنا، وذلك ليكون موضوعا لاصقا بحياتنا التي نعيشها اليوم، لا موضوعا أدبيا للذكرى والتاريخ.

تقدم العلوم والمفاهيم الجديدة للحياة ومشكلاتها:

(٤) ومما لا شك فيه أن حضارة عصرنا الحاضر قد تميزت عما سبقها من العصور الحديثة، فضلا عما سبقها من الحضارات القديمة، باكتشاف الكثير من القوانين العلمية الكونية القطعية التي لم تعرف من قبل، أو لم يجزم بها سابقا في بعض الحالات على الأقل.

وكان من نتيجة هذا التقدم أن اتسعت آفاق العلوم. وأن اكتشفت قوانين الذرة العجيبة. وأنْ تطورت التكنولوجيا تطورا سمح للانسان أن يطير في الفضاء، وأن ينزل على القمر، وأن يفتح الطريق لما هو أبعد من القمر بآلاف السنين، مما قد تصاغرت معه رقعتنا الأرضية، وزالت به الحدود، وامتزجت بحكم ذلك الشعوب ببعضها.

وتشابكت مصالحها، من غير فرق بين أقصى الشرق وأقصى الغرب في الأرض.

(٥) وكـــان من لوازم هــذا التقـــدم في العلوم والتكنولوجيا، وزوال الحدود فيما بين الشعوب البشرية وتشابـك مصالحها أن ظهرت مفاهيم جديدة في الحياة الانسانيـــة العالميـــة، وأن عجزت الأنظمـــة السياسية والاقتصادية السائدة في العالم أن يحتفظ كل منها لنفسه ووفقا لأنظمته القومية المحلية بما كان قد استأثر به من مصالح ممتازة على حساب الأمم والشعوب الأخرى دون أن يعرض سلامه وسلام الآخرين الى الخطر.

وهكذا ظهر الصراع اليوم واشتد بين الأقوياء أنفسهم من أجل حماية كل منها لمصالحه الممتازة الخاصة، مما قد عرض سلام الأرض قاطبة الى الزوال، وأفقد الانسانية كلها الشعور بالأمن والاستقرار. ولذلك أصبحت «الدعوة الى السلام» أنشودة الجميع لا فرق بين شرق وغرب، ولا بين قوي وضعيف، وخاصة في ظل وسائل التدمير الرهيبة الجماعية الحديثة التي يملكها كل من المتصارعين الأقوياء.

موقف الأمم المتحدة من هذه المشكلات:

(٦) وهكـذا فقد تداعت الأمم المتحدة الى جلسة استثنائيـة عام ١٩٧٤ أملا بالوصول الى حلول نهائية للمشكـلات الانسانيـة العالميـة، وذلك من أجل صيانة « السلام العالمي » المهدد بالخطر. وقد اعتبر هذا التهديد اليوم من أعظم.. مشكلات الانسانية الأساسية. غير أن تضارب المصالح فيما بينهم قد حال دون الوصول الـى حـل ما ،وهذا ما حملهم جميعا، من شرق وغرب، على الاعتراف:

- بأنه لا أمل بالوصول الى حلول صحيحة في ظل الأنظمة المتضاربة السائدة في العالم اليوم،

- وبـأن العالم قد تقدم اليوم: فكريا، وعلميا، وتكنولوجيا، وزالت بينه الحدود، ووجب أن يزول معها كل تمييز أناني ما بين الشعوب، والأفراد، والمصالح.

- وبأنه يجب وضع نظام اقتصادي عالمي حديث تراعى فيه جميع هذه المعطيات... الجديدة، ووفقا لقواعد جديدة عالمية للمجتمع البشري الجديد.

(٧) وبعـد هـذه الاعترافـات انفـض هـذا الاجتماع الاستثنائي الأول في موضوعه على موعد مع اجتماع استثنائي

آخر في عام ١٩٧٥م لتتقدم كل دولة من دول الأمم المتحدة باقتراحاتها الصالحة لاقامة النظام العالمي الجديد من أجل معالجة المشكلات الانسانية و «صيانة السلام العالمي» من الخطر وفقا لمبادئ هذا.. النظام وقواعده الجديدة.

خبراء الأمم المتحدة والدعوة لنظام جديد:

(٨) غير أنهم في اجتماعهم الاستثنائي الثاني في عام ١٩٧٥ م قد قرروا إحالة.. الموضوع وما قد ورد حوله من اقتراحات الى الجهاز العلمي للأمم المتحدة، وهو منظمة «اليونسكو» لتضع مبادئ هذا النظام وقواعده الجديدة التقدمية. وقد صدرت أخيرا توصيات «اليونسكو» في ذلك بعد كثير من الدراسة الجدية الهادفة والتعمق فيها، وهي متوجة بتواقيع خبراء العالمين الاشتراكي والرأسمالي، وتتلخص بالمبادئ والقواعد التالية:

أولا - وجوب مراعاة وحدة الأسرة البشرية من غير تمييز بينها في الحق بالحياة الكريمة.

ثانيا - ووجوب مراعاة وحدة مصالحها من غير تمييز فيها.

ثالثا - ووجوب وحدة التخطيط لاقتصادها من غير

تمييز لفريق على حساب فريق آخر.

رابعا - ووجوب العدل بينها على أساس من الحق والقانون.

(٩) وهكذا فقد وضع لنا خبراء الأمم المتحدة واجهزتها العلميـة اليوم تلـك المبادئ والقواعد الجديدة للأسرة البشرية المتطورة المتقدمة، واتخذوا منها تلك المقاييس الواضحة للنظام العالمي الجديد، ذلك النظام الذي ظل العالم ينشده، على عجز، على ألسنة فلاسفته ومحبي الاصلاح منذ أقدم العصور حتى اليوم، وبخاصة في عهد فلاسفة اليونان، ومدينة أفلاطون الفاضلة....

- فما هو موقف الاسلام من الدعوة الى نظام عالمي إنساني جديد؟

- ما هو موقف الاسلام من هذه المبادئ والقواعد التقدمية التي وصلت إليها الأمم المتحدة أخيرا عن طريق أجهزتها العلمية؟

- وهل يصلح الاسلام أن يكون بمبادئه وبقواعده التي قامت عليها رسالته منذ ظهورها هو التطبيق العملي لهذا النظام البديل للأنظمة السائدة اليوم؟

- وماذا كان لرسالة الاسلام من أثر في الحضارة الانسانية ومفاهيمها؟......

موقف الاسلام من الدعوة الى نظام جديد:

(١٠) وللاجابة على ذلك نرى أن نظام الاسلام الذي فوجئت به الأمم والشعوب قبل أربعة عشر قرنا كنظام جديد أيضا للحياة البشرية عامة»، لا نستبين أبعاده كنظام بديل للأنظمة العالمية السائدة اليوم، إلا بالعودة قليلا وبايجاز الى استعراض ما قد كانت عليه حياة تلك الامم والشعوب من مساوئ قبل الاسلام،.. واستعراض أوجه الشبه بينها وبين حياة عالمنا الحاضر، وماذا كان موقف الاسلام منها؟... وما هي المبادئ والقواعد الدائمة التي يعلنها الاسلام علاجا لتلك المساوئ من أجل حياة جديدة كريمة للجميع، ومن أجل صيانة السلام فيها؟..

(١١) وإن نظرة سريعة على حياة تلك الأمم والشعوب قبل الاسلام حتى العصر الذي ظهرت فيه دعوة الاسلام، تقودنا فورا الى القول المشهور في مثل هذا المقام، وهو ما أشبه الليلة بالبارحة.

وبالجملة فإن حياة تلك الأمم والشعوب لم تكن قائمة إلا

على مصالح الجماعات المحدودة في العشيرة والقومية. ولهذا لم يكن من الممكن أن ينظر من خلال ذلك إلا الى المصالح الضيقة لتلك العشيرة أو القومية، تلك المصالح المتنافرة، والقائمة على الأنانية والاستئثار والامتياز في الحياة لدى كل من الشعوب على حساب الآخرين. وهذا ما قد وضع العالم القديم في حروب بربرية دائمة، وبخاصة الحروب الدولية الأخيرة التي أدركها الاسلام حين ظهوره، وكانت أيضا فيما بين الشرق القديم الفارسي والغرب القديم اليوناني أو البيزنطي، متسلسلة منذ عهد الاسكندر اليوناني مع الفرس قبل بضعة قرون من المسيح، الى عهد هرقل مع الفرس أيضا في القرن السابع بعد المسيح، حين ظهر محمد عليه الصلاة والسلام بدعوته الى الاسلام، مناديا في قومه أولا، ثم في العالم أجمع، بدعوة القرآن الكريم ضد تناحر الشعوب: - قائلا: يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة »...

- ومعلنا على العالم أجمع قول الله رب العالمين :« يا أيها الناس... إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا... إن أكرمكم عند الله أتقاكم »، ومناديا

بأعلى صوته أيضا بقوله عليه الصلاة والسلام: «الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله».

- وداعيا الجميع على اختلاف أجناسهم وأعراقهم وأديانهم الى التعاون الواجب من أجل خير الانسان عملا بقول الله سبحانه وتعالى : «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان».

- وضامنا في كل ذلك «حرية العقيدة» عملا بقوله سبحانه وتعالى: «لا إكراه في الدين».

وقضى بذلك وفقا لعقيدة الاسلام على كل تعصب واضطهاد فيما بين العقائد والاديان والشعوب.

(١٢) ولقد جاءت هذه الدعوة الاسلامية العالمية تهز أركان نظام العالم القديم البالي، في تعاليمه وشرائعه وتقاليده غير الانسانية التي قضت على جميع معاني وحدة الاسرة الانسانية، والتي قضت على كرامة الانسان وعلى حقه في الحياة ما لم يكن من فئة معينة، ومن طبقة معينة.

وقد سجلت هذه الدعوة الجديدة سبقا فعليا على جميع دعوات عالمنا الحديث في هذه المعاني: حيث دعت العالم قبل أربعة عشر قرنا الى نظام مجتمع إنساني حديث متقدم

بكل ما في الحداثة والتقدمية من جدة وسمة، وذلك بالدعوة صراحة الى نوع جديد من الحياة حيث تتساوى فيها جميع الأعراق والأجناس والشعوب في الحياة الكريمة وفي المصالح البشرية عملا بنص القرآن نفسه كما سوف نرى، معتبرة أن ذلك النوع من الحياة المعهودة غير الانسانية، مما قد تعارف عليه الناس من قبل غير جدير باسم الحياة.

(١٣) وضمانا لهذا النظام الجديد للحياة الانسانية، فقد أقامت الدعوة الإسلامية لذلك شريعة تمتاز على جميع ما عرفته الشرائع القديمة، بل والحديثة أيضا، من ضوامن، وتتلخص بالمبادئ العالمية التالية:

أولا - بأنها شريعة عالمية تنظر الى شعوب البشرية على أنها أسرة بشرية واحدة.

ثانيا - بأنها شريعة إنسانية، لا تمايز فيها ما بين إنسان وإنسان في الكرامة الانسانية.

ثالثاً - بأنها شريعة ترعى مصالح الحياة الانسانية المتجددة، من غير جمود فيها على زمن أو مكان، وأنه لا فضل فيها لانسان على إنسان، ولا لشعب على شعب في حقهم جميعا في الحياة الكريمة.

رابعا - بانها قد شددت على اقامة العدل وجعلته أساس الملك تبعا للحق، من غير امتياز فيه للشريف على الوضيع، ولا للغني على الفقير، ولا للقوي على الضعيف.

ورضي الله على أبي بكر الخليفة الأول في الاسلام الذي قال حين بويع بالخلافة: أيها الناس! ان القوي عندي ضعيف حتى آخذ منه الحق للضعيف، وان الضعيف عندي قوي حتى آخذ له الحق من القوى.

(١٤) وبذلك نقف في دعوة محمد الالهية أمام خصائصها ومميزاتها، وأمام اصلاحاتها لنظام العالم القديم البالي في مفاهيمه وفي تناحره، وفي امتيازات شعوبه وأفراده بعضهم على بعض، تلك الاصلاحات التي قال في بعضها «أدوار مونتية» استاذ اللغات الشرقية في جامعة جنيف في مقدمة كتابه لترجمة القرآن: «إن اصلاحات محمد قد حققت تقدمات ذات ابعاد غير متناهية، وذلك لدرجة تجعل محمدا في عداد أكبر العظماء الخادمين للانسانية...»

(١٥) وهكذا فإن الاسلام بقواعده هذه قد أقام النظام الجديد للحياة الجديدة، وذلك لتلتقي عليه جميع الأمم والشعوب تحت شعار الدعوة الى الخير، والتعاون على البر

والتقوى، من غير عصبية ولا أنانية ولا امتياز لانسان على انسان.

وفتح الاسلام في كل ذلك باب الحوار السلمي مع أبعد الناس عن عقيدته قائلا تارة: «وقولوا للناس حُسْناً» وتارة: «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن» وتارة: «ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة» وتارة: «المؤمن إلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف».

ترحيبنا بتلاقي الأمم المتحدة مع مبادئ الاسلام العالمية.

(١٦) وانه ليسرنا أن تلتقي جهود الأمم المتحدة وخبراؤها أخيرا مع نفس المبادئ والقواعد التي شرعها الاسلام، وحرص على سيادتها لدى جميع شعوب الانسانية منذ أربعة عشر قرنا. بل ما اعظم بهجتنا وحاجتنا اليوم الى مجموعة عالمية جديدة كالامم المتحدة لتتبنّى هذه المبادئ والقواعد كما تبناها العرب في العهد النبوي وعهد الخلفاء الراشدين، ولتقود العالم الإنساني ضمن نظام عالمي تقدمي يعالج وقائع الصراع العالمي ومفاسده من أجل سلام انساني كما عالجها الاسلام على أسسه الواضحة أدناه:

- على أساس الدعوة الى خير الناس من غير تمايز.

- وعلى أساس «الأمر بالمعروف» الذي تعارف عقلاء الناس فيه على أنه لا بد لهم منه لصلاح حياتهم.

وعلى أساس «النهي عن المنكر» الذي رأى فيه العلماء والحكماء وأهل الفكر انه شر لا تستقيم معه الحياة الانسانية لأحد.

وبذلك فقط نستطيع أن نضع حدا للأثرة وحب الذات، وللتمايز فيما بين الأفراد والطبقات والشعوب في حقهم جميعا بالحياة الكريمة على نحو ما قد نادى به محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم والاسلام، وذلك باعلانه إعلانا جازما: بطلان التمايز فيما بين البشر بجميع أجناسه وشعوبه، وبوضعه لهم جميع الاحكام القانونية لضمان تلك المبادئ والقواعد الانسانية الحيوية العالمية.

مميزات دعوة الاسلام في النظام الجديد العالمي:

(١٧) هذا ولا بد لنا هنا من الاشارة الى ما قد امتازت به دعوة الاسلام لمبادئ هذا النظام الجديد للحياة على دعوة خبراء الأمم المتحدة اليوم، وما ذلك للانتقاص مما قد وصل اليه هؤلاء الخبراء المحترمون وقد ابتهجنا به، ولكن

من أجل ضمان نجاح الدعوة لهذه المبادئ والقواعد للنظام الجديد.

(١٨) فلقد أقيمت دعوة الاسلام لهذه المبادئ والقواعد الجديدة لنظام الحياة الانسانية على أساسين كانا هما دعامة النجاح:

أولا - أنها دعوة متفرعة عن العقيدة الدينية.

ثانيا - انها دعوة متفرعة عن فريضة العلم، كل العلم، على كل مسلم، ذكرا كان أو أنثي، وخاصة الدعوة فيه الى تطوير التكنولوجيا من غير حد فيها، وذلك للنظر الواجب على كل مسلم بنص القرآن الكريم فيما قد حوته السموات والأرض عملا بقوله سبحانه وتعالى: «قل انظروا ماذا في السموات والأرض».

(١٩) أما دعوة خبراء الأمم المتحدة اليوم الى تلك المبادئ فهي أولا دعوة تحت ضغط المصالح المادية المتنافرة، وثانيا أنها كانت انجراراً وراء ما قد تركه انتشار العلم والتطور التكنولوجي من أجل المصالح المادية في تطوير مفاهيم البشرية عامة من غير قصد إليها، بل إن انتشار هذا العلم كان اليوم على الرغم من إرادة القابضين

على مفاتيحه الحريصين على الاستئثار به وبمنافعه دون بقية الناس أجمعين.

وشتان ما بين الدعوتين: فالدعوة الاسلامية لذلك النظام الجديد الانساني متفرعة عن إيمان المسلم أولا، كما هي متفرعة ثانيا عن فريضة الاسلام للعلم على كل مسلم من غير استثناء، ومنذ اللحظة الأولى في الدعوة الى الاسلام، لا عن الانجرار وراء انتشار العلم من غير قصد.

(٢٠) ولذلك فإن المسلمين المخلصين لاسلامهم يتقبلون اليوم بصدق ومن غير تردد الأخذ بهذه المبادئ اذا صحت عزيمة الأمم المتحدة في ذلك، وصدقت فيها النوايا، وذلك لما للدين من سلطان على النفوس فوق سلطان القوانين ولما كان موضوعنا هنا قاصرا على موقف الاسلام من العلم أولا، وعلى أثر الرسالة الاسلامية في الحضارة الانسانية ثانيا من أجل نظام إنساني عالمي جديد، فاننا ندع هونا موضوع الناحية الايمانية بعد أن أشرنا اليها لأهميتها، لننتقل الى شرح موقف الاسلام من العلم أولا، ثم الى أثر الرسالة الاسلامية في الحضارة الانسانية ومفاهيمها وذلك بعد أن اتضح لنا أن دعوة الاسلام من قبل ومن بعد إنما

هي دعوة الى اقامة نظام عالمي من أجل حياة جديدة إنسانية تقوم على كرامة الانسان في كل مكان، ومن غير تمييز بين الأفراد والأقوام كما ذهب اليه خبراء الأمم المتحدة اليوم، وكان ذلك حجر الزاوية في موضوعنا الآن.

موقف الاسلام من العلم

(٢١) وقبل الخوض في موقف الاسلام من العلم كدين، لا بد لنا من استعراض ما قد رسخ لدى علماء اليوم في الغرب من مفهوم للدين متناقض تماما مع مفهوم الدين في الاسلام.

فلقد ذكر علماء الغرب تعاريف كثيرة للدين بلغت المائة، وقد أسقطوا منها ثمانية وتسعين تعريفا، واحتفظوا منها بتعريفين مفضلين حيث قالت الموسوعة الفرنسية الكبرى للعلوم والآداب والفنون في كلمة الدين: «إن أحسن هذه التعاريف قبولا هو التعريف الذي وضعه كوبليت دا الفييلا

حيث قال:

«إن الدين هو الطريقة التي يحقق بها الانسان صلاته مع قوى الغيب العلوية». ثم ذكرت الموسوعة التعريف الآخر

للدين فقالت: «وقد وضع جامس دار ميستيتر تعريفا فقال: إن الدين هو ما يشتمل على كل معلوم وكل سلطة لا تتفق والعلم»!!

(٢٢) وإننا اذا نظرنا الى مفهوم الدين في القرآن الكريم، رأينا أن «الاسلام» الذي سماه القرآن «دينا» يختلف تمام الاختلاف عن مفهوم «الدين» المنقول عن علماء الغرب أعلاه، والمسيطر على مفاهيم أكثر الناس في هذه الايام من المتأثرين بثقافة الغرب.

ذلك أن «الاسلام» وان سماه القرآن دينا عملا بآخر آية نزلت منه وهي قوله تعالى: «اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الاسلام دينا»، هو رغم ذلك قد تجاوز في أسس دعوته ومقاصده تلك الحدود الضيقة وغير المعقولة التي وضعها علماء الغرب للدين، او وضعوا الدين فيها.

(٢٣) فلقد تجاوز الدين في مفهوم القرآن تلك الحدود أولا من «صلات الانسان مع قوى الغيب العلوية» الى حدود أخرى أعطاها نفس الاهتمام، ألا وهي «صلات الانسان مع الانسان»... ثم فوق ذلك، قد حمل المخاطبين به

على « الاحتكام » في كل تلك الصلات مع الله والانسان الى « العلم والعقل والفكر »، فقال القرآن الكريم في ذلك تارة: « ونفصل الآيات لقوم يعلمون »، وتارة « لقوم يعقلون » وتارة « لقوم يتفكرون ».

(٢٤) وإننا إنما لفتنا النظر الى هذه الفوارق الاساسية ما بين مفهوم الدين في القرآن، وبين مفهومه لدى الغير، لنتجنب بذلك أعظم خطيئة وقع فيها كثير من علماء الغرب في نظرتهم الى الاسلام والى شريعته ككل، وحكموا عليه بالجمود وبعدم التمشي مع المصلحة والعلم، وذلك بسبب ما عرفت عندهم أعلاه من مفهوم لمعنى الدين.

(٢٥) وبعد فإن موقف الاسلام من العلم لا تستبين عظمته إلا بملاحظة ما قد استقر لدى علماء الدين في غير الاسلام، فيما قبل الاسلام وبعد الاسلام، من مقاومة وعداء للعلم مما عطل العقل، وأفقد الانسان أعظم ميزة يمتاز بها الانسان على الحيوان.

(٢٦) ولعل العقائد « الدوية » التي انتشرت في الصين منذ القرن السابع قبل الميلاد على يد فيلسوفها « لو - دزة » (٦٠٤ - ٥١٧ ق. م) تعطينا فكرة صحيحة عن

مصدر العداء للمعرفة والعقل، ذلك العداء الذي استمر لدى الاديان حتى مطلع القرن الثامن عشر في نهضة العالم الحديث؛ حيث شجبت الكنيسة مواقف علماء الطبيعة والباحثين فيها من غير رغبة في المناقشة على أساس العلم والعقل، حتى كان ما كان من انفصال نهائي للحركة العلمية عن الدين، وعدائها للدين، وتسجيل تلك التعاريف لمفهوم الدين لديهم ضد العلم والعقل.

(٢٧) ويقول« لود-زه » مؤسس مذهب الدوية، بل إله الدويين الذين عبدوه فيما بعد:

- إن الطبيعة قد جعلت حياة الناس في الأيام الخالية بسيطة آمنة، فكان العالم كله هنيئا سعيدا.

- « ثم حصل الناس المعرفة » فعقدوا الحياة بالمخترعات، وخسروا كل.. طهارتهم الذهنية والخلقية، وانتقلوا من الحقول الى المدن وشرعوا يؤلفون الكتب، فنشأ من ذلك كل ما اصاب الناس من شقاء، وجرت من أجل ذلك دموع الفلاسفة.

- « فالعاقل اذن هو من يبتعد عن هذا التعقيد الحضري، وهذا التيه المفسد: تيه القوانين والحضارة، ويختفي بين أحضان الطبيعة.

- وان العلم ليس فضيلة، بل ان السفلة قد زاد عددهم من يوم ان انتشر العلم »!!

(٢٨) وهكذا نشأ هذا العداء للعلم، وتسرب الى معظم العقائد والاديان، عَبْر العصور والتاريخ، حتى كان منه ما كان في أوروبة وفي عصور النهضة الحديثة، من موقف الكنيسة تجاه العلم والعلماء،. حتى اصبح الدين والعلم ضدين.. لا يجتمعان.

(٢٩) ولما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم برسالته، وفاجأ العرب بالدعوة، الى الاسلام، والى الخروج من حياة الجاهلية البغيضة، والى تكوين المجتمع الانساني العالمي على اساس السلم والوحدة والتعاون على الخير من غير تمايز بين القبائل والشعوب والأجناس، لم يكن العرب عندئذ بعقائدهم الدينية الوثنية بخير من غيرهم في التمسك بالعقائد والتقاليد الجاهلية غير المعقولة، والحكم بالموت على من يدعوهم لتصحيح عقائدهم الوثنية، ونبذ انماط حياتهم المألوفة. وكذلك فعلوا، وحكموا على محمد بالموت، وهم الذين حكموا له من قبل ودعوه بالرجل الأمين.

وهكذا نشأت المعركة بين الخير والشر، ودامت

المعركة نحوا من خمسة عشر عاما انتصرت فيها دعوة الخير، وظهر الحق، وزهق الباطل. ولم تلبث الجزيرة العربية التي لم تعرف وحدة من قبل، ان اتحدت كلمتها، وقويت شكيمتها، وانتقل فيها العرب بعد قليل جدا من الزمن من رعاية الغنم الى قيادة الأمم، وكانوا في قيادتهم الجديدة بعد جاهليتهم الاولى خير امة اخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله.

(٣٠) فأين هو السر في هذا البعث الجديد الذي لم يسبق له مثيل من قبل لدى أمة من الأمم في التاريخ؟....

والجواب على ذلك: ان السر يكمن في أمرين:

أولا - في شخص محمد صلى الله عليه وسلم الذي اختاره الله سبحانه وتعالى لدعوته الناس اجمعين الى الاسلام، وَأَعَدَّهُ بفضل منه لهذا الاختيار.

وثانيا - في اقامة الله سبحانه وتعالى دعوة الاسلام على «ايجاب العلم على كل مسلم» ومخاطبة «العقل والفكر» في جميع نواحي دعوة الاسلام.

(٣١) اما من حيث شخص محمد عليه الصلاة والسلام فانه لم يقم بدعوته للاسلام كردود فعل في نفسه على وضع

خاص به لدى قومه، يشكو منه ويثور من أجله، فقد منحه قومه قبل دعوته لقب الامين، فلم يكن إذن ثائرا أو شاكيا منهم لشخصه. وكذلك كان شأنه بعد إعلان دعوته فقد عرض عليه قومه بعد اعلان دعوته الاسلامية الاصلاحية أن يتخذوه ملكا عليهم إن هو تنازل عن دعوته، وذلك لما رأوا فيه من رجاحة العقل وكرم الأخلاق، فأجابهم بكلمته العظيمة المشهورة من خلال عمه أبي طالب وسيد قريش حينذاك: والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا. فدعوته إذن الاصلاحية للمجتمع الانساني في جميع نواحي الحياة لم تكن استجابة لدوافع شخصية أو لعوامل نفسية، وإنما استجابة لدعوة آلهية عالمية من أجل خير البشرية.

(٣٢) وأما من حيث إقامة دعوة الاسلام على «إيجاب العلم على كل مسلم».. ومخاطبة العقل والفكر في جميع نواحي دعوة الاسلام، ففيها تكمن عظمة الاسلام لأنه وحده الذي قد انفرد من بين سائر الانظمة والاديان بايجاب العلم على.. الانسان، وذلك لتحريره من مذلة الجهل

والهوان، ولينشئ الاسلام مجتمعا بشريا جديدا متقدما وكريما يليق بالمستوى الذي يجب أن يكون عليه الانسان من غير تمييز ما بين إنسان وانسان، وذلك على نحو ما قد أخذ خبراء الأمم المتحدة يشعرون به في هذه الأيام.

(٣٣) ولذلك كان أول ما نزل من القرآن الكريم على رسوله العظيم هو قوله:

«اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الانسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم».

وهكذا بدأ الاسلام اصلاحاته مبكرا بمعالجة الأمية في أول ما بدأه من معالجة شؤون المسلمين، وقد اعتبر «الأمية» منكرا كما سوف ننقله قريبا، ونادى بإيجاب العلم» حيث قال عليه الصلاة والسلام: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»، اذ من المعلوم أن العرب حين فاجأتهم دعوة الاسلام كانوا في كثرتهم الكاثرة أميين لا يقرؤون ولا يكتبون.

ولما وقع في أيدي المسلمين بعض الأسرى من رجال قريش في غزوة بدر جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فدية

الكثيرين منهم تعليم الأميين من المسلمين، وفرض على كل أسير تعليم عشرة من المسلمين، وكان ذلك فكاكا له من الأسر. ويضرب لنا عليه الصلاة والسلام بذلك مثلا لم يسبقه أحد لا من قبل ولا من بعد في العناية بنشر العلم على مثل ما جاء به الاسلام من فريضة العلم لاصلاح مجتمعه الجديد، وذلك من أجل إعداد الانسان عن طريق العلم أولا ليكون نواة لمجتمع إنساني جديد مبدع ومتقدم وكريم. ولا ننسى أن الأمم المتحدة في ميثاق حقوق الانسان قد عمدت الى الاعتراف بحق كل انسان في الثقافة والتعليم، ولكنها لم تفرضه، فظل ذلك وصية من الوصايا.

وشتان ما بين الايصاء بتعليم الانسان، وبين إعلان وجوب العلم كما أعلنه الاسلام ألا ولذلك فليعمل العاملون.

(٣٤) ولذلك فقد شدد رسول الله صلى الله عليه وسلم على تأكيد فريضة العلم فخطب يوما فهدد المتعلمين الذين لا يعلمون الجاهلين، كما هدد الجاهلين الذين لا يسعون لاقتباس العلم من العالمين. فقد ورد في الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: « خطب ذات يوم فأثنى على طوائف من المسلمين خيرا، ثم قال: ما بال أقوام لا يفقهون

جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون؟..... والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم،... وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون، أَوْ لأعاجلنهم العقوبة، ثم نزل.. فقال قوم: من ترونه عني بهؤلاء؟.. قال: الأشعريين.. هم قوم فقهاء، ولهم جيران جفاة من أهل المياة والأعراب.. فبلغ ذلك الأشعريين فاتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا رسول الله، ذكرت قوما بخير، وذكرتنا بشر، فما بالنا؟.. فقال: ليعلمن قوم جيرانهم وليعظنهم وليأمرنهم ولينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتعظون ويتفقهون، أو لأعاجلنهم العقوبة في الدنيا... فقالوا: يا رسول الله أنفطن غيرنا؟!.... فأعاد قوله عليهم، فأعادوا قولهم: أنفطن غيرنا؟!... فقال ذلك ايضا.. فقالوا أمهلنا سنة، فأمهلهم سنة ليفقهوهم ويعلموهم ويعظوهم، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية :«لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داوود وعيسى بن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون».

وهكذا فقد اعتبر الرسول صلى الله عليه وسلم «الأمية منكرا» تجب إزالته، كما اعتبر «احتكار العلم منكرا آخر» تجب معاقبته.

(٣٥) ولذلك مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في تعاليمه يدعو الى العلم، فيتوعد تارة كما مضى، ويعد تارة... ويقول أحيانا: «العالم والمتعلم شريكان في الخير، ولا خير في سائر الناس»، أي في بقية الناس ممن ليس بعالم ولا بمتعلم.

بل قال طورا مفضلا الزيادة في العلم على الزيادة في العبادة كما جاء عن حذيفة بن اليمان قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فضل العلم خير من فضل العبادة».

وفي طور آخر يدعو الى الزائد من العلم فيقول: «ما اكتسب مكتسب مثل.. فضل علم يهدي صاحبه الى هدى، أو يرده عن ردى: وما استقام دينه حتى يستقيم عمله»، وفي رواية «حتى يستقيم عقله».

(٣٦) ولقد كان لهذه الدعوة الاسلامية السامية الى العلم، وإعلان النبي عليه الصلاة والسلام: أن طلب العلم فريضة دينية على كل مسلم، أثر في نفوس المؤمنين عجيب،

اذ أن ذلك كون فيهم غراما بالتعلم، وبعث فيهم اندفاعا للعلم كاد يكون فريدا في التاريخ. ولذلك قال كوستاف لوبون في كتابه «مدنية العرب» إن الاندفاع الذي ابداه العرب في التعلم كان مدهشا جدا!.. ولئن ساواهم في ذلك كثير من الشعوب فلم يكن منهم فيما أظن من سبقهم... وكانوا اذا.. ٱستَوْلوا على مدينة وجهوا عنايتهم في الدرجة الأولى الى تأسيس جامع وإقامة مدرسة. وأن هذه المدارس في المراكز الكبرى كانت كثيرة دائما.. وأن بنيامين الطليطلي المتوفى سنة ١١٧٧ روى لنا أنه رأى عشرين مدرسة من هذه المدارس في مدينة الاسكندرية».

(٣٧) وكذلك نرى أن العرب لم يمض على فتحهم لمصر خمسة قرون حتى بلغ عدد مدارس الاسكندرية عشرين مدرسة، بينما أن الرومان لم يستطيعوا أن يؤسسوا في مصر أكثر من مدرسة واحدة ضمن سبعة قرون، ثم لم يلبثوا أنفسهم أن أغلقوا تلك المدرسة بأمر من الامبراطور جوستينيان كما هو معروف في تاريخ جوستينيان.

(٣٨) وقال ايضا كوستاف لوبون: «وعدا مدارس التعليم البسيطة، فإن المدن الكبرى مثل بغداد، والقاهرة،

وطليطلة، وقرطبة الخ... كان فيها جامعات علمية مجهزة بالمخابر، والمراصد، والمكتبات الغنية، وبكلمة واحدة... كانت هذه الجامعات مجهزة بكل المواد الضرورية للبحوث العلمية.

ويقول كوستاف لوبون أيضا: «لقد كان في اسبانية وحدها سبعون مكتبة عامة. ولقد كانت مكتبة الخليفة الحكم الثاني في قرطبة تحتوي كما ذكره المؤلفون العرب على ستمائة الف مجلد، كان منها أربعة وأربعون مجلدا للفهرس فقط. وبهذه.. المناسبة قد لوحظ بحق أن شارل الحكيم لم يستطع بعد أربعمائة سنة من هذا التاريخ أن يجتمع في مكتبة فرنسا الملكية أكثر من تسعمائة مجلد، وكاد أن يكون ثلثها فقط خارجا عن علم «اللاهوت»

(٣٩) ولقد وجه العرب، أول الأمر، هذا النشاط العلمي نحو الفقه والحقوق الاسلامية.

غير أنهم لم يلبثوا حين اجتازوا حدود شبه جزيرة العرب أن اجتازوا ايضا باندفاعهم العلمي حدود الفقه والحقوق، وتوجهوا بكل ما لديهم من شغف وغرام بالعلم الى الاحاطة ببقية العلوم الناظرة في السموات والأرض وما

فيها، عملا بقوله سبحانه وتعالى: «قل انظروا ماذا في السموات والارض»، وقوله: «وفي الأرض آيات للموقنين، وفي أنفسكم أفلا تبصرون.»

(٤٠) والجميل في ذلك الاندفاع نحو التعرف على أسرار الخليقة أنه كان من شغف في حب الاطلاع على الآيات الدالة على عظمة الخالق سبحانه وتعالى، وعلى مبلغ قدرته في خلق السموات والأرض وفي خلق أنفسهم وفيما على الارض من دابة وحيوان ونبات. وهكذا فقد اندفع المسلمون في النظر والبحث العميقين، وفي ابتكار أدوات البحث في انفسهم وفيما يحيط بهم، وكان غرضهم الاول الاستزادة من معرفة الآيات الدالة على عظمة الخالق، وذلك قبل أن تشعرهم الحياة البسيطة حينذاك بالحاجة الملحة على استكمال لوازم الحياة والمنافع المادية الخاصة المتطورة. ولذلك كتب للمسلمين بأسرع وقت السبق في مختلف مجالات العلوم من فلك،.. ورياضيات وطبيعيات، وكيمياء، ونبات، وحيوان، وإنسان، وهم بعد في مطلع عصر الرسالة الاسلامية، ورسالة الاصلاح العالمية الانسانية وتركوا.... للحضارة الحديثة رصيدا هائلا من كتب

وأبحاث واكتشافات لولاها لما كان في الامكان للحضارة الحديثة أن تنهض وتصل الى ما وصلت اليه. سلوا اهلها اليوم، وعلى عجل، وفقط أين كان يمكن أن يكون قدر الحضارة الحديثة وتقدمها في التكنولوجيا المتطورة وحساباتها الدقيقة المعقدة لولا اختراع الحضارة الاسلامية «النظام العشري للأرقام»؟، ولولا اختراعها «الصفر الاسلامي» الذي أصبح اليوم علما في الحساب والرياضيات العالمية الحديثة على «الأرقام الحسابية» في جميع اللغات الاجنبية باسم «الأرقام العربية» ترجمة لكلمتي: «شيفر آراب».

كلمة «شيفر» هي كلمة «صفر» وقد سموا الأرقام بأجمعها باسم «الصفر» وذلك على طريقة تسمية الكل بأهم أحد أجزائه.

(٤١) ويقول كوستاف لوبون في هذا الصدد عن شغف العرب بالتعلم في كتابه حضارة العرب: «لقد بلغ شغف العرب بالتعلم مبلغا عظيما جدا، حتى إن خلفاء بغداد كانوا يستعملون كل الوسائل لجذب العلماء وأشهر الفنانين في العالم الى قصورهم وأن أحد هؤلاء الخلفاء بلغ الأمر منه حد

إعلان الحرب على قيصر القسطنطينية، وذلك ليجبره على السماح لاحد الرياضيين المشهورين بالمجيء الى بغداد والتعليم فيها!.... ولقد ازدحم في هذه المدينة الكبرى الفنانون والعلماء، والادباء، من كل الاديان وكل البلاد، من فرس ومن يونان، واقباط وكلدان، وجعلوا من بغداد في العالم المركز العلمي الحقيقي. ولقد كان الخليفة المأمون بن الرشيد ينظر الى العلماء، كما قال أبو الفرج: كأنهم مخلوقات اختارهم الله لاكمال العقل، فهم مشاعل العلم، وهداة الجنس البشري، وبدونهم تعود الأرض الى البربرية الأولية».

(٤٢) هذا، ولقد أعجب كوستاف لوبون أيما إعجاب من هذا الشغف بالعلم الذي افتتن به العرب. ولقد كان إعجابه أن رأى أن هذا الشغف منهم منبعث عن الدين نفسه، ولذلك قال: «إن العلم الذي استخفت به جداً أديان أخرى قد رفع المسلمون من شأنه عاليا، وإليهم في الحقيقة ترجع هذه الملاحظة الصائبة: إنما الناس هم الذين يتعلمون والذين يعلمون. وأما من عداهم فمضر أولا خير فيه»، ولا أظنه يعني إلا ما جاء في الحديث الذي نقلناه سابقا من قوله عليه الصلاة والسلام: «العالم والمتعلم شريكان في الخير، ولا خير

في سائر الناس »، أي لا خير في بقية الناس ممن ليس بعالم ولا بمتعلم.

(٤٣) وبعد فاننا لو أردنا أن نستمر في شرح اهتمام الاسلام بالعلم، وبيان موقفه الفريد من تنوير العقل البشري بالثقافة والبحث، وما كان للحضارة الاسلامية من فضل على الحضارة الانسانية اليوم، لما اتسع الوقت لمثل هذا البحث الكبير.. الجليل، ولكن ما لم يدرك كله، لا يترك جُلُّه. وستكون لنا عودة الى العلم ثانية في الفقرات التالية المخصصة لبيان «أثر الرسالة الاسلامية في الحضارة الانسانية ».

اثر الرسالة الاسلامية في الحضارة الانسانية.

(٤٤) لقد اتضح لنا فيما تقدم أن الدعوة الاسلامية جمعت بين خاصتين.. أساسيتين اثنتين لم تسبقها اليها دعوة من الدعوات من قبل، ولا استطاعت أن تلحق بها فيها أية دعوة أخرى حتى اليوم، ألا وهما:

أولا - أنها دعوة لنوع جديد من الحياة يتناسب مع تقدم العقل البشري، ويقوم على وحدة الشعوب البشرية في الحق في الكرامة وفي المصالح الحيوية من غير تمييز بينها، كما

يقوم على اساس اعتماد «السلام والعدل بالحق فيما بين هذه الشعوب».

ثانيا - أنها دعوة إيمانية قامت على «فريضة العلم»، وذلك للنظر فيما في السموات والأرض وفي الانفس من دلائل علمية على الخالق الواحد القادر الحكيم.

وأن هاتين الخاصتين قد جعلتا من الاسلام وحده حتى اليوم «أول.. حركة علمية حيوية تقدمية» - لا يحد من تقدمها الدائم شيء من تطور الزمن - للقضاء على جميع الأنظمة البالية، التي كانت ولا تزال تقلق الحياة البشرية من قبل ومن بعد حتى اليوم. وقد اعتمد الاسلام في ذلك على ما قد أقام عليه.. دعوته من مبادئ علمية عالمية انسانية التقت معها اخيراً اليوم بحمد الله آراء خبراء الامم المتحدة كما أشرنا اليها من قبل.

(٤٥) والسؤال الذي يرد علينا الان هو :« هل تركت هذه الدعوة العظيمة التقدمية أثرا عمليا في الحضارة الانسانية الحديثة وفي مفاهيمها؟ « ..وما هي تلك الاثار؟..

(٤٦) وللجواب على ذلك بوضوح لا بد لنا من أن نعود قليلا الى قاعدة «فريضة العلم» التي انفرد بها الاسلام

وحده حتى اليوم كما تقدم معنا ، وأن نتعقب الآن بايجاز الآثار المادية الملموسة التي لا شكّ فيها بأنها اثر لقاعدة « فريضة العلم » في الاسلام . وما قد تركته هذه الفريضة على المسلمين من رصيد هائل في مختلف ميادين الثقافة وبخاصة في الميادين العامة التالية : -

أولا - من الناحية العلمية بصورة عامة .

ثانيا - من الناحية الانسانية ،

ثالثا - من الناحية الاجتماعية ،

رابعا - من الناحية الاقتصادية ،

خامسا - من الناحية السياسية .

سادسا - وأخيرا من الناحية التشريعية في كل ما تقدم .

غير أن التكلم عن أثر الرسالة الاسلامية في هذه النواحي الحضارية كلها .. يتطلب مجلدات ، ولذلك فإننا سوف نقتصر هنا على الكليات من هذه الآثار بمنتهى الايجاز ، مع إعطاء حظ أوفر للناحية العلمية التي هي منطلق الحضارات الانسانية وأساسها وموجهها .

من الناحية العلمية:

(٤٧) - أما أثر الرسالة الاسلامية في الحضارة

الانسانية اليوم من الناحية «العلمية» فسوف نعتمد فيها ايضا فقط على قليل من كثير مما قال به المحققون من علماء الغرب وفلاسفته انفسهم، وخاصة الفيلسوف الاجتماعي كوستاف لوبون في كتابه «مدنية العرب» الذي توسع في ذلك وأتى بكل شيء عجيب.

(٤٨) - وكما تقدم معنا عن كوستاف لوبون، وانه أعجب كل الاعجاب بالشغف بالعلم الذي افتتن به العرب، وأن اعجابه كان أعظم «أن رأى أن هذا.. الشغف منهم بالعلم الذي استخفت به أديان أخرى كان منبعثا عن الدين نفسه»، فانه قد أخذ بعد ذلك يشرح «الطريقة العلمية» عند العرب، ويبدي إعجابه بها وبما قد تركته من آثار اساسية في تقدم العلم فقال:

«إن المكتبات، والمخابر، والادوات، هي مواد لا بد منها في التعليم وفي البحوث. ولكن هذه الاشياء ليست في النهاية إلا مواد وعناصر. وأن قيمتها تتوقف فقط على الطريقة التي تستخدم فيها، وأن الانسان قد يستطيع أن يمتلئ من علوم الآخرين ويبقى مع ذلك غير أهل لأن يفكر بواسطة شخصه، او أن يوجد شيئا ما. وقد يستطيع أن يكون تلميذا من غير أن يقدر على أن يكون استاذا».

(٤٩) - ثم قال كوستاف لوبون: «وإن الاكتشافات المشروحة في الفصول الاتية سوف ترينا الفائدة التي عرف العرب أن يستخلصوها من مواد الدراسة وعناصرها المجموعة بواسطتهم. وسوف نقتصر الآن على ذكر المبادئ العامة التي وجهت.. بحوثهم... فبعد أن جعلوا من انفسهم تلامذة فقط، متخذين من مؤلفات اليونان اساتذة لهم، عرفوا بعد قليل ان «الاختبار والملاحظة» هما اثمن من خيار الكتب وان هذه الحقيقة التي اصبحت اليوم من البديهيات، لم تكن دائما كذلك: فإن علماء القرون الوسطى قد عملوا مدة الف عام قبل ان يفهموها».

(٥٠) - ثم تابع كوستاف لوبون يقول: «إن الاختبار والملاحظة، هما أسس الطرق العلمية الحديثة. ولقد اسند الى باكون بصورة عامة فكرة وضع الاختبار مكان سلطة الاستاذ، غير أنه يجب اليوم ان نعترف بأن هاتين القاعدتين انما تعودان بصورة كاملة الى العرب.

وان هذا الرأي قد صارح به مع ذلك جميع العلماء الذين درسوا مخلفات العرب وبصورة خاصة هامبولد، فبعد ان برهن هذا الرجل الفذ من رجال الملاحظة واثبت ان اعلى

درجة في العلم إنما تكون عندما تولد بنفسها وحسب إرادتها حقائق علمية وذلك بواسطة الاختبار، أضاف قائلا: إن العرب قد سموا الى هذه الدرجة غير المعروفة تقريبا عند القدماء».

(٥١) - ثم أضاف كوستاف لوبون قائلا: «وقال سيديو:
إن الذي يعرف بصورة خاصة بمدرسة بغداد في أول نشأتها إنما هو الفكرة العلمية الحقيقة التي تتحكم في دراستها، وأن القواعد التي كانت تدرس من قبل الأساتذة هي:

- الانتقال من المعلوم الى المجهول.

- والفهم الدقيق للحقائق، كي ينتقل بعد ذلك من المسببات الى الأسباب.

- وأن لا يقبل إلا ما برهن عليه الاختبار،

«وأن العرب في القرن التاسع من الميلاد كانت لديهم هذه الطريقة الخصبة وهي التي انتقلت بعد زمن طويل جدا الى ايدي المحدثين لتكون الواسطة لأجمل ما كان منهم من اكتشافات.......«اختبر ولاحظ» تلك كانت طريقة العرب... واقرأ في الكتب واقتصر على ترديد رأي

الاستاذ تلك كانت طريقة أوروبة في القرون الوسطى، والفارق بين الطريقتين هو أمر اساسي جدا. ولن يستطاع تقدير قيمة العرب العلمية بصورة كاملة إلا بعد التثبت منها بالنفس.... فالعرب إذن قد اختبروا، وكانوا أول الناس في العالم، ووحدهم زمنا طويلا، الذين عرفوا الشأن الهام لهذه الطريقة.

(٥٢)- ثم قال كوستاف لوبون: «ولقد كتب دي لامبر في كتابه تاريخ الفلك فقال: اذا عددنا بجهد اثنين أو ثلاثة من الملاحظين فيما بين اليونان، فانه يرى على العكس من ذلك عدد كبير منهم عند العرب. أما في الكيمياء فإنه لا يستطاع ذكر احد ما من الملاحظين عند اليونان، بينما هم عند العرب يعدون بالمئات.. وإن اعتياد العرب على الاختبار قد اسبغ على دراستهم هذه الدقة وهذا الابداع اللذين لا يمكن ابدا ان نتوقع وجودهما عند الرجل الذي ما درس الحقائق إلا في الكتب، ولم يخطئهم الابداع الا في علم واحد هو الفلسفة، حيث كان الاختبار فيها عندئذ مستحيلاً.

(٥٣) - ثم قال كوستاف لوبون: «إن الطريقة

الاختبارية التي جاء بها العرب داشنة - اي لم يستعملها احد قبلهم - توجب ضرورة إيصالهم الى اكتشافات هامة. وإن التحليل الذي سنقوم به لدراساتهم العلمية سيثبت لنا في الواقع أنهم قد حققوا من الاكتشافات في ثلاثة أو أربعة عصور أكثر مما حققه اليونان في زمن أطول جدا. وان هذا المستودع من العلوم الماضية، الذي استلمه البيزنطيون قبل العرب، ولكن دون ان يستفيدوا منه شيئا منذ زمن بعيد.. قد نقله العرب الى من جاء بعدهم في ثوب مجدد كامل التجديد»

(٥٤) - ثم اضاف كوستاف لوبون قائلا: «إن دور العرب لم يقتصر فقط على ترقية العلوم باكتشافاتهم، بل عملوا على نشرها بواسطة جامعاتهم وبواسطة مؤلفاتهم، وإن التأثير الذي أحدثوه في اوروبة من هذه الناحية الأخيرة قدكان عظيما جدا. وسوف نرى في الفصل الخاص المعقود لدراسة هذا التأثير ان العرب قد كانوا في مدة عصور عديدة هم وحدهم الاساتذة الذين عرفتهم الامم النصرانية، وإننا اليهم وحدهم مدينون في معرفة القديم اليوناني اللاتيني، وإن التعليم في جامعاتنا لم يتوقف عن الاعتماد على ترجمة الكتب العربية إلا في الايام الاخيرة».

(٥٥) - وقال ليبري في هذاالصدد من تأثير الحضارة الاسلامية في.. الحضارة الاوروبية: «ارفعوا العرب من التاريخ تتأخر النهضة في اوروبة قرونا عدة».

وقال فلوريان ايضا: «كان للعرب عصر مجيد عرفوا فيه بانكبابهم على الدرس، وسعيهم في ترقية العلم والفن. ولا نبالغ اذا قلنا إن اوروبة مدينة لهم بخدمتهم العلمية، تلك الخدمة التي كانت العامل الأول والاكبر في نهضة القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد».

وقال ويلز ايضا في هذا الصدد: «كانت طريق العربي أن ينشد الحقيقة بكل استقامة وبساطة، وان يجلوها بكل وضوح وتدقيق، غير تارك منها شيئا في ظل الابهام. وان هذه الخاصة التي جاءتنا نحن الاوروبيين من اليونان وهي نشدان النور، انما جاءتنا عن طريق العرب، ولم تهبط على أهل العصر الحاضر عن طريق اللاتين».

(٥٦) - وكذلك يعترف البارون دي فو قائلا: «إن الرومان لم يحسنوا القيام بالميراث الذي تركه اليونان، وان العرب كانوا على خلاف ذلك: فقد حفظوه واتقنوه، ولم يقفوا فيه عند هذا الحد، بل تعدوه الى ترقيته

وطبقوه،.... باذلين الجهد في تحسينه وإنمائه، حتى سلموه للعصور الحديثة».

وقال سيديو: «إن انتاج أفكار العرب الغزيرة، ومخترعاتهم النفسية تشهد بأنهم اساتذة أهل اوروبة في جميع الأشياء».

وقال الدكتور سارطون من علماء أمريكة وبحاثيهم: «إن بعض الغربيين الذين يجربون أن يستخفوا بما اسداه الشرق الى الحضارة يصرحون بان العرب والمسلمين نقلوا العلوم القديمة ولم يضيفوا إليها شيئا ما.. هذا خطأ.. بل ان العرب والمسلمين كانوا اعظم معلمين في العالم في القرون الثلاثة: الثامن والحادي عشر والثاني عشر للميلاد».

(٥٧) - هذا ولا ندري ماذا سيكون نصيب المدنية الحاضرة بأجمعها اليوم وكلها قائمة على الحسابات السريعة والرياضيات الدقيقة، لو ظلت أوروبة وامريكة ترقم أعدادها بالاحرف اللاتينية السبعة: «ولم تأخذ الارقام العربية العشرة التي تحمل اسمها حتى اليوم في قواميسهم، حيث يعبرون عنها بكلمة: «شيفر آراب» «وان كلمة «شيفر» كما تقدم معنا سابقا مأخوذة من كلمة «صفر» العربية، ومنها دخلت على الغربيين في لغاتهم، وكان من

ذلـك « سيفر » بالانكليزيـة و..« شيفر » بالفرنسيـة، « وتشيفر » بالالمانية، و.. « شيفرا » بالايطالية ثم تقلصت عن طريق الاختصار فاصبحت « زيرو » كما يقول علماء الغرب أنفسهم.

(٥٨) - لقد كانت الارقام غير معروفة عند الرومان، وكانوا يرمزون إليها بالاحرف السبعة التي أشرنا اليها وهي:

I ، أي حرف: اى، ويساوي واحداً.

V ، أي حرف: ف، ويساوي خمسة تشبيها بالكف ويحتوي على خمسة اصابع

، اي حرف : ايكس، وهو مركب من ضعف الحرف، ويساوي عشرة،

L ، اي حرف : ال، ويساوي خمسين،

C ، اي حرف: ث، ويساوي مائة،

D ، اي حرف: ده، ويساوي خمسمائة،

M ، اي حرف: ام، ويساوي الفا.

وكان لا بد من استعمال هذه الحروف ومضاعفاتها، وملاحظـة عمليـات الجمع والطرح في تقديم حرف أو تأخـيره، بمفرده او بمضاعفاتـه، ليحيط الحاسب بالرقم

المطلوب. وقد كانت اللحظة الخاطفة التي تكتب فيها الرقم ٨ بالارقام العربية يستلزم منك أضعافها لكتابة نفس الرقم المطلوب بالاحرف اللاتينية في الزمن وفي المكان كما ترى:

٨= ا ا ا \

(٥٩) - وكذلك لا ندري ماذا سيكون نصيب الحضارة الحديثة بأجمعها اليوم لو لم يتمكن المسلمون من إضافة «الصفر» الى الارقام؟.. وبذلك قد أتموا الارقام في عشرة ارقام «بسيطة» بعد أن كانت الارقام سبعة احرف عند الرومان، وتكتب حتى في اصغر الارقام بعد الواحد باحرف «مكررة مضاعفة» على نحو المثل السابق في رقم «٨» العربي حيث كان يكتب أولا بحرف «؟» ، ثم يضاف اليه عن اليمين الحرف «؟» مكررا ثلاثة مرات ليصبح هكذا « ».

وبذلك ختم المسلمون بنوة الأرقام ليضيفوا اليها رقما اخيرا هو الصفر، ولم يستطع احد بعدهم حتى اليوم، ونظن انه لن يستطيع احد حتى الابد ايضا، ان يضيف عليها رقما جديدا، او يشعر بالحاجة الى اضافة شيء جديد فوق ما أضافه المسلمون، بل إن اللغة الفرنسية التي دخلت عليها الارقام العربية العشرة في القرن العاشر للميلاد ليتخلوا بها

عن الاحرف الرومانية، قد سموها جميعها باسم « الصفر » كما تقدم معناه، وبنفس لفظ الصفر « شيفر » العربي تسمية للكل باسم البعض، إعجابا بهذا الاختراع الاخير، وقالوا فيها « شيفر ».. بتحريف « الصاد » العربية الى « الشين » الفرنسية.

(٦٠) ويعود الفضل في تناول الأرقام العربية وشيوعها الى الامام محمد بن موسى الخوارزمي من رجال عصر المأمون، وهو اول من ألف من المسلمين في الحساب والجبر من رياضيّي العرب، وقد كان كتابه في الحساب هو الأول من نوعه من حيث الترتيب والتبويب والمادة، وقد نقل قديما الى اللاتينية تحت اسم « الغورتمي ... »

« وهو أول كتاب دخل اوروبة وبقي زمنا طويلا مرجع علمائها. بل ومن العجب أن يظل علم الحساب عدة قرون معروفا في اوروبة باسم « الغورتمي » نسبة الى الخوارزمي.

أما كتاب الخوارزمي في علم الجبر فقد قال فيه كاجوري من علماء الغرب: « إن العقل ليدهش عندما يرى ما عمله العرب في الجبر ».

وليت شعري ماذا سيكون شأن المدنية الحاضرة لو جردت علومها الرياضية من علم الجبر العربي الإسلامي الذي

لم يكن إلا أثرا من آثار الواجب الاسلامي في التأمل والتفكير والملاحظة في كل شيء من خلق السموات والأرض والانفس عملا بقوله سبحانه وتعالى: «قل انظروا ماذا في السموات والأرض» وقوله: «الشمس والقمر بحسبان» وقوله في الأرض: «وانبتنا فيها من كل شيء موزون».

(٦١) وبعد، فلولا ضيق المقام لاستطعنا أن نذكر للحضارة الاسلامية آثارا أعظم وابدع في سائر العلوم والفنون والصناعة، مما يكاد يدخل في عداد.. المعجزات العلمية حينذاك، لانه لم يكن للمسلمين يومئذ من الادوات والالات الفنية المعروفة اليوم ليسهل عليهم هذه المهمة كتلك التي هي للعلماء.. المحدثين اليوم. ولكننا ننهي كلمتنا عن أثر المسلمين في الحضارة الانسانية بتعداد القليل من الكثير من أولياتهم.

(٦٢) فالمسلمون هم اول من استخرج بطريقة علمية طول درجة من خط نصف النهار ليعرفوا منه مقدار محيط الأرض، وكانوا بذلك أول من قام بقياس.. حقيقي لمحيط الارض بطريق علمي صحيح، وقد قال فيه نللينو: «إنه

اول قياس حقيقي أجرى مباشرة، وأنه من أعمال العرب العلمية المجيدة المأثورة »، وقد كانت اقيستهم في ذلك كله، على قلة ما بأيديهم من الوسائل، دقيقة،.. صحيحة، أو قريبة جدا من الصحيح. وأن ثابت بن قرة الحراني استخرج حركة الشمس وحسب أول السنة النجمية، فكانت ٣٦٥ يوما وست ساعات وتسع دقائق وعشر ثوان، وكان ما وصل اليه يزيد على اول السنة الحقيقي بمقدار هو اقل من نصف ثانية.

(٦٣) - وكذلك كان للمسلمين أمثال هذه المعجزات العلمية فيما يتعلق.. بالرياضيات على اختلافها: في الحساب والجبر والمثلثات والفلك، حتى قال سخاو في احد رياضيي العرب محمد البيروني: «ان البيروني اعظم عقلية عرفها التاريخ» وقال لالاند في محمد البتاني: «إنه من العشرين فلكيا المشهورين في العالم».

(٦٤) - وكذلك كان لهم امثال ذلك في كل من العلوم الطبيعية من :حيوان، ونبات، وجماد، وما يتبعها من نظريات في مباحث الضوء، حتى قال في ذلك الدكتور ماكس ما يرهوف: «إن العرب قد اسدوا جزيل الخدمات

الى هذا العلم الذي تتجلى فيه عظمة الابتكار الاسلامي..
وكذلك فيما وصلوا اليه لاول مرة في تحديد «الثقل النوعي» تحديدا فنيا دقيقا لكثير من الأجسام الجامدة والسائلة، والانتباه الى ما بين السوائل نفسها من فروق في ثقلها النوعي اذا كانت حارة، ثم باردة، ثم جامدة...

وكذلك كان لهم أمثال في ذلك الابداع في علم الكيمياء، وما قد تم لهم فيه من استحضار الكثير من المركبات والحوامض التي تقوم عليها الصناعة الحديثة كالمركبات التي تستعمل حتى الان في صنع الورق، والحرير والمفرقعات، والاصبغة والسماد الصناعي... وأما الطب فان كتاب القانون لابن سينا كان حتى أواسط القرن السابع عشر المرجع الوحيد لمعاهد الطب وجامعات اوروبة..
واعظم بذلك كله من فضل: فيه آيات العقل، والفكر، ودلائل الاعجاز.

(٦٥) - وبعد فهذه نبذة من أثر الرسالة الاسلامية في الحضارة الانسانية الحديثة من «الناحية العملية»، وقد وقفنا فيها كما ترون عند الكليات بما يتناسب مع المقام من أجل محاضرة وجيزة، وأعطيناها حظا أوفر مما سنعطيه فيما يلي لبقية النواحي الحضارية: الانسانية، والاجتماعية،

والاقتصادية، والسياسية، والتشريعية، وذلك لان «الناحية العلمية» هي المنطلق لكل حضارة إنسانية أولا، ونرجو أن يجد فيها المستمع والقارئ مثلا مرشدا الى عظمة أثر الرسالة الاسلامية في بقية النواحي الحضارية التي سنقتصر فيها جدا، ونقف فيها عند معنى واحد كلي هو اسلامي وجديد في كل ناحية من النواحي الحضارية الانسانية الباقية.

من الناحية الانسانية.

(٦٦) - أما أثر الرسالة الاسلامية على الحضارة الانسانية ومفاهيمها من «الناحية الانسانية» فقد كانت ايضا شيئا عجبا، ولا تستبين ابعاد هذا الاثر الا بالعودة قليلا وبايجاز الى استعراض ما قد كانت عليه حياة تلك الأمم والشعوب من مساوئ قبل الاسلام تتنافى مع كل مبادئ حقوق الانسان الدولية اليوم، ما قد أشرنا اليها في مطلع هذه المحاضرة عند كلامنا عن موقف الاسلام من الدعوة الى نظام عالمي إنساني جديد.

(٦٧)وبالجملة فحياة الامم كان ينخر فيها أولا من داخل الامم نفسها التمايز الطبقي في كل أمة وشعب، ثم

التناحر على المصالح الضيقة - للعشيرة أو القومية، تلك المصالح المتنافرة، والقائمة على الأنانية والاستئثار والامتياز في حق الحياة لدى كل الشعوب على حساب الآخرين. وهذا ما قد وضع العالم القديم في حروب بربرية دائمة، وبخاصة الحرب الدولية الأخيرة التي أدركها الاسلام حين ظهوره فيما بين الشرق القديم الفارسي، والغرب القديم اليوناني أو البيزنطي، اذ نادى الاسلام فيهم جميعا مبتدئا بقومه، ثم بالعالم اجمع، معلنا على رؤوس الجميع كل حقوق الانسان الاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية، تلك الحقوق العالمية الانسانية التي لم يكتب لاحد أن يحيط بها أو يدعو اليها جميع العالم الانساني إلا في هذا العصر الحاضر. وقد أوجزها الاسلام فيما يلي:

أولا - بوحدة الأسرة البشرية من غير تمايز في الأعراق والأجناس،

ثانيا - بحقهم جميعا في الكرامة من غير تفاضل فيها ايضا،

ثالثا - باعتبار الخلق كلهم عيال الله، وأن أحبهم اليه أنفعهم لعياله،

رابعا - بدعوتهم جميعا الى الدخول في السلم كافة....

(٦٨) - وقد سجلت هذه الدعوة الاسلامية بمبادئها الجديدة سبقا فعليا على جميع دعوات عالمنا الحديث في هذه المعاني الانسانية، مما قد أشرنا إليه في أوائل المحاضرة، ولم تكن معروفة من قبل ولا مقبولة، وتمكنت الدعوة الاسلامية من تطبيق هذه المبادئ في مجتمعها الاسلامي الحضاري قبل أربعة عشر قرنا، بينما لم يصل عالمنا الحديث الى هذه المفاهيم الانسانية إلا اخيرا، ولم يستطع بعد تطبيقها في اعظم مجتمعاته المتقدمة مثل الولايات المتحدة الامريكية، حيث لا تزال الفوارق بين الألوان والاعراق تهيمن على حياة ذلك المجتمع العملاق، على الرغم من وصايا الامم المتحدة واتفاقاتها الدولية.

(٦٩) - وبعد فكم كنا نتمنى التوسع والافاضة في شرح وقائع ذلك المجتمع الاسلامي وحضارته الانسانية لولا خشية الاطالة. ويكفينا في ذلك أن المجتمع.. الأول الذي أوجده الاسلام منذ بداية عهده وفي حياة رسول الله صلى الله عليه.وسلم كان مجتمعا بالفعل: لا فضل فيه لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود، كما نادى به رسول الله،

ودلل عليه في صحبه المتقدمين، فكان فيهم سلمان.. الفارسي الذي قال فيه رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: سلمان منا اهل البيت، وكان فيهم بلال الحبشي، وصهيب الرومي، وغيرهم من الارقاء المعتقين أو من أصول غير عربية الى جانب سادة قريش من أعلى قبائل العرب في المكانة والاعتبار.

من الناحية الاجتماعية

(٧٠) - وأما أثر الرسالة الاسلامية على الحضارة الانسانية من «الناحية الاجتماعية» فقد كان ايضا من أحدث الآثار الجديدة الانسانية على المجتمعات البشرية مما لم يكن معروفا ايضا من قبل، ولم تنتبه الامم الحضارية الحديثة اليه أبدا من أواخر العصر الماضي، ألا وهو مبدأ، «التكافل الاجتماعي» في حق كل انسان بالحياة الكريمة والتحرر من الحاجة والفقر، وبعبارة أوضح هو تحميل اهل الرخاء في مجتمع ما مسؤولية حياة المحرومين والعاجزين، بعد أن كان المحروم في كثير من المجتمعات قبل الاسلام معرضا لفقد حريته، بل ولقتله ايضا كالمدين إذا عجز عن وفاء دينه كما هو معروف في حقوق روما القديمة، وكما هو

معروف عند بعض العرب من قتل أولادهم خشية من الإملاق والجوع..

فجاء الاسلام في ذلك بالعجب العجاب، حتى انه أوجب دية من مات جوعا على جميع أهل قريته او حيه الذي يعيش فيه، تماما كدية القاتل.

(٧١) - هذا ولم يجعل الاسلام هذا التكافل الاجتماعي «وصية يوصي بها فحسب» بل أوجب على المسلمين في ذلك فريضة مالية اعتبرها حقا لاصحاب الحاجة. على اختلاف أنواعها، وأوجب القتال عند الاقتضاء لتحصيلها، وأقام لهذه الفريضة المالية نظاما ماليا لم تعرفه أمة من الامم قبل الاسلام، بل اتخذ له صندوقا خاصا بهؤلاء المحتاجين، وجعل الجباية لهذا الصندوق من أولى واجبات الدولة... الجديدة...

(٧٢) - والعجيب الذي تفرد به الاسلام في هذا المقام أنه قد جعل من مصارف هذا الصندوق شراء الارقاء وتحريرهم، والوفاء عن الغارمين العاجزين عن وفاء ديونهم بعد أن كان نصيب هؤلاء هو الاسترقاق والقتل في عرف الامم السابقة مما قد حرمه الاسلام تحريما مطلقا، وأغلق

بذلك أعظم ابواب الاسترقاق في العالم القديم، وما أعظم جريمة من يتهم الإسلام بعد ذلك بتشجيع الرق. وبخاصة وقد جعل «تحرير الرقاب من أعظم القربات إلى الله»، ولم يجعل الاسترقاق قط قربة من القربات.

(٧٣) - هذا ويستفيد فوق ذلك من صندوق هذا التكافل الاجتماعي الجديد في الاسلام كل من الشيخ العاجز، والأرملة التي لا عائل لها، والمريض، والعاجز، عن العمل لسبب من الاسباب، واليتيم الذي لا مورد له.

كما يستفيد من هذا الصندوق كل من المصابين بكوارث الحريق، والسيول،.. وانهيار البيوت، وأسر المرضى المحتاجين، بل وأسر السجناء مهما كانت أسباب السجن.

وكذلك ينفق من هذا الصندوق على المعوقين لتأهيلهم لكسب الحياة، ونحو ذلك من الانفاق على جميع أصحاب الحاجات المعروفة منها وغير المعروفة، بل والمستغربة في مثل تلك الايام كما أشرنا إليه من تحرير الارقاء ووفاء ديون العاجزين.

(٧٤) - وهكذا فإن التكافل الاجتماعي في الاسلام يعتبر من أعظم الاحداثات.. الجديدة التقدمية في الحياة

البشرية من أجل « نظام حياة جديدة »، ولمجتمع إنساني جديد كريم ومتكافل، مما لم يعرف له مثيل لدى الأمم من قبل. وسوف يبقى هذا الاحداث الاسلامي في المفهوم الانساني صفحة خالدة من آثار الرسالة الاسلامية في الحضارة الانسانية ومفاهيمها.

من الناحية الاقتصادية.

(٧٥) - وأما أثر الرسالة الاسلامية في الحضارة الانسانية من « الناحية الاقتصادية » فهو أيضا حدث عجيب لمجتمع إنساني عظيم، قد أوجب الاسلام فيه ديانة العمل لعمارة الارض فيما أوجب، مما لم يكن في قدرة أحد قبل الاسلام أن ينتبه اليه من حيث:

- تكريم العمل والحض عليه،
- وإيجاب زيادة الانتاج لخدمة المجتمع الانساني،
- وعدالة التوزيع فيما بين أبناء البشر.

(٧٦) - وهكذا فقد أوجب الاسلام العمل على كل إنسان، وقال « وأنْ ليس للانسان إلا ما سعى » وعني رسول الله « صلى الله عليه وسلم » نفسه بالعاطلين القادرين على العمل، وأوجد لهم العمل عند الاقتضاء، ونهاهم عن السؤال، وقال

لهم: «اليد العليا خير من اليد السفلى» والمراد باليد العليا اليد التي تنفق وتعطي المحتاجين وباليد السفلى اليد التي تطلب الصدقات، وقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدا ورمت من العمل، وأوجب العمل لزيادة الانتاج بصورة لم يسبق له مثيل في تاريخ تنظيم العمل لا من قبل ولا من بعد حتى اليوم. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك: «إذا أدركت احدكم الساعة (اي القيامة) وفي يده فسيلة (اي نخلة صغيرة) فليزرعها». وبهذا النص الاسلامي والتوجيه الرباني يتفرد الاسلام بالحض على العمل وزيادة الانتاج من أجل الغير، ولو كان الانسان نفسه في حالة يأس من الحياة. وهذا مما لم نعثر على مثيل له أيضا حتى اليوم في نظام من أنظمة العمل التي تفرض زيادة الانتاج كما فرضه الإسلام.

(٧٧) - وأما عدالة التوزيع في الانتاج، فإن الاسلام قد انفرد أيضا بالعناية بالانسان المحتاج في المجتمع الاسلامي، وأوجب له على المجتمع «حق الكفاية» في السكن واللباس والطعام ووسائل الانتقال من دابة ونحوها حسب تطور الظروف، ولم يرض الاسلام قط في حق الفرد

على المجتمع أن يوصله المجتمع إلى « حد الكفاف » أي الضرورة فقط، معتبراً أن المحتاج يحق له في مفهوم الحاجة أن يأخذ من مجتمعه بما يرفعه إلى ما فوق « حد الكفاف » من طعام وسكن، وذلك باعطائه الحق أيضا في وسيلة من وسائل الانتقال كالدابة ونحوها، وبذلك يتساوى جميع أبناء المجتمع في مستوى الحياة الكريمة من غير وقوف عند « حد الكفاف » من ضرورات الطعام. ورحم الله الخليفة الثاني عمر بن الخطاب الذي قال في هذا المقام: «لو عشت إلى قابل لأخذت من فضول أموال الناس ووضعتها في فقرائهم ».

من الناحية السياسية.

(٧٨) - وأما أثر الرسالة الاسلامية في الحضارة الانسانية من «الناحية السياسية» فيكفينا فيها تشريع الاسلام لمبدأ الشورى الواجبة في الحكم الاسلامي. وهو أيضا جديد على الانسانية في حضاراتها القديمة والحديثة، إذ كل ما قد وصلت إليه الفلسفة حتى اليوم في نظام الحكم أن أوجبت الحكم بالديموقراطية، وعرفتها بأنها حكم الشعب بالشعب وللشعب. ولم تكن الديمقراطية في أكثر أشكالها

شيوعا إلا « حكم الاكثرية للأقلية » شاءت الأقلية أو لم تشأ ، أو حكم « الاقلية للأكثرية » في الاشكال الاخرى ، وهو ما تقوم عليه النظم الاشتراكية وتدعى أيضا بالنظم « الاشتراكية الديمقراطية » ... وفي كلا الحالين كما ترون قد أقصي فريق صغير أو كبير من الشعب عن مقام الاعتبار في الحكم ، وهو الأقلية في الشكل الشائع ، أو الاكثرية في .. النظم الاشتراكية .

(٧٩) - أما قرار مبدأ الشورى الواجبة في الاسلام فهو الزام بأخذ رأي الجميع أولا من غير تمييز بين أقلية أو أكثرية ، ثم العمل بالرأي الذي ظهرت أرجحيته بعد التمحيص العقلي بين الرأيين ، لا عملا بتعداد الاصابع المرفوعة . ونحن نعترف بإن الصعوبة في الشورى هو وضع قواعد التمحيص المرنة ، وليس ذلك بمستحيل على موازين .. العقل والمصلحة التجريبية ، ولن يكون عندئذ في الترجيح وفقا لهذه القواعد شجب لفريق دون فريق ، وإنما هو الأخذ بما بدا أنه الارجح من الآراء عقلا ومصلحة ، بعد أن وضعت آراء الجميع في مستوى واحد من الاعتبار وأمام التمحيص من غير إهمال لرأي من الآراء .

(٨٠) - وفي مبدأ الشورى هذا أيضا مبدأ جديد في سياسة الحكم يزيل كل أثر للتسلط من قبل الاكثرية على الاقلية عملا بقواعد «الديمقراطية المطلقة» كما يزيل كل أثر من آثار التسلط من قبل الأقلية على الأكثرية عملا بقواعد «الاشتراكية الديمقراطية» كما أن مبدأ الشورى هذا يرفع جميع أهل الرأي من أقلية أو أكثرية إلى مستوى واحد في الاعتبار، من غير أن يترك في نفس أحد منهم شعورا بالاهمال أو بعدم الاكتراث به، كما جرى عليه العهد النبوي. غير أن مبدأ الشورى هذا يستدعي كغيره بلا شك إعدادا تربويا خاصا ليكون للشورى أثرها المحمود. وسيكون الاعداد التربوي لقبول مبدأ الشورى المذكور أسهل من الاعداد التربوي لقبول مبدأ تسلط الاكثرية على الاقلية، أو قبول مبدأ تسلط الاقلية على الاكثرية، وبخاصة وأن هذا الأخير لم يقم حتى الان الا على الحديد والنار.

من الناحية التشريعية

(٨١) - وبعد فاننا الآن نصل في خاتمة كلمتنا إلى أثر الرسالة الاسلامية في الحضارة الانسانية من «الناحية التشريعية». وأن سلوكنا في تقديم بقية النواحي من

علمية، وانسانية، واجتماعية، واقتصادية، وسياسية على الناحية التشريعية الاخيرة، يسهل علينا اختتام كلمتنا بكثير من الايجاز، وذلك اعتمادا أيضا على كليات الشريعة الاسلامية وضوامنها التي أشرنا إليها سابقا، عوضا عن الغوص في أبوابها وفروعها وجزئياتها مما يتطلب مجلدات، ولا يتفق بحال مع مقام المحاضرة.

(٨٢) - وقد سبق معنا بمنتهى الايجاز في كل من النواحي المشار إليها أعلاه من أثر الرسالة الاسلامية في مواضيعها الحضارية الحيوية ما يمكن تلخيصه فيما يلي:

- أن الاسلام قد جاء في كل ذلك بالجديد المطلوب غير المعروف من قبل،

- وأن جديد الاسلام في ذلك قد قدم للبشرية في مفهوم الحضارة في كل من هذه النواحي الحيوية الاساسية ما لم يكن للحضارة الانسانية عهد به من قبل حتى الآن.

- وأن هذه الاحداثات الاسلامية في هذا النواحي الحضارية الحيوية هي وحدها اليوم الدالة على جميع المبادىء التقدمية التي يسعى اليها خبراء الأمم المتحدة ليقيموا عليها نظاما حيويا جديدا للانسانية.

(٨٣) - ولما كان الاسلام إنما جاء قبل أربعة عشر

قرنا بهذه القيم والمفاهيم.. الحضارية التقدمية:

أ - ليقضي بها أولا على الانظمة البالية السائدة بكل أسف حتى اليوم وبخاصة في التمايز بين الشعوب والطبقات في حقهم في الحياة الكريمة.

ب - ولينشىء بها ثانيا نظاما عالميا جديدا للحياة التقدمية الانسانية، لذلك فان الاسلام قد أقام «شريعة» على قواعد... جديدة في مبادئها وضوامنها لهذا النظام الجديد، وتعتبر بذلك من أعظم آثار الرسالة الاسلامية في الحضارة الانسانية من «الناحية التشريعية»، وذلك ما لم تصل إليه بعد أية شريعة وضعية من عالم الامس وعالم اليوم.

(٨٤) - وأن هذه المبادىء والضوامن قد سبق لنا أن أشرنا إليها من قبل أثناء كلامنا عن مميزات الدعوة الاسلامية لنظامها الجديد حيث قلنا فيها: إن الدعوة الاسلامية أقامت لها شريعة تمتاز على جميع ما عرفته الشرائع القديمة والحديثة من ضوامن. ولما كانت هذه الضوامن لمميزات الدعوة الاسلامية إنما هي الشريعة الاسلامية نفسها بمبادئها العامة وضوامنها، لذلك نعيد ذكرها في هذا المقام أيضا، وهي تتلخص في المبادىء والضوامن التالية:

أولا - أنها شريعة «عالمية» تنظر إلى شعوب البشرية على أنها أسرة بشرية.. واحدة،

ثانيا - أنها شريعة «انسانية» لا تمايز فيها ما بين انسان وانسان في الكرامة الانسانية،

ثالثا - أنها شريعة «ترعى مصالح الحياة الانسانية المتجددة» من غير جمود فيها على زمن أو مكان، وأنها «لا فضل فيها لانسان على إنسان، ولا لشعب على شعب» في حقهم جميعا في الحياة الكريمة.

رابعا - أنها قد شددت على «إقامة العدل» وجعلته أساس الملك تبعا للحق، من غير امتياز فيه للشريف على الوضيع، ولا للغني على الفقير، ولا للقوى على الضعيف. ورضي الله عن أبي بكر الخليفة الأول في الاسلام الذي نادى في الناس حين بويع بالخلافة فقال: «أيها الناس.... إن القوي ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق للضعيف، وإن الضعيف قوي عندي حتى آخذ له الحق من القوي».

(٨٥) - هذا ولسنا هنا في حاجة إلى إضافة شيء ما على ما سبق من أثر الشريعة الاسلامية في الحضارة الانسانية ومفاهيمها غير حدث واحد هو من أعظم شواهد

التاريخ في آثارها في المفهوم الحضاري من «الناحية التشريعية» حتى اليوم.

ويتلخص هذا الحادث في خبر شكوى دويلة صغيرة هي دولة سمرقند كما ذكرها البلاذري في فتوح البلدان، وكان الاسلام قد حررها في حروبه الظافرة من الاحتلال الاجنبي لبلادها، ولم يكره أهلها في مقابل ذلك على الاسلام، بل ترك لهم حق الخيار عملا بشريعة القرآن الكريم التي تقول: «لا إكراه في الدين»، وقد اختاروا البقاء على دينهم، ولكنهم عقدوا صلحا مع المسلمين على حكم أنفسهم بأنفسهم ودفع جزية الحماية للجيش الاسلامي لقاء حمايتهم من عودة المحتل إلى بلادهم، مع اشتراطهم على الجيش الظافر على بيزانس وفارس عدم بقائه في بلادهم، وكذلك فعل الجيش بعد تحريرهم وهم الضعفاء.

(٨٦) - غير أن الجيش الاسلامي لم يلبث بعد أكثر من نصف قرن أن دخل البلاد رغما من معاهدة الصلح، متلمسا بعض المبررات التي لم يوافق عليها أهل البلاد المغلوبة. وما كان من أهل هذه البلاد إلا أن أوفدوا وفدا إلى الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز في دمشق وشكوا

إليه احتلال الجيش الاسلامي خلافا لميثاق الصلح ولم يكن لديهم لدعم شكواهم غير صحيفة الصلح البالية منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب وقد مضى عليها عهود بضعة من الخلفاء. وما ان سمع الخليفة الشكوى ورأى ميثاق الصلح، حتى أمر بتأليف محكمة تسمع دعوى البلاد المغلوبة على الجيش الاسلامي الفاتح بالجلاء عملا بنصوص ميثاق الصلح... ويؤسفنا أن هذه المحكمة الدولية الاسلامية في شؤون الحرب لم يستطع عالمنا الحديث الوصول إلى مثلها حتى اليوم، على الرغم من منظمة الامم المتحدة ومؤسساتها العالمية التي لا تزال حتى الآن عاجزة عن مجاراة الاسلام في هذه العدالة الدولية عن طريق القضاء، وبخاصة في الحكم على الجيش الاسلامي في هذه العدالة الدولية عن طريق القضاء، وبخاصة في الحكم على الجيش الاسلامي القاهر لمصلحة الشاكين المقهورين، وفي ظل أعظم عهود الخلافة الإسلامية قوة وسلطانا.... وهذا ما يبرئ الحروب الاسلامية في عهد سلطان الاسلام على نفوس المسلمين من أن تكون حروب فتح، واستيلاء، وتوسعة لرقعة الملك، وقهر للمغلوبين، وإنما كانت فقط حروبا لتأدية رسالة إلهية

عالميـة إنسانيـة، ولتحرير الانسان من استغـلال أخيه الانسان، ولحماية حرية دعوة الخير التي جاء بها الاسلام مصداقا لقوله تعالى: «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين»، وفي ذلك يقول دوزي على لغة الفاتحين كلمته المشهورة: «ما عرف التاريخ فاتحا أرحم من العرب»، والحمد لله على شهادات المنصفين.

خاتمة

(٨٧) - ..... وبعد أيها السادة، فهذا هو نموذج من آثار الشريعة الاسلامية في الحضارة الانسانية من الناحية التشريعية وفقا لقواعد النظام الاسلامي الالّهي في شريعته وخصائصه الكبرى الأخرى فيما قد تقدم بيانه من النواحي العلمية، والانسانية والاجتماعية، والاقتصادية والسياسية.....

(٨٨) - .... ونعتقد أننا بمثل هذا النظام فقط؛ وبجميع نواحيه المذكورة، نستطع أن نضع حدا للاثرة وحب الذات، وللتمايز فيما بين الافراد والطبقات والجماعات في حقهم جميعاً بالحياة الكريمة، وبه وحده نستطيع أن نقيم المجتمع الانساني الجديد السعيد الآمن، على نحو ما قد نادى به محمد عليه الصلاة والسلام، وذلك باعلانه إعلانا جازما بطلان التمايز فيما بين البشر بجميع شعوبه، وأعراقه، وأجناسه، وأديانه، وبوضعه لهم جميع الاحكام القانونية لضمانه النظام الجديد الانساني.

ألا ولذلك فليعمل العاملون والحمد لله رب العالمين...


لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية
الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

حول الأدب النبوي

للأستاذ أحمد العناني
« قطر »



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

حول الأدب النبوي

تمهيد:

الأدب في مجمل ما يقوله المتذوقون هو التعبير الجميل عن التجارب والانفعالات، وفي عرف النقاد والمحللين هو شكل ومضمون، صورة وجوهر، أما البلاغيون المعنيون بالتأثير الحاصل من التعبير بغض النظر عن شكله فعندهم أن البلاغة هي مطابقة مقتضى الحال، وعلى هذا الأساس فهي مسألة نفسية مرتبطة بالقدرة الآنية على التأثير في جماعة معينة أو فرد معين، وفي مكان وزمان معينين، وفي ظروف معينة أيضا..

هناك ترابط لا شك فيه بين هذه الاشتراطات على العمل الأدبي البليغ وهي أن العمل أو المقولة أو التعبير - سمّه كما تشاء - لا يكتسب صفة الأدب المؤثر أو البليغ حتى يكون تعبيرا صادقا عن تجربة مؤثرة على نفسية مؤهلة للابداع، وبكيفية جميلة تناسب مقتضى الحال.

ولعله من السهولة بمكان أن يحدث التعبير الصادق

الجميل تأثيرا مؤقتا ولكن اقتداره على أن يظل مؤثرا إلى مدى طويل هو الأمر الكبير حقا... إن الخطيب الذي يلهب المشاعر في ظرف معين، ثم لا يجد له سامعا لو أعاد خطبته في ظرف مختلف لا يمكن أن يعد في مستوى الذين تنطلق تعابيرهم لتصبح دائمة التأثير بل ربما متزايدة التأثير على مدى الأيام... إن هذه الخصيصة هي خصيصة جوامع الكلم مما أوتي رسول الله صلى الله عليه وسلم..

إن القدرة على الايتاء بجوامع الكلم تحتاج من الناحية الشكلية كل مزايا الأديب الحق ولكنها من ناحية الجوهر أو المعنى أو ما يسميه النقاد المحدثون بالمضمون، أقول إنها من هذه الناحية تحتاج إلى مزايا أخرى سنعرض لها في تحليل لاحق عن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم... ولكن ما خصائص الأديب أولا للوصول إلى الشكل الأدبي الجميل....

خصائص الأديب الحق:

يولد بعض الأفراد بحساسية فطرية مرهفة ربما صح اعتبارها ضعفا بالمعنى العدواني للشخصية الانسانية، ولكنها بلا ريب فطرة سليمة وممتازة بقياس القيم الانسانية

ولا سيما السلام والرحمة، مثل هؤلاء الأفراد في العادة يتملكهم ميل للوحدة، ويحدوهم خيال باحث عن علاقات الأشياء الكونية وارتباطاتها، عن أوجه الشبه والخلاف فيما بينها، ولذلك فهم أيضا يحسنون صناعة الصمت المتأمل ويحبون الطبيعة، ويتملكهم قدر أوفر من الحياء في البحث عن سداد الحاجات الغريزية، وهم يهتزون للمؤثرات العاطفية اهتزازا خاصا، وهم يعجبون من لهو الناس وغفلتهم عن رؤية وجوه الجمال في الأشياء، وتراهم يأنسون كثيرا للظلال الكثيفة وللينابيع المتدفقة، وللصحوة المبكرة، وللتأمل في تغاير أحوال الكون بين ليل ونهار وصيف وشتاء.. وهم أناس يرحمون ويحبون أن يرحموا، ويحتملون الهم في معاناة الآخرين، ويسرهم سرورهم أيضا.

وفي وسع هؤلاء أن يصغوا لكلام الكبار من الناس، ولا يروي نهمهم، وخيالهم مرهق بالأحلام والتجوال... وهم دائما يبحثون عن معاني الأشياء فالعيد مثلا عندهم هو فرصة لمطالعة الحبور على قسمات الوجوه، والتملي في سعادة الأطفال بجديد الثياب لا يفكرون في تأمين شيء من ذلك لأنفسهم بخاصة ولا يبحثون عنه ذلك البحث المحموم الذي يصدر عنه الصغار.

وما أن يتبلور وعي هذه الفئة من الناس حتى تغشاهم الرغبة في التعبير عن انفعالاتهم على تفاوت واضح في فترة العمر، وربما كان المتأخر منهم في ذلك هو الأقدر على التعبير العميق المتشح بالجمال شكلا، وبالعمق موضوعا ومعنى.

وتحدث التجارب الواعية انفعالات شديدة في تلك الأنفس الموهوبة المرهفة فكأنما تهزهم هز الريح العاصف للغاية فتخرج منهم تعبيرات جميلة، إذا هي جاءت على شكل الكلمات فإنها كلمات تحمل صفة الانفعال المؤثر، فيها موسيقاه وشكله العام بين الجبروت أو الرقة، فلو كان الحاصل زلزالا مدمرا وجدت تعبيرهم الشعري مثلا يتسم بموسيقى صاخبة هي حصيلة التجانس بين الألفاظ المتجاورة والتراكيب اللفظية المستخدمة في التعبير. خُذْ لك على سبيل المثال والتقريب وقوف ابن حمديس الصقلي المهاجر في الأندلس أمام جبل عال ذكره بجبال بلاده التي أخرج منها في صقلية. فاذا هو يقول في وصف الجبل الذي يكاد النظر يعجز عن متابعته إلى أقصى قمته المتدثرة بالسحب.

وأرعن طماح الذؤابـــة شامخ

يطـاول أعنـان السماء بمنكـب

إن هذا البيت من الشعر يحمل كل سمات الأدب الحق الجميل التي أوردناها....

فأولا: إن مجرد مواجهة جبل عال إنما تشكل ظاهرة انفعاليــة لأديـب موهوب ولكنـه ليس كسائر الجبال...

وثانيا: انظر إلى ترابط الأشياء الكونية التي يستطيع هؤلاء المرهفو الحس وحدهم أن يروها... إنه جبل أرعن... أليست الرعونة هي غالبا ما تكون صفة الطوال الضخم من الرجال الذي لا يراوده بعض ما يراود القصار من الخوف فتراه لا يتحسب إذا تكلم، وانظر إلى الاستعارة التي يمكن تسميتها بالتشبيه المتخصص في ذلك الطماح الذؤابة، وهي عبارة تستحضر صورة الصعلوك الفاتك، الفارع الطول من الأدب الجاهلي، وقد انتشر شعر ذؤابته عاليا فوق رأسه الأشعث، كذلك بدت قمة الجبل الأرعن للشاعر في الأعالي، ذلك الجبل الذي

جعل له الشاعر أيضا منكبا كمنكب الرجل المتين. ذلك هو سر القدرة في التشبيه والاستعارة وهما التعبير الأدبي عن ترابط الأشياء كما تبدو لعيني الأديب المتفكر.

وثالثا: لاحظ هذا التجانس اللفظي الذي يساهم في استحضار صورة الجبل الأشم لخيال القارئ فحرف الطاء الثقيل كالجبال يتردد في صدر البيت وعجزه (طماح - يطاول)، وحرف العين أيضا يتردد صداه في عجز البيت (أرعن - أعنان)، وانظر الى المد المتكرر ثلاث مرات في الصدر وثلاث مرات في العجز، والألف في طماح، والألف في الذؤابة، والألف في شامخ؛ ثم في العجز الألف في يطاول والألف في أعنان والألف في السماء (التكرار متشابه في الكمية وهي الموسيقى الا تكرار كمي متشابه) ثم لماذا المد بالألف لأن الشاعر يريد أن يرحل بك إلى أعلى فأعلى لتصل معه إلى قمة الجبل السابحة في الغيوم.

إن الشاعر يتجاوب مع نوع المؤثر هز إحساسه تجاوبا

يناسب مقتضى الحال والوصف.. ومن هنا جاء التأثير المتصل لهذه القصيدة الخالِدة في ميراثنا الأدبي والتي لا أراني محتاجا ولا ينبغي أن أسير معها كلها، ما دام هدفي الأخير هو الأدب النبوي الشريف...

التعبير بالكلمة:

تحدثنا عن الموهبة الفطرية في النفوس المرهفة الاحساس، وقبل أن ننتقل من هذه النقطة فإن لنا تنبيها إلى أمر هام سوف نعرض له لاحقا، وإن لم يكن بد من ذكره الآن، فالحساسية المرهفة هذه تتخذ من الشعر بالضرورة وسيلة للتعبير إن لم تجد من الكوابح ما يصدها إلى اتجاه أبعد غورا. وأغلب هذه الكوابح ما ينشأ من ألم شديد ناتج عن معاناة ضخمة، فإن ترسب ذلك الألم وتلك المعاناة يؤديان إلى تنبيه قدرات وراء الحس والادراك وهي قدرات العقل، وإذا ما وصلت المعاناة ذلك الحد كان التعبير هو النثر الموجز المتشح بكل عناصر الحكمة البليغة.

أيا كان الحال فليس ذلك بحثنا الآن إذ أن مكانه هو تحليلنا للجوانب المتعلقة بالتعبير الجميل المحكم لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم..

أما الآن فنحن مع حاجة الحس الموهوب المرهف إلى الكلمة في التعبير الأدبي شعرا كان أم نثرا...

إن ترجمة الحس الناشىء عن التجربة - أو ما يمكن تسميته بالحاجة الى التعبير - تتطلب لاكتساب الشكل الأدبي - أو الصورة - إلى غزارة دافقة في اللغة مفرداتها وتراكيبها وقوالبها التعبيرية، وفي مجال المفردات فإنه كلما كانت المترادفات أكثر توافرا فان ذلك أدعى أولا الى دقة التعبير وثانيا الى الانتقاء اللاشعوري للفظة الأفضل موسيقيا - سواء أكانت تلك الموسيقى خارجية بارزة كما هي في الشعر وتفاعيله الموزونة، أم كانت تلك الموسيقى الداخلية التي تتضمنها العبارة النثرية الجميلة المحكمة، الخالية من التنافر اللفظي والتي يتضافر شكلها التعبيري؛ هي والتراكيب الداخلة في مجمل التعبير مع مضمونها الدقيق في إحداث الأثر السار المؤثر في السامع..

إن القاموس اللفظي لكل إنسان يتراوح كثرة وقلة وفق مجموعة المواهب الخاصة لذلك الانسان، ومنها الذاكرة الحافظة السريعة الاستجابة، والاصغاء العميق الذي يختزن في الذاكرة مجموعة المسموعات اللفظية - والمقروءات في

حالة القراءة - وتنوع التجربة والمحاولة، ذلك بأن تجارب المرء مع أناس متنوعين يطلعه على أنماط أكثر من التراكيب اللغوية، ومفردات وترادفات أغزر، أما المحاولة فان الموهوبين من الأفراد من ذوي الخيال الواسع بخاصة يستحضرون ما يحفظونه في حديث دائم مع أنفسهم، قد يعلنونه جهرا في بعض الأحوال، وقد يتفاعل مع حسهم المضطرم في أكثر الحالات، ولا شك أن محاولة التعبير تعطي الخاطر مرانا واسعا يسهل تداعي الألفاظ إلى اللسان أو القلم لدى حصول الانفعال الموجب للتعبير...

ولتوضيح هذا الأمر فاننا نعلم أننا حين نعجب بسماع متحدث أو خطيب نقول في تعليقنا على ما نسمع، لقد قال تماما ما كنا نحب أن نقوله، ولكنا لم نستطع ذلك أو لم نحاوله أو هو دار في خاطرنا ولكنه امتنع على شفاهنا.. إن الحقيقة هي أن معظم الناس يسمعون قدرا كبيرا من الأحاديث والخطب المنبرية والكلام العابر ولكنهم لا يأخذون من ذلك كله إلا على قدر قرائحهم وعقولهم...

ومن العوامل المساعدة بلا ريب توافر بيئة مواتية لتطارح النقاش وتذاكر الأخبار والنطق بكلام جميل

مروي أو مبتكر، كما كان يحصل في أسواق العرب في الأشهر الحرم، أو في مجالس بعض القبائل التي شهر منها أرتال من الشعراء والمتحدثين المجيدين، ولا ريب أن القدرة على التعبير الشعري الغزلي كانت تبدو أكبر عند طفل ينشأ في قبيلة كهذيل عرفت بكثرة الشعراء من أبنائها في هذا المقصد الشعري بالذات.

أما التراكيب اللغوية فهي أنماط من الكلام الحسن المروي أو المبتكر، ولا شك أن تفهمها واستذكارها يعطي قدرة أكبر على الابتكار التعبيري، وفي هذا المجال مثلا كلنا يعرف كم أثرت الأنماط القرآنية البالغة قمة الروعة البيانية في نثر الناثرين والكتاب والخطباء والوعاظ حتى اليوم والى آخر يوم ينطق فيه بالعربية.

المضمون الأدبي بين الشاعر والمتفكر:

إذا كان الشكل الأدبي أو سَمِّه إن شئت الأسلوب التعبيري أمرا يرتبط بالموهبة الشخصية وما تناله تلك الموهبة من وسائل لتسهل من مهمتها أو بعبارة أخرى ما تحصل عليه من مران واخصاب في المفردات والعبارات، فإن المضمون الأدبي أو سمِّه الفكرة أو المعنى هو أمر أقرب

للخضوع لقواعد العلم والمنطق منه للموهبة والطبع...

ولا شك أن مضامين الشعر هي أدنى درجة في الفكر الانساني من مضامين النثر الفني المرتبطة بالفكر.

وفي هذا المجال لا بد لي أن أوضح بأن الشاعر رجل يستهدف «شكل» التعبير ويعول عليه تعويلا ربما ناف في أكثر الحالات على تعويله على «المضمون». إن الناحية الجمالية في الشعر مهمة تماما كأهميتها للرسام والموسيقي والمصور، والواقع أن الفرق بين شاعر وآخر من ناحية ما يسمى بالأصالة هو في القدرة على استهداف الشكل الجميل بعفوية لا شعورية، وذلك ما يفعله الشاعر المطبوع، الذي ينفعل للحادث أو الرؤية انفعالا شديدا بحيث تنظم الموسيقى الخفية الناشئة عن الانفعال سائر المفردات والتراكيب التعبيرية عنده تركيبا عفويا يكاد يجعل الشعر في سلاسته وتدفقه أقرب الى بدهية النثر وترتيب نظامه.. ولا تستطيع حتى عوائق القافية أن تصد تفجر ذلك المد اللاشعوري في أعماق الشاعر وإنك لتحس حين تقرؤه أنه لم يجهد نفسه كثيرا في تسيير مفرداته في بيت الشعر تسييرا طبيعيا ومنطقيا.

لكن الشاعر الـذي يستهـدف «الشكـل الشعري» استهدافا شعوريا وربما عقلانيا، بسبب صناعية انفعاله فان ذلك هو الذي يظهر تنافرا في التراكيب وبعدا عن التجانس في الألفـاظ داخل جسم البيت الشعري وفي القصيدة بالتالي..

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن تذوق الشعر الملتزم بمضمون شريف غاية التذوق، لم يكن على رهافة حسه، وبعد خياله، وصدق انفعالاته شاعرا بحال من الأحوال.. ذلك بأنه عليه السلام كان يستهدف الفكرة والمضمون في نطاق من الأخلاقية السامية والعقيدة المحددة.

لقد كانت ضالته هي الحكمة وكان ضابط قوله الحق، وكان استهدافه هو المعنى دون الشكل.. ومع ذلك فقد كانت تعابيره كلها جميلة، وكلها موحية معبرة. ولم يكن الشكل فيها طاغيا على المضمون، أو مستهدفا من دون المضمون كما ذكرت. لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن عابثا في حال من الأحوال، ولم ينسب إليه عبث ولا تغزل ولا أي من عواطف الشباب العنيفة، وكانت الفكرة دائما عنده منطلق الكلمة، كان لا يقول إلا حقا ولا ينطق إلا صدقـا ولا يلتزم بغير الحقائق، ولا يضحي بذرة من

موضوعية الفكرة أو المعنى لاستهداف جمال هائم في التعبير مقصود لذات الشكل الجميل...

لقد كانت رسالة الكلمة عند محمد صلى الله عليه وسلم هي الخير وإلا فإن الصمت كان الأفضل عنده والأمثل.

ومع ذلك كانت كلمته تزف الى السامع في شكل غاية في الذوق الجميل والاحساس المخلص واذا لزم الخيال لها في نطاق الأقصوصة الموحية فلا يسبق محمد عليه السلام في مجال القصة التمثيلية الموحية المحكمة واعظ ولا كاتب.

العوامل المؤثرة في مضمون وشكل الأدب النبوي:

لعله من الأنسب الأخذ بالتدرج الزمني للعوامل المؤثرة في الأدب النبوي، ولا يعني هذا الأسلوب اطلاقا أي ترتيب حسب الأهمية ذلك بأن تأثر الرسول صلى الله عليه وسلم بالقرآن الكريم هو أعظم العوامل المشكلة لذلك الأدب النبوي، بل هو العامل المحوري والجوهري، فان أحدا لم ينوه بالأدب النبوي قبل الرسالة، ولكن الناس نوهوا بالخلق المحمدي، التعقل والأمانة والنزاهة التي عرف بها الرسول عليه السلام صبيا ويافعا ورجلا مشتغلا بتجارة خديجة عليها السلام.

ولو كان الجانب الأدبي عند الرسول بارزا على مثل تلك الصورة لأشاد به الناس إشادتهم بخلقه العظيم. ولو كان للرسول عليه السلام أي نشاط في الشعر مثلا لما تردد بنو هاشم في إظهار ذلك والمفاخرة به والحفاوة به أعظم الحفاوة، خصوصا وأن مكة كانت سوقا للكشف عن مثل ذلك والاعتداد القبلي به أيما اعتداد ، فلقد كانت الكثرة الساحقة من العرب أميين فلم يكن أصلح من الشعر وسيلة للفخر والدعاية.

لكن الانطباع العظيم الذي تركه الرسول صلى الله عليه وسلم في نفوس الناس بمكة قبل الرسالة يقتضي أن يكون منطقه الجميل السليم عاملا داخلا في ذلك الانطباع. إن اكتمال الصورة الفاضلة لرجل ما مرتبط بالأقوال والأفعال معا... فهل كانت قريش مثلا تهلل بمقدم الأمين الذي حل معضلة رفع الحجر الأسود الى موقعه من جدار الكعبة دون أي جهد من الرسول الكريم في مخاطبتهم في تلك المناسبة بحديث مرضي عنه كالرضا عن أفعاله النزيهة؟ ولكن لماذا لا نبحث في العوامل المؤثرة في ذلك المنطق لنصل الى حتمية الوضع الذي كان عليه بأثر تلك العوامل...

وأيا كان الحال، فاننا اذ نعود الى صلب الموضوع حول العوامل المؤثرة في أدب الرسول عليه السلام تقول:

إن الأخذ بالترتيب الزمني مسألة أدعى للوضوح وأهون عند المتابعة ولذلك فسوف نتبع ذلك الترتيب اياه في الحديث عن العوامل المؤثرة في الأدب النبوي.

العامل الأول - بيئة مكة وقريش، والتربية الأولى في بني سعد:

اذا ما ذكرت مكة انطلق الذهن تلقائيا الى أول بيت وضع للناس لعبادة الله الواحد جل جلاله، وقد كانت مضت أحقاب طويلة سبقت رسالة موسى ونزول التوراة منذ بناء ابراهيم عليه السلام وإسماعيل الكعبة، ولقد شهدت تلك الأحقاب صراعا بين المدينة التي نشأت حول البيت وانتفعت بحج الناس اليه، وتكريمهم إياه وبين القبائل البدوية التي كانت على دين الوثنية وقانون الغزو والقوة الوحشية الى أن تغلبت الأخيرة على مكة، ومع أن حرمة البيت لم تزل الا أن أمر العقيدة اختلط فأدخل الوثنيون أصنامهم الى داخل الكعبة - وظل قليل جدا من الأحناف على دين التوحيد عاجزين عن التأثير في

الواقع الفاسد المفروض على البيت ومكة. وتحول البيت الحرام في الاشهر الحرم الى معرض للعقائد الضالة والممارسات التعبدية المبتدئة المضحكة، فمن عابدين يصفقون، ويصفرون. ومن آخرين يناشدون الأزلام الحظوظ. ومن ساعين الى مكة لمجرد الترويح وإقامة مهرجانات الشعر والغناء ومطارحة المفاخرات، ومن مقيمين بمكة همهم الأساسي الانتفاع المادي من الوظائف المقسمة عليهم في الموسم الكبير، وقد استحالت الكعبة الى مؤسسة ارتزاق لهم، ذلك كان جو يجيء بالناس من أكثر أطراف الجزيرة في كل عام، فإذا أضفنا له اشتغال القرشيين بالتجارة بين اليمن والشام وما ينتج عن كل من المهرجانات المختلطة، والأسفار الموحية من آثار على أهل مكة، حيث يتطور فهمهم وخيالهم، وأهم من ذلك تطور لغتهم مفردات وتراكيب، حيث يدخلها كل لفظ سهل سلس وتركيب لغوي متماسك معوسق مما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا ريب يسمع، خصوصا بما أوتي من نعمة الهدوء وقدرة الصمت.

إن لهجات القبائل بما فيها من مفردات وتراكيب لغوية كانت تتصارع على البقاء في زحمة الأسواق بعكاظ وذي

الجن، بل وفي شوارع مكة وحول البيت الحرام، ولا يبقى حيا من ذلك الصراع الا الكلمة الأنسب والأجمل وهذا ما يحدث للحصا في قاع الغدير يظل يدافع حتى يملس ويسلس بل ليكاد يشبه حلي الغواني في لمعانه. ذلك ما حصل للغة المكيين بحكم الضرورة من طول امتزاجهم بالقبائل في الأشهر الحرم وفي طرق التجارة.

ولا شك بأن اللغة في مكة كانت الى جانب السهولة لغة مخصبة بالمترادفات حيث كان المكيون يسمعون من كل القبائل مختلف ما في لهجاتها من جديد مغاير لمعظم ما يسمعونه من سواهم...

والواقع أن تربية رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سن الخامسة في الصحراء قد أعطته قاعدة بدوية صافية يستطيع أن يتخذ منها مقياسا لما يسمعه لاحقا في مكة، لقد تربى في واحدة من أفصح قبائل العرب ألا وهي قبيلة بني سعد؛ فلا عجب أن كان عليه السلام يقول لأصحابه بعد الرسالة: «أنا أعربكم (أي أحسنكم عربية) أنا قرشي واسترضعت في بني سعد بن بكر[1]

---

(١) يرويه محمد حسين هيكل بغير سند في كتابه «حياة محمد» الطبعة الثانية ص ١١٢.

العامل الثاني التكوين النفسي للرسول عليه السلام:

كان محمد عليه السلام بهيا منذ ولادته، وفذا في كل شيء وقد تجلى ذلك في كبره وانظر خلاصة ما استقاه السباعي عن خلاصته عن أوصاف الرسول عليه السلام مستقاة من كتب السنة الصحيحة وكتب الشمائل النبوية وخاصة شمائل الامام أبي عيسى الترمذي رحمه الله[1]، وفيها يقول السباعي رحمه الله: «كان عليه السلام ظاهر الوضاءة، متبلج الوجه، له نور يعلوه، اذا زال زال تقلعا، يخطو تكفيا، ويمشي هونا، ذريع المشية كأنما ينحط من صبب، خافض الطرف نظره الى الأرض أطول من نظره الى السماء، جل نظره الملاحظة، يمشي وراء الصحابة، ويبدر من لقي بالسلام، دائم الأحزان، متواصل الفكرة، ليست له راحة، طويل السكت، لا يتكلم في غير حاجة، الى آخر تلك الخلاصة.

ومما يرويه أنس بن مالك - خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم[2]: خدمت النبي عشر سنين فما قال لي أف قط،

---

(١) د. مصطفى السباعي - عظماؤنا في التاريخ - طباعة المكتب الاسلامي ببيروت.

(٢) رواه البخاري.

ولا قال لشيء صنعته لم صنعته ، ولا لشيء تركته لم تركته ، وكان لا يظلم أحدا أجره .

إنني أكتفي الآن بهذا القدر بشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ففيه ما يكفي للدلالة على تكوين نفسي مصنوع على عين الله سبحانه وتعالى توصلا الى نتيجة محددة في المستقبل .. وأهم خصيصتين في ذلك التكوين هما البهاء والألم متجاورين ..

فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، سليل الشرف العظيم من ذوءابة مكة ولكنه هو أيضا اليتيم الذي سمع عن والد كانت حياته وموته سواء بسواء مثار عطف هائل في مكة كلها ... أقول سمع عنه ولم يره ، بل إنه لم ير مجرد قبره الا حين بلغ السادسة من العمر حيث تصحبه أمه ومعها أم أيمن جارية أبيه الى يثرب لتطلعه على القبر الذي يثوي فيه أب له طالما تاقه السماع عن سيرته ،وفي طريق العودة بموقع الأبواء تموت أم محمد عليه السلام ليتفكر على درب العودة الطويل حيث يترامى السراب على رمالها البعيدة مذكرا بخداع الآمال وحقيقة الدنيا ...

صحراء للتأمل وهو يسترضع في بني سعد ويتم أب

يحرض على التأمل، وصحراء في العودة من يثرب ويتم أم يجدد شحن التأمل بعيدا في صميم الصحراء.. ثم رعاية غنم على شعاب مكة، أن كان عمه فقيرا معيلا وقد ضم اليه محمدا بحكم القرابة اللاصقة بعد موت الجد الأولى به عبد المطلب... واطلال على الصحراء من القمم لمعاودة التفكر والتأمل...

وبلد يتعايش فيه التناقض... أول بيت للتوحيد ومع ذلك ففيه معرض أصنام، وأحناف يدعون الله وحده وسط زحام للوثنيين في البيت الحرام... غنى في قريش وفقر عند أبي طالب، وحسب رفيع ولكنه يحيا بجواره في اليتم.. وسادة متشبعون طغاة في مكة وعبيد محاويج مهانون الى جانبهم.

بهاء وألم وتعايش مع متناقضات... أية عوامل يمكن أن تكون أضخم من هذه في تفجير الكلمة العاطفية المحتدمة بنار المعاناة؟ ومع ذلك فان محمدا عليه السلام كان طويل الصمت، عميق التفكر، مؤثرا للوحدة.

إن النتيجة الوحيدة لهذه الأوضاع العامة، وذلك التكوين النفسي لصبي بهي محزون يعني مع القدرة على

الصمت تحول طاقات محمد عليه السلام الى الحكمة العميقة وبعد النظر.

العامل الثالث - السفر الى الشام:

كانت رحلة النبي صلى الله عليه وسلم مع عمه أبي طالب مناسبة ضخمة للصبي البهي المتفكر المحزون لكي يواصل عقله الذكي المؤثر للحركة الدائبة الداخلية عملية النظر العميق في أحوال الحياة والناس... وكانت مناسبة أخرى لـه لمقايسة أحوال الشعوب، ومعاناة مشاق السفر وملاحظة الاهتمام الذي كان يعار له ولشخصيته الفذة، ولا سيما من الراهب بحيرا... ثم يعود عليه السلام الى مكة ليحيا سنوات أخرى في استعادة المشاهد التي رآها في الشام مغايرة لما رآه في حياته كلها قبل ذلك. لقد رأى مجتمع المدينة الحاشد بالخلق، ورأى الناس هناك كيف يكون اكتساب أرزاقهم، ولاحظ بلا ريب خدمات العبيد في القوافل والأسواق ودورهم البارز في تحقيق أرباح التجار ثم لا يعود عليهم ذلك بطائل....

كذلك قدر للرسول صلى الله عليه وسلم أن يشهد حلف الفضول وحرب الفجار وأن يشارك في معركة قامت من

أجل حماية الفضائل ومكارم الأخلاق..

وكان للرسول الكريم معاناة إنسانية من طراز مختلف بعد الزواج من خديجة رضي الله عنها، فقد عاشت بناته كلهن وتعاقب أولاده الثلاثة القاسم والطاهر والطيب على حياض الموت..

أية قدرة تحكم الكون وأي غيب يستتر وراء الحياة والأحداث!! وبكل المعاناة التي عرفها والتجارب التي اكتسبها بدأ محمد عليه السلام اعتكافه في المكان البعيد عن مكة في جبل النور من غار حراء... سبحان الله، ما الذي كان يضطرم في وجدان ذلك الانسان الصموت المهيب، الممتلىء معاناة وجراحا وتجارب فوق تلك القمة السامقة المطلة من كل ناحية على امتداد من الفيافي لا تنتهي عند الغرب إلا حيث يغسل السهل قدميه في البحر، ولا يتوقف النظر عند حاجز يصده أنى اتجه الى الجهات الثلاث الأخرى...

العامل الرابع - الوحي والقرآن:

ثم يجيء الوحي في حراء ليتم نعمة الله تعالى على ذلك اليتيم البهي المحزون، ذلك الانسان المتفكر الطيب الأمين

لتنحل في نفسه الى الأبد عقدة التساؤل بين السماء والأرض عن سر الحياة والانسان والكون.. فاذا الذي كان يملأ وجدانه من الاحساس العميق بوجود القدرة العظمى المهيمنة الخيرة الحكيمة موجود بشاهد الحس فهذا رسول من السماء وملك كريم من ملائك الله يدنو منه ويتدلى ليصبح قاب قوسين أو أدنى فيوحي له من ربه كلاما يملأ نفسه نورا وتهيبا واندهاشا... لقد جاءه مثل الناموس الذي أنزل على موسى... واذا محمد عليه السلام بعد الرهبة والتدثر والتزمل في شوق الى عودة الملاك، لقد زايلته الصدمة الأولى،وآنسه منطق خديجة وبشارة ورقة بن نوفل؛ ألم يكن هو الرجل الذي يحمل الكَلَّ وينصر الضعيف ويعين على نوائب الدهر؟ ألم يكن الانسان العف البر المنزه اللسان عن سيء القول والمتلىء الجنان بالتطهير من كل إثم..

إن أحدا في الدنيا لم يفهم القرآن قدر فهم الرسول له، ولا تأثر به قائلا فاعلا كما تأثر به الفكر الذي يتلقاه.

من هنا كانت أخلاق محمد عليه السلام هي القرآن وكانت أقواله أكثر أقوال تأثرت بالقرآن على مدى

الزمان... وحسبك حين يوشك أن يتراجع أبو طالب عن نصرته ليدعه لمواجهة منفردة أمام الكفر المتجمع ضده أن يقسم أنه لو وضعت الشمس في يمينه والقمر في يساره ما تخلى عن دعوته أو يهلك دونها...

وحسبك منه يوم أحد وطيف الموت ماثل كالعيان، وفي يوم حنين وشبح الهزيمة أقرب من الأسنان للسان أن يثبت رجله في ساح الموت كما لا تثبت رجل على أرض في يوم فرح أو يوم روع وهلاك...

وحسبك منه تفجر ينابيع البِرِّ ثَرَّةً من خاطره النزيه، حسبك ذلك الصدر الذي كان يسمع له عند نشيجه من خشية الله أزيز كأزيز المرجل.. حتى إذا كان لا مفر من أن تسمعه عائشة وتسائله عن كل ذلك البكاء وهو المغفورة ذنوبه ما تقدم منها وما تأخر فيجيبها: «أفلا أكون عبدا شكورا؟»

كل شيء في سلوكه حتى لحظة وفاته عليه السلام كان آية شاهدة على انطباع القرآن في فكره وشعوره وخياله، وعلى جريانه في وجوده مجرى الدم في العروق...

والقرآن هو القرآن وكيف نستطيع أن نزيد الا كما

يفعل القائلون للشمس يا شمس أنت مضيئة...

إن بين القرآن وبين كل تعبير إنساني من الفرق ما يوازي تماما ما بين الخالق والمخلوق والخالد والفاني.

من القرآن تعرف قواعد البلاغة، وبالتأثير به يصبح الرجال مفكرين أشرافا، وقائلين سدادا...

وعند القرآن تبطل حجة الأدب والخيال والبلاغة والمضمون السامي لأن القرآن الكريم فوق كل أدب رفيع وفصاحة مثلى ومضمون من الحق أبلج كوضح النهار...

وحيث نزل الوحي منجما على مدى عقدين من الزمان ونيف، فان تلقي الرسول عليه السلام للوحي كان تلقي المنتظر المتهيء المتهيب، فكان القرآن في كل مرة يسري في أعماق حسه ووجوده بآية ذلك العرق الذي كان يتفصد من جبينه والارتعاش الشديد المواكب لنزول الوحي في كل مرة... وشتان بين تلقي العلم بسرعة مذهلة وبين أخذه على مهل منجما...

العامل الخامس - الصدق في العمل:

منذ نزول الوحي وحتى وفاة الرسول الكريم ووجوده كله عليه السلام مرهون بالرسالة... ونجاحها، كان قلبه

العظيم يفيض بها ولها حبا لم يملك من دنياه شيئا ولم يمسك على شيء ، لم يكن ولا في مرة واحدة غليظ القلب أو فظاً ، لم يتأخر عن جنازة، ولا ترك مريضا بلا عيادة. لم يسارع مرة الى مغنم ولا تأخر لحظة عن خطر ، وما كان يعرف النوم إلا غرارا... كان للرسالة يحيا ولها يجاهد ، واجه فيها كفر الرأسماليين المكيين من عبدة الدنيا ، وفيها لاقى عذاب الهجرة والحرب بأقل العدة، ونفاق يهود ، وفقر المسلمين، وغباء الجاهليين ومكر القتلة المتآمرين، وتحرش الروم البيزنطيين فما أصابه وهن ولا خور لقد نجح رسول الله صلى الله عليه وسلم بعون من ربه كما لم ينجح إنسان من الرسل الكرام أو سواهم في تاريخ الدنيا...

فبينما تمكن اليهود من تشويه النصوص المسيحية الأساسية والاعتداء الأثيم على السيد المسيح عليه السلام، فإن محمدا صلى الله عليه وسلم، دون الخروج قيد شعرة عن تعاليم الحنيفية السمحاء وأخلاق القرآن والرسل الكرام، واستطاع أن يقهر اليهود بالحق، مع أنه لم يقتل منافقا منهم كان يدعي الاخلاص الكاذب له، ولا غدر بأحد حياته كلها، ولا عقد عقدا إلا وشرفه بالتنفيذ الدقيق والالتزام

الصادق وكان عليه السلام هو المنتصر الوحيد بهذه الكيفية الحقانية على مدى التاريخ..

ونجح رسول الله صلى الله عليه وسلم في اكتساب حب أصحابه وأتباعه وآل بيته كما لم ينجح إنسان في الدنيا، فلم يكن فيهم واحد غير متعلق بشخصه الكريم تعلق الأطفال بأمهاتهم، يؤثرونه على أنفسهم، ويفدونه بأرواحهم، ويسارعون الى التقرب منه بكل وسيلة، ويتسقطون منه كل كلمة، ويتمنى أحدهم أن يلاقي الموت ولا يكون الرسول مكانه وتصيبه شوكة.

ونجح رسول الله صلى الله عليه وسلم في تأسيس الدولة الربانية التي طبقت شريعة الله كاملة، ورفعتها فوق الأحساب والأنساب، والأعراف والألوان، واستحدثت فيها من العدالة ما يشرف البشرية الى آخر الزمان...

وباعتراف كل مؤرخ منصف في الدنيا لم يحدث أن تخلى البدو والقبائل عن ولاءاتهم.... وانتماءاتهم القبلية العصبية لصالح أمة وحكومة إلا في ظل الاسلام....

ونجح رسول الله صلى الله عليه وسلم في القضاء على الخرافة والأساطير والشعوذات والظلم الاجتماعي ووأد

البنات، وحطم كل الأصنام، وأزاح كل وسيط بين العبد وربه، وبث المحبة والتراحم وصلة الأرحام ورعاية الصديق والجار وحماية المودع، وكفالة اليتيم والمسكين والمدين وابن السبيل، ورفع شأن العمل وجعله أساس القيمة وألغى دينه الربا والاستغلال والسحت والاستغفال، وسخر القوة للحق وجعل عبادة الله والخوف من اليوم الآخر ورجاء الجنة فوق كل قيمة مادية زائلة وحجة للشر باطلة...

الأدب النبوي أعظم أدب في الدنيا شكلا وموضوعا:

من كل تلك الينابيع الصافية جاء الشكل البياني للكلم المحمدي صافيا فصيحا معبرا وجميلا.

ومن كل تلك المضامين جاء مضمون الأدب النبوي أشرق مضمون متشح بالحكمة منطلقا من روح الحق والمعرفة ملتزما برسالة الهدى والعدل والتساوي والرحمة....

إن الشكل «أو» صورة التعبير في أدب الرسول صلى الله عليه وسلم ملتزم بالعذوبة واليسر[1] والجمال والايجاز وتطابق الكلمة والمضمون المراد، الى جانب الذوق الرفيع السامي.

ومع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نتيجة المضمون الأمثل لكلامه ورسالته لم يقل الشعر وما كان الشعر ينبغي له إلا أن النثر المحمدي هو المثل الأعلى للبيان النقي الجميل، المقرب الى العقل والقلب معا، والخالي من كل تعقيد أو تنافر يضاربها البيان البديع...

ان كل كلمة محمدية وكل عبارة محمدية هما مثال الفصاحة والضبط والبعد عن التعقيد والالتواء، كما أن مضمونها هو المحبة والسلام والايثار والمنطق السليم وروح الحكمة.

لقد كان المناخ النفسي لتلك الكلمات مناخ رجل ما عرفت القسوة الى قلبه سبيلا. لقد قيل له عليه السلام يوم شج وجهه وكسرت رباعيته في أحد[1]: لو دعوت عليهم؟ فقال: «إني لم أبعث لعانا ولكني بعثت داعيا ورحمة، اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

أدعية الرسول عليه السلام كنموذج للشكل التعبيري في أدبه العظيم:

مع أن كل ما صدر عن الرسول عليه السلام تجلى في

(١) رواه البخاري

أبهى حلل البيان وأغلى نفائس الحكمة، إلا أنني أوثر عند الحديث عن الشكل التعبيري لأدب الرسول صلى الله عليه وسلم أن اختار أدعيته للتحليل...

أبتدأ بأرفع بيان انفرجت عنه شفتان بشريتان في موقف يهز الوجدان ويثير أروع معاني الإعزاز والمحبة.

ذلك هو دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم في الطائف

ولكي نتوصل لتحليل شاف لذلك الدعاء لا بد من التعرض للظرف الذي صدر فيه، وهو أشد الظروف حلكة، وأعظمها تأزما في حياته صلى الله عليه وسلم، كان ذلك في عام الحزن، عام المحنة المطبقة من كل جانب.. حين شاءت إرادة الله تعالى، أن يتعاقب على الموت دراكا كل من أبي طالب درع الرسول عليه السلام في وجه قريش وأذاها، ثم خديجة بنت خويلد زوجه وسكن روحه وأم بناته، ولا تسل عن باب الشر الذي انفتح، ولا عن طمع السفهاء الذين بلغت بأحدهم القحة أن يباغت الرسول الكريم بالقاء التراب على رأسه. لقد بدا التاريخ في تلك اللحظات وكأنه قلق الظن حائر الخطو، متوجس يوشك أن يعود بالناس القهقرى، وأحس الرسول الكريم أنه لا مطمع له في شيء

يحرزه بمكة فلم لا يتوجه الى الطائف لعل ثقيفا تنصره، ولكن الأمل ضئيل فليخرج وحده، حتى إذا بلغ مكانهم لم يخيبوا أسوأ توقعاته عليه السلام، بل زادوا على رفضهم الاستماع له إغراءهم سفهاءهم وصبيانهم به يرمونه بالحجارة فيدمون عقبيه بها، حتى إذا تباعد وآوى الى ظل شجرة وبدت له الدنيا وكأنما أوصد فيها كل باب للأمل فرفع كفي الضراعة الى السماء فهو يناجي الحق تعالى ويقول[1]: «اللهم اليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي الى من تكلني؟ الى بعيد يتجهمني أو الى عدو ملكته أمري. إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ولكن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو تحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك».

هذه القطعة الأدبية السامية هي نسيج وحدها في خصائصها الأدبية، وهي في ذلك تصديق لكون الرسول صلى الله عليه وسلم نسيج وحده بين الناس. إنها تعبير متوازن مؤثر

---

(١) رواه الطبراني

وصادق عن تجربة لها الأطراف والأوضاع التي شرحتها ، أو بالأحرى ضراعة الى الله تعالى للخروج من تلك الأزمة . لقد أصاب الرسول عليه السلام الإعياء من جهد السير من مكة الى الطائف وجهد الانفلات من سيل الحجارة المنطلق من خلفه فيما هو يسير مهرولا قدر جهده ، لأن غير ذلك لا يليق بوقار رسالته ولا بحقيقة شجاعته ، فهو إذن يشكو الى الله بحق قوله : « اللهم إني اليك أشكو ضعف قوتي » .

وفي توازن جميل ودقيق مطابق للمعنى بلا زيادة أو نقصان يقول بعد ذلك عليه السلام : وقلة حيلتي .. وبكلمتين فقط تكون شكوى الرسول الوقور مما نتج عن وفاة عمه ، وزوجته ، وانغلاق كل السبل في قريش أمامه وتجرؤ السفهاء على إيذائه وبزوغ المؤامرات لقتله . قد كان له أمل ضئيل في مناشدة بلد كالطائف ، ولكن الأمر انغلق حتى بدت الدنيا وكأنما أوصدت كل أبوابها فلا يستطيع الرسول عليه السلام على ضوء فشله في الطائف أن يفكر في أمل سواها .. ثم يذكر هذا الأمر المفاجىء الذي حصل في الطائف على غير عادة أي نوع من العرب في لقاء الضيوف مما كان بلا ريب محاولة

اذلال فيها غضاضة على النبي. فهو إذن يشكو الى الله تعالى هوانه على الناس.. انظر الى كل هذه المضامين والحوادث الكبيرة كيف تكون الشكوى منها بمجرد هذا القول الحق « وهواني على الناس » كل الوضع المرئي يوصف بثلاث جمل مؤلفة من ثلاثة فروع مجموعة كلها في إحدى عشرة كلمة، متوازنة لكنها متناغمة بحزن كظيم يُنَهْنِهُهُ العقل، وتحول دون تفلته جدران نفس أمتن من الحديد والصخر.

« اللهم إني اليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس » أية سهولة وأية عذوبة وأي لحن هادئ رائع من موسيقى نفس عظيمة مرهفة الحس ولكنها مفعمة بالتجارب ونور الهدى والحكمة، أي يتيم كبر فما خف له حمل ولكن ما استعلنت منه شكوى، أي أثر لتلاوة السور المكية بمقاطعها المتوازنة الفتانة البهاء أعظم من أثر تلاوات الرسول الكريم في جوف الليل من القرآن عليه وعلى ملافظه الحسان.

إنه اليه يشكو.. الى أرحم الراحمين.. ومعاذ الله أن يبث وريث النبوات زميل يعِقوب وأيوب حزنا وشكوى إلا

الى الله أرحم الراحمين.

الى من يشكو المستضعفون، المطاردون في الأرض من دعـاة الحق ودروع الهدايـة؟ الى من يشكو الأيامى واليتامى؟ الى من ترتفع أصوات المظاليم والمحاويج والحزانى إلا الى الله...

إن الذين ليس لهم ضمان إلا الله، ولا أمان إلا بالله، وما عندهم من حاجز قوة أو مال أو عشيرة يعترض أصواتهم دون عرش الله انما ينبغي أن تكون شكواهم الى الله تعالى وحده...

يا أرحم الراحمين... أنت رب المستضعفين وأنت ربي.. انظر الى الاحكام في عبارة المستضعفين - إنها بهذا الاستخدام لاسم المفعول تعني الواقع عليهم الأذى جميعا - بغير ذنب إلا أن يقولوا ربنا الله، فان هؤلاء الى الله وحده يجب أن يشكو إذا أرادوا فرجا... فكم على درب التاريخ من رجل ادعى نصرتهم وإصلاح حالهم فلما اطمأن به كرسيه وخلا الى شيطانه نسي الذين نصروه من هؤلاء الحيارى ولو كانوا تحت علم الله التقوا وفي ظل قرآنه وسُنَّة رسوله، وكانت شكواهم الى الله الذي لا ينبغي أن يثقوا بسواه أو

يشكوا الى من عداه لجاءهم نصر الله، ألا إن نصر الله قريب.

وكأنما رسول الله صلى الله عليه وسلم من صفاء إيمانه وصدق انفعاله يرى قدرة الله تعالى عيانا فيقول في محاورة مؤمنة: الى من تكلني؟ الى بعيد يتجهمني أو الى عدو ملكته أمري!؟ ألبعيد في الطائف مربد الوجه غائر البشاشة مبسوط اليد واللسان بالأذى، والقريب في مكة بعد أبي طالب بغى وعدا... فإلى من سواك يا رب؟ ومن غيرك لهذا الكرب؟.

ان حيلة رسولك انتهت عند ذلك الحد؟ لم يبق إلا أمرك بالفرج يا من لا تعيا له حيلة ولا يخيب له قدر ولا تخطىء له رمية..

أما أنا يا رب... فان عزمي لم يفل... ما لم أكن قد عملت ما أغضبك، فأما إن لم أكن أغضبتك فإنني لن أبالي إذا كان الأمر امتحانا لإيماني وصبري...

أنا صابر صامد وإن كانت العافية من عندك أوسع لي وأحب لنفسي......

إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي؟ ولكن عافيتك أوسع لي.. ويعود مد الاحساس بالخطر وبالوضع العصيب الى ادراكه عليه السلام فيعود التجاؤه الى الله تعالى ورجاؤه

ربه أن يقبل منه اعتذاره إن كان به عليه غضب أو سخط.. اذا كان قد عمل ما فيه ظلم أو ظلام وكلاهما واحد فإن نور الله الذي ملأ السموات والأرض جدير باكتساح ذلك الظلام والإذن بالمغفرة... والرضوان.

«أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أنْ تنزل بي غضبك أو تحل علي سخطك. لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة الا بك».

أي أدب فيه من جمال هذا الحوار النفسي الصادق؟ أية عفوية ينطلق بها التعبير عن الحس الشريف كهذه العفوية؟ وأية موسيقى متناسقة في التراكيب هي كهذه الموسيقى في المقاطع المتوازنة وأي مضمون أو معنى ينفرج عند خاطر هو أشرف من هذا المضمون والمعنى... وأي دستور للمحزونين والحسرين والمروعين، كمثل هذا الدستور النبوي....

خصائص أخرى لأدعية الرسول الكريم:

أود أن أتناول بخاصة هذا الدعاء الذي تعارف عليه العلماء باسم «سيد الاستغفار» وما كانت هذه التسمية إلا

رد فعل طبيعي لما في هذا الدعاء بالذات من عمق الفكرة، وأصالة الاحساس ووحدة التجاوب بين الانسان الرسول وكون الله الواسع، وقصة الوجود البشري على الأرض وما ينبغي أن يكون عليه موقف الانسان من رب وهاب لا بد من الرجعى إليه بحساب الأعمال، فبينما الله أكمل خلق الانسان، وأعطاه فوفاه، إذا بهذا الانسان يعود الى ربه وقد حاد عن قصد المعطي فلا أقل من الاستغفار والإنابة

عن شداد بن أوس، رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال[1]: اللهم أنت ربي لا إله الا أنت، خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، وارحمني فانك أنت الغفور الرحيم».

هذه هي قصة الانسان مع ربه يحويها هذا الدعاء، لقد كان الله هو الأول وهو الواحد الأحد، فخلق مما خلق هذا الانسان على أحسن صورة، فكان أول واجب له أن يعترف

---

(١) أخذت بالنص الوارد في «الكلم الطيب» لابن تيمية مراجعة الشيخ عبد الله الأنصاري طبعة ١٣٩٧ هـ ص/٤٠ - والحديث أخرجه البخاري.

بربه، وأن يقر بعبوديته له... وهل نحن في الأرض إلا عباد الله المخلوقين بقدرته، المسخرين لارادته فلا نملك لأنفسنا موتا ولا حياة ولا نشورا، ولا نقرر رزقا ولا قدرا... ولقد أخذ الله علينا ساعة خلقنا عهدا بالطاعة والولاء فتعثرنا على درب الحياة، ان كان بنا على رغم القوة ضعف ولكن الرحمن الرحيم لم يكلفنا برحمته إلا جهد القدرة،ولم يحملنا سوى الذي لنا به طاقة، فكان لزاما علينا أن نبذل ذلك كله في الطاعة والويل لنا من أنفس أمارة بالسوء، والشكر لقابلنا حين إليه نؤوب، ولولا فضل الله الذي يحمينا من سيئات أعمالنا لأحاطت بنا ذنوبنا وأغرقتنا... وهل أغرب منا بني الانسان نعود الى الله مثقلين بعطايا نعمته، ومثقلين معها بالذنوب.. فما أحوجنا الى مغفرة الله وحلمه، وما أشد افتقارنا الى رحمته...

ينعم الله على الآدمي بالحياة وما حفلت به الحياة من أكناف موطأة للانسان بقدرة ربه، ويعطينا نعم السمع والبصر والحس فبدلا من أن نجمع بها سماع الخير ورؤية الخير والحق ولمس المحلل ترانا نعود بتلك المواهب وقد جمعنا بها الخطايا وأخرجناها عن شرف الأداء الحق الى مسارب الخطايا والإثم...

هذا هو حال الانسان مع ربه، ولولا فضل الله ما زكى منا من أحد أبدا، ولو كنا على تمام الرؤية والادراك ما استخدمنا نعم الله في حاجات الشيطان... ولكن هذا ضعف الانسان.. أفلا يعود الى ربه مستغفرا قبل فوات الأوان...

أرأيت نفسا في تواضعها أزكى من نفس رسول الله كما تتجلى في هذا الدعاء الكريم؟

أم هل رأيت ايجازا وبساطة في سرد حقيقة الحال كهذا السرد المنساب بحقيقة الصدق سهلا مؤثرا موجزا...؟

انظر في مفردات الدعاء فلن تجد كلمة حوشية أو نافرة أو نجافية للسمع، وانظر الى هذا التوازن بين مقاطع العبارات وما يسرى فيه من لحن هادىء لنفس آبت الى باريها ضارعة معترفة مستغفرة.

الانسانية الرائعة في أدعية المناسبات:

بهذه الانسيابية المتحدرة كنبع الصفا الهادىء المعطاء يتحدر دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم في مناسبات الحياة المتجددة، ومنها صباح كل يوم ومساءه.

فيما يرويه ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله

عليه وسلم أنه كان إذا أمسى قال: «أمسينا وأمسى الملك لله، والحمد لله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. رب أسألك خير ما في هذه الليلة وخير ما بعدها، رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر، رب أعوذ بك من عذاب في النار وعذاب في القبر».

انظر كم في هذا الدعاء من التأثر بالقرآن الكريم؟ وانظر كم فيه من الانسياب النابع عفويا من نفس زكية طيبة، وانظر أفصح القرشيين، وأفصح صحبه أجمعين، كيف تتجاور الكلمات والحروف في حديثه تجاورا منسجما مؤنسا....

إن آخر النهار يذكره بآخر فترة العمر.... وهو رجل واجب وحق لم يترك لمسلم فرصة لعتب عليه في تقصير لهذا فهو يحتمي بالله من الكسل وسوء الكبر، فأما الكسل فهو صورة من تراجع القادر، وأما سوء الكبر فهو عجز مفروض يعذب النفس الناشطة للخير حين يقعد بها الضعف المذل صاغرة عن أداء الواجب...

وماذا يرجو محمد صلى الله عليه وسلم أكبر من رجاء الخلاص من عذاب النار وعذاب القبر.

ويظل بعد ذلك كله من يخشى على أمر من الدنيا وحال زائلة لا تبقى... ولو عقلوا لعلموا أن رسول الله ما شاء الخلاص من بأس شديد - سوى بأس القبر وفزع الحشر.

وانظر أيضا فيما يرويه عبد الله بن عمر عنه صلى الله عليه وسلم[1] اذ ينصح لأحد المسلمين بدعاء يدعو به إذا آوى الى فراشه:

« اللهم أنت خلقت نفسي وأنت تتوفاها، لك مماتها ومحياها، ان أحييتها فاحفظها، وان أمتها فاغفر لها، إني أسألك العافية ».

فهل هناك منطق سليم جميل أحلى من هذا المنطق أو أكثر وضوحا وأصالة وسهولة. وهل يخرج مضمون لأدب أفضل من هذا المضمون النابع مباشرة من صميم التوحيد الاسلامي وأصالته.

إن بعض هذه الأدعية يشعرك وكأنما أنت تقرأ تعليقا على بعض الآيات الشريفة من سورة الأنعام.... إنه صلى الله عليه وسلم يصدع بما أمره الله به، أليس الحق يناديه في تلك السورة الشريفة « قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي

---

(١) اخرجه مسلم

لله رب العالمين. لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين[1] ».

وفي الحديث المتفق عليه عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: « قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة واضطجع على شقك الأيمن وقل: اللهم أسلمت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا اليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت، فان مت من ليلتك مت على الفطرة، واجعلهن آخر ما تقول[2] ».

وعلى غرار هذا الحديث في بساطته وجمال تعبيره وقوة أسره، وإحاطته بالمقصود منه كله، حديث عائشة رضي الله عنها[3] قالت: فقدت النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد (لعله عليه السلام كان ساجدا يدعو الله) وهو يقول: اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ

---

(١) سورة الأنعام: ١٦٣

(٢) أخرجه مسلم.

(٣) اخرجه الجماعة.

بك منك لا أحصي ثناءعليك، أنت كما أثنيت على نفسك.

فهل يصل الايجاز المحكم البليغ، وجمال الفقرات المتوازنة في غير سجع ولا قصد الى السجع الى شيء أبدع أو أشد من هذا دقة في البيان واستيعابا شاملا دون كلمة زائدة واحدة.

ومن نفس هذا الطراز الفذ من التعبير المحكم المبدع في ايجازه ويسره وتوازن فقراته ودقة محتواه الحديث الذي أخرجه النسائي عن عطاء بن السائب عن أبيه عن عمار ابن ياسر رضي الله عنه، قال أبو عطاء: صلى بنا عمار بن ياسر رضي الله عنه صلاة فأوجز فقال له بعض القوم لقد :- خففت أَوْجَزْتَ - في الصلاة فقال: أما على ذلك فقد دعوت بدعوات سمعتهن من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما قام تبعه رجل من القوم فسأله عن الدعاء فقال رضي الله عنه:

«اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيرا لي. وتوفني إذا علمت الوفاة خيرا لي. اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيما لا ينفذ، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت وأسألك

لذة النظر الى وجهك، والشوق الى لقائك في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين »..

إن عالماً من المثل العليا السامية والذوق الرفيع يمثل وراء هذه الدعوات الحسان، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يترجم عن أفكار سامية فكيف يكون البيان عنها إلا ساميا هاهنا محتوى سام يتسربل شكلا من التعبير ساميا... فأي شيء أثمن من تساوي الخشية من الله بين الغيب والشهادة... وهل تصل عبادة الله تعالى وحبه مرتبة أعلى من هذه المرتبة حيث لا يكون من المراء ولا مثقال حبة خردل؟

وماذا يعدل قول الحق في الغضب والرضا... وهل تصبح الشجاعة في تساوي القول بالحق في الغضب والرضا إلا الشجاعة المثلى؟

إن هذا البيان المتوازن الذي يملأ النفس بهجة ليس حاصلا على حساب شيء من المعنى تماما كالقصد في الفقر والغنى.

وانظر هذا التناغم بين نعيم لا ينفد (لاحظ تكرر حرف النون) وقرة العين التي لا تنقطع (لاحظ العبارة

تكرار القاف والعين في العبارة) وكذلك الذال (وهي عدل الظاء) في لذة النظر، والقاف في عبارة «الشوق الى لقائك»

وانظر الأدب العالي في الشوق الى لقاء الله عن حاجة الشوق لا حاجة الاضطرار المستكره (بكسر الراء) وهل تكون المحبة ويكون الوفاء الأمثل الا على ذلك، وكذلك لاحظ تكرر الضاد ثلاث مرات في الضراء المضرة والفتنة المضلة.

إن جماع القول في أدعية رسول الله صلى الله عليه وسلم تأثرها الواضح ببلاغة القرآن وأدعيته، وصدورها في بيانٍ ويسر، وتناغم مقاطعها في هدوء موسق وكل ذلك هو علامة الانفعال الحق الذي صدرت عنه والاخلاص الأكيد الذي يحدوها، وكلها على قدر المضمون بل ربما كانت أقرب الى الايجاز من ذلك.

إنها تنهض جميعا على جناحين من المحبة والتعقل العظيمين، ففيها من رفيف القلب المحب لله المتعلق بذلك وحده، القلب الذي كان لا يفزع في بث أو شكوى إلا إليه، ولا يمر بسرور ولا غضب إلا ذكر الله، ولا يبتدئ عملا ولا يختمه إلا بذلك الذكر الكريم، ولا يدخل بيته ولا يبرحه، ولا مسجدا يصلي به أو يغادره، ولا حالا من

أحوال الدنيا يبتدئ به أو ينهيه إلا وهو مشدود القلب الى الله، ناظر الى توفيقه تعالى في كل شيء مهما كبر أو صغر..

محتوى الأدعية النبوية:

مضمون الأدعية النبوية ينم عما يلي:

أولا: الدعاء بما أمر الله به من الخير، وبما دعا به الانبياء من قبل ولا سيما أدعية ابراهيم عليه السلام، والتعوذ مما ينهي الله تعالى عنه.

ثانيا: الاستعانة بالله تعالى في سداد العمل والقول وخلوص النفس من كل مالا يرضي الرب وطلب الحماية والحفظ من المكاره..

ثالثا: الاصرار الثابت على تقييم النعمة الفضلى بأنها غفران الله تعالى، وحقيقة التقوى وإيثار ما يبقى والاعتماد على الله تعالى، وترك الخيرة له في اختيار الأفضل لعبده حتى ولو كان الموت، والاكتفاء من الدنيا بالأمن والعافية والخلاص من قهر الـدّين وغلبة الرجال وولاية الأشرار، والاجتزاء بالرزق الحلال والتعويل على صفاء القلب.

الشكل التعبيري للحديث الشريف بعامة.

لقد أفردت أدعية الرسول عليه السلام في فصل خاص لشدة تأثرها بالقرآن الكريم، كما أني لا أنوي تقصد الكلام في الحديث القدسي إن كان الموقف بالنسبة له يكاد يناظر الموقف من القرآن نفسه.

والآن أتعرض للشكل التعبيري للأحاديث النبوية في الموضوعات العامة. ان الأساليب التي استخدمها الرسول صلى الله عليه وسلم في أحاديثه العفوية التي كانت تدعو لها المناسبات والأنشطة الحياتية، أو تصدر كرد فعل للحوادث الداخلية في مجتمع المسلمين أو حوادثهم مع القوى المحيطة بهم، جرت في نطاق الأساليب الثلاثة التالية:

أولا: الأسلوب الاخباري الصادر في تعميمات محكمة وبروح من المحبة والموعظة الحسنة وهو قد يتحول الى أسلوب تقريري مباشر كلما تعلق الأمر بأوامر القرآن الكريم ونواهيه..

ثانيا: الأسلوب الايحائي بضرب المثل واستخدام الرمز والتجنب المطلق لتوجيه اللوم إلى شخص بالذات أو أشخاص معينين ليكون التركيز كله منصباً على العمل المنتقد وكراهيته أو تحريمه...

ثالثا: المضاهاة بين أحوال الانسان في أوضاع متشابهة ليكون الحكم على وضع مابشبيهه ونقل صورة تمثيلية متكاملة ومؤثرة في هذا الاتجاه.

الأسلوب الاخباري - التقريري:

من الطبيعي أن يكثر استخدام الأسلوب الاخباري في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم فان رسالته هي تبليغ الحق والخير والارشاد الى الصالح من القول والعمل، وإذا شَقَّ على الناس أسلوب التقرير المباشر بالأمر والنهي فان رسول صلى الله عليه وسلم لم يكن فيما يلاحظ أغلب الأحيان يستخدم أسلوب الطلب هذا إلا فيما يتعلق بأوامر القرآن الكريم ونواهيه... وإلا فان معظم أحاديثه العامة تجيء على شكل إخباري، وقد يجيء فيها الخبر والطلب متجاورين تجاورا هو قمة البلاغة. كقوله صلى الله عليه وسلم [1] مثلا: «المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير» الى هنا ينتهي الجزء الاخباري ثم يتواصل الحديث نفسه بأسلوب طلبي: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني

---

(١) اخرجه مسلم عن أبي هريرة

فعلتُ كذا لكان كذا وكذا. ولكن قل: « قَدَّر الله وما شاء فعل » فإن لو « تفتح عمل الشيطان ».

ههنا نرى أن الرسول صلى الله عليه وسلم بسط في القسم الاخباري من الحديث تعميما يقرر قاعدة عامة في الاسلام. وهي أن الله تعالى يرفع شأن المؤمن الضعيف، ويحب المكافحين من المؤمنين فوق حب المستسلمين. وكأنما الرسول صلى الله عليه وسلم يقول وحيث إن هذه القاعدة العظيمة والمبدأ الحاسم قد تقررا فيا أيها المسلم كن ذلك المؤمن القوي الأقرب الى رضا الله، وبالحرص على تحصيل ما ينفعك في ظل الشرع الالهي وبمعونة الله تعالى - حيث إن الله تعالى لا يعير عونه من كان يحرص حرص الطامع المعتدي، وإياك حين تصدمك المصاعب، أو تفضي بك الى بعض الخطأ التجارب، أن تقر بالفشل وتيأس، وتسلم نفسك الى مراجعة مجدبة للماضي، تتمنى أن لو لم تكن فعلت كيت أو كذا فإن هذا هو المنطق الذي يتفرغ به الشيطان للشروع في إفساد المؤمنين.

لندع الى حين أسلوب هذا الحديث الذي جمع بين الاخبار والتقرير بالطلب والنهي ولننظر في مضامينه وهي كما يلي: -

أولا: أن الايمان في حد ذاته خير ونور وأن الله يحب سائر المؤمنين وما من مؤمن إلا وبه خير.

وثانيا: أن المؤمن الناشط الذي يمارس الأعمال ولا يقعد عند الأقوال ساعيا لتحقيق مصالحه المتدرجة تحت رعاية الله، والتي يرتجي فيها عونه تعالى هو أفضل عند الله من المؤمن المتراخي.

وثالثا: أن كل ناشط ومكافح لابد وأن يتعرض لتجارب متنوعة بعضها فاشل فليس له عندئذ أن يتخاذل وينكسر ويسلم نفسه لشيطان اليأس يعيد عليه قصص الماضي الذي لا يرد، وينفث في رأسه الحسرة بقوله لو فعلت ولو لم أفعل فان هذه الكيفية في النظر للأمور هي بداية نجاح الشيطان في إفساد المؤمن.

وهكذا فإن القوة في الاسلام ليست قوة محضة منفلتة ولكنها مسيرة بالاستعانة بالله وفي ظل الله. وهي قوة إيجابية لا تتوقف عند العثرة ولا تشغل عن الحاضر بالماضي أبدا.

لاشك أن حديث الرسول صلى الله عليه وسلم لا يخرج عن كونه توضيحا لمبادىء القرآن الكريم فالله تعالى يأمر

المؤمنين بالعمل والحزم والعزيمة وحسن التوكل عليه وينهى عن الأسى على الماضي عند الفشل وضياع النفس بددا في غرور الفرح «لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم»[1].

إن حجم التعبير عند رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخرج عن مقتضى المضمون وذلك هو عمل النبي الذي لا يعرف اللغو ولا الفضول ولا يقصد بالتعبير اللغوي هدفا غير السداد والوضوح في تعبير قوي صحيح. ويتجلى سمو الخلق النبوي في إيراد الأسلوب الاخباري التعميمي كمبرر للدخول في الأسلوب التقريري الطلبي وهذه رفعة في كل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما التعابير نفسها فهي تعابير سهلة قوية ممتنعة خالية من التعقيد بريئة من المبالغة، متوازنة تؤدي المعنى بكل حرف فيها ولا تزيد على ذلك....

لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم في جوامع الكلم وحيث يعيد تقرير الأوامر الالهية يستخدم - كما ينبغي له تماما - الأسلوب الطلبي بغير مدخل أو تقديم...

---

(١) سورة الحديد: ٢٣

عن معاذ[١] قال: أوصاني رسول الله صلى الله عليه وسلم بعشر كلمات قال: لا تشرك بالله شيئا وإن قتلت وحرقت، ولا تعقن والديك وان أمراك أن تخرج من أهلك ومالك، ولا تتركن صلاة مكتوبة متعمدا، فإن من ترك صلاة مكتوبة متعمدا فقد برئت منه ذمة الله، ولا تشربن خمرا فإنها رأس كل فاحشة، وإياك والمعصية فإن بالمعصية حل سخط الله، وإياك والفرار من الزحف وإن هلك الناس، وإذا أصاب الناس موت وأنت فيهم فاثبت، وأنفق على عيالك من طولك، ولاترفع عنهم عصاك أدبا وأخفهم في الله ».

لم يستخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسلوب الاخباري هنا إلا في ثلاث عبارات كانت تذييلا يؤكد خطورة الأحكام الصادرة قبلها وهي:

فإن « من ترك صلاة مكتوبة متعمدا فقد برئت ذمة الله » وعبارة « فإنها رأس كل فاحشة- أي الخمر »« فإن بالمعصية حل سخط الله ».

إن هذه العبارات الثلاث أكدت ثلاث نواه هي ترك الصلاة، وشرب الخمر، ومعصية الزنى، ذلك بأن هذه

---

(١) رواه احمد

الأمور الثلاثة حين تحصل فإنها هي التهديد المباشر بالسقوط السياسي والحضاري وما انتشرت في أمة من أمم الاسلام إلا واسقطتها، بل هي أيضا خطر على الحضارة الانسانية بعامة وهذا هو الذي جعله عليه السلام يعاود التأكيد على نواهيها بعبارات إخبارية...

أما بالنسبة للفرار من الزحف فإن العدد الكاثر والأغلبية الساحقة من عمل المسلمين في الحرب هو الثبات لولا تحقق شروط وأحوال لم تكن في الحسبان، ففي معركة أحد قليلا ماكان أحد يتوقع بعد هزيمة قريش ونهب معسكرها وفرارها أن يخطر ببال خالد بن الوليد القيام بعملية التفاف انتحارية استغل بها ثغرة فتحها بعض المسلمين بمخالفتهم عن أوامر الرسول عليه السلام، وذلك مما لا يتكرر بسهولة.

وأما في حنين فقد بوغت المسلمون ليلا بكمين لا مثيل له في المفاجأة والإحكام فاضطربت صفوفهم الى حين ثم عادوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقاتلون معه حتى النصر.

وفيما عدا هاتين الملابستين فلم يعرف عن المسلمين فرار من الصف أو نكول عن موقف الشهادة، ولهذا جاء تذييل

الرسول عليه السلام على النهي عن الفرار من الصف على شكل جملة شرطية.

وهكذا تظل هذه الأحاديث الاخبارية التقريرية غاية في الإحكام وجوامع كلم لا ينفذ إليها نقد من أي نوع، ويظل محتواها الأساسي مجمل الأحكام القرآنية مع بعض التوسع في المعنى لغاية الوضوح في التطبيق...

ولا نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يترك الأسلوب السهل المباشر في هذا الحديث إلا حين التعرض للخمر فان الردع عنها بالتخويف أمر وارد؛ ولذلك شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم الفواحش وكأنما هي غول رأسه الخمر. فهي أساس كل تدبير في المعاصي وتخطيط للشرور. فلا يغتر بها إنسان ويقع فيها إلا ويجد نفسه منزلقا في سائر الشرور، وحيث حذف المشبه به في هذا التعبير وهو الوحش، وتركت كلمة دالة عليه هي الرأس فالاستعارة هنا مكنية، والمبرر لاستخدامها واضح وملح كما شرحت.

ولقد كان محمد رسولا بل خاتم الرسل وسيد المرسلين ولذلك نراه عليه السلام لا يصرح باسم في معرض شر مهما كان أسلوب أو دواعي التعبير، أما إن كان في الأمر خير وقدوة ولم يكن في التزكية ما يبعث على غرور واستكبار

فإنه عليه السلام قد يصرح بالأسماء...

كقوله عليه السلام[1]: «خالد سيف من سيوف الله عز وجل، ونعم فتى العشيرة» أو كقوله عليه السلام[2]: «كم من أشعث أغبر ذي طِمْرَيْن لايؤبه له لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء بن مالك».

أو كقوله عليه السلام[3]: «ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر».

وأختار الآن هذا الحديث الشريف الذي تتجلى فيه بلاغة الاعجاز في سعة المعنى ضمن ألفاظ محدودة، إنه مثل أعلى في سداد القول وإحكامه.

الحديث أخرجه مسلم عن عبد الرحمن بن سمرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها من غير مسألةٍ أعنت عليها، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها فكفر عن يمينك وأت الذي هو خير».

---

(١) رواه احمد عن ابي عبيدة

(٢) رواه الترمذي والبيهقي عن أنس

(٣) رواه الترمذي عن عبد الله بن عمرو.

رسول الله صلى الله عليه وسلم هنا يضع مبدأ متكاملا في موضوع الوظائف العامة الرئيسية في الاسلام، فهو عليه السلام لايرى أن مثل تلك الوظائف مما ينبغي إشغاله نتيجة الحاح من طالب لها، وإنما يفترض فيها أن يتخير الخليفة أو من ينوب عنه الشخص الأنسب الذي يرى فيه الخير لصالح العمل وانسجامه، وهو يربط هذا الأمر من أمور الناس برضا الله ومباركته جل وعلا، فان طالب الوظيفة بمبادرة منه ربما كان يستهدفها غاية في ذاتها لمال يصيبة أو جاه يناله، وليس ذلك هو مقصد الاسلام من نظام الجماعة فان الوظيفة خدمة ومسئولية لا يستطيع القيام بها إلا رجال أشداء من طراز معين، فيهم قوة على أنفسهم أولا، ثم قوة في الحزم والحسم وعدم المبالاة برضا الناس أمام رضا الله... فمن كان طلبه للوظيفة لتكون له مصدر رزق ومركز نفوذ فإنه غير واجد فيها عونا من الله، وأما من تسند إليه وربما كان كارها لها، فإنه حين يقبلها نزولا عند الصالح العام فإن الله تعالى يعينه على أدائها على حقها...

وأما الجزء الثاني من الحديث الشريف فكأنما هو ايحاء لعبد الرحمن بن سمرة بأنه لا بأس على المرء أن يتراجع عن

أمر حتى لو كان معززا بيمين يحتاج فيها الى كفارة، إذا ما أدرك أن الرجوع هو الصواب، فكأنما يقول له عليه السلام إن سعيه للامارة كان خطأ وإن تراجعه عنها ربما أصبح معروفا عنه لا حرج فيه مادام موقفه الأول غير سليم...

انظر الى هذا السداد الموجز في القول الحاسم، يزف أدق المعاني في أقل ما يلزم من عدد الكلمات، وهو في الوقت نفسه يصحح موقفا شخصيا دون حاجة الى ايذاء مشاعر المنصوح له بالتصحيح..

هذا هو أسلوب الرسول صلى الله عليه وسلم في تقديم المعنى العظيم، الذي يجمل قواعده في الأخلاق أو الادارة والحكم أو ماسوى ذلك في عبارات متوازنة موجزة، سهلة ممتنعة لا ينقصها شيء من الوضوح أو الفصاحة، وليس فيها لا مفرد غامض أو حوشي، ولا تركيب مستعصي على الفهم أو متنافر البيان، ولكنه عليه السلام كان يستند الى كل العوامل التي هيأها الله له ليكون النبي الذي اختصه ربه بالاعجاز البياني، وهو لعمري أسمى أنواع الاعجاز الذي عرض على البشر بعد التطور الذي حققته الانسانية نحو القدرة على محاكمة الأمور بالعقل... دون خوارق الحواس.

ثانيا: الأسلوب الرمزي الايحائي:

لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثه يتوجه بالنقد الى المعني، به مباشرة لأن غايته كانت منصبة على الأعمال دون الأشخاص، لذلك فقد عرف حديثه الشريف بمداخل خاصة به كعبارة «ما بال أقوام يفعلون كذا أو يقولون كذا». وقبل أن أتحدث عن استخدامه الرمز بأسلوب فذ، أتوسع قليلا فيما يمكن تسميته «لا شخصية النقد المحمدي» فأروى قصة الأقرع بن حابس التميمي.

عن أبي هريرة[1] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبَّل الحسن بن علي رضي الله عنهما، وعنده الأقرع ابن حابس، فلم يستمرىء الأقرع ذلك المشهد فراح يقول «إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا» فنظر اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: « من لا يَرْحَم لا يُرْحَم» وهذا صرف مباشر عن توجيه اللوم مباشرة الى مستحقه بأسلوب التعميم الذي جعل وطأة النقد أقل بكثير.

لكنه يجعل مزيته غاية في السمو، ربما دار في نفس الرسول عليه السلام أن الله الرحمن الرحيم الأبر بعباده من

---

(١) اخرجه الشيخان

أنفسهم هو الذي يجب أن تتشكل الحياة، وتنشأ القيم وفق ما يرضيه تعالى، وإن الفخر إنما يكون في اتباع صفات الحق لا في المفاخر بقسوة الجاهلية، فأراد عليه السلام أن يقول لابن حابس إن ديننا هو دين الاسلام حيث علاقات المسلمين منشؤها الرحمة فمن لا يرحم كما أمر الرحمن الرحيم فهو الذي لا يرحم لا من الله ولا من الذي تنشأ عزتهم من طاعة الله

ثم إنك ترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يستخدم ضمير الغائب بكثرة ملحوظة عند التحذير من المحرمات بخاصة، دون ضمير المخاطب كقوله عليه السلام: «من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه»[1] وقوله عليه السلام: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه[2]» أو كقوله عليه السلام فيما يرويه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه».

---

(١) عن ابي هريرة - رواه الترمذي

(٢) عن أنس بن مالك - رواه البخاري ومسلم

وكقوله عليه السلام[1]: « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به ».

ومن نفس هذا المنطق الكريم للنصيحة المؤثرة ما كان عليه السلام يضربه من الأمثال لتكون عبرة موحية الى صحبه والمسلمين من بعدهم.

عن أبي موسى قال:[2] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير: فحامل المسك إما أن يحذيك واما أن تبتاع منه، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد ريحا خبيثة »

إنك لن تتصور دقة في التشبيه التمثيلي البلاغي أدق من هاتين الصورتين.. الجليس الصالح غشيانه ومواصلته كغشيان بائع المسك، والجليس السوء قربه كقرب نافخ الكير... أيما كان مدى اتصالك بذاك أو هذا فإنك متأثر بهما ولكن على وفق الحال....

وانظر الى هذه الأقصوصة الرمزية الرائعة وكم هي موحية جميلة ومعبرة مؤثرة الى الصميم.

---

(١) عن عمرو بن العاص والحديث حسن صحيح.

(٢) متفق عليه

عن ابي هريرة [١] عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلا زار أخا له في قرية أخرى فأرصد الله له على مدرجته (طريقه) ملكا قال: أين تريد؟

قال: أريد أخا لي في هذه القرية

قال: هل لك عليه من نعمة تربها؟ (أي تقوم باصلاحها وإتمامها)

قال: لا، غير أني أحببته في الله

قال: فإني رسول الله اليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه.

وانظر ما أجمل التقصي الدقيق في هذه العبارة التي تختم هذا الحديث الشريف فيما يرويه الترمذي عن ابن عمر: قال صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر فنادى بصوت رفيع فقال: «يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الايمان الى قلبه، لاتؤذوا المسلمين ولا تعيروهم، ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله (أي أشد مكان له خصوصية كبيته).

---

(١) رواه مسلم

وانظر الى هذا الأسلوب الذي يستخدم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم الاسلوب البياني القائم على سؤال مقصود للاستثارة.

عن أبي هريرة [1] أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أتدرون ما المفلس؟ قالوا.. المفلس من لا درهم له ولا متاع فقال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا؛ فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار».

إن هذه الصورة التي يكاد الحس يراها في الحاضر حقيقة ماثلة، وإنها لحقيقة مستقبلية لا ريب فيها، فيها من بلاغة التوضيح وعمق التأثير ما تعجز عنه أدوات الفن التعبيري الحسي كائنة ما كانت..

وانظر الى هذه الصورة الأشد ايجازا ولكنها كالجوهرة الثمينة لا يضرها صغر حجمها أن تكون أغلى من أي سواها...

---

(١) رواه مسلم.

عن المستورد بن شداد[1] قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم اصبعه في اليم فلينظر بم يرجع...؟

في هذا التشبيه التمثيلي الموجز في خمس عشرة كلمة نجد الأطراف التالية: الدنيا، الآخرة، التمتع بالدنيا، التمتع بالآخرة، حجم المتعة الدنيوية بالنسبة لحجم المتعة الأخروية ،وأخيرا دعوة غير مباشرة للاعتبار ،انظر كم يأخذ الاصبع من بلل ماء البحر اذا قيس ذلك بالبحر كله... فيا ضيعة قطرة الدنيا الضئيلة حيال بحر الآخرة الموار.

ومن أجمل ما يروى عنه صلى الله عليه وسلم استخدام الأقصوصة الصغيرة الموحية في وعظ المسلمين... وأختار قصة حديث متفق عليه يرويه أبو هريرة عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: «اشترى رجل ممن كان قبلكم عقارا من رجل فوجد الذي اشترى العقار في عقاره جرة فيها ذهب، فقال له الذي اشترى العقار: خذ ذهبك عني إنما اشتريت العقار ولم ابتع منك الذهب ،فقال بائع الأرض: إنما بعتك الأرض وما فيها، فتحاكما الى رجل، فقال الذي

---

(١) رواه مسلم.

تحاكما إليه ألكما ولد؟ فقال أحدهما لي غلام وقال الآخر لي جارية فقال أنكحوا الغلام الجارية وأنفقوا عليها منه وتصدقوا ».

إن هذه الأقصوصة الرائعة الموحية تغني عن كلام كثير جدا في شرح النزاهة التي يجب أن يتحلى بها الانسان المؤمن المتأثم من المال المشتبه وفي حرص المؤمن على الفرار من تملك مال لم يبذل فيه جهدا، أولا يرى لنفسه فيه حقا، فانظر حرص الرجلين كليهما في القصة على ألا يأخذ ذلك الذهب الملتقط من الأرض ثم كيف أنهى القاضي الذي فصل بينهما الأمر بأن لم يملك أيهما المال وإنما جعله بين مكافأة في الجمع بين رجل وامرأة في الزواج والتصدق بالباقي لوجه الله....

إن من أروع ما في هذه القصة بساطة الأداء اللغوي وموضوعيته والتعبير السهل السليم عن مضمون نفيس كريم...

ثالثا: أسلوب المضاهاة:

الواقع أن الفرق بين ما أتجوز لنفسي بتسميته أسلوب المضاهاة وبين ما سميته آنفا أسلوب الرمز والإيحاء هو فرق

ضئيل. لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم أعجوبة في ملاحظته وجوه الشبه والفرق بين الناس وأحوالهم من جهة ومرائي الكون والطبيعة من جهة أخرى....

إن هذه الملاحظة تدخل في باب التشبيه بأنواعه ولا سيما التشبيه التمثيلي وباب الاستعارة وهي نوع أكثر اختصارا وأبلغ وقعا من التشبيه حيث إن أحد طرفي التشبيه يكون خافيا بينما يدل عليه شيء متعلق به. وقليل من الناس جدا يستطيعون أن... يضاهوا بين تفاريع الحياة بما يستحدثون معها تشابيه مبتكرة، فالأمر يحتاج الى رؤية عميقة نافذة ودقيقة، ولعل ما عرف عن رسول الله صلى الله عليه سلم من طول الصمت وعمق التفكر، وإيثار الوحدة التعبدية كان بالاضافة الى ينابيع اقتداره الأخرى مما ورد ذكره في مطلع هذا البحث ولا سيما التأثر بالقرآن الكريم- كان المعين له على مضاهاة الأحوال والأوضاع المتباعدة والمرتطبة بوجه شبه منفرد أو معقد. وانظر الى[1] هذا الحديث الشريف:

«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل

---

(١) عن النعمان بن بشير - أخرجه مسلم والبخاري.

الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ».

أي مضاهاة بين المجتمع الاسلامي السليم التكوين وبين الجسد البشري الواحد يمكن أن تكون أكثر إحكاما ودقة رؤية من هذه المضاهاة....

إن ردود الفعل لعوادي الألم وفواشي الأذى في الجسم الواحد تكون عفوية فورية، وتظل دائمة ماثلة ما دام العضو المتألم يقاسي.... ذلك هو مجتمع المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ذلك هو « الالتحام » الذي يتشدق به المحدثون من عشاق الشعارات ولكنك أبدا لا تجده بينهم وإنما تجده على ألسنتهم وصحافتهم.

أما المجتمع الاسلامي الذي أنشأه الرسول صلى الله عليه وسلم وتبعه في السهر عليه خلفاؤه الراشدون فقد أورث المسلمين وضعا فذا فريدا دام مئات السنين، فلا تحل نكبة بطرف من أطراف العالم الاسلامي إلا وتشنج ذلك العالم وسهر وتألم وما عرف الراحة والأمن إلا بزوال النكبة الحاصلة على جزء منه، وذلك ما كان يغيظ أهل الغرب جميعا، ومع ذلك فقد تكرر مع بالغ الأسف تجني دعاة القومية والأراء الانفصالية الرجعية على هذه الامة، حتى تبلد

حس الأكثرية الكاثرة من المسلمين فما عادوا يبالون ما يحدث من مذابح في أطراف الأرض......

ومن أروع أمثلة المضاهاة هذه في الأحاديث النبوية تشبيه الرعية بالقطيع والحاكم بالراعي، فان المطلوب من الراعي على الدوام حفظ القطيع وتأمين نمائه من جميع الوجوه.

عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم[1]: «ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالامام الذي على الناس راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع في أهل بيته وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده وهي مسئولة عنهم. الى آخر الحديث».

إن الذين يعيشون في قرية ذات مراع هم الذين يقدرون الى الصميم المدلول الدقيق لهذه المضاهاة بين الراعي والحاكم، والراعي ورب البيت أو ربته.

لقد رأيت رعاة يبكون وهم يبلغون عن سقوط رأس من الغنم عن صخرة، أو ضياع خروف لا يعرفون كيف انتشله لص أو سطا عليه ذئب... وذلك بأن المفروض في

(١) متفق عليه.

الراعي أن ينحصر همه كله في مراقبة ما يرعى، وهناك من الرعيان من يطلقون أسماء على كل رأس من القطيع الكبير الذي في مسئوليتهم فما إن يفتقدوا واحدة أو واحدا من قطيعهم حتى تسمع مناداتهم عليه باسمه...

وفي موضع آخر من الحديث الشريف يضاهي الرسول عليه السلام بين المجتمع وركاب سفينة ممخرة في البحر، لهم فيها ما يشاءون من الحرية في ممارسة أنشطتهم وهواياتهم الى أن يتعلق الأمر بوقوع خطر من تصرفات أحدهم عليه وعلى السفينة وعندها يصبح الموقف السلبي مرفوضا على الاطلاق، فلو شاء أحد منهم أن يقول إنه يجلس في مكانه وإنه حر إن شاء نقر موضعه من السفينة فإن هم - أي الركاب - وهم يمثلون المجتمع كما قلت - أخذوا على يده نجا ونجوا وإن هم تركوه يفعل بمكانه ما يشاء هلك وهلكوا...وهكذا فمع عظيم أهمية الحرية ولزومها لحفز الأفراد على الابداع فإنها تصبح هلاكا محققا، ودمارا حاصلا إذا لم تقيد في حالات معينة...

أدب الرسول صلى الله عليه وسلم في خطبه:

مع كل البلاغة التي أوتيها رسول الله صلى الله عليه وسلم

وبالرغم من كل ما تميز به أسلوبه ومضمونه إذا تكلم من حكمة بالغة في المضمون ويسر سائغ على الأسماع، وبالرغم من كل الاعزاز لشخصه الكريم مما لم يرق به حب الناس لأحد من خلق الله من دونه، فلقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغا حد الايجاز والاحكام كلما خطب.....

لقد كان عليه السلام لا يخطب إلا لمناسبة ملزمة غاية الالزام ولهذا فقد كان يتكلم بمقتضى الحال فلا مجال للملالة مما يقول خصوصا وهو الموجز المحكم البليغ، إن سر ذلك الإيجاز هو الموضوعية المطلقة، فأنت حين تجيل الفكر في كلمات الخطبة الموجزة يواجهك أسلوب رجل أفرغ قلبه من كل النوازع الضعيفة للخطباء، فهو يريد غرضا واضحا مسددا، ومعنى ينقله لعقول الناس وقناعتهم من دون القصد لعواطفهم واهتزازتهم... لقد كان عليه أفضل الصلاة والسلام مفرغا من أي هوى يتلبس الخطباء باظهار الفصاحة أو القدرة على التأثير وتحريك العواطف، الأمر الذي يغريهم بالاغراق في ايراد المقاطع القصيرة المتلاحقة التي تفعل فعل النقرات الموسيقية في تحريك العواطف وإهاجة العصب الحي...

ولكنه إذا كانت الخطب تفقد أوفر قسط من تأثيرها حين تتجرد من المناسبة العاطفية لالقائها، ومن براعة التمثيل الخطابي عند الأداء، وتحت ظروف ذلك الأداء، فإن خطب الرسول صلى الله عليه وسلم تظل تغلغل في العقول والقلوب وتزداد تأثيرا متعمقا بمرور السنين.

فأولا مناسبة الكسوف ووفاة ابراهيم:

لو أن الذي وقع على رسول الله صلى الله عليه وسلم من المحنة بوفاة ولده إبراهيم أصاب جبلا فربما انهار الجبل وتهايل، ولو وزع على عصبة من أشد الرجال لناء بهم جميعا من شدة وقعه وثقله...

معروف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رزق بنات وبنين من خديجة رضي الله عنها قبل البعثة، فتعاقب الجميع على حوض الردى، القاسم، فالطاهر، ثم البنات جميعهن لاحقا بعد زواجهن فيا عدا فاطمة الزهراء، وفي حال كاليأس من الأولاد أهديت له عليه السلام مارية القبطية فجاءته بإبراهيم الذي عاش حوالي سنة ونصف، فلما امتلأ قلب أبيه به حبورا اختاره الله تعالى فلحق بأخويه وأخواته، وفي ساعة الدفن كسفت الشمس والرسول عليه

السلام كاسفا حزنا ... حصل الكسوف بعد أن بارح الرسول المقبرة، فَلَهَجَ المسلمون بأقوال كان طبيعيا صدورها عنهم، الله أكبر إن الشمس قد كسفت - وما أندر ما تنكسف - حزنا على وفاة الوليد الأثير الحبيب للرسول ... .

ويترامى الخبر إليه عليه السلام فيخرج مسرعا وينادي على الناس ليخطبهم قائلا ....

أيها الناس، إن الشمس والقمر آيتان لله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته، فاذا رَأَيْتُمْ ذلك فافزعوا للصلاة.

فهل قيلت خطبة أوجز من هذه الخطبة في تكريم العقل البشري، والايمان بالسنن الكونية، وقمع جذور الخرافة من يوم أسكن بنو آدم الأرض؟

وهل هناك رجل مهما يبلغ من البيان والقدرة يستطيع أن يستخرج كلمة واحدة زائدة عن مقتضى الحال ليؤدي نفس المعنى بكلمة أقل؟

أم هل هناك من يستطيع أن يضيف الى كلمات الخطبة ما يشاء ويطنب ثم يزعم أنه زاد جوهر المضمون مثقال ذرة؟

وأنظر هذه الخطبة الوجيزة الأخرى يوم عاد علي كرم الله وجهه من اليمن فاستخلف على جنده دون المدينة رجلا من أصحابه فعمد ذلك الرجل فكسا كل رجل معه حلة من البزالذي جاء به علي معه من اليمن.... فلما دنا الجيش من يثرب كان علي رضي الله عنه قد عاد من لقاء معجل برسول الله صلى الله عليه وسلم ففوجئ بالجند يرتدون البز فقال للذي استخلفه: ويلك! ما هذا! قال الرجل: كسوت القوم ليتجملوا به إذا قدموا في الناس...

قال علي: ويلك انزع قبل أن تنتهي به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانتزع الحلل اليمانية من الجند وردها في البز.... وتذمر الجنود، واشتكى الناس عليا رضوان الله عليه، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطب الناس فقال:[١]

«أيها الناس، لا تشكو عليا فوالله إنه لأخشن في ذات الله (أو في سبيل الله) من أن يشكى». فالله الله لهذه الخطبة السريعة المحكمة - لا تشكو عليا، فان عليا في إيمانه بالله واستعداده للقاء العنت في سبيل رضاه أكثر

---

(١) أبو اسحاق عن أبي سعيد الخدري - سيرة ابن هشام طبعة بيروت ص/٢٧٥.

حزما وجدا من أن يناله لوم أو تصح فيه شكوى...

وتأمل هذه الخطبة التي يجب أن نفترض من لهجتها ومما جاء في الرواية عنها ومن موضوعها، بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألقاها وهو غاضب، ومن المعروف أنه عليه السلام إنما كان يغضب إذا ما انتهكت حرمات الله، وفي غير ذلك كان يحافظ على هدوء عجيب.

عن أبي حميد الساعدي [١] قال: استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من الأزْد يقال له ابن اللتبية على الصدقة، فلما قدم (أي عاد من مهمته) قال: هذا لكم (أي لبيت مال المسلمين) وهذا أهدي لي قال، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

« ما بال العامل أبعثه فيقول: هذا لكم وهذا أهدى الي، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى ينظر أيهدى له أَمْ لا، والذي نفس محمد بيده لا ينال أحد منها شيئا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه بعير له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر، ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطيه ثم قال: اللهم هل بلغت، (قالها) مرتين ».

---

(١) رواه الشيخان.

إنها خطبة تواكبها عاطفة واضحة، ولكن هل خرجت هذه العاطفة بمحمد صلى الله عليه وسلم عن وجه الحق، أو حملته على لفظة نابية واحدة، أو جعلته يتحامل بكلمة شخصية واحدة: اللهم لا، وهذا النص أمامنا، كل ما في الخطبة أن أي موظف يعمل للمسلمين في جمع مالهم أو صدقات بيت مالهم ثم يختص نفسه منه ببعير أو بقرة أو شاة فلسوف يحتملها على ظهره على أعين الخلق يوم الحساب وهي تصيح الى أن يؤدي أمام الله حسابه.

وهذا هو عليه السلام غاضبا في شفاعة أسامة بن زيد في شأن المخزومية التي سرقت، فأراد رجال من قريش أن يجنبوها الحد وهم يعلمون أن الأمر ليس بسهل فاختاروا واحدا من ألصق الناس بقلب الرسول عليه السلام، فتأمل ما يقوله الرسول في خطبة جمع لها الناس، وما كان ليفعل لولا المبدأ الخطير في التشريع، وفي سلامة المجتمع الاسلامي الى نهاية الزمان، وكان نص الخطبة بعد التحميد والتسبيح قوله عليه السلام:

«أيها الناس، إنما أهلك (أو هلك) الذين من قبلكم (أنهم) كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، واذا سرق فيهم

الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ».

أنظر أولا تأثر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسلوب القرآن الكريم في التعميات التشريعية باستهلالها بعبارة «أيها الناس» وكان في الوسع مثلا اختيار عبارة مثل «يا معشر المؤمنين... الخ. ثم انظر على من يطبق محمد صلى الله عليه وسلم الحد لو سرق؟ على الباقية الوحيدة من ذريته أولادا وبنات ، إنه يقسم بالله لو سرقت فاطمة آخر أبنائه على قيد الحياة لقطع يدها ، ثم أية حجة تبقى للمعترضين إذا كان الأمر متعلقا بكيان الاسلام ومجتمعه من الأساس وإن الأمر فعلا لهو كذلك ، فان ما بين نجاح الأمم بالاسلام أو فشلها قضية الولاء أهي لله وحده ، ولشرائعه وحدها؟ أم هي للقوم أم القبيلة أم الحزب أم أي من هذه التسميات؟.

تلك روح الإيجاز والحسم والموضوعية التامة التي تميز خطب الرسول عليه السلام مع سهولة المأخذ ووضوح المعنى ، وتحقيق المطلوب من مناسبة الخطبة.

على أن خطبة حجة الوداع تهيء مجالاً أكبر لتفهم سائر خصائص الأدب الخطابي لرسول الله ﷺ فهي خطبة الختام

وهي تلخيص واف لمهام الرسالة قدمه أعظم إنسان عرفته الدنيا في موقف مهيب كان يستشعر فيه أن مهمته انتهت وأن قدر الله تعالى لا بد أوشك، وهو فعلاً كان موشكاً..

لقد أراد ﷺ أن يشهد الله تعالى المؤمنين على أنه أدى الأمانة وافية، وأن يقدم إنذاره الأخير إلى جماعة المسلمين من المحاذير التي يخشى على الرسالة منها، لكي يجعل الحفاظ على تلك الرسالة نافذاً على أكبر قدر يستطيعه جهده البشري.

ولننظر في النص العظيم لتلك الخطبة الفذة الخالدة:

«أيها الناس اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً، أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل ربا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون، قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله، وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن

الحارث بن عبد المطلب ، وكان مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل ، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية ، أما بعد أيها الناس ، فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم ، أيها الناس ، إن النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلو ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حرم : ثلاثة متوالية ، ورجب مضر[١] الذي بين جمادى وشعبان ، أما بعد أيها الناس ، فإن لكم على نسائكم حقاً ، ولهن عليكم حقا ، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح[٢] فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً فانهن عندكم

---

(١) انما أضاف رجبا الى مضر لأنها كانت تعظمه. وما كان آحد من العرب يفعل ذلك سواها .

(٢) غير مبرح : أي غير شديد ، تقول ، برح به الأمر ، إذا اشتد عليه وشق

عوان[1] لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاعقلوا أيها الناس قولي، فإني قد بلغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً أمراً بيناً كتاب الله وسنة نبيه، أيها الناس اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم، اللهم هل بلغت» فذكر لي أن الناس قالوا: اللهم نعم، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اشهد».

لقد كان عليه السلام يعلم من الله ما لا يعلم الناس، وقد أثبتت الوقائع صدق ما كان يحس به من دنو الأجل فإنه لم يلق الناس فعلاً بعد حجة الوداع حيث لحق بالرفيق الأعلى..

ولقد كان عليه السلام، وهو الوحيد الذي وَحَّدَ اللهُ القبائل على يديه، أدرى الناس بسر الخطر الأكبر المصلت كالسيف في وجه العرب على الدوام ألا وهو استباحتهم

(١) عوان: هو جمع عانية، وهي الأسيرة، وقع في بعض الروايات «عوار» بالراء المهملة، جمع عارية.

دماء وأموال بعضهم بعضاً، لقد كان ذلك هو الغزو، وهو قمة الإنجاز الناشئ عن الولاء للقبيلة من دون الله... وقد حرم الإسلام ذلك عليهم فليعد الرسول رسالته في التبليغ.

ثم دعا إلى الأمانة ورد الودائع لأن النزاهة في الأمانة إنما تكون ممكنة مع توافر الاحساس بالصلة بالله تعالى ورقابته على النفوس وليس الغزو الذي ينتهب فيه المال قسراً بممنوع وحده، ولكن امتصاص دماء الناس بالرضا المستكره عن طريق الربا هو أيضاً نظير العدوان المباشر على أموال الناس بالغزو... وقد ضرب لهم مثلاً من أسرته فأسقط سائر الربا المحقق لعمه العباس بن عبد المطلب كما أسقط المطالبات الناشئة عن العدوان القبلي باسقاط المطالبة بدم ابن عمه ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب الذي قتلته هذيل.

وإذا ما تم الولاء لله من العرب على تلك الشاكلة فليس للشيطان إلا أن يرحل لأنه لا مكان له حيث تسود شريعة الله، ويعز الولاء لله لا بعصبيّة الجاهلية والأعراف القبلية.

ثم نادى بالتمسك الدقيق المخلص بما أحل الله تعالى وما حرم بحيث منع منعاً باتاً التلاعب في تسمية الأشهر الحرم أو تأجيلها لتحليل أفعال لا تحل فيها.

ثم أن الولاء للقبيلة وللغزو كان جناية على الطرف الأضعف من البشر ألا وهو النساء، حيث أن المرأة لا يمكنها أن تبرهن على وجود مناظر للرجل في حياة عدوانية قائمة على القوة البدنية والروح الوحشية...

ولهذا تدفق رسول الله ﷺ تدفقه المخلص المؤثر في هذه الخطبة دفاعاً عن إنسانية المرأة وحقها، ويمكن اعتبار هذا الدفاع المستمد من نصوص القرآن الكريم، ويقين الرسول العظيم دفاعاً عن كل ضحايا الحياة القائمة على اللاشرعية ومحض القوة الغاشمة، ثم ينتهي عليه السلام بنداء مؤثر مباشر إلى المسلمين في الأرض حتى نهاية الزمان مبيناً أن العبرة في سلامة الشعوب واستمراريتها عزيزة مكرمة هي بسلامة المبادىء وصدق اتباعها وأنه لو مضى شخصه الكريم إلى قدره المقدور فإن وجود الكتاب والسنة واتباعهما كفيلان بضمان العزة والفوز للمسلمين.

وإن أبلغ دليل على اتباع الكتاب والسنة هو صيانة الحق بين المسلمين كما شرعه الله لا كما تحرفه القوة المعتدية، وهكذا فإذا ما برىء المسلمون من التظالم فيما بينهم، وإذا لم يعتد قويهم على ضعيفهم، وإذا ما ظل قرآنهم وسنة نبيهم هما

المحكمين فيهم فإن عزتهم تظل مصونة وسعادتهم في الدارين مضمونة.

إن المحتوى العظيم لهذه الخطبة لا يحتاج إلى تعليق أبداً فهو واضح وضوح الشمس انها دفاع حار عن مبدأ الولاء لله وحده وهو الولاء الذي يتمثل في صيانة الشريعة ودفع التظالم وحفظ موازين العدل، وتمتع كل انسان بثمرات سعيه بلا ضرر ولا ضرار.

ثم إن التعابير التي تضمنتها هي مثل رائع في قوة الأسر والبساطة الواضحة، كما أن تكرر عبارة «اللهم هل بلغت» بعد الانتهاء من كل فكرة رئيسية يفعل فعل اللازمة الموسيقية في تأكيد أثر اللحن العظيم، وهذا من أهم ما يلزم للخطبة المؤثرة إذا ما استغرقت غير فكرة رئيسية واحدة.

مجمل القول في أدب الرسول ﷺ:

إن مجمل القول في أدب الرسول ﷺ هو أن مضامين أقواله سواء أكانت مواعظ أم شروحاً أم خطباً، أم أدعية هي مضامين نبي آتاه الله حكماً وعلماً، وصنعه على عينه ومسه بصنوف الألم الذي يربي النفوس تربية مسئولة عارفة لقيم الأشياء، فقد عرف النبي عليه السلام اليتم أول معرفته

بالدنيا ثم ذاق كأسه الثانية مريرة بوفاة والدته، كما عرف مشاق الالتحاق بعم معيل معسر كأبي طالب، كما أشربت نفسه المرهفة اعتياداً للوحدة والتأمل لا من جراء تلك الظروف فحسب ولكن بسبب تربيته إلى حين في الصحراء صغيراً، ثم رعايته الغنم، وسفره إلى يثرب مع والدته، ثم إلى الشام في رفقة عمه وفي تجارة خديجة رضي الله عنها..

ثم إن تلك المضامين الملتزمة بأرفع درجات السمو الانساني تجد لها تعبيرها السليم النقي المتأثر أعمق التأثر بالقرآن الكريم، كما أنها تتميز بإيجاز محكم دقيق إن كان صاحبها عليه السلام منزهاً عن الحشو واللغو والفضول، طويل الصمت دائم التفكر.

على أن ذلك لا يعني أي انتقاص من سمو الجانب البلاغي في أسلوبه ﷺ، وفي هذا المجال أرى الواجب يقتضيني أن أورد بعض النماذج التي تتجلى فيها الناحية الجمالية البلاغية واضحة لم تضار بروعة المضمون، أعني أن عمق المعنى لا يصرف النظر فيها من جمال الشكل التعبيري.. وتأمل هذا الدعاء النبوي حيث لا ترقى بلاغة البشر إلى أي مستوى يضاهيه.

« اللهم اقسم[1] لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا .

اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا ، وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا » .

أية نفس رضية خاشعة تتردد في أجوائها آيات الانسجام، موسيقى هادئة ذات مقاطع تعبر عنها الكلمات والعبارات موضوعة في قالب متوازن...

أي انسجام وتآلف بين الحروف في الكلمات وبين الكلمات في المقاطع التاء والحاء والخاء والطاء تتكرر كل منها مرتين والجيم والصاد أربع مرات لكل منها والعين ثماني مرات والكاف ست مرات.... والنون كأنما هي الرنين الخفي من تحت ذلك التوافق تتكرر عشرين مرة....

ثم إن هذه المقاطع أو التراكيب المتوازنة وإن توازنت

---

(١) حديث حسن- أخرجه الترمذي.

توازن التراكيب المسجوعة ليس فيها من السجع أو التكلف مثقال ذرة، فإن كل مقطع يحمل معنى قائماً بذاته، إن كون الدنيا مثلاً أكبر هموم الإنسان هو شيء مختلف تماماً عن كونها نهاية علمه فالمعنيان متباعدان مختلفان وليس في الأمر ما في السجع من صناعة ولغو.

يبقى سؤال أخير قبل اختتام هذا البحث المتواضع ولكن ما هو الضابط لبروز الناحية الجمالية في الشكل التعبيري عند رسول الله ﷺ...؟

ذلك بالطبع في الموقف العاطفي القوي الذي كان الرسول ﷺ يلتجىء فيه إلى الله داعياً، فلا بد للعاطفة العميقة هنا من مجال، ولا بد للرجل الذي آتاه الله جوامع الكلم، ومنزلة البلاغة المثلى، ورفعة النفس النزيهة السامية أن يعبر عن نفسه تعبيراً إنسانياً يعرض صورة خلابة من صور الجمال البياني كما نرى ذلك في معظم أدعيته عليه الصلاة والسلام.

الرسول

في الأدب العربي الحديث

للدكتور ماهر حسن فهمي
"قطر"



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الرسول في الأدب العربي الحديث

عندما نتحدث عن الرسول في أدب التراث العربي، نجد فرعين ناضرين: نجد المدائح النبوية في الشعر، ونجد أيضاً السيرة النبوية في النثر، لأن السير تعد فرعاً من فروع الأدب من حيث منهج العرض وذلك على الرغم من المادة التاريخية للسيرة، بمعنى أن السير التي تعرض مادتها عرضاً فنياً أو موشحاً بالشعر وتفتت المادة التاريخية إلى مواقف من الحوار يمكن تصنيفها في باب النثر الأدبي، تحت عنوان: السير والتراجم. ومعنى هذا أن الرسول قد أثر في أدب التراث، فتناوله من زاويتين: الحياة بما فيها من تجارب وقيم، ثم المديح وقد أفرد له الشعر فصلاً خاصاً. وعندما نريد الحديث عن الرسول في الأدب العربي الحديث، يجب أن ننظر إلى الفرعين السابقين، ونحاول أن نتتبع اتجاهاتها: إلى أي حد استمر فرع السير في العطاء وما الجديد فيه؟ وإلى أي حد استمر فرع المدائح النبوية وماذا جد فيه بحكم طبيعة العصر؟ ومن خلال هذين السؤالين يمكن أن تتسع الرؤية في التناول.

والواقع أن الأدب النبوي قد ازدهر ازدهاراً واضحاً في ثلاث فترات: الفترة الأولى فترة الدعوة الاسلامية نفسها، ومدائح الأعشى وكعب بن زهير وحسان بن ثابت وغيرهم مشهورة. وكان الرسول في تلك المرحلة يوجه الشعراء إلى الدفاع عن العقيدة ورد هجوم المشركين في فترة صراع بين الاسلام والشرك نكون أو لا نكون، وقد قام الشعر بدوره باعتباره سلاحاً من أسلحة الدعوة، فكان كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وعبد الله بن جحش يردون على شعراء مكة أمثال بن الزبعرى وضرار بن الخطاب ويرفعون سلاح الكلمة البليغة. وقد سجل ابن هشام في فترة التدوين سيرة الرسول، وتعد هي والسيرة التي بنى منها ابن سعد الجزأين الأولين من كتاب الطبقات الكبرى وبعض كتب المغازي، أساساً للمعلومات المقررة عن حياة الرسول.

والفترة الثانية هي فترة الحروب الصليبية، نكون أو لا نكون أيضاً. عادت المدائح النبوية وعلى رأسها بردة البوصيري وشروحها وتضمينها ومعارضتها، ونشأ فن البديعيات ومن أشهره بديعية ابن حجة الحموي التي سماها مع شرحها «خزانة الأدب»، كما ظهرت دواوين بكاملها في

مدح الرسول[1] وألف ابن الجوزي في سيرة الرسول واتجه كتَّاب « الدلائل » أمثال أبي نعيم والبيهقي إلى إثبات أكثر ما يمكن من المعجزات، وربما كان العالم الاسلامي في حاجة إلى ما يشبه المعجزة لينتشله، وكان ظهور هذين الاتجاهين عودة إلى النبع المحمدي وقت الشدة أو الذروة في الجهاد والأمان النفسي.

أما الفترة الثالثة فهي العصر الحديث وهو عصر التحدي الأكبر، نكون أو لا نكون مرة أخرى، ولكن الغزوة المعاصرة استعمرت الوطن الاسلامي مدة من الزمن، ولم يبعد قبضتها عن عنقه إلا بشق الأنفس، وما زالت القبضة على اقتصاده وفكره يحاول الخلاص منها، ولذلك تعود المدائح النبوية قوة دافعة من جديد، وتعود السيرة النبوية مثلاً أعلى وقدوة يتبعها السائرون، وكما ظهرت البديعيات باعتبارها تجربة جديدة في المدائح النبوية كان لا بد أن نتوقع ظهور لون جديد أيضاً بحكم التطور الفني المعاصر.

---

(١) اهنى المنائح وأسنى المدائح للشهاب محمود. بشرى اللبيب بذكر الحبيب لابن سيد الناس اليعمري.

إذا كنا نعتبر البارودي رائد الشعر العربي الحديث، فينبغي أن يكون نقطة انطلاقنا في المدائح النبوية المعاصرة أيضاً، وليس معنى هذا أن الشعر العربي في القرن السابق على البارودي قد خلا من المدائح النبوية وإنما معناه أن تلك المدائح سقطت في الزخرف والضعف الفني إلى حد بعيد[1] والفارق واضح بينها وبين ميمية البارودي ومطلعها:

يا رائد البرق يمم دارة العلم
واحد الغمام إلى حي بذي سلم

وقد ضمنها سيرة الرسول منذ ولد إلى أن توفي وبناها على سيرة ابن هشام كما يقول في مقدمة القصيدة[2]، وإن كان من الواضح انها معارضة لبردة البوصيري

(امن تذكر جيران بذي سلم
مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم)

ولكن متابعة السيرة ومعارضة البردة في نفس الوقت قد

---

(١) راجع على سبيل المثال ميمية الساعاتي التي حشد فيها مائة وخمسين نوعاً من أنواع البديع ومطلعها يشير إلى براعة الاستهلال.

سفح الدموع لذكر البان والعلم ... أبدى البراعة في استهلاله بدم

(٢) كشف الغمة في مدح سيد الأمة ص٢.

أضعفا من القيمة الفنية للمطولة وجعلاها أقرب إلى السرد التاريخي، وإن امتازت بوصف الغزوات وصفاً حياً، وذلك يرجع إلى طبيعة البارودي الذي خاض غمار الحروب. ومن الواضح أنها قيلت بعد الاحتلال ولذلك جعل عنوانها «كشف الغمة في مدح سيد الأمة» ثم يجيء أحمد شوقي فيعارض بردة البوصيري أوائل القرن العشرين بقصيدته المشهورة:

ريم على القاع بين البان والعلم

أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

ويسميها نهج البردة ويضمها إلى بقية مدائحه النبوية، ولشوقي غير البردة «ذكر المولد» ومطلعها:

سلوا قلبي غداة سلا وتابا

لعل على الجمال له عتابا

ثم الهمزية النبوية ومطلعها:

ولد الهدى فالكائنات ضياء

وفم الزمان تبسم وثناء

إن دراسة المدائح النبوية بصفة عامة توضح أن البوصيري قد وضع أساسها الذي لم يستطع الشعراء الإفلات

منه ،بدأ بالغزل وليس غريباً أن يبدأ بالغزل فقد بدأ به من قبل كعب بن زهير وهو تقليد في موروث لبناء القصيدة.

ولكن البوصيري يتخلص من الغزل إلى الحديث عن النفس التي لا تود أن ترتدع على الرغم من نذير الشيب ويطيل لومه للنفس التي اكتفت بالفروض وقنعت، ولم تهتم بالسنة المحمدية الاهتمام الواجب، ومن هذا المدخل يبدأ حديثه عن الرسول. فيذكر الظواهر الكونية التي صاحبت مولده كتصدع ايوان كسرى كأنه رمز لتصدع الظلم ،أما خمود النار فرمز لخمود الشرك ايذاناً بمولد الحق، وقد تبعها كل شعراء البديعيات والمعارضات لبردة البوصيري، وإن كانوا جميعاً قد أبرزوا بصفة خاصة المعجزة الباقية وهي القرآن الكريم.

ومن الواضح أن البوصيري ومن تبعه قد تأثروا بالسيرة النبوية، فتناولوا الإسراء والمعراج باقتضاب حينا وبإطناب حيناً آخر باعتباره التكريم الأكبر للرسول، والهجرة باعتبارها الخطوة الحاسمة في تاريخ الدعوة، والجهاد من أجل العقيدة، ولكن شوقياً يقف عند الجهاد ليعرض رؤيته في قضية انتشار الاسلام بالسيف وهي قضية معاصرة أثارها المستشرقون، كأن المسلمين قد نسوا ما صنعه أهل أوروبا بأندلس العرب،وقد فند مفكرو المسلمين هذه

الدعوى على أساس استحقاق الكافرين العقاب من الله لهم في الدنيا والآخرة وأن الانبياء السابقين الذين ورد ذكرهم في العهد القديم قاتلوا الكفار، وإن الجهاد في الاسلام لا يعني الإكراه على الدخول في الاسلام، وأن الجهاد في الإسلام يمتلىء بصور الرحمة التي لا مجال للموازنة بينها وبين وحشية الحروب الدينية الأخرى[1]. ولذلك نحس انفعال شوقي في تناوله لهذا الاتهام:

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا
لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم

جهل وتضليل احلام وسفسطة
فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم

والشر إن تلقه بالخير ضقت به
ذرعاً وإن تلقه بالشر يَنْحسم

سل المسيحية الغراء كم شربت
بالصاب من شهوات الظالم الغلم

لولا حماة لها هبوا لنصرتها
بالسيف ما انتفعت بالرفق والرحم[2]

---

(١) راجع «الرسول لسعيد حوى» ص٣٨٧.

(٢) الشوقيات جـ١ ص٢٤٢

ومن الطبيعي أن تكون الخاتمة واحدة في أغلب القصائد لأن الهدف واحد من المدائح النبوية يتلخص في الشفاعة له وللمسلمين عند بارىء الخلق.

معنى هذا أن المدائح النبوية ظلت موصولة مستمرة قروناً طويلة تحمل إضافة أجيال ورؤية أجيال، وعلى الرغم من خفوت صوتها حيناً إلا أنها بقيت قادرة على العطاء تنبض بالحياة في فترات الشدة، تمنح الإحساس بالأمان، وتكمن فيها قوة دفع كبيرة بما تقدمه من قيم سامية ومثل عليا نحن في أشد الحاجة إليها. فالعودة إلى نبع الاسلام الأول وأصوله، هي الملاذ من التخبط الفكري، وفي ذلك يقول أحمد محرم:

سن النبي لنا أيام هجرته
من صادق العزم شرعاً غير مجهول
مضى على الحق لم تعصف بهمته
ريح الضلال ولم يحفل بتهويل
والنفس تغلب إن صحت عزيمتها
فتك الجيوش وتدمير الأساطيل[1]

---

(١) ديوان محرم جـ٢ ص١٩٥.

ويدور حول معنى الابيات السابقة كثيرون من الشعراء أمثال محمد مصطفى الماحي وحسن عبد الله القرشي وبدوي الجبل وعمر أبو ريشة ومحمود فضل اسماعيل الذي خصص من ديوانه خمسين صفحة جعل عنوانها «من وحي السيرة النبوية الشريفة» وغير هؤلاء من الشعراء الذين نضج أكثرهم في النصف الأول من القرن العشرين، فخلال تلك الفترة حدثت أحداث جسام أهمها الغزوة الصليبية الثانية أوائل هذا القرن التي انتهت باستعمار الوطن الاسلامي، ثم الهجوم على الاسلام وعلى رسوله من دوق داركور وهانوتو إلى الفرد جيوم، ولذلك كان الرد من محمد عبده ورحمة الله ابن خليل الهندي في كتابه «إظهار الحق» إلى أحمد شلبي، رداً شافياً تناولوا فيه إقامة الحجة على هجوم المستشرقين عن طريق تناول أخلاق الرسول وكمال شريعته وانتصاره وحاجة الناس إليه وإلى شريعته ومعجزاته وتبشير الأنبياء به.

يقول أحمد شلبي: «قال محمد ﷺ إنه خاتم النبيين، ومرت بعد ذلك القرون تلو القرون ولم يأت رسول بعد محمد وقد كانت الرسالات قبله يتلو بعضها بعضاً دون حدوث

فترة زمنية طويلة بل كان بعضها يعاصر بعضاً، كما حدث بالنسبة لابراهيم ولوط وبالنسبة لاسماعيل واسحق ويعقوب، وبالنسبة لشعيب وموسى، وبالنسبة لزكريا ويحيى ثم جاء محمد وقال إنه خاتم الأنبياء والرسل وصدقه الواقع أربعة عشر قرناً وليس مثل ذلك دليل.

«ومس التحريف والنسيان كتب الأنبياء السابقين، وجاء محمد ولم تكن المدنية قد ازدهرت ولا الكتابة قد انتشرت ولكن محمداً قال: إن الله سيحفظ القرآن الكريم من كل ضياع أو تحريف (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) «سورة الحجر الآية التاسعة»، وحفظ القرآن الكريم دون ضياع أو تحريف. «ولنسر خطوة أخرى أكثر تفصيلاً حول هذا الافتراض الأبله وهو عدم صدق محمد، فقد قال: إني رسول الله، أرسلني بشيراً ونذيراً، وقال: إن رسالتي تشمل البشرية كلها، وقال: إن رسالتي تنظم شئون الدين وشئون الدنيا، شئون الروح وشئون الجسم، شئون الفرد وشئون الجماعة. هل صدق محمد فيما قال؟ وهل ملأ الفراغ الكبير الذي قال إن دعوته ستشمله؟ كيف يدعي رجل مثل هذه الدعوى وتعيش دعوته؟ ما هدفه وما آماله؟ ونسير في بحث

السؤال الأول فنذكر أن كثيرين ادعوا النبوة وحاولوا أن يأتوا بمعجزات، ادعاها الأسود العنسي وادعاها طلحة وادعتها سجاح، ولكن كُلاً من هؤلاء كانت دعوته مهلهلة وكان عمرها قصيراً- انزل بين جماعة وادع أنك معلم أو مهندس أو رجل قانون أو حتى زارع أو طباخ أو حلاق ولست كذلك، لا شك أن أمرك سينكشف بعد قليل وسيطاردك أولئك الذين قد يخدعون بك. هل النبوة أقل من ذلك؟ اللهم لا، إنها مسئولية خطيرة ودعوة عريضة، وهي امتحان قاس وتعال بنا إلى السؤال الثاني: ما هدف محمد، هل أراد المال، هل أراد الجاه، هل حصل على شيء لنفسه أو لذويه؟ الإجابة واضحة يقصها علينا التاريخ، فقد كان محمد قبل البعثة غنياً بمال زوجته، ولكنه رهن درعه عند يهودي في قوت أهله قبيل وفاته، وقد أراده قومه على المال وعرضوا عليه الجاه ولكنه أبى وقاسى من أجل النبوة ألواناً من العناء وماذا حصل لذويه؟ لقد وضع حداً لما يقال عن جلب النفع فقال قبل موته: نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة، وهكذا حرم أهله من ميراث يناله جميع الناس، ويبرهن على أنه إنسان ليس لأهله وإنما

هو للمسلمين، حياته لهم وموته لهم وكفاحه من أجلهم دون هدف ذاتي أو منفعة خاصة »[1]

وقد ركز الشاعر المعاصر على عناصر معينة من السيرة النبوية كأنه يرد هذه الاتهامات إلى النحور:

وأطـــل نور محمـــد من شرعـــه
للـــدين والدنيـــا هوى وصـــلاح
وعـلى خطـاه نمت أصول حضـارة
هي للخلود وللعـــــلا مفتـــــاح
لا وحي بعـــد محمـــد وكتابـــه
الحـــق أبلـــج والشموس وضـاح[2]

وما دام قد رد على الموقف الأول وبين أن محمداً خاتم النبيين، فلينتقل إلى الموقف الثاني ليسجل معجزة القرآن الخالد الذي لم يصبه تحريف ولا تبديل مع توالي السنين وصلاحه لكل مكان وزمان:

المعجزات وحسبك القرآن معجزة الخلود
قد صانه الرحمن من عبث وزيف أو جمود

(١) محمد نظرة عصرية جديدة ص٥٤
(٢) ديوان نداء الحق لأحمد محمد الصديق ص١٧٩.

لم يبق إلا نوره الوهاج في هذا الوجود

أما سواه فقد مضى وأصاب شعلته الخمود[1]

وفي قصيدة بعنوان «الاسراء والمعراج» يتناول الشاعر نفسه أكثر من موقف، موقف العذاب الذي لقيه الرسول في دعوته:

وثقيف الرعناء صنوُ قريشٍ
ضل فيها الاشراف والسادات

تطرد الطائف النبي جحودا
وبه يسخر الطغام العتات

والرسول الكريم يرجع مهموماً
وأصحابه لَقًى وشتات

واديم الصحراء في هدأة الليل فم مغلق وأرض موات[2]

ثم يتناول الاسراء والمعراج باعتبارها معجزة أولاً ثم باعتبارها تكريماً وجزاء لمعاناة الرسول وصبره على المكاره من أجل دين الله:

لحظة والبراق يهبط في الباب وجبريل ممسك بعنانه

قم حبيب الرحمن حييت لا تبأس وهب النبي من أحزانه

---

(١) ص ١٨٣

(٢) ص ١٨٥

واعتلى صهوة البراق وقد أودع سراً في قلبه وكيانه
ورنا فالوجود لوحة إبداع عظيم في عينه وجنانه[1]

ومن هذا الدرس ينتقل إلى حال المسلمين اليوم كأنه يلمح افتراقنا من ناحية وتكالبنا على الملذات من ناحية أخرى وتخلفنا في كل جانب من جوانب الحياة، فما أحوجنا إلى جهاد كجهاد الرسول وصبر كصبر الرسول المعلم والقائد:

يا حبيب الرحمن لو كنت فينا اليوم أنكرت أمة الإسلام
كثرة لو ترى ولكن قليل في مجال الإصلاح والإقدام
شيع البغي والضلالة تمشي بيننا بالفسوق والآثام
غير الدهر غيرت يا رسول الله منا ورث حبل الذمام[2].

وشعر الصدّيق نموذج من نماذج الشعر العربي الاسلامي في الخليج، ولا أدعي أن الشعر العربي الاسلامي في الخليج له مذاق خاص؛ ولكنه يمثل شعلة متوقدة نجد نورها في ديوان خالد الفرج الشاعر الكويتي وفي دواوين عبد الرحمن المعاودة الشاعر القطري وأحمد محمد الخليفة الشاعر البحريني. وأحمد محمد الخليفة الشاعر رومانسي، ولذلك نجد المذاق الرومانسي في شعر المولد النبوي ونقصد الشعر

(١) ص ١٨٦
(٢) ص ١٨٩

المغموس في وجدان الشاعر الهامس الموسيقي المجنح الخيال. وإذا كان شوقي يبدأ قصيدته قائلاً: (ولد الهدى فالكائنات ضياء)فإن شاعرنا الخليفة يبدأ بمقدمة وجدانية كلها تعبير عن رؤى الشاعر الرومانسي:

عانقي المجـد واهزجي يا صحارى
واستفيقي وطـــــاولي الأقمارا[1]
واسكبي الضوء في مواكب هذا الليل
بشراً ونضـــــدي الأزهـــارا
واحملي معزف اللقـــاء وغـــني
واجعـلي الليـل يستثـير النهـارا
إنــه مولد النبي فحسب الروض أن
يهرق الشذا المعطـــــــــــارا

إنه معجم جديد تسمع فيه الأهازيج والموسيقى وتشم الأزهار والعطور وترى مجموعة من الصور الغربية: صورة الصحـارى تطـاول النجوم، والضوء ينسكـب، والألـق المسحور يوشي الكثبان، والعطر ينداح، وكلها صور من معجم الرومانسيين. ويستمر في القصيدة حتى يختتمها كما

---

(١) هجير وسراب ص ١٢

بدأها بنفس المذاق. فإذا اختتم شوقي قصيدته بالدعاء

ما جئت بابك مادحاً بل داعياً
ومن المديـح تضرع ودعـاء
أدعوك عن قومي الضعاف لازمة
في مثلها يلقى عليك رجاء

قال شاعرنا:

حلم طاف بي يمثل ركبا
حل بالسفح ساعة ثم سارا
إيه يا ركب أي رجع حداء
بالترانيم أخجل الأوتارا
لم يزل في مسامعي منه شدو
يستفز التاريخ والتذكارا
كلما مثلته أشواقي الحرّى
حيالي طوى الرؤى وتوارى
أتلقاه خاشعاً بجفون
يبعث الشوق دمعها المدرارا
يا نبي الهدى لدينك ضوء
إن دجا الليل يرشد الأبصارا

وهكذا انتهى ناثراً أضواءه التي تبدد ظلام أيامنا وفي

وسطها يتجلى نبي الهدى مشيراً إلى الدرب. وهكذا الشأن في قصيدته «إسراء محمد» التي مطلعها:

أي ذكرى علوية الإيحاء: بعثت ريق السنى في دمائي)[1]

وقصيدة «تحية العام الهجري»[2] التي مطلعها

(يا هلالا لاح في الأفق البعيد:

أنت نجوى الروح والقلب العميد).

وهو لا يقول

(نسفوا بناء الشرك فهو خرائب:

واستأصلوا الأصنام فهي هباء)[3].

فذلك تعبير تقريري ولكنه يسقي دنيا الظلام من كأس قطر فيه نور الحق:

حتى تعرت له الدنيا بأجمعها

وأظهرت للفتى الهادي خوافيها

فسلسل الوحي في أجفانها ومضى

بالنور في حالك الظلماء يسقيها[4]

والواقع أن الرومانسيين قد بعدوا عن شعر المناسبات بصفة عامة ولذلك لم نعد نجد مثل هذه العناوين: مطلع

---

(١) من أغاني البحرين ص ٣٧

(٢) هجير وسراب ص ١٨

(٣) الشوقيات جـ١ ص ٢٠

(٤) هجير وسراب ص ٢٠

العام الهجري، حديث الاسراء والمعراج، حلول شهر رمضان، فقد انكب الشعراء على ذواتهم وراحوا يحللونها، ولكن بقي ميلاد الرسول وبقيت هجرته، وظلت سيرته في مواقفها العديدة تثير وجدان الشاعر المسلم، والتطور الذي حدث لمسناه في شعر محمد أحمد الخليفة أو في شعر محمود حسن اسماعيل أو غيرهما من شعراء هذا الاتجاه الرومانسي.

ولذلك نجد ديواناً مثل «نار وأصفاد» لمحمود حسن اسماعيل تحمل قصائده هذه اللافتات: نبي الحرية، قصة ظلام جنازة الوثنية، الفارس المندحر (سراقة)، نشيد الغار، النور المهاجر- على أن الأمر ليس أمر عنوان وحسب، ولكن بنية القصيدة نفسها تطورت، وقد رأينا بعض الظواهر عند محمد أحمد الخليفة، أما بقية الظواهر فنراها في شعر محمود حسن اسماعيل.

ويك يا نار أي سر حبيس
في لظاك رآه أهل المجوس
زمزموا بالصلاة والتقديس
وأراقوك في شعاب النفوس
خمرة الحب من يدي إبليس
ثم طافوا حول اللهيب سكارى

أعجز المشركين منه بيان

كبرت من جلاله الأزمان

وجثا الجن روعة واستكانوا

فهو بحر من الهوى وأمـــــــان

كــل حي إليــه يبغى الفرارا[1]

إن « قصة الظلام » قصيدة لها مقدمة من النثر ولكنه نثر أقرب إلى الشعر الرومانسي في معجمه (مع الأرض في ظلمها وظلامها قبل انبثاق النور الأعظم ومع أول شعاع تبلجت به سماء العرب، وأشرقت به حقيقة الانسان. مس جبينه الخاشع للحجر، فارتفع لله، وظهره المقوس للطغيان، فسواه للكرامة، وبصره الضارع للظلم، فأعلاه للحق، وقيد الصاغر للبطش فأحاله أجراس حرية وكان للعرب رسول وحدة وتوحيد، ألف القلوب على السلام والحب، وشد الزمام إلى الإباء والعزة، وشق في غياهب الوجود طريق الفجر، تتألق به راية النصر، وتتوهج به جذوة الكفاح، وتزحف به مواكب النضال الى شاطئ النور).

وهكذا كانت هذه القصيدة قصة الصراع بين النور

---

(١) نار وأصفاد ص ١٦

والظلام وانتصار الحق والهدى. ومن الواضح أن وحدة القصيدة الفقرة لا البيت، وذلك منهج في بناء القصيدة كأن البيت قد استطال وامتدت فكرته حتى نهاية الفقرة، ثم تنوعت القوافي من فقرة إلى أخرى كالموشحات والفقرة الأولى تحكي عن نار المجوس ولم يقل أن نار المجوس قد انطفأت كما قال الذين من قبله، ولكنه يحكي قصة النار معبراً عن حيرته أمام عبادها من المجوس حين طافوا حول وهجها سكارى كأن ابليس قد سقاهم نشوة حبها. فكل فقرة صورة التقطها مصور ولكنها صورة متحركة فنرى صورة الصنم المعبود وفي النهاية تهب الريح عاصفة فيقع ويتحطم، ثم صورة عابد النجم، وكلها تعبر عن الحيرة في البحث عن الحقيقة وإن بدا مظهرها مستقراً، ثم يظهر الرسول والقرآن معجزته الخالدة، فيصور تهاوي الكيان عجزاً أمام أسرار إعجازه وخشوع الجن رهبة وروعة، وإقبال البشر يبحثون عن الهدى في رحابه، ولذلك ما يزال الزمن يكبر هاتفاً بجلال آياته.

هذا المنهج في العرض نجده في قصيدة «جنازة الوثنية» وقد اتخذ شكل حوار بين اللات والعزى ومناة

تخر فيها الأوثان ساجدة في النهاية فتتحطم. وفي قصيدة « معجزة العنكبوت » نرى مشهداً غنائيا أبطاله العنكبوت والحمامتان والثعبان، وهكذا لونت الرومانسية السيرة النبوية بألوانها الثرية واعطتها مذاقاً جديداً في الصور والبناء الفني.

وبهذا التنوع الخصب نستطيع أن نقول: أن المدائح النبوية في الأدب العربي تقف على قدم وساق في مقابل المدائح النبوية في أدب العجم. ففي بحث للعلامة «أبو الحسن الندوي»[1] يقول: إن اللغة الفارسية هي أغنى ثروة وأسعد حظاً في المدائح النبوية من غيرها، وتليها «أردو» التي هي سليلة الفارسية وإن ما قيل في إيران والهند في هذا الموضوع يمتاز عن غيره قوة وتأثيراً ورقة وعذوبة، وقد تجلت فيه العاطفة أقوى وأروع منها في غيره. وقد ابتكر هؤلاء الشعراء معاني وأخيلة، وجاءوا بتعبيرات لم يسبقوا إليها «ويعلل ذلك بالمزاج الإيراني والهندي فطبيعة الفرس والهند طبيعة الحب ولغتهم لغة الغزل، فلما انصرف ذلك كله إلى شخصية خصها الله بأعظم معاني

---

(١) مجلة الأزهر فبراير ١٩٧٩م.

الحسن والإحسان وأكبر مظهر الجمال والكمال جاء بالعجب العجاب ويضيف أن البعد عن الجزيرة العربية كان له تأثيره فاستعاضة الشعراء عن الرحلة- حين كانت قوافل الحجاج تتعرض للغارة- بالتعبير عن حنينهم وأشواقهم. ثم يعرض أهم ما أتى به شعراء العجم من جديد في الصور والمعاني. «إن اليتيم الذي نشأ أمياً وعاش أمياً، ولم يقرأ القرآن في كتاب استطاع أن ينسخ مكتبات شعوب كثيرة فتفقد قيمتها وحيويتها، وينشيء مكتبة جديدة كانت مصدر العلم والعرفان» فكذا قال الشيخ سعدي صاحب كلستان معبراً عن النقلة الاسلامية التي فاقت كل نقلة في القديم والجديد في عالم الأديان والأخلاق والعلوم والآداب والقيم والمفاهيم على يد أمي. انه لغز لا يحله إلا الإيمان بالقدرة الإلهية.

أما زعيم الشعر الاسلامي الحديث- عند العجم- الشيخ الطاف حسين فقد أحسن تصوير الواقع التاريخي في قوله: «لقد خص من بين النبيين بلقب (رحمة للعالمين) وهو الذي كان من دأبه إسعاف حاجات الفقراء وتحقيق رغباتهم المكنونة، كان مأوى الضعفاء وولي الأيتام ومربي العبيد

والأرقاء، يصفح عن الأخطاء ويحسن إلى من أساء، يوحد القبائل المتناحرة، ويؤلف القلوب المتنافرة. أقبل إلى الأمة العربية التي كان يخيم عليها الجهل من قرون فأحدث فيها ثورة جذرية، انقلبت بها أوضاعها وتغير بها مجرى التاريخ، فقد ظل هذا المعدن الكريم مطموراً مغموراً في التراب، وتحت ركام الجاهلية لا يعلم أحد قيمته وغناه، وقد أصبح ما طبعه الله عليه من أوصاف وفضائل ضائعاً عاطلاً فلما وقع نظره على ذلك وما هبت عليه نفحة من نفحات بعثته حتى تلألأ نوراً وصفاء وأصبح ذهباً خالصاً. إن الحجر الذي رفضه كل بناء وزهد فيه كل معمار تناوله بيده الكريمة وجعله حجر الزاوية. لقد هاجت سحابة من بطحاء مكة ملأت سمع الزمان وبصره، وشرق وغرب رعدها وبرقها، وبينما رعدت على أنهار تاجة في أسبانيا، أمطرت على نهر الكنج في شبه القارة الهندية، لقد أحيا غيثها مزرعة الانسان القاحلة، وعم برها البر والبحر، فما ترى في العالم من رواء وبهاء ونور وسناء إلا والفضل فيه يرجع إلى البعثة المحمدية». والواقع أن كل المعاني والصور التي أتى بها العلامة أبو الحسن لشعراء الهند والفرس طافت بأشعار

العرب والفارق الأهم ربما كان في الصياغة لأن حياة الرسول مدروسة معروفة وتاريخ المدائح طويل مشهور على أننا لم ننته من شعر الشعراء العرب، فما زال أمامنا موقفان، الأول: شعر النصارى وعلى الأخص نصارى المهجر في الرسول ثم شعر العرب المعاصرين من أصحاب الشعر الحر على وجه الخصوص. فما الرؤية الجديدة التي يمكن أن يضيفها كل منهم إلى التراث النبوي؟

الواقع أن الدارس لشعر المهجر يجد ظاهرة التسامح الديني واضحة في أشعارهم، ويعلل بعض الباحثين وضوح هذه الظاهرة في شعرهم باتساع مفهوم الحرية الدينية في العالم الجديد الذي هاجروا إليه. ولكن وضوح مجموعة ظواهر بدرجة واحدة في شعرهم تجعلنا نعيد النظر في هذا التفسير، فالظاهرة الثانية هي الشعر الوطني والقومي والظاهرة الثالثة هي الحنين. فالموقف كله على هذا الأساس ارتباط بأرض النشأة حيث المسلمون وحيث يعيش الصليب في رعاية الهلال، على الرغم من بعض الأحداث العارضة التي لا يقرها جوهر الاسلام.

يقول جبران: «أنا مسيحي ولي الفخر بذلك، ولكنني أهوى النبي العربي، وأحب مجد الاسلام، وأخشى زواله

إنـني أسكن المسيح شطراً من حشاشتي، ومحمداً الشطر الآخر »[1]. ويوازن أمين الريحاني بين الكنيسة والجامع فيقول[2]: « لم أر بين سائر أماكن العبادة التي أعرفها أفضل من الجامع. هو المكان الذي يؤثر علي بديمقراطيته أكثر من سواه لما فيه من شواعرها المتنوعة. فليس في الجامع ما يداهن الأغنياء، أو يكسر قلب الفقراء أو يغفل الورعين أو يرد ثقيلي الأحمال خائبين. وليست بشاشة الجامع بمقاعده المزدوجة- مثل الكنيسة- وليست رغبة الناس فيه لصدقاته،والخدمة يوم الجمعة تكاد تنحصر بخطبة مصدرها القرآن، فهي إذن لحن من البلاغة تعشقه الأسماع فيحدث في القلوب خشوعاً وفي الأفكار نزوعاً إلى العلاء. الجامع ميناء يرتاح إليه الشحاذ والأمير،وهيكل يضم المؤمنين، وناد يقبل أولاد الله على السواء. هو حيث يعثر المنبوذ على حجر يسند إليه رأسه فتكتنفه رهبة القبة الواسعة التي تعلوه ولا يحرك السكينة في ذلك المكان إلا كلمات: يا الله، يا كريم، التي تدفعها الصدور وقتاً فآخر، وإن النفس لتخشع

(1) راجع التجديد في شعر المهجر لمحمد مصطفى هداره- طبعة القاهرة ١٩٥٧ ص ١٢٣

(2) الريحانيات- جـ٣ ص ٥٢.

فتدعو الجسد، وتبتهج فتدعو العقل إلى علويات السكون الذي لا يوصف ولا يحد.

«لا صنوج ولا أجراس، لا آلة موسيقية ولا جوق مغنين، لا رسوم ولا تماثيل، ولكن أضواء الإيمان المشتعلة دائماً تهدي النفس، فتجد خلال ذاك السكون وتلك الرهبة، سبيلها إلى العزة الإلهية، إلى الإله الواحد، إلى الله. لم لا تكون الكنيسة كالجامع الفسيح المطلوق للهواء النقي، تؤمه حينما تشاء وتبقى فيه ما تشاء ولا حرج عليك ولا قيد ولا ضريبة.»

«قد أقيمت الصلاة ولكن الجزء المهم منها لم ينته، وسيقام في الزقاق الضيق أمام الكنيسة، حيث شرذمة من البوليس يحفظون نظام العربات الذاهبة الآتية، فيتحرك نحو الباب قطار السيارات الفخيمة المتعددة الألوان وكذلك الأشكال، يحف بها الحشم وعلى دفتها السائقون الكيسون المتشامخون والعربات تجرها المطهمات فيثب منها الغلمان في الأثواب المقصبة الرسمية يفتحون لأسيادهم الأبواب ويطأطئون الرؤوس للسيدات. غوغاء وغرور، ضجيج وتصلف، معرض مدهش في العبادة، أبهة وفخفخة في الورع

والتقوى، تعال يا أخي المسيحي الفقير، تعال معي إلى الجامع ».

بهذه الروح السمحة كان مسيحيو المهجر ينظرون إلى الأديان السماوية وقد عبر رشيد أيوب عن ذلك بقوله:

فمن يا ترى أعلى الورى كمحمد
وارفعهم مجداً وأسمى مناقبا[١]

ويشارك رياض المعلوف اخوانه المسلمين في الاحتفال بذكرى ميلاد الرسول فيقول في قصيدة (وحد الله)[٢]:

وحد الله فالمؤذن وحد
وبذكر النبي في العيد أنشد
يا رسول الأنام أنت وعيسى
خير من يصطفى ويرجى ويقصد
وكفى العرب فخرهم بانتساب
لنبي هو النبي محمد

وللشاعر القروي- رشيد سليم خوري- أكثر من قصيدة في محمد صلوات الله عليه، فهو مثل زميله رياض المعلوف يحتفل بذكرى المولد النبوي فيقول:

---

(١) الأيوبيات ص ٣٧ (٢) خيالات طبع سان باولو ١٩٤٥

عيـد البريـة عيـد المولـد النبوي
في المشرقـين لـه والمغربـين دوي
بـدا من القفر نوراً للورى وهدى
يا للتمـدن عم الكون من بدوي
يـا قوم هـذا مسيحي يذكركم
لا ينهـض الشرق إلا حبنا الأخوي
فـإن ذكرتم رسول الله تكرمـة
فبلغوه سلام الشاعر القروي[1]

وله قصيدة أخرى قالها في سلطان باشا الأطرش قائد ثورة الدروز عام ١٩٢٥[2] وهي تمتلئ فخاراً بثورته العربيـة ضـد الاستعمار الفرنسي، ويوازن بين الاسلام والمسيحية، ويرى الاسلام دين العصر، ومن هنا يذكر محمداً صلوات الله عليه، فيقول مخاطباً سلطان باشا الأطرش:

فـتى الهيجـاء لا تعتـب علينـا
واحسن عذرنـا تحسن صنيعـاً
تـمرستم بهـا أيـام كنـا
نمـارس في سلاسلنـا الخضوعـا

(١) ديوان القروي ص ٢٢٥.
(٢) نفس الديوان ص ٢٥٧.

فأوقـــدتم لهـــا جثثـــاً وهامـــا
وأوقدنـــــا المباخر والشموعـــا

إذا حاولـت رفـع الضـيم فاضرب
بسيــــف محمـــــد واهجر يسوعـــا

(أحبوا بعضـــكم بعضـــا) وعظنـــا
بهـــا ذئبـــاً فما نجـــت قطيعـــا

ولعل أبا الفضل الوليد (إلياس عبد الله طعمة) كان أكثر التفاتاً من بقية شعراء المهجر إلى الرسول والرسالة. فقصائده الأولى بديوانه الكبير المشرقية والمغربية والمكية والمقدسية كلها تعرج على الرسول وهكذا في قصائده التالية الأموية والبغدادية والأندلسية يقول في نهاية قصيدته الأندلسية:

يـــا أحمد المرتضى والمرتجى أبـدا
ألست من سطوات الروم تحمينـــا

يـا أرفـع النـاس عنـد الله منزلـة
متى نرى السيف مسلولا ليشفينا[1]

وفي القصيدة الصحابية التي يتناول فيها صحابة رسول

---

(١) ديوان أبي الفضل الوليد ص ١١١

الله يسير على نفس النهج، أعني نهج المطولات التي تتجاوز فيها القصيدة مائة بيت وتتناول قضية الوطن الذي ظل الشاعر يحمل همه في غربته ومن هذا المنطلق يصل إلى أمجاد العرب الأوائل وتعاليم رسول الله قائلاً:

وكيـف أوفي خير من وطئ الثرى
من المـدح حقـاً والثنـاء عيـاء
إلهيـــة أقوالـــه وفعالـــه
يقصر عن إدراكهـــا الحكماء
دعـا قومه والناس طرا إلى الهدى
ولـلأرض منـه في الظـلام ضيـاء

ومن أمريكا الجنوبية يهتف بعروبته وقد أحس الغربة:

أنـــا العربي بـــين الروم أمشي
غريبـــاً أو أعـــد من الاسارى
رأيـــت عروبـــتي شرفـــاً وفخرا
فبـــت أود إسلام النصـــارى[2]

وهو هنا قاب قوسين أو أدنى من الاسلام، ولكنا نراه

(١) ص ١١٣
(٢) ص ١٢١

بعد حين يسلم سنة ١٩١٦[1] - ويتخذ اسم الوليد بدلاً من الياس، ويذكر اسلامه في أكثر من قصيدة وفي أكثر من مقالة، معتزاً بدينه، مفاخراً بسيرة رسوله، مستشفعاً به:

أعاهـــد ربي أن أصـــلي مسلما
عــلى أحمد المختـار من خـير أمـة
هـداني هواهـا ثم حبـب شرعـه
إلى فصحـت مثـل حـبي عقيـدتي
فمن قومـــه قومي أدين بدينـــه
لأني أرى الاسلام روح العروبـــة
توسلــت بالقربـى إليـه فلم تضع
لـــدى العربي الهاشمي شفاعـــتي
فشرفـــني بعـــد العروبــة بالهـدى
وفضلـــني بـــين الورى لقرابـــتي[2]

أما الاتجاه الأخير في الشعر، فهو اتجاه أصحاب الشعر الجديد ومن الحق أن أصحاب هذا اللون قد صرفهم اهتمامهم بالاتجاهات الغربية عن التراث إلى حد ما، ولذلك لن نتوقع

---

(١) راجع إسلامه في كتابه (التـريح والتصريح بيروت ١٩٣٤ ص١١).
(٢) ص ٣٦٣

التفاتا إلى المناسبات أو تمشياً مع الخط السابق في المدائح النبوية، كما انصرفوا عن شعر الأحداث في حياة الأمة، واتجهوا إلى الموقف الانساني العام يحللون أعماقه، مثلما نجد على سبيل المثال في مطولات رائدهم بدر شاكر السياب (الأسلحة والأطفال، العمياء، حفار القبور) وكلها قصائد رمزية.

ومن هذا المنطلق، سوف نجد الرسول صلوات الله عليه يصبح رمزاً كبيراً للجهاد، للهداية، لانتصار الحق على الباطل، للفخار بالانتساب إليه، وكلها معان سامية تلخص المدائح في إشارات شديدة التركيز:

لا تتركوني فالضحى نسبي
من فاتح ومجاهد ونبي
عربية أنا أمتي دمها
خير الدماء كما يقول أبي[1]

والإشارة إلى النبي هنا جاءت في مجال الفخار بالانتساب إليه فيشعر الضعيف بالقوة والفقير بالغنى، ومن الغريب أن المطولة من الشعر الحر ولكن الأبيات التي يرد

---

(١) انشودة المطر ص ٢٣٢

فيها ذكر النبي من الشعر العمودي كأنما العودة إلى الأصول ترتبط في الأذهان بالعودة إلى نسق التراث حيث عاش الرسول والمجاهدون الأول وفي قصيدة «عودة رمضان» يقول غازي القصيبي:

(القدس رجاء، يطوي ليل الارهاب إلى ليل الاسراء، يتحسس رايات محمد، وكتائبه عبر الصحراء)[1] وهنا يأتي الرسول رمزاً للمنقذ حين يدلهم الخطب، ورمزاً للمجاهد ضد الظلم والباطل، الذي يصرع قوى البغي ويخلصنا، ورمزاً للتجمع الإسلامي تحت راياته.

ومن هذا المنطلق أيضاً تأتي قصيدة «محمد يا رسول الله»[2] وهي من قصائد المولد النبوي ولكنها لا تؤرخ لأحداث السيرة كما تعودنا أن نرى وهي في نفس الوقت من قصائد الديوان التي التزمت النظام العمودي. يقول الشاعر هارون هاشم رشيد:

وددت لو أنني في مولد الهادي أغنيه
وأجدل من خيوط الشمس إكليلاً وأهديه
ومن وهج السنا والضوء والإلهام أسقيه

---

(١) أنت الرياض ص ١٠٩

(٢) حتى يعود شعبنا ص ٥٧.

وأمنحه أعز الحب والأشواق أعطيه
ومن أعماقي المشبوبة اللهفى أناجيه
أليس محمد للكون.. كل الكون هاديه

وبداية القصيدة غريبة، فالشاعر لا يستطيع أن يغني على الرغم من ذكرى يوم المولد، وعلى الرغم من كل صور الإجلال والحب الذي يبدو في أبياته لهادي الكون محمد عليه الصلاة والسلام.

ونتابع القصيدة علنا نجد ما يعوقه عن الغناء، ولكنا نجده ومستمراً في الحديث عن أمانيه:

وددت لو أن لي يافا فأجمع كل ما فيها
من الأزهار أنثرها لمولده وأذريها
وأطلق من مآذنها تكابيراً تضويها
ولكن أين لا يافا ولا حتى ضواحيها.

وتنطلق آهاته ويحس أنه يغوص إلى الأعماق، فيبحث عن المنقذ ويستشفع به، فلا يجد أمامه سوى الرسول المخلص، وسط خداع العالم من حوله:

محمد يا رسول الله إني ضائع ضائع
وشعبي في مهب الريح مثلي تائه جائع
تقاذفه الرياح الهوج عبر العالم الخادع

فأين رسالة للحق انت منارها الساطع

وأنت بشيرها للكون أنت المرشد الوادع

محمد أنت نجدتنا وأنت حبيبنا الشافع

ويتكرر نداؤه «محمد يا رسول الله» في مطلع كل فقرة حتى نهاية القصيدة أشبه بنغمة القرار التي تشد أجزاء العمل الفني، وأشبه بهتافات الدراويش في حلقات الذكر يساعد على ذلك «بحر الهزج» ولكن ترنحات الدراويش التي تشبه التيار السالب لا تلبث أن تتحول إلى تيار موجب ومنها يتولد التيار المؤثر. من هذه الهتافات تتولد الثورة:

محمد يا رسول الخير ما في دورنا خير

فقد داهمها الباغون قد باغتها الشر

فإن لم ترفع الرايات إن لم يهدر الثأر

ليغسل عار ما صنعوا ويمسح رجس ما نشروا

فلا كنا بشعب محمد نسمو ونشتهر

وهكذا يكون الرسول رمزاً للجهاد والصبر دون يأس، وهنا تتبدّل الكلمات من الضياع والتيه والجوع والضراعة والأحزان إلى هدير الثأر والصمود وارتقاب الزحف والتكبير في مسيرة الخلاص. ولعله قد اتضح الآن أن الشعر

المعاصر لم يعد يتخذ مولد الرسول للحديث عن تاريخ محمد صلوات الله عليه كما جاء في السيرة وكما كان يصنع الشعراء من قبل، ولكنه يتخذ من مولد الرسول رمزاً لموقف عربي فيه ربط بين الماضي والحاضر، ومن أجل هذا لا يشدو الشاعر المعاصر ولا يغني غناء الشاعر السابق، فقد أصبحت همومه أكبر من الغناء وأصبحت رؤيته للتراث استلهام التراث وترميزه ليصبح أكثر قدرة على العطاء من مجرد العرض والسرد.

وكان الرسول صلوات الله عليه الشعلة التي حملها الشعراء في كل اتجاهاتهم الفنية المعاصرة.

والحديث عن النثر الفني في موضوعنا «الرسول في الأدب العربي الحديث» يعني تناول السيرة الأدبية في الدرجة الأولى، وليس من العسير ملاحظة الحركة الصاعدة للسير الفنية التي تناولت حياة الرسول صلوات الله عليه، في ضوء أحداث العصر نفسه. ففي أعقاب الحرب العالمية الأولى واقتسام الاستعمار لبقية الدول العربية، ظهرت الدعوات التبشرية في صورة غزوات ضخمة وظهر فيها اسم قسيس عرفته مصر قبل الحرب العالمية الأولى في جولاته

التبشيرية وهو «زويمر» الذي كان رئيساً لإرسالية التبشير العربية في البحرين، عاد اسمه للظهور مرة أخرى، وكثر حديث الصحف المصرية عن جرأته على الاسلام في بلده، حتى إنه ليخطب في الأحياء الوطنية التي لا يسكنها إلا المسلمون، حاثاً الناس على اعتناق النصرانية وبدأ المسلمون ينتبهون إلى ما يهددهم من خطر، فكتب محمد عبد الله عنان في صحيفة «السياسة» منبهاً إلى مؤتمر المبشرين الذي انعقد سنة ١٩٢٩ ببيت المقدس في قلب العالم الإسلامي وتحت سمعه وبصره، لافتاً النظر إلى أن كنيسة روما قد خصصت ملايين الجنيهات لشد أزر المجهودات التبشيرية وتنصير المسلمين، كما نبه إلى سياسة فرنسا في المغرب التي تجري على فصل البربر عن العرب وإخراجهم من العالم الاسلامي، وألغت تدريس الدين واللغة العربية في مناطق هذه القبائل، وهي تزعم أنها دولة لا دينية، ونبه الكاتب كذلك إلى جهود البعثات التبشيرية في السودان وقال إنها تجد تشجيعاً من الانجليز.

وقد صور الدكتور هيكل التطور الذي حدث في تعليقه على كتاب «وجهة الاسلام» الذي نشره «جب» سنة

١٩٣٢ ، فقال: إن الذين درسوا في أوربا كانوا هم رسل الحضارة الغربية الداعين إليها ، ظناً منهم أن ذلك هو السبيل إلى نهضتها ، وإن هؤلاء الشباب قد تفتحت أعينهم على حقيقة الأمر بعد الحرب ، فقد أدركوا أن كل ما بذلت الشعوب العربية من تضحيات لم يكن إلا في سبيل الاستعمار ، وأدركوا أيضاً أن الدول الأوربية التي تزعم أنها قد تحررت من التعصب الديني هي دول متعصبة تعصباً مسيحياً ، لم تنس معه الحروب الصليبية حتى إن قائداً كبيراً من قوادهم وهو « اللنبي » قال يوم استولى على القدس. « إن الحروب الصليبية قد انتهت اليوم » ، ثم إن الدول الأوربية شملت بحمايتها الجماعات التبشيرية المنبثة في كل مكان . وعند ذلك غضب هذا الشباب لاسلامه .

ومقدمة هيكل لكتابه (في منزل الوحي)[1] من أوضح الأمثلة على هذا التطور ، فهو يرد على صحبه الذين يقولون: إنه أصبح بعد تأليفه (حياة محمد) رجعياً وكان في طليعة المجددين فيقول: « ولقد خيل إلي زمنا كما لا يزال يخيل إلى أصحابي أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية سبيلنا إلى

---

(١) طبع الكتاب سنة ١٣٥٦ (١٩٣٦) بعد ظهور كتابه (حياة محمد) بعام واحد ويصف فيه رحلته إلى الحجاز لأداء فريضة الحج.

هذا النهوض، وما أزال أشارك أصحابي في أنا ما نزال في حاجة إلى أن ننقل من حياة الغرب العقلية كل ما نستطيع نقله، ولكن أصبحت أخالفهم في أمر الحياة الروحية، وأرى أن ما في الغرب منها غير صالح لأن ننقله، فتاريخنا الروحي غير تاريخ الغرب، وثقافتنا غير ثقافته، خضع الغرب للفكر الكنسي على ما أقرته البابوية المسيحية.. كيف نستطيع أن ننقل ثقافة الغرب الروحية لننهض بهذا الشرق وبيننا وبين الغرب في التاريخ وفي الثقافة الروحية هذا التفاوت العظيم؟ لا مفر إذن من أن نلتمس في تاريخنا وفي ثقافتنا وفي أعماق قلوبنا وفي أطواء ماضينا هذه الحياة الروحية».

وبدا أن هناك وعياً اسلامياً جديداً قد استيقظ في نفوس المسلمين[1] وجذب هذا التيار كثيراً من كبار الكتاب، فظهر كتاب (على هامش السيرة) لطه حسين سنة ١٩٣٣، وظهر كتاب (حياة محمد) لهيكل سنة ١٩٣٥ وكتاب (عبقرية محمد) للعقاد في نفس الوقت، وتوالت الكتب الاسلامية بعد ذلك.

---

(١) راجع الاتجاهات الوطنية جـ٢ ص١٤٥- ١٦٠.

والحقيقة أن كتاب (حياة محمد) لهيكل يعتبر من أوائل الدراسات الجادة في أدبنا المعاصر التي تمثل التشكيل الجديد للسيرة. ولكن إلى أي حد يبتعد الكتاب عن منهج السيرة لابن هشام وعن الدراسة التاريخية أو إلى أي حد يقترب من مناهج السيرة الفنية؟ يقول المؤلف في مقدمته (إنني أجري في هذا البحث على الطريقة العلمية الحديثة وأكتبه بأسلوب العصر، وإنني أفعل ذلك لأنه الوسيلة الصالحة في نظر المعاصرين لكتابة التاريخ وغير التاريخ من العلوم والفنون، وما كان لي وذلك شأني، أن أتقيد بنهج الكتب القديمة وأساليبها وبين هذين وبين النهج والأساليب في عصرنا الحاضر بون عظيم، أيسره أن النقد في الكتب القديمة لم يكن مباحاً بالقدر الذي يباح به اليوم، وأن كثرة الكتب القديمة كانت تكتب لغاية دينية تعبدية على حين يتقيد كتاب العصر الحاضر بالمنهج العلمي والنقد العلمي.. وما أشك في أن التعمق في البحث يكشف عن أسرار كثيرة ظن الناس زمناً أن لا سبيل إلى تعليلها علمياً، ثم إذا مباحث علم النفس تفسرها ».

إن المؤرخ المعاصر يعتمد على الوثائق الثابتة فيسجل الأحداث ويربط بينها ويفسرها، ولكنه لا يلجأ إلى علم

النفس ولا يستخدم نتائجه لأنها قائمة على فروض غير ملموسة. أما كاتب السيرة فيستفيد من علم النفس ويعتمد عليه في الكشف ويستغله في النجوى. والتزام المؤلف للمنهج العلمي نتيجة لطبيعة العصر من ناحية، ونتيجة لموقف بعض العلميين الذي يشككون في كل ما لا يثبت علمياً من القضايا الدينية فهو يصطنع هذا المنهج الذي يبدأون به ليدحض حججهم أو ليرد إليهم يقينهم. ويتتبع حياة الرسول من الميلاد مناقشاً بعض الأمور كشق الصدر والعنكبوت والحمامة ثم ينتقل إلى الاسراء والمعراج فيقرر أن العلم الحديث يقرها على أن تكون الشخصية كشخصية الرسول تسمو عن ماديات الحياة وبمثل هذا المنهج يسير مع حياة الرسول إلى النهاية.

ويلجأ هيكل إلى تجاربه الخاصة وهي خاصية قصصية استغلها كتاب السيرة فيعرض لموقف الرسول حين دخل بيته والتراب على رأسه بعد أن اعترضه سفيه من قريش، فقامت إليه ابنته فاطمة تغسل عنه التراب وهي تبكي (وليس أوجع لنفوسنا من أن نسمع بكاء بناتنا، فكل دمعة ألم تسيل من مآقي البنت قطرة حمم تهوي على قلبنا فينقبض انزعاجاً). ويلجأ المؤلف إلى الحوار يخفف به حدة الدراسة

مثل الحوار بين خالد وعكرمة حين أسلم خالد. كما لجأ إلى الروح القصصي في بعض المواقف. فحين فرت القبائل المسلمة يوم حنين، يتحدث عن الرسول قائلاً: (ماذا تراه يصنع؟ أفتنحى عنه ربه وتخلى عنه نصر الله؟ كلا. لن يكون هذا. دون هذا تبيد أمم وتفنى أقوام. ودون هذا الموت يدخل محمد في غماره لعل في الموت لدين الله نصرا). وهكذا نستطيع أن نقول في النهاية أن «حياة محمد» يمثل مرحلة في تطور تاريخ الشخصيات وتحولها إلى سيرة لها خصائصها الفنية في أدبنا الحديث.

وفي نفس الوقت كانت محاولة طه حسين في كتابه (على هامش السيرة) وهي محاولة أكثر أصالة في فن السيرة الأدبية، فقد اصطنع المنهج الروائي وتبعه من بعد نفس المنهج عبد الرحمن الشرقاوي في كتابه «محمد رسول الحرية» وعبد الحميد السحار في كتابه «محمد رسول الله والذين معه» ومحمد شوكت التوني في كتابه «محمد في طفولته وصباه» ومعروف الأرناؤوط في كتابه «سيد قريش» وبنت الشاطىء في كتابها «مع المصطفى» وغيرهم.

يقول طه حسين في مقدمة (على هامش السيرة) موضحاً منهجه الفني «وأحب أن يعلم الناس أني وسعت على نفسي

في القصص ومنحتها من الحرية في رواية الأخبار واختراع الحديث ما لم أجد بأساً إلا حين تتصل الأحاديث والأخبار بشخص النبي أو بنحو من أنحاء الدين، فإني لم أبح لنفسي في ذلك حرية ولا سعة».

ويقول السحار في تذييل كتابه (محمد رسول الله): «فأعجبتني طريقة الدكتور في السرد، وجعلتني أعيش بكل جوارحي في ذلك العصر الذي استطاع الدكتور طه ببراعته أن يجعله ينبض بالحياة، اخترت أن أكتب السيرة بأسلوب قصصي، وأنا على علم بما يعانيه كاتب التاريخ من مشقة إذا حاول أن ينهج في كتابه نهج القصة، فإنه سيشقى في سبيل دراسته أشخاص السيرة دراسة دقيقة ليبرز ملامحها وجوانبها، وسيبذل كل الجهد لتصوير الحياة اليومية والمعتقدات والديانات السائدة بأدق تفاصيلها وتفاعل الشخصيات مع البيئة، والاعتماد على الخيال في سد الثغرات والفجوات التي تعترض التسلسل الزمني، على أن يتناسق الخيال مع المادة التاريخية ليبرز جوهر الحقيقة ويعين على استقراء الأحداث لتوفير التسلسل المنطقي حاولت جهدي أن أحافظ على الحقيقة التاريخية، فما من حادثة دونتها إلا

ولها سند، وقد محصت الروايات المختلفة وأخذت أقربها إلى المنطق وروح الدعوة »[1].

ومن الواضح أن المنهجين متشابهان فقد لجأ كل منهما إلى الحوار في كثير من المواقف بدلاً من المادة التاريخية الصلبة والعرض الروائي وملء الثغرات بالاستنتاج التاريخي، لأن كاتب السيرة يسير حقيقة على حافة السكين، فإن أعمل الخيال كان عمله قصة تاريخية، وإن ترك الاسلوب الروائي كتب تاريخاً. وهذا المنهج فى الحقيقة صاحبه الكاتب الانجليزي « ستريتشي » طبقه في سيرته عن الملكة فكتوريا وتأثر به الفرنسي «أندريه موروا » فطبقه في سيرة عن الشاعرين شيلي وبيرون والروائي دكنز والسياسي دزرائيلي.

وإذا استعرضنا هذا اللون وجدنا الأمر هنا يختلف عن السيرة الموروثة لا من حيث تخليصها من الإسناد وحسب، فتلك ظاهرة شكلية، ولكن السيرة الجديدة قدمت لنا المشاهد والحوار والأبطال واضحين، يمثلون جوانب الخير والشر، وتتشابك الأحداث تشابكاً طبيعياً، في بيئة مجسمة بأرضها وسمائها وجبالها وعاداتها وتقاليدها وخلق أهلها

---

(١) محمد رسول الله- ص ٢٣٦

وطباعهم كل هذا من خلال السيرة نفسها ليست المسألة إذن مسألة اسناد، ولكن ما يستتبع ذلك من أخبار تجزأت هناك، وتكاملت هنا، ومن هنا ندرك أبعاد الشخصيات ونحس بما يضطرب في نفوسها وما يسيطر على عقولها فتتحرك وتتطور كل ذلك من خلال تتبع حياة الرسول صلوات الله عليه.

وإذا حاولنا أن ننظر إلى أحد المواقف لنرى كيف تناولته هذه الكتب المحدثة وجدنا نصاً دالاً للشرقاوي، والموقف هو النذر الذي نذره عبد المطلب وأراد تحقيقه بذبح ولده عبد الله، فهو موقف بطبيعته يصلح للدراما وقد رواه طه حسين من خلال حوار قصصي. ومن المؤكد أن الدموع قد سالت من أعين كثيرة وأن كثيراً من الحوار قد دار في مكة حين هم عبد المطلب بذبح ولده عبد الله وإن الاحتكام إلى الكاهنة كان نتيجة مشادة وحوار، ومن هنا كانت الصياغة الروائية هي الإطار لذلك الأساس التاريخي. أما الشرقاوي فقد استخدم «النجوى» ليعمق الموقف أو يوضح جزئياته. وقد تخلص الشرقاوي من أسلوب السرد المطول الذي لا يدل في كثير من الأحيان إلا على مقدرة أسلوبية أما «النجوى» فهي على مدى السيرة عنصر

بناء ونمو.

(ها هو ذا يستقبل الحياة مرة أخرى بعد نضال طويل مع المصير لكأنه يولد فجأة من جديد، بكل فتوته وأشواقه وأحلامه وقامته المديدة وصوته الطيب المفعم وأمله المعذب في الخلاص) بهذه البساطة رسم لنا الشرقاوي خطوطاً عامة لملامح عبد الله، ثم يتضح عنصر «النجوى» في الجزء التالي: (أية مقاومة يملكها فتى مثله أمام كل هؤلاء الأرباب؟ أيملك عبد الله بن عبد المطلب أن يطلق صرخة احتجاج على هذه القوى التي تحرس الكعبة منذ القدم والتي ما يزال يمتثل لها- مع أبيه- كل الملأ من قريش؟ على أن المصادفة أنقذت حياته على أية حال بعدما أوشك دمه أن يسيل تحت أقدام تماثيل الآلهة الرهيبة التي تجرؤ على أن تحرم فتى في مثل سنه وعنفوانه من طيبات الحياة، وأنه الآن ليتشبث بيد أبيه عبد المطلب، ليمضي معه إلى الدار بعد أن وهب الحياة مرة أخرى، وكأنه يوسف الذي سمع قصته فيما سمع من قصص الغابرين خلال رحلاته مع القوافل لكأنه يوسف يرتمي في أحضان أبيه الصابر المضنى ليستمتع بدفء الأبوة بعد طوافه الطويل

المشرد في أرض الغربة)[1]. الصراع هنا واضح في نفسية الفتى. فالمصادفة وحدها هي التي تخط أقدار الرجال ومن ورائها تمثال مناة، آلهة بلا قلب تملك القضاء. فهل يملك أن يقاوم؟ ولا شك أن عبد الله لم يكن وحده يحاول الإجابة عن هذا السؤال. ولا شك أن التمرس بالرواية تمكن كاتب السيرة من تشكيل حياة شخصياته داخل هذا الإطار بل تغريه إغراء باختياره. إنها قصة واقعية سجل التاريخ وقائعها، وأعادت السيرة تصوير أفعالها. وقد لجأ الشرقاوي أيضاً إلى نجوى الذات، حين عرض لموقف الرسول من المجتمع المكي بما فيه من استبداد القوي بالضعيف وفساد يستشرى في صورة عبادة الأوثان وترف المترفين وذل العبيد. وخوض الناس حتى الأذقان في الخطيئة مما يكاد يستحيل معه الاصلاح. وهو مضطر إلى هذه النجوى. فليست أمامه الوثائق التي ترسم صورة مفصلة لضيق الرسول بكل ذلك. وإن كنا نعرف إجمال هذا الضيق ولكن الكاتب هنا لا يدع الفرصة تمر دون التركيز عليها واستغلالها من أجل تطور السيرة. سوف نناجي أنفسنا نحن

(١) محمد رسول الحرية- ص ٧

أيضاً ونغضب لغضب الرسول ونؤمن إيمانه بتغيير المجتمع المتفسخ وبناء مجتمع العدل والهداية والفضيلة. وبذلك تؤدي النجوى دورها المرسوم حين يقول:[1] «التجار في مكة هم حماة أوثان الكعبة التي تقضي لهم بإذلال الآخرين، أما في الشام فالأمر مختلف، هناك المسيحية: فما بال الرجل يلطم أخاه على كل خد ويأخذ ما ليس له، وما بال المستكبرين هم وحدهم الذين يستمتعون بالحياة كأنما هي ملك لهم وحدهم وما بال الخيرين يحترقون في كبرياء الأشرار؟ ولكن الحياة ليست هي البيت الذي يعيش فيه الرجل. ليست هي- فحسب- الزوجة المحبة الصالحة ولا الأولاد الذين يملأون القلب بالرضا. إن الأمن ليعمر البيت، هذا حق. ولكن الحياة من خارج بابه تضطرم بما يمزق القلب المطمئن. عالمك العريض الذي تعيش فيه لا هدوء فيه بعد، ولا شيء منه تطيب له النفس». فهو هنا قد حول الأفكار إلى كلمات ثم عاد فحولها إلى انفعالات تتخذ بصورة مجسدة- وهكذا لم تغفل أعيننا عن شخصية صاحب السيرة لحظة واحدة وذلك بخلاف منهج آخر قد يلجأ

---

(١) ص ٢٩.

إليه الكاتب فيذكر مثلاً أن الوضع في الجزيرة العربية كان منهاراً بدليل كذا ، فهنا يبعد الكاتب عن شخصية صاحب السيرة ويقودنا إلى سجلات التاريخ وفضلاً عن الاسلوب التقريري الجاف حدث الانفصال بين القارئ وبين شخصية صاحب السيرة وأصبح الربط بين الوضع الاجتماعي وبين أعمال صاحب السيرة لتغيير هذا الوضع ربطاً خارجياً ليس نابعاً من الداخل.

أما النموذج الثالث للتشكيل الجديد فهو « العبقريات » للعقاد،ويذكر العقاد في تقديمه « لعبقرية محمد » أنه قبل نشر السيرة بثلاثين عاماً ، جرت مناقشة اشترك هو فيها حول كتاب « كارليل » وإن المتناقشين قد أكبروا كارليل الذي أنصف الرسول ، واستقر رأيهم على أن الأولى بواحد منهم أن يكتب سيرة محمد. وقد تأثر العقاد بمذهب كارليل ، تأثره بالنزعة الروحية في تفسير التاريخ بالشكل الذي يبدو واضحاً في عبقرياته. وهو يذهب إلى أنه في كتابة سيره يهدف إلى رد الاعتبار للجانب الروحي الخالد في مقابل لوثة المادة ومهانة الانكار العقيم. وكارليل يعدد صفات محمد عليه السلام فيراه مخلصاً أميناً عزوفاً عن السلطان ونعيمه ،

شجاعاً في الحروب ولكنه يؤثر السلم على الحرب، رحيماً حتى ليبكي على قبر صاحب أو يغفر عمن أساء إليه ولكن مفتاح شخصيته هو رؤية بواطن الأمور، لا يحجب ذلك عنه حجاب والمقدمات تلقي الأضواء على منهج الكتاب، ومن أجل هذا نتوقف أمام مقدمة العقاد حيث يقول: «فسيري القارئ أن عبقرية محمد عنوان يؤدي معناه في حدوده المقصودة ولا يتعداها فليس الكتاب سيرة نبوية جديدة تضاف إلى السير العربية والأفرنجية التي حفلت بها المكتبة المحمدية حتى الآن؛لأننا لم نقصد وقائع السيرة لذاتها في هذه الصفحات.. إنما الكتاب تقدير لعبقرية محمد بالمقدار الذي يدين به كل إنسان ولا يدين به المسلم وكفى».. معنى هذا أنه لا يكتب سيرة بالمعنى التقليدي، أي أنه لا يتتبع حياة الرسول من البداية إلى النهاية ولكنه يتخذ منهجاً آخر تعترف به تشكيلات السير، هو منهج الاختيار في حدود الفكرة التي حددها. فالرسول عظيم في دعوته الدينية عظيم في قيادته العسكرية، عظيم في سياسته وإدارته، عظيم في أبوته. «فعبقرية محمد» فصول مستقلة يجمعها رابط منهجي وتسير كلها إلى هدف واضح. وعلى الرغم من منهجية

العرض، فنحن نحس أن العقاد يكتب وهو منفعل جياش الشعور في كل فقرة. وهو يريد أن يجلو العظمة الانسانية كما يفهمها البشر في حدود المادة الموثوق بها، وبهذا الاستناد إلى حقائق التاريخ والاعتماد على طبائع الأشياء، يرسم العقاد إرهاصات النبوة، بلا استعانة بما هو ليس في حاجة إليه مما يؤمن به المؤمنون عن تسليم ويتلقاه المحبون في تعاطف ومودة، فهو يخاطب عقولاً يتخيل في كل كلمة انها تناقشه وتسأله الحساب، ولا تقبل فيه إلا ما يسيغه العقل، فيروح في حماسة وإخلاص يقيم الدليل والحجة بعد الحجة على صحة ما آمن به من رسالة محمد، حتى لتغدو آخر الأمر ضرورة حتمية تتطلبها طبيعة الأشياء، وتسوق إلى حدوثها مجريات التاريخ. وهكذا رسم العقاد شخصية محمد كما فهمها وأحسها، وقد امتزجت في شخصيته النبوة والرجولة والانسانية، كل منها كاملاً غير منقوص، وكل منها في أجمل مظاهره وأكمل نواحيه، فغدا مزيج هذا كله عبقرية خالدة للنفس البشرية المتكاملة، النفس التي ترسم بتصرفاتها منهاجاً يحتذى»[1].

(١) محمد (فاروق خورشيد وأحمد كمال زكي) ص ٢٢

وهذا التشكيل هو أقرب التشكيلات إلى الصور الجانبية، فالكاتب ينتقي جوانب معينة كلها تتجمع في النهاية وتترابط لتشكل قطاعاً من الشخصية ولعل مفتاح الشخصية هو مركز التجمع ومحور الترابط بين هذه الجوانب، وعبقرية محمد في ضوء هذا المفهوم تعتبر من السير التحليلية، فالعقاد لا يقوم بعملية تركيبية مثل كتاب السيرة، ولكنه يحلل كل صورة يقف عندها، فمن المعروف أن الرسول- على سبيل المثال- قاد أكثر من معركة حربية فلا يجيء العقاد هنا فيسرد ما قيل في الموضوع، ولكنه يعمد إلى تحليل عبقرية الرسول الحربية فيتوقف أمام طريقته في اختيار المكان أو اختيار رئيس الفرقة وتزويده بالوصايا، ويكشف عن خبرته في الاستطلاع وتجنيده لكل قوة في يديه سواء أكانت قوة رأي أو قوة لسان أو قوة نفوذ.

وهذا التشكيل يمنح الكاتب حرية أكبر لأنه يستخدم في التحليل ثقافته العامة، وإن كانت هذه الحرية مقيدة بخدمة الموضوع، غير أن التشكيل الروائي أقرب إلى روح السيرة من حيث تركيب الشخصية كاملة.

أما النموذج التالي للتشكيل الجديد، فهو بالضرورة التشكيل المسرحي ما دمنا قد ذكرنا التشكيل الروائي. وفي

هذا اللون نجد « محمد » لتوفيق الحكيم « والزيتونه » لخالد الشواف. يقول الحكيم في مقدمة المسرحية: « ولقد قصد بوضع هذه السيرة عام ١٩٣٦ في قالب الحوار المحافظة على الصور التاريخية والحرص على ابرازها من واقع الحديث التاريخي نفسه، كما جرت من الألسنة طبقاً لنصوص الكتب المعتمدة » ولا شك أن اتجاه الحكيم إلى كتابة المسرحية وتمكنه من أصولها وفنيتها هو الذي حدد الشكل الذي عالج به سيرة الرسول. فالمقصود إذن إعادة كتابة السيرة مرة أخرى بطريقة عصرية جديدة وبشكل أدبي لم تكتب به من قبل وقد نجح الكاتب في عرض هذه السيرة عرضاً حوارياً، ففيها من التشويق والاقناع ما يؤكد ذلك والحكيم الفنان قد أحس إحساساً عميقاً بمحمد الانسان يقف ثابتاً قوياً أمام كل الأحداث المثبطة المعوقة فيتغلب عليها بقوة إيمانه وجده وصبره، شخصية الداعية الصابر هزته فعبر عنها. والحكيم الكاتب الدرامي قد بهره ما في المعجزة من خصوبة فعبر عنها، وهناك جوانب معينة ركز توفيق الحكيم الأضواء عليها أكثر من غيرها- بعد شخصية الرسول- مثل أحداث الموت، موت عم الرسول وولده، فالموت هز الحكيم نفسه، كذلك العلاقة بين الرسول والانسان وبين زوجاته،

وقد وجد في السيرة من صور البطولة ومن صور الإيمان ما انفعل به.

وهكذا استطاع الحكيم أن يكتب سيرة ناجحة في إطار جديد، لبس ثوب المسرحية من حوار ومناظر وفصول، وأن يعبر بهذا البناء عن وقفة فنان معاصر أمام الشخصية الاسلامية الأولى. وإذا كان الحكيم قد كتب مسرحيته نثراً فإن «الشواف» الشاعر قد كتب مسرحية شعرية. والواقع أن الحكيم بمقدرته الفنية استطاع الامساك بالمواقف الدرامية المثيرة مثل موقف أبي سفيان وهو يتعجب أن ينزل الوحي على محمد ويتركه وهو كبير قريش ثم وهو يدبر المؤامرة ضد الرسول. وموقف الرسول وهو يبكي يوم مات ولده ابراهيم وموقف المسلمين يبكون يوم وفاته صلوات الله عليه. ولكن الشواف يسير مع السيرة منذ بدأ الاسلام حتى تم فتح مكة وتهيأ المسلمون للخروج في جيوش الفتح إلى فارس والزوم، ونحس أننا نقرأ قصة لولا المناظر والحوار فما من موقف درامي قوي على كثرتها في السيرة النبوية، ولكنها على أية حال محاولة طيبة يمكن أن توجه شعراء المسرح إلى ما في السيرة من مواقف كثيرة تصلح أن تقدم للناس.

بقيت ملاحظة أخيرة يمكن أن يختتم بها البحث، فكما

رأينـا شعراء المهجر والمسيحـيين يحتفلون في كثير من قصائدهم بذكرى مولد محمد عليه الصلاة والسلام، نرى أيضاً بعض الكتّاب من العرب المسيحيين يتناولون سيرته مثل نظمي لوقا في كتابيه «محمد الرسالة والرسول» و «محمد في حياته الخاصة» ونصري سلهب في كتابه «في خطى محمد» ونظمي لوقا في مقدمة كتابه الأول يذكر أن شيخ القرية أقرأه القرآن على عادة الصبية في القرية، ومن هذا المنطلق بدأ يحفظ القرآن ويعجب بالرسول، وقد ترجم اعجابه بطريقة علمية فألف كتابه عن الرسول، والحقيقة أن الكتاب فيه كثير من الإعجاب والحب، وإن كان في كتاب نصري سلهب كثير من الفن في طريقة العرض، وهذه الكتب تضيف مذاقاً جديداً ورؤية خاصة.

وهكذا يتضح في النهاية أن حياة الرسول ظلت نبعاً يتدفق بالعطاء على مدى السنين، وقد أثرت في الأدب العربي الحديث شعره ونثره بنفس القدر الذي أثرت به في أدب التراث، غير أن الأدب العربي الحديث أكثر ثراء وأشد تفننـا، وإن كانـت جهود السابقـين في الجمـع والاستقصاء والفحص أكبر بكثير.

المراجع

أولاً - الشعر:

	العنوان	المؤلف	المكان	السنة
١	انت الرياض	غازي القصيبي	القاهرة	١٩٧٧
٢	أنشودة المطر	بدر شاكر السياب	بيروت	١٩٦٠
٣	الأيوبيات	رشيد أيوب	نيويورك	١٩١٦
٤	حتى يعود شعبنا	هارون هاشم رشيد	بيروت	١٩٦٦
٥	خيالات	رياض المعلوف	البرازيل	١٩٤٥
٦	ديوان أبي الفضل الوليد		بيروت	١٩٧٢
٧	ديوان بدوي الجبل	محمد سليمان الأحمد	بيروت	١٩٧٨
٨	ديوان القروي	رشيد سليم الخوري	البرازيل	١٩٥٢
٩	ديوان نداء الحق	أحمد محمد الصديق	الدوحة	١٩٧٧
١٠	الشوقيات	أحمد شوقي	القاهرة	١٩٥٠
١١	كشف الغمة في مدح سيد الأمة	البارودي	القاهرة	١٩٢٧
١٢	من أغاني البحرين	أحمد محمد الخليفة	بيروت	١٩٥٥
١٣	نار وأصفاد	محمود حسن اسماعيل	القاهرة	١٩٥٩
١٤	هجير وسراب	أحمد محمد الخليفة	بيروت	١٩٦٢
١٥	خالد الفرج	خالد سعود الزيد	الكويت	١٩٦٩

ثانياً - النثر:

	العنوان	المؤلف	المكان	السنة
١٦	الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر	محمد محمد حسين	القاهرة	١٩٥٦

١٧	حياة محمد	محمد حسين هيكل	القاهرة	الطبعة الثانية
١٨	الرسول	سعيد حوى	القاهرة	مكتبة وهبة
١٩	سيد قريش	معروف الأرناؤوط	بيروت	١٩٧١
٢٠	عبقرية محمد	عباس العقاد	القاهرة	١٩٧٧
٢١	على هامش السيرة	طه حسين	القاهرة	١٩٣٣
٢٢	في خطى محمد	نصري سلهب	بيروت	١٩٧١
٢٣	محمد	توفيق الحكيم	القاهرة	١٩٣٦
٢٤	محمد الرسالة والرسول	نظمي لوقا	القاهرة	١٩٥٨
٢٥	محمد في الأدب	فاروق خورشيد وأحمد كمال زكي	القاهرة	١٩٥٩
٢٦	محمد في طفولته وصباه	محمد شوكت التوني	القاهرة	١٩٧٨
٢٧	محمد رسول الحرية	عبد الرحمن الشرقاوي	القاهرة	١٩٦٧
٢٨	محمد نظرة عصرية	(مقالات مجموعة)	القاهرة	دار الهلال
٢٩	مع المصطفى	بنت الشاطىء	بيروت	١٩٧٢



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠ هـ

السيرة النبوية

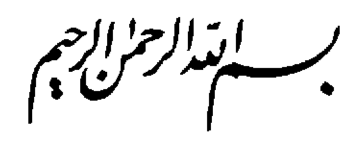
بلغة الحب والشعر

للأستاذ سعيد حوى
« سوريا »



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ



الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله واله

ربنا تقبّل منا انك انت السميع العليم.

بين يدي الكلام

يا أيها الكاتبون عن حبيبي

لا تفصلوا بين الزهور والعبير

فحبيبي ليس مثله بين البشر

فاجعلوا الحديث عنه

حديث فكر وقلب

حديث روح وحب

يأيها الباحثون في الأوحال عن كمال

رويدكم لا تتعبوا

وارتفعوا قليلا

وحدقوا المقل

في الأفق البعيد

وقلبوا النظر

فانكم واجدون الكمال

بل كمال الكمال
في بطل الأبطال
في محمد صلى الله عليه وسلم
يا أيها الباحثون عن سعادة
ياأيها الغارقون في شقاوة
الام تجهلون
علام تدبرون
دليلكم قريب
وشأنه عجيب
إنه الانسان
إنه محمد صلى الله عليه وسلم.
يا أيها الكاتبون عن حبيبي
اجمعوا وانتم تكتبون
بين عبير الفكر
ورحيق الزهر
وروعة البيان
وسحر اللسان
فان حبيبي سيد الأكوان
سماحة نفسى كروح الصّبا

ورقة طبع كعهد الصّبا
وحسن بيان كزهر الربا
وروعة خلق كبيض الظبا
فمن ذا يساميه في العالمين؟
من أي النواحي يفيه المقال
وقد جمع الله فيه الكمال
وألف فيه فنون الجمال
وألقى عليه رداء الجلال
ففاق الملائك روحا ونفسا
ورقت حواشيه لطفا وأنسا
وحاز الكمالات طهرا وقدسا
فمن ذا يقول؟ ومن ذا يبين؟
فياأيها الكاتبون
املأوا القلب ببرد اليقين
وأطلقوا الاشواق في الآفاق
وأنطقوا الأكوان بالاشواق
فلغة الحب أقوى
ولغة العقل أبقى
فليكن عقل وحب

المقدمة:

كثر الكلام في عصرنا - وذلك طيب - عن رسولنا عليه الصلاة والسلام وتكلم الكثيرون مسلمون وغير مسلمين عنه عليه الصلاة والسلام وذلك شيء طيب، ولقد صدر كتاب قريب عن كاتب غير مسلم يجعل فيه رسولنا الصلاة أعظم رجل أثر في أحداث التاريخ

ولكن أكثر ما انصب الكلام عليه في هذا الشأن لا يخرج عن كونه إما عرضا لأخباره وإما تدليلا على رسالته، وأما تحليلا لبعض أحداث هذه السيرة وكل ذلك طيب، ولقد كتبت كتابي ((الرسول)) وكنت فيه واصفا لشخصيته عليه الصلاة والسلام ومبرهنا على أنه رسول الله حقا، أقول هذا لأنفي أن يكون احتراسي هنا نوع نقد لجهد بذله إنسان لتجلية شيء له صلة برسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولكن هناك شيء آخر يحتاجه الكلام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

فلئن كان الاخبار والتحليل والتدليل قضايا لابد منها فإن هناك شيئا آخر لابد منه ولا بد من الإشارة إليه ولابد من ذكره ولابد من تبيانه.

هذا الشيء يأتي وراء المعرفة ووراء حديث العقل ذلك هو حديث الحب والوجدان

إن هناك المرحلة التي يتعرف بها العقل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتعرف بها على شخصيته وعلى رسالته، وهي مرحلة تنقدح بها مباشرة شرارة الايمان في القلب لتنقلب المعرفة الى محبة ووجد وعندئذ توجد لغة جديدة وعوالم جديدة وآفاق جديدة ينظر بها المسلم الى شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحداث سيرته وأحداث العالم كلها على ضوء ذلك.

إن المسلم مطالب بمعرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعض المسلمين مطالبون بالقدرة الواسعة على التحليل والتدليل وهناك شيء وراء ذلك يطالب به كل مسلم هو الحب.

إن التذكير بهذا هو الذي دعاني الى أن أكتب هذا البحث مذكرا أن الكتابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبغي أن تكون بلغة العقل وبلغة العاطفة وأن ذلك واجب مسلّم، وإن ذلك لا ينفي الكتابة الموضوعية عن شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لقد كثر الكلام عن موضوعية الابحاث التي يراد بها الطريقة العلمية في البحث والعرض وأصبحت الموضوعية في كثير من الأحيان تعني الحياد والتجرد والموقف الجاف البارد من القضية المعروضة. وهذا إذا صح في الكلام عن الاشياء فانه يصطنع في الكلام عن الأحياء، والمسلم يأباه وهو يتحدث عن الحق؛ فهو لا يستطيع أن يتكلم بلغة باردة أو محايدة ولكنه يتكلم بحرارة الحب وكهربائية الاخلاص، وهو في هذا كله على منتهى الموضوعية والعلمية والعقلية فهو على علم وعقل وموضوعية ولكنه في الوقت نفسه مؤمن تجاوز مرحلة التصديق الى مرحلة التفاعل والدعوة الى الحق الذي يعتقده.

ذلك شأنه في قضية الحق كلها وفي قضية رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنه في كثير من الاحيان قد توجد المعرفة مصحوبة ببرود العاطفة ولكن معرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم تقتضي إيمانا، والايمان يقتضي حبا. وبالتالي فإن المسلم الحق اذا تكلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لا يستطيع أن يتكلم إلا بلغة العقل والحب.

واذا وجد مسلم لا يجتمع له حرارة العاطفة مع تصديق العقل فإنه مريض.

وإذا وجد مجتمع اسلامي لا تجتمع له حرارة التصديق وحرارة العاطفة فإنه مجتمع مريض وعلى الأطباء أن يعالجوه.

فحيثما وجد إيمان برسول الله «ﷺ» فإنه لا بد أن يوجد حب. والحب دائما يعبر عن نفسه بلغة الشعر، ومتى وجد الشعر وجد الحداء والغناء والانشاد. وهكذا كان.

عبر المسلمون عن كل شيء له صلة برسول الله «ﷺ» بلغة الحب، وعبروا عنه بلغة الشعر، وترنموا بهذا الشعر. بدأ ذلك في حياة رسول الله «ﷺ» ولا زال.

فحدا الحداة، وتغنى المغنون، وأنشد المنشدون، وأصبح كل شيء له صلة برسول الله «ﷺ» محل وجد، والأرض التي وطئها، والأعمال التي عملها، والأقوال التي قالها، والأيام التي عاش فيها.

والشعر بطبيعته يعتمد المجاز والاستعارة والكناية والرمز، ولغة العاطفة بطبيعتها غير لغة القانون، وكثيرا ما تجر لغة الشعر الى مبالغات في الخيال او شطحات في الفكر يتجاوز معها صاحبها الحدود، يكون ذلك في كل شيء وقد كان ذلك في الشعر الذي تحدث فيه أصحابه عن رسول الله

« ﷺ » حتى في حياته ترى ذلك في قول القائلة أمام رسول الله « ﷺ »: وفينا نبي يعلم ما في غد.

مما جعل رسولَ الله « ﷺ » يقول لها: (دعي هذا وقولي بالذي كنت تقولين)

وهكذا وجد الشعر ووجد الخطأ ووجد رد الفعل. وتوضحت حول هذه الأمور معان وقامت معارك ونشأت عادات، وبسبب من لغة الشعر والحب. وجدت فكرة عرض السيرة بلغة الحب والشعر، فوجدت فكرة المولد النبوي وقامت حولها معارك وكل ذلك دعانا الى كتابة هذا البحث الذي سنكتب فيه مجموعة فصول.

الفصل الاول: في فرضية حبه عليه الصلاة والسلام.

الفصل الثاني. عندما ينقص الحب او يضعف او يموت

الفصل الثالث: في محل الشعر والغناء في تكوين العواطف وما هو الحكم الشرعي في الشعر والغناء

الفصل الرابع: في استماع النبي « ﷺ » الشعر وإنشاده في المسجد

الفصل الخامس: في بعض ما تمثل به النبي صلى الله عليه وسلم من الشعر

الفصل السادس الشعر في خدمة المعركة

الفصل السابع: فيما يحمل عليه ما ورد في ذمّ الشعر او النهي عنه او النهي عن الترنم فيه

الفصل الثامن: السيرة بين لغتين: لغة الرواية ولغة الشعر ونماذج على ذلك

الفصل التاسع: في خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم بعد وفاته

الفصل العاشر: في الرمز

الفصل الحادي عشر: مهمة العلماء: التصحيح الرفيق لا الرفض المطلق للغة الحب والشعر.

الفصل الثاني عشر: في إحياء المناسبات.

الفصل الثالث عشر: في معركة المولد.

الفصل الرابع عشر في الحذر من أخطاء المحبين والشعراء.

الفصل الخامس عشر: في الأسباب الحاملة على كتابة هذه الفصول.

فصل: في فرضية حبه عليه الصلاة والسلام

أخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: ((ثلاث من كن فيه وجد بهن طعم الإيمان: من كان الله ورسوله أحب اليه مما سواهما، ومن أحب عبدا لا يحبه الا لله، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار)).

وأخرج البخاري ومسلم والنسائي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده، وولده والناس اجمعين)).

وللنسائي في رواية: ((حتى أكون أحب إليه من ماله وأهله والناس أجمعين)). وأخرج البخاري والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من ولده ووالده))

وقال تعالى: ((قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون

كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين)) لاحظ قوله تعالى: ((أحب إليكم من الله ورسوله)).

وأخرج الترمذي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه وأحبوني لحب الله إياي...» أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس وقال عنه حسن غريب.

من هذه النصوص ندرك ان محبة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فريضة وأن هذه المحبة ليست محبة عقلية فحسب بل هي محبة عاطفية، فالانسان يحب ابنه وأهله ووالده ونفسه ليس مجرد حب عقلي بل هناك شيء وراء ذلك، والمسلم مطالب بأن يحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أكثر من ماله وولده وأهله وعشيرته ومسكنه وتجارته ونفسه تلك فريضة من فرائض الله على الانسان.

فصل: عندما ينقص الحب أو يضعف أو يخمد أو يموت

وفي الصحيح من حديث عبد الله بن هشام: قال عمر: يا رسول الله لأنت أحب اليّ من كل شيء الا نفسي فقال: لا

والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك. فقال عمر: فأنت الآن والله أحب اليّ من نفسي . فقال: الآن يا عمر.

من هذا الحديث تدرك أن الانسان إذا آنس من نفسه ضعف محبة، أو آنس غلبة محبة شيء آخر على حب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فعليه أن يداوي نفسه، وإذا كان هذا واجب كل مسلم فإن واجب العلماء والدعاة والمربين أن يفطنوا لهذا الأمر، وأن يعرفوا كيف يربونه ويوجدونه، وأن يوجدوا الأجواء التي تساعد عليه، ولعل أصل الاجتماع على الانشاد وعلى ذكرى المولد كان الهدف منه مثل ذلك، ولذلك فطن ابن تيمية رحمه الله الى ما يترتب على الاجتماع على المولد من إثارة لمثل هذه العواطف فاعتبر أهل ذلك من أجل ذلك مأجورين وإن كان أصل الاجتماع على المولد لم يفعله السلف (ولنا عودة الى هذا الموضوع).

والمهم أن تعرف أن على كل مسلم أن يبذل جهدا لتحقيق هذه الفريضة وأن على الدعاة والمربين والعلماء أن يضعوا هذا نصب أعينهم لتبقى شعلة الحب في القلب متقدة.

فالإيمان تصديق يستتبع أشياء كثيرة بعضها الحب.

فصل: في محل الشعر والغناء في تكوين العواطف وما هو الحكم الشرعي في الشعر والغناء

إنه لا شيء يؤثر في تشكيل العواطف مثل الشعر الغناء، لأن النفس البشرية اكثر تفاعلا مع الشعر وهي تستقبل الغناء باسترخاء فتدخل اليها المعاني وتتفاعل معها بلا مقاومة.

ومن ثم وجد الشعر في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم - ووجد الحداء والانشاد، وفي بعض الحالات سمع رسول الله «ﷺ» الغناء من جُوَيْرِياتٍ وسمع أصحابه كذلك.

وفي مسيرة المسلمين التاريخية فصل بين الغناء والانشاد فأصبح سماع الغناء.وخاصة الذي يرافقه الموسيقى علما على أهل المجون، وأصبح سماع الانشاد علما على ترخص أهل الفضل. واستعمل الانشاد في كثير من دوائر الاسلاميين كوسيلة لتربية العواطف الخيرة، أو لتهييج عواطف الوجد الراقية.

وقد لخص الشيخ محمد الحامد رحمه الله أقوال الفقهاء في الغناء فقال:

أما ما يحل وما يحرم فإليك خلاصة ما قاله الفقهاء فيه:

يباح الغناء إن كان لبعث الهمة على العمل الثقيل أو لترويح النفس أثناء قطع المفاوز كالارتجاز، فقد ارتجز النبي وأصحابه صلى الله عليه وسلم في بناء المسجد وحفر الخندق، وكالحداء الذي يحدو به الأعراب إبلهم وكالشعر السالم من الفحش ووصف الخمر وحاناتها والتشبيب بامرأة حية معينة، والخالي أيضا من هجاء مسلم أو ذمي، فإن الغناء بهذه المحترزات حرام.

فإن كان التشبيب بغير معيَّن جاز فقد أنشد كعب ابن زهير بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم:

وما سعاد غداة البين اذ رحلوا
الا أغن غضيض الطرف مكحول
تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت
كأنه منهل بالراح معلول.

وقد سمع النبي صلى الله عله وسلم أيضا قصيدة حسان التي أولها:

تبلت فؤادك في المنام خريدة
تسقي الضجيع ببارد بسام

ومن هذا النوع المباح غناء النساء لينام الصغار.

ومنه الغزل البريء مما ذكرناه كالذي يقوله النساء في الأعراس ولا رجال يسمعونهن فقد أذن النبي «ﷺ» أن يقلن:

أتيناكم أتيناكم فحيانا وحياكم

ومنه الزهريات المجردة، مما فيه وصف الرياض والرياحين والأزهار والأنهار المطردة، فهذا كله جائز إن لم يقل على آلة لهو محرمة فان قيل عليها كان محظورا ولو وعظا وحكما لمكان الآلة لا لذات التغني بالمباح.

وإذا كان غناء المتغني في خلوته لدفع الوحشة عن نفسه ففيه اختلاف الفقهاء، أجازه فريق بغير كراهة لأنه ليس على سبيل اللهو احتجاجا بما روى أنس بن مالك أنه دخل على أخيه البراء بن مالك وكان من زهاد الصحابة فوجده يتغنى، وكرهه آخرون وحملوا تغنيه على إنشاد الشعر المباح الذي فيه حكم ومواعظ وليس بمعناه المشهور، فهو كالذي في قوله عليه الصلاة والسلام (ليس منا من لم يتغن بالقرآن).

وقد قسم الغزالي السماع الى محبوب كما اذا غلب على

السامع حب الله تعالى ولقائه ليستخرج به أحوالا من المكاشفات والملاطفات، والى مباح كأن كان عنده عشق مباح لزوجته او لم يغلب عليه حب الله تعالى ولا الهوى، والى محرم بأن غلب عليه هوى محرم.

وخالفه سلطان العلماء الشيخ عز الدين بن عبد السلام فيمن لم يغلب عليه حب الله تعالى ولا الهوى فحكم بكراهة السماع في حقه.

وهذا التفصيل كله فيما إذا لم يكن الغناء لرجل من امرأة أجنبية إذ يحرم عليه سماعه منها لأن صوتها عورة. وقال بعض الفقهاء ليس بعورة، ولكن لا أثر لهذا الخلاف هنا لاتفاق الكل على وجوب غضه. نعم بحث بعضهم في أنه قد يكون له أثر في الصلاة إذا رفعت صوتها فقد تفسد صلاتها في قول القائلين إنه عورة، لكن نقل الرافعي في تقريراته على رد المحتار عن السندي إنه ليس بعورة على الصحيح والا فسدت صلاتهن بالجهر ولا قائل به.

قال رحمه الله (ذكر الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام في الأغاني الفاسقة حرام، أما إنشاد الاقوال الحماسية النافعة في إزكاء روح الدفع عن الدين والكيان

فحميد لا ضير فيه بعد أن يكون (رجلا) لا امرأة ولا أمرد جميلا (وبشرط أن لا تصحبه آلات اللهو المحرمة). اهـ كلام الشيخ الحامد رحمه الله.

فصل: في استمتاع النبي «ﷺ» الشعر وإنشاده في المسجد

عن عائشة رضي الله عنها قالت: ((كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع لحسان منبرا في المسجد، يقوم عليه قائما يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، او ينافح، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح او فاخر عن رسول الله)) اخرجه البخاري. وفي رواية أبي داود: ((فيقوم عليه (أي على المنبر) يهجو من قال في رسول صلى الله عليه وسلم، وقال رسول الله روح القدس مع حسان ما نافح عن رسول الله)) أخرجه الترمذي بنحو الأولى.

وعن عمرو بن الشريد بن سويد الثقفي عن أبيه قال: ((ردفت رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما، فقال: هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟ قلت: نعم. قال: هيه. فأنشدته بيتا، فقال: هيه، ثم أنشدته بيتا، فقال: هيه حتى أنشدته مائه بيت)). وفي رواية قال: ((استنشدني

رسول الله صلى الله عليه وسلم... وذكر نحوه، وزاد فقال: يعني النبي صلى الله عليه وسلم -: ((ان كاد ليسلم)) وفي رواية ((فلقد كاد يسلم في شعره)) أخرجه مسلم. وعن جابر ابن سمرة رضي الله عنه قال:

((جالست النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من مائة مرة، فكان أصحابه يتناشدون الشعر ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية وهو ساكت، فربما تبسم معهم)). أخرجه الترمذي وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن عمر:

((مر بحسان وهو ينشد في المسجد، فلحظ إليه شزرا، فقال: قد كنت أنشد فيه، وفيه من هو خير منك، ثم التفت الى أبي هريرة فقال: أنشدك الله أسمعت رسول الله ﷺ يقول: أجب عني، اللهم أيده بروح القدس، فقال: اللهم نعم)) أخرجه البخاري ومسلم.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: ((أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل مكة في عمرة القضاء وعبدالله ابن رواحة يمشي بين يديه ويقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله

اليوم نضربكم على تنزيله

ضربـا يزيــل الهـام عن مقيلــه

ويذهــل الخليــل عن خليلــه

فقال له عمر: يا ابن رواحة بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي حرم الله تقول الشعر!؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خل عنه يا عمر، فَلَهِيَ أسرع فيهم من نضح النَّبْل)) أخرجه الترمذي والنسائي، قال الترمذي وقد روي في غير هذا الحديث ((أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل مكة في عمرة القضاء، وكعب بن مالك بين يديه)) وهذا أصح عند بعض أهل الحديث لأن عبد الله بن رواحة قتل يوم مؤتة، وإنما كانت عمرة القضاء بعد ذلك.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ((كان رسول الله ﷺ في بعض أسفاره وغلام اسود يقال له أنجشة يحدو فقال له رسول الله ﷺ: ويحك يا أنجشة رويدك سوقك بالقوارير)) قال ابو قلابة: يعني النساء. وفي رواية قال: ((كان للنبي صلى الله عليه وسلم حادٍ يقال له أنجشة وكان حسن الصوت فقال له النبي ﷺ: روَيْدك يا أنجشة لا تكسر القوارير)) قال قتادة: يعني النساء. أخرجه البخاري ومسلم. وللبخاري قال: ((كانت ام سليم في الثقل، وأنجشة

غلام النبي ﷺ يسوق بهن فقال النبي ﷺ يا أنجشة رويدك سوقك بالقوارير)).

وللبخاري أيضا قال كان النبي ﷺ **في مسير فحدا** الحادي فقال ﷺ: أرفق يا أنجشة ويحك بالقوارير. ولمسلم بنحو الأولى ولم يذكر ((حسن الصوت)) وله في اخرى قال ((كانت أم سليم مع نساء النبي ﷺ ويسوق بهن سواق فقال النبي ﷺ: يا أنجشة رويدك سوقك بالقوارير)) أخرجه البخاري ومسلم.

فصل: في بعض ما تمثل به النبي صلى الله عليه وسلم من الشعر.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((وأصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ((ألا كل شيء ما خلا الله باطل)). أخرجه البخاري ومسلم.

وعن عائشة رضي الله عنها قيل لها: ((هل كان النبي صلى الله عليه وسلم يتمثل بشيء من الشعر؟ قالت: كان يتمثل بشعز ابن رواحة ويتمثل ويقول: ويأتيك بالأخبار من لم تزودّ)) أخرجه الترمذي.

وعن جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال:

((بينما نحن مع رسول الله «ﷺ» اذ أصابه حجر، فعثر فدميت أصبعه فقال: هل أنت الا أصبع دميت؟ وفي سبيل الله ما لقيت)) أخرجه البخاري ومسلم.

فصل: في الشعر في خدمة المعركة.

عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم قريظة لحسان ((أهج المشركين فان جبريل معك)) أخرجه البخاري ومسلم.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((استأذن حسان ابن ثابت رسول الله ﷺ في هجاء المشركين فقال رسول الله ﷺ: فكيف بنسبي؟ فقال حسان: لأَسُلَّنَّك منهم كما تسل الشعرة من العجين)). أخرجه البخاري ومسلم.

فصل: فيما يحمل عليه ما ورد في ذم الشعر أو في النهي عنه أو في النهي عن الترنم فيه.

ورد في الشعر ذم وورد في الشعر مدح وقد استثنى الله عز وجل في سورة الشعراء المذمومين من اجتمع له إيمان وعمل صالح وذكر كثير وانتصار بعد ظلم قال تعالى:

((والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون، إلا الذين آمنوا وعملوا

الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا))

وقد رأينا كيف أن الشعر كان في خدمة المعركة ورأينا كيف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستمع وقد قصت علينا السيرة أن رسول الله «ﷺ» كان يجيب على خطيب بخطيب، وعلى شاعر بشاعر.

وكل ذلك يجعلنا نقول: إن ما ورد من ذم في شأن الشعر فانه يحمل على نوع من الشعر وما ورد من مدح في شأن الشعر فإنه يحمل على نوع من الشعر قوله عليه الصلاة والسلام: ((إن من الشعر حكمة)) أخرجه البخاري وأبو داود.

ومما ورد في ذَمّ الشعر ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير له من أن يمتلىء شعرا)) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي واخرجه ابو داوود ولم يذكر ((حتى يريه)). وما رواه عبد الله بن عمر رضى الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: لأن يمتلىء جوف احدكم قيحا خير له من أن يمتلىء شعرا)) أخرجه مسلم والترمذي، وما رواه ابو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: ((بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعرج اذ عرض شاعر ينشد فقال

رسول الله ﷺ : خذوا الشيطان - لأن يمتلىء جوف رجل قيحا خير له من أن يمتلىء شعرا)) أخرجه مسلم.

فهذا - والله أعلم - محمول على نوع من الشعر من مثل شعر أهل الشرك او أهل الفسوق او أنه كان يقال في غير الوقت المناسب.

فصل: في السيرة بين لغتين: لغة الرواية ولغة الشعر والحب ونماذج على ذلك.

متى دخل الانسان في الاسلام فقد وجبت عليه فرائض، ومن الفرائض التي تفترض على المسلم حب رسول الله ﷺ: ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون احب إليه من والده وولده والناس أجمعين)). ومن الفرائض على المسلم ان يحب في الله ويكره في الله، وان تكون عواطفه مع المسلمين وأن يحب ما احب الله ورسوله، وان يكره ما كره الله ورسوله، وان يعظم شعائر الله. ومن ثم فإن الاسلام بالنسبة للمسلم لا يكوّن عقله قط، بل يكوّن عواطفه.

وعلى هذا فالمسلم في أي قضية من القضايا له موقف قلبي وجداني كما له موقف عقلي فهو يكره الشرك والمشركين، والكفر والكافرين، والنفاق والمنافقين، كراهية عقلية

وكراهية وجدانية. وهو ذو موقف عملي وعقلي ووجداني من أي قضية من قضايا الصراع بين الكفر والإيمان.

هذا موضوع مهم جدا يغفل عنه الكثيرون. وبناء على هذا فالمسلم بالنسبة لسيرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليس موقفه عقليا فقط بل هو موقف وجداني كذلك.

فمولد رسول الله ﷺ عنده ونشأته وطفولته وشبابه وخلوته ودعوته وموقف الناس منه وإسراؤه ومعراجه وهجرته وغزواته وأحواله وأقواله ووفاته كل ذلك له جانب عاطفي وجداني يتجاوز جوانب المعرفة المحض.

ترى لو أن انسانا كانت عواطفه مع المشركين يوم بدر هل يمكن أن يكون مسلما؟ حتما لا؛ وإذن فالجانب العاطفي والوجداني من أحداث السيرة هو جزء من أجزاء الإيمان ولازم من لوازمه. ومن ثم فإن أي مسلم في العالم لا ينظر الى سيرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نظرته الى بقية السير، ولا يتكلم عنها بلغة منفصلة عن لغة الحب حتى وهو يعرض هذه السيرة عرضا اخباريا محضا فإن الجانب الآخر موجود ضمنا.

ولئن وجد من المسلمين من عرض للسيرة بلغة الأخبار

أو التحليل أو التدليل دون أن تظهر القضايا العاطفية في كلامه فان آخرين **تكلموا** بلغة الحب فقط عن كل قضية في السيرة وحيثما وجد الحب وجد الشعر ومن ثم فقد عبر المعبرون عن قضايا السيرة بلغة الحب شعرا وهو جانب يعتبر مكملا لأي حديث عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فلئن كان خطاب الكافرين يقتضي تحليلا وتعليلا وتدليلا فان خطاب المسلمين وكلام المسلمين عن رسولهم عليه الصلاة والسلام يقتضي حبا ووجدا.

ونحب في هذا الفصل أن نذكر نماذج على تكميل لغة الشعر والحب للغة الرواية في تأدية حق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قالت لغة الرواية: ان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولد في ربيع الاول وأن له نسبا يصل الى ابراهيم عليه السلام.

وقالت لغة الحب والشعر: ((لم تزل في ضمائر الكون تختار لك الأمهات والآباء))

يقول لنـــا لسان الحـــال منـــه

وقول الحـــق يعـــذب للسميـــع

فوجهي والزمان وشهر وضعي

ربيــع في ربيــع في ربيــع

انمـا موكـب الربيع آحتفاء

كـل عـام بعيـد مولـد أحمد

مـا كان ميلاد الرسول المصطفى

الا الربيــع نضــارة وتضوعـا

يوم أغر كفــاك منـــه أنــه

يوم كـأن الدهر فيــه تجمعـا

يوم يتيـه على الزمان صباحه

ومساؤه بمحمـــــد وضـــــاء

- ٢ -

وتحدثت الرواية عن رضاعه من حليمة وفصاله وقالت لغة الشعر:

فأتتــــه من آل سعـــد فتـــاة

قــد ابتهـا لفقرهـا الرضعـاء

أرضعتــه لبـانها فسقتها

وبنيها البانهن الشـــــاء

أخصب العيش عندها بعد محل

اذ غــدا للنـبي منهـا غـذاء

واذا سخر الإلـــــــه أناسا

لسعيـــــــد فإنهم سعـــــداء

وأتـــــت جـــده وقـــد فصلتـــه

وبهـــا من فصالـــه البرحـــاء

ورأى وجدها به ومن الوجد

لهيـــب تصـــلى بـــه الأحشاء

فارقتـــه كرهـــا وكـــان لديها

ثاويـــا لا يمـــل منـــه الثواء

- ٣ -

وحدثتنا لغة الرواية عن حياته قبل البعثة وعن زواجه بخديجة عليها رضوان الله وقالت لغة الشعر:

ألـف النسك والعبادة والخلوة طفلا وهكذا النجباء

وإذا حلـت الهداية قلبا نشطت في العبادة الأعضاء

ورأتـه خديجـة والتقـى والزهد فيه سجية والحياء

فدعتـه إلى الزواج وما أحسن ما يبلغ المنى الأذكياء

وحدثتنا لغة الرواية عن غار حراء ونزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه وقالت لغة الشعر:

يا مغاني حراء اذ مسها أول وحي أتى به جبريل

هزت (اقرأ) شماريخ ذراها ورجّها التنزيل

وتلقت جبال مكة أمر الله (اقرأ) أصداؤها تهليل

أي أمر هذا الذي اهتز منه السهل والوعر والفلا والتلول

وحدثتنا لغة الرواية من دعوة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قومه وما عانى فيها وقالت لغة الشعر:

ثم قام النبي يدعو الى الله
وفي الكفر نجدة وإباء

ويح قوم جفوا نبيا بأرض
ألفته ضبابها والظباء

- ٥ -

وحدثتنا لغة الرواية عن الهجرة الى الحبشة وقالت لغة الشعر:

زاد طغيان قريش حدة
فتباروا في اضطهاد المسلمين

فرأى بعضهم ان يخرجوا
ويقروا عند قوم مؤمنين

عيسوين نصارى فمضوا
للنجاشي فباتوا آمنين

هاجروا خوفـا عـلى دينهم
وهو فيض الله رب العالمين

- ٦-

وحدثتنا لغة الرواية عن الإسراء والمعراج وقالت لغة الشعر

فصف الليلة التي كان للمختار فيها على البراق استواء
وترقى به الى الرب قاب قوسين وتلك السيادة القَعْساءُ
فطوى الأرض سائرا والسموات العلا فوقها له إسراء
رتب تسقط الأماني حسرى دونها وما وراءهن وراء

- ٧-

وحدثتنا لغة الرواية عن الهجرة كيف كانت وقالت لغة الشعر

ويمضي رسول الله والبيد حوله
تطالعـه أسرابها وسرابها
أكاد أراه ثاني اثنين أمسيا
على خطة ليست تهون صعابها

يقول له لا تخش فالله فوقنا
ورحمته يهمي علينا انسكابها

وفي مكــة تضري قريش وتفتــلي
بأضغانهــا مخزومهــا وكلابهــا
أعـدت مذاكيها وسَلَّتْ سيوفها
وضجـت بمحموم الحقود غضابها
تواصوا عـلى حطم النبي ودينه
وتلـك منى اعيا قريشا طلابها
غفا الأسد من اهليه عنه وسالموا
عليــه فهبــت تبتغيـه ذئابها
نــبي جــلاه الله للخلـق رحمة
يضيء دياجـير الوجود شهابها
أضـاء به الأكوان شرقا ومغربا
الى يوم يطوي كالزمـان كتابها
الى يـثرب يهفو مُجداً محاذرا
فلما توفاهــا اطمأن اضطرابهــا
تحاشد اقطـاب القبائـل حولـه
وخــف اليـــه شيبهـا وشبابها

- ٨ -

وحدثتنا لغة الرواية عن استقبال الانصار للرسول صلى

الله عليه وسلم المهاجر وحدثتنا عن آثار الهجرة وقالت لغة الشعر :

والعذارى قد تجمعن له من كل حي
خاطرات طائفات كالمها حول النبي
قلنَ والدُّفُّ بأيديهن في صوت ندي

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
ايها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

بدأ التاريخ في الدنيا بملقى رحله
حل في أهل فأنسوه تجنى أَهْلِهِ
أعل دين الله واطرق كل حيّ كل باب
وأقطع الصحراء للمدن وبشر بالكتاب
أنت في المأمن فاهد الخلق للحق اللباب

- ٩ -

وحدثتنا لغة الرواية عما كان من تراحم بين المهاجرين والأنصار وقالت لغة الشعر :

يا هجرة فجّرت حبا ومرحمة
فالقوم فيها الأحباء الأخلاء

تقاسموا نعمات العيش وائتلفوا
كما تآلف في الأجساد أعضاء
كل يرى لأخيه الخير أجمعه
والخير موطنه الرهط الاعزاء
جرى الإخاء عليهم بهجة وسنا
فاستعذبوه ودنيا الود فيحاء
وطيبة الخير بيت ضم شملهم
جلاله الدهر أبناء وآباء

- ١٠ -

وتحدثنا لغة الرواية عن عودة الرسول صلى الله عليه وسلم المهاجر فاتحا وتقول لغة الشعر:

هذا المهاجر لم ينم يوما على
ضيم.. ولم يخلد الى الخذلان
هذا المهاجر عاد يوما.. حوله
خفق البنود وصولة الفرسان
ليقول للتاريخ: إنّا أُمَّةٌ
لم نرض بالتفريط في الأوطان

- ١١ -

وتحدثنا لغة الرواية عن بدر وقالت لغة الشعر:

وقف الحق وقفة عند بدر

شحذت في الغيوب سيف القضاء

وقريش في جيشها اللجب تسعى

بين وهاج القنا وزهو الحداء

وعيون النبي شاخصة ترقب

في هدبها طيوف الرجاء

قُضِيَ الأمر يا قريش فسيرى

واندبي على الأشلاء

يوم بَدْرٍ يوم أَغَرّ الأيام

باقٍ إن شِئْتِ أَو لم تشائي

إيه يا بدر أطلقي واستعيدي

ذكريات العلا رموز الخلود

وانفحينا من الهدى بعبير

عبقري الشذى زكي الورود

إيه يا بدر فاصدعي بالمعاني

وَلْيَدُكّ الفرقان كل جحود

هذه نماذج على تكامل لغة الرواية والشعر في تأدية حق رسول الله صلى الله عليه وسلم وحق سيرته من أجل ايجاد

المعرفة الصحيحة والعاطفة الصحيحة وكلاهما مرغوب ولكل منهما محله.

فصل: في خطاب الرسول ﷺ بعد وفاته.

كثيرون من يهمهم تحرير التوحيد مما يخدشه لا يرتاحون أن يخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعر أو في النثر مخافة أن يكون في الخطاب معنى الوثنية او الشرك، والحساسية في هذا الموضوع طيبة فإن البعد عما يخدش التوحيد من أهم ما ينبغي أن يحرص عليه المسلمون.

غير أن علينا أن نلاحظ في هذا المقام أموراً: -

أولاها: أنه ليس كل خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ولو بعد وفاته يعتبر شركا بدليل أننا نقول في كل صلاة: السلام عليك ايها النبي ورحمة الله وبركاته.

ثانيها: أن اساليب العرب في التعبير التخييل والتجسيم فهي تفترض الميت حيا وتخاطبه وتفترض الجماد حيا وتخاطبه فاذا سلمت العقيدة وعرفت الحدود فلم تتجاوز فلا حرج.

ثالثها: أن العرب تستعمل في أساليبها التشبيه والاستعارة والكناية فيما كان واضحا فيه مثل هذه المعاني واستعمل في

حق رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا حرج.

رابعها: ان الشعر الذي رُثِيَ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل أصحابه كان فيه بعض الخطابات له عليه الصلاة والسلام فقد ذكر ابن هشام من شعر حسان في رثاء رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الأبيات:

يا خير من وطئ الحصى لا تبعد

وجهي يقيك الترب لهفي ليتني

غيبت قبلك في بقيع الغرقد

● ● ●

أمسى نساؤك عطلن البيوت فما

يضربن فوق قفا ستر بأوتاد

يا أفضل الناس اني كنت في نهر

أصبحت منه كمثل المفرد الصادي

● ● ●

فبوركت يا قبر الرسول وبوركت

بلاد ثوى فيها الرشيد المسددّ

وبورك لحد منك ضمنّ طيبا

عليه بناء من صفيح منضد

ان هذه المعاني كلها تجعل الطريق مفتوحا أمام الشعراء أن يبدعوا وأن يتفننوا في القول مع ثلاث ملاحظات:

ان يعرفوا أن الدعاء لا يجوز أن يتوجه به مسلم إلا لله ، ذلك صريح قوله تعالى: (له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه ، وما هو ببالغه).

وان يعرفوا أنه لا يصح أن يتجاوز برسول الله صلى الله عليه وسلم الحدود التي نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مجاوزتها .

وأن يبتعدوا عن أي معنى يمكن أن يوجد لبسا وعليهم مع هذا كله:

ان يعرفوا حدود الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فصل: في الرمز.

اعتاد الكثيرون من شعراء الحب والوجد أن يرمزوا بالكأس والخمرة لمعان وأن يتحدثوا بلغة التأنيث اشارةً الى المحبوب ولو كان ذكرا ،وقد سرى هذا الى المحبين الاسلاميين من شعراء الوجد وثارت حول ذلك معارك فكم أنكر فقيه على شاعر وما اكثر ما أنكر قلب الحكيم شطحات الشعر ، ومع أننا نميل الى أن تبقى هذه الامور عند حدود، إلاّ أننا

ندرك أن لهذه الاتجاهات أصلا في زمن النبوة، فقد ذكر ابن هشام القصيدة التى أرسل بها كعب بن زهير الى أخيه بجير عندما أسلم وفيها: -

سقاك بها المأمون كأسا روية
فأنهلك المأمون منها وعلكا

وفي رواية:

شربت مع المأمون كأسا روية
فأنهلك المأمون منها وعلكا

قال ابن هشام

((وبعثت بها الى بجير فلما أتت بجيرا كره أن يكتمها رسول الله ﷺ فأنشده إياها فقال رسول الله ﷺ لما سمع (سقاك بها المأمون) صدق وإنه لكذوب أنا المأمون))

أقول فههنا استعمل كعب كلمة الكأس وسقياها ولم يكن من رسول الله ﷺ إنكار على ذلك؛ وعندما أصابت زيد الخير الحمى وعاده الناس قال شوقا الى رسول الله ﷺ وأصحابه:

فليت اللواتي عدنني لم يعدنني
وليت اللواتي غبن عني عُوَّدي ﷺ

فهذا صحابي يستعمل لغة التأنيث اشارة الى الذكور.

وهذا موضوع توسع به المتوسعون وضيق به المتزمتون ولقد أشار إقبال الى مثل هذا رامزا ومعاكسا الفقهاء:

افتني ايها الفقيه وقل لي
خمرة شربها علينا حلال
هل يجوز شربها في عرفات

إنه يريد شراب المحبة.

ولكن كم من الناس يدركون مثل هذا؟

ان عمر الخيام لم يشرب خمرا قط فيما نعلم وكل كلامه عن الخمرة انما المراد به الرمز ولكن الغربيين ترجموه على ظاهره ونحن نقلناه عنهم فكان من آثار ذلك ما انطبع في أذهان الكثيرين عن عمر الخيام.

فصل: مهمة العلماء التصحيح الرفيق لا الرفض المطلق للغة الحب والشعر.

أخرج البخاري عن الرُّبيع بنت معوّذ قالت: جاء النبي ﷺ فدخل حين بني عليّ فجلس على فراشي كمجلسك مني فجعلت جويريات لنا يضربن بالدف ويندبن من قتل من آبائي يوم بدر اذ قالت إحداهن ((وفينا نبي يعلم مافي

غد)) فقال: ((دعي هذه وقولي بالذي كنت تقولين)). من هذا الحديث ندرك ان ادب العالم اذا حضر جلسة سماع ذكر فيه خطأ ان يصحح الخطأ دون أن يغير جو المناسبة، وقد كان شيخنا الشيخ محمد الحامد رحمه الله يحضر أحيانا جلسات السماع والانشاد ولكنه لا يسكت على خاطىء ولا على خطأ، وكثيرا ما كان يطلب من المنشد ان يستبدل كلمة بكلمة، وكثيرا ما كان يطلب منه أن يغير بيتا او عجز بيت بما يخرج البيت عن لبس او توهم حرصا عقيدة الناس وسلامة تصوراتهم.

فصل: في موضوع إحياء المناسبات

في عصرنا خمدت جذوة الكثير من المعاني سواء في ذلك معاني الجهاد أو معاني الفرار الى الله؛ ومن ثم فقد اعتمدت الحركة الاسلامية الحديثة مبدأ إحياء المناسبات التاريخية لتحريك عواطف الخير عند المسلمين.

ففي /١٧/ رمضان يحتفلون بيوم بدر لتذكير المسلمين بهذه المعركة ولتحريك عواطف الجهاد، وفي المحرم يحتفلون بالهجرة لتذكير المسلمين بهذه الصفحات من السيرة ولتحريك عواطف المسلمين نحو معرفة ان حب الاسلام فوق

حب الأوطان ،وفي شهر ربيع الأول يحتفلون للتذكير بشمائل رسول الله ﷺ وميلاده وآثار الرسالة الى غير ذلك.

ولم تنظر الحركة الاسلامية الى هذا الموضوع إلا من زاوية احتياج المسلمين الى مثل ذلك فهو كالدواء وهو جزء من حركة البعث الاسلامي وتحاول الحركة الاسلامية أن تتجنب في مثل هذا الموضوع ما يؤخذ على بعض الجهات فيما تقوله او تعتمده في مثل هذه المناسبات.

وكثيرا ما كان لهذه الأمور بركتها في الدعوة والعمل والحركة.

واذا كان هناك من اصل لمثل هذا الاتجاه فقد يكون في مثل اعتماد رسول الله صوم عاشوراء ،وفي مثل قوله عليه الصلاة والسلام عن يوم الاثنين: ((ذاك يوم فيه ولدت)) ولكن الحركة الاسلامية لا تحب أن تدخل في جدل في هذا الموضوع فالأصل في الأشياء الإباحة واحياء هذه المناسبات بالكلمة العليمة والتذكير الحكيم والشعر السليم من الأخطاء مما تقتضيه مصلحة الإسلام والمسلمين فهو لا يخلو عن كونه اجتماعاً على خير والاجتماع على الخير مشروع.

إن أحدا لا ينكر أن تدعو جهة من الناس لسماع صفحة

من كتاب أو لقراءة شيء من العلم او لليلة شعرية فذلك كذلك.

فصل: في معركة المولد

مما استحدث خلال العصور الاحتفال بيوم ميلاد الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتوضع حول هذا الموضوع عادات تختلف باختلاف البلدان، وقد تحدث ابن الحاج في مدخله عن كثير مما أنكره من عادات توضّعت حول المولد، ووجدت بسبب من ذلك وبسبب من غيره ردود فعل كثيرة حول هذا الموضوع فمن محرّم ومن مدافع، وقد رأينا أن لابن تيمية رحمه الله رأيا في غاية الانصاف فهو يرى أن أصل الاجتماع على المولد مما لم يفعله السلف ولكن الاجتماع على ذلك يحقق مقاصد مشروعة.

والذي نقوله: أن يعتمد شهر المولد كمناسبة يذكر بها المسلمون بسيرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وشمائله فذلك لا حرج وأن يعتمد شهر المولد كشهر تهيج فيه عواطف المحبة نحو رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فذلك لا حرج فيه، وان يعتمد شهر المولد كشهر يكثر فيه الحديث عن شريعة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

فذلك لا حرج فيه.

وان مما ألف في بعض الجهات أن يكون الاجتماع على محاضرة وشعر إلقاء أو إنشاد في مسجد أو في بيت بمناسبة شهر المولد فذلك مما لا أرى حرجا فيه على شرط أن يكون المعنى الذي يقال صحيحا.

ان أصل الاجتماع على صفحة من السيرة أو على قصيدة في مدح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - جائز ونرجو أن يكون أهله مأجورين فأن يخصص للسيرة شهر يتحدث عنها فيه بلغة الشعر والحب فلا حرج.

ألا ترى لو أن مدرسة فيها طلاب خصصت لكل نوع من أنواع الثقافة شهرا بعينه فهل هي آثمة؟ ما نظن أن الأمر يخرج عن ذلك.

فصل: في الحذر من أخطاء المحبين والشعراء

اذا كانت نشأة لغة الحب والشعر بالنسبة للسيرة النبوية أشخاصها وأحداثها عاديا بل شيئا مرغوبا به ومطلوبا حدوثه فإنه قد حدث خلال العصور أن وجد شعر فيه أخطاء شرعية ووجدت لغة ادعت الحب وخرجت عن الشرع ذلك ينبغي أن يصفي ويحرر ويحذر ولكن علينا الا

نسى أن لغة الشعر فيها مجاز وكناية واستعارة وأن علينا أن نضع هذا في حسابنا ونحن نسير في عملية التصفية والتحقيق.

فصل: في الأسباب الحاملة على كتابة هذه الفصول وماذا نريده فيها

ان عصرنا عصر جفت به العواطف الراقية وقامت للعواطف الاخرى أسواق وأسواق ومن جملتها أسواق الغناء، وللغناء تأثير في تكوين النفوس لا ينكره الا خاطىء، واذا كان الغناء الشهواني هو الذي يغلب على الاذاعات والحفلات وتتلقاه الأنفس فان آثار ذلك خطيرة، وخلال التاريخ الإسلامي حاول الحكماء أن يوجدوا البديل، فكان البديل هو الإنشاد المتميز في الأسلوب والمعنى علما على الفسوق، وأصبح الإنشاد طريقا لمن يحب الصوت الحسن من أهل التقوى، وككُلّ شيء لا يضبطه العلم ويرافقه التصحيح الدائم توضع حول السماع من الخطأ والبدع الكثير فقامت ردود فعل علمية عنيفة ضده وضد أهله اختلطت الأوراق وأصبحت تحتاج الى فرز.

نحن بحاجة الى شعر يحرك كل العواطف الخيرة وبحاجة

الى إنشاد يهيج عواطف الوجد والمحبة والخير والجهاد وبحاجة الى أن ينضبط ذلك كله بضوابط لا تخرج هذا الأمر عن حدّه.

ومن هذه الضوابط الا يصبح مثل هذا شغلنا الشاغل بل أن يبقى مثل هذا كالملح بالنسبة للطعام. وأن يبقى سماعنا الرئيسي للقرآن، ومن تأمل في حياة الأصحاب عرف مثل هذا، وفي الحديث الذى ذكره ابن كثير وعزاه الى ابن مردويه والى النسائي عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (لا ألفين أحدكم يضع إحدى رجليه على الأخرى يتغنى ويدع البقرة يقرؤها فإن الشيطان ينفر من البيت تقرأ فيه سورة البقرة وأن أصغر البيوت الصفر من كتاب الله).

واخيرا:

ان الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغة العقل مطلوب ابتداء وإن الإيمان العقلي برسول الله صلى الله عليه وسلم مطلوب ابتداء وانتهاء، ولكنه لا يكفي فلا بد من ايمان عاطفي ولابد من حب ومتى وجد الحب فقد وجد الشعر ومن أجل التذكير بهذه المعاني كتبنا هذه الفصول القصيرة للتذكير بهذا الجانب.

فكتبنا فَصْلاً عن محل حب رسول الله صلى الله عليه وسلم في قضية الايمان وكتبنا فصلا عن الشعر في الاسلام وفي حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتبنا فصلا عن الحديث العقلي والحديث العاطفي وإن المسلم عقلاني في قضية الايمان ولكنه عاطفي كذلك، وإن الدعوة خطاب للعقل وللعاطفة وحديث عنهما.

كما كتبنا فصلا عن نماذج من لغة الحب والشعر. والحديث عن لغة الحب والشعر جرنا الى الحديث عن الواقع وكيف أن العاطفة فاترة والجهل كثير وهذا يقتضي علاجا، وهذا جرنا الى الحديث عن إحياء المناسبات وضرورتها، وهذا جرنا الى الكلام عن المولد وما رافقه والحكم الشرعي فيه، ولقد كتبنا هذا البحث المختصر في زحمة من الاعمال ففاتنا فيه الكثير مما نحرص عليه فيه ولكن مالا يدرك كله لا يترك جله.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

خطاب

الرسول صلى الله عليه وسلم الى انسان كل قرن وتجاوب شباب الجمهورية في تركية في أواخر القرن الرابع عشر الهجري

خطاب الرسول

صلى الله عليه وسلم

إلى إنسان كل قرن

للأستاذ عثمان سراج

« تركيا »



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ



الحمد لله الذي اصطفى محمدا من ولد آدم، فأرسله بشيرا ونذيرا، داعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا، وبشر به المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا.

أيها السادة.

أحييكم بتحيَّةِ الاسلام في دوحة لؤلؤة البلاد الاسلامية. وأشكر لدولة قطر الشقيقة، وللصديق فضيلة الشيخ عبد الله ابراهيم الأنصاري نجم الصداقة المسلمة. اشكر لهم جميعا، لأنهم أتاحوا لي هذه الفرصة القيمة لأتحدث إليكم عن «خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم الى انسان كل قرن وتجاوب شباب الجمهورية في تركية في أواخر القرن الرابع عشر الهجري»

أيها السادة.

إننا نعتز شعبا وحكومة بذكرى مرور ألف وأربعمائة عام على هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم وبمؤتمر سيرة ذلك الرسول الكريم. لأننا نجد في هجرة ذلك الرسول العظيم وفي سيرته الشريفة عظمة خالدة، تنمو وتمتد، وتسري بقوتها الذاتية في جوانبها، شرقا وغربا، وتنطلق أشعتها على

مجاهيل الكرة الارضية، فتنبض لها القلوب، وتتحرك لها العقول، وتمتد بروعتها وبساطتها النفوس، وترسم للإنسانية جمعاء سُبُل الحياةِ السعيدة دائماً وابدا، فلقد صدق الله اذ يقول: «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر»[1]

أيها المؤتمرون الكرام.

فماذا نستطيع أن نقول في هجرة ذلك النبي الأجل وفي سيرته العطرة؟ وهو سيد البشر من كل قبيل في كل عصر، وفي كل جيل،

وإنما نحاول على قدر استطاعتنا بمناسبة هذا المؤتمر المشرق، في هذا البلد الشقيق، نحاول أن نقتبس من نور محمد الوضّاء كي نضيء به حياتنا وقلوب فلذات أكبادنا.

أيها الأصدقاء:

إن هناك دائماً وأبداً- وخصوصاً في مستهل القرن الخامس عشر الهجري- بطون خاوية تطلب العيش وقلوب محتارة تنشد الإيمان بالله الذي ترعاه في السّراء والضّراء: «ألا بذكر الله تطمئن القلوب[2]»، ولذا: يخاطب الرسول

---

(١) سورة الاحزاب. الآية: ٢١

(٢) رواه مسلم

ﷺ، انسان كل قرن- ولا سيما انسان القرن الخامس عشر الهجري- كما خاطب ابن عمه عبد الله بن عباس قائلا :-

« يا غلام احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضروك إلاّ بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصّحف »[١].

بهذا التوجيه يدعو الرسول ﷺ الانسان في أيّ عصر كان، وفي أي مجتمع صار إلى أن يحفظ الله، أي إلى أن يحفظ أعظم قوة في الوجود، وحفظ الله لم ولن يكون إلا بالتقوى، لأن حياة الانسان دائماً وأبداً تعتمد على دعامتين رئيسيَّتَيْن وركيزتين قويتين تنهض عليها، وتتلون في ظلالها، هاتان الدعامتان هما: -

أولاً الإيمان بالله رب العالمين الذي وصّى به الرسول ﷺ ابن عمه عبد الله بن عباس ولم يزل يوصي به بني آدم لأنه حريص على الانسان رؤوف بنسله

---

(١) رواه مسلم

ورحيم بأبنائه في كل زمان ومكان.

ضرب الرسول الأعظم وأصحابه خير الأمثلة لقوة الإيمان وقدرته الإيجابية حين لجأ أعداء الإيمان قبل الهجرة إلى كل ألوان الضغط فتعاهدوا على ألا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم، وتحالفوا على ذلك حلفاً ظالماً أملاه عليهم حقدهم، وكتبوا بذلك صحيفة علقوها في جوف الكعبة، وظلوا على هذا النحو ثلاث سنوات، لا يصلهم فيها شيء من الطعام إلا خفية، وجهد القوم حتى كانوا يأكلون ورق الشجر، ولم يستسلموا لدعاة الباطل، لأن الإيمان كان يملأ قلوبهم ويحفزهم إلى مواجهة التحدي، ويهتف بهم أن يثبتوا على المبادئ حتى مكّن الله لهم في الأرض، وبدلهم من بعد ضعفهم قوة، ومن خوفهم أمناً وسلاماً ومن فقرهم غنى، ومن غلبهم عزّاً وجاها.

حدث عتبة بن غزوان رضي الله عنه- في خطبة خطبها وهو يقارن بين ماض كان يعاني فيه

شظف العيش وحاضر أبدله الله فيه بالنعمة فقال:
«لقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق الشجر، حتى قرحت أشداقنا، والتقطت بردة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك، فأتزرت بنصفها، وأتزر سعد بالنصف الآخر، فما أصبح اليوم منا أحداً إلا وكان أميراً على مصر من الأمصار[1].

ثانياً: العمل الصالح. وهو الدعامة الثانية في حياة الانسان في كل مكان ووصى به الرسول الرحيم كل انسان في كل زمان، حينما شدّ على يد عامل ورمت من كثرة العمل، وقال له:

«هذه يد يحبها الله ويحبها رسوله».

وحينما استمع المسلمون من رسولهم هذا الثناء للعمل الصالح، انطلق الواحد منهم ولم يدع سهلاً، ولا جبلاً، ولا وادياً، ولا عامراً، ولا مجدباً، ولا مخصباً إلا وقد تحصن بإيمانه، بالله الذي لا يضيع أجر من أحسن عملا، ثم اقتحمه وعمل فيه بيده،

(١) المجموعة المفيدة من خطب المسجد الحرام ص: ١٤٩

وأجرى الخير في جنباته، وأطلع السعادة في آفاقه.

إن الرسول ﷺ لم يضيق دائرة العمل بل ترك دائرته تتسع لتشمل صنوفاً شتى من أنواع الأعمال.

فلقد روي: أن النبي ﷺ كان جالساً مع أصحابه يوماً، فنظروا إلى شاب ذي جلد وقوة قد بكر ليسعى، فقالوا:

ويح هذا.. لو كان شبابه وجلده في سبيل الله.

فقال رسول الله ﷺ:

«لا تقولوا هذا، فإنه إن كان خرج يسعى على ولده صغارا، فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين، فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفّها، فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان[1].

بهذا التوجيه يدعو الرسول الكريم انسان

(١) رواه الدار قطني

اليوم- الذي أفسد عمله بالمحرمات- يدعوه إلى العمل الطيب والكسب الحلال، كما أنه يشرح ويؤكد هذا المعنى بهذا الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ:-

«إن الله طيب (أي منزه عن النقائص والآفات) لا يقبل (من الأعمال والأموال) إلا طيباً (أي خالصاً من المفسدات والمحرمات) وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال:

(يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا)[١] وقال تعالى: (يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم)[٢]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر (كالحج والجهاد) أشعث، أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب؛ ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام فأنى يستجاب له[٣].

ولقد نظر الرسول ﷺ إلى ما يفعله الكسل في

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٥١

(٢) سورة البقرة، الآية، ١٧٢.

(٣) رواه مسلم

الأمم، والبطالة في المجتمعات، فنهى عن ذلك في صورة أصدق ما تكون الصور، وأنطق ما تكون الشواهد فقال:

«أخشى ما خشيت على أمتي كبر البطن، ومداومة النوم، والكسل[1]. كما نبّه عليه الصلاة والسلام إلى فضل العمل اليدوي في قوله: «لأن يحمل أحدكم حبله على ظهره فيحتطب، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه»[2].

وقال أيضاً:

«ما أكل أحد طعاماً قط خير من أن يأكل من عمل يده وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده[3].

ما كان العمل وابتغاء الرزق والتقلب في البلاد والأخذ بالأسباب منافياً «للتوكل على الله والثقة به».

ولقد أبرز الرسول ﷺ ذلك في عبارة واضحه

---

(١) رواه الدار قطني عن جابر رضي الله عنه
(٢) الزبيدي، كتاب الزكاة
(٣) الزبيدي، كتاب البيوع

أشد ما يكون الوضوح حينما جاءه اعرابي إلى المسجد، وناقته من خلفه يقودها، فقال:

« يا رسول الله أعقل ناقتي أم أتوكل؟

فرد عليه الرسول المعلم قائلاً:

« اعقلها وتوكل »

ولقد أخرج الحاكم عن معاوية بن قرة قال:

- لقي عمر بن الخطاب ناساً لا عمل لهم، فقال:

« من أنتم؟ »

فقالوا:

- متوكلون.

قال عمر بن الخطاب:

« كذبتم، ما أنتم متوكلون. إنما المتوكل الذي ألقى حبّة في الأرض، وتوكل على الله ».

ويقول بعض السلف الصالح:

- ليست العبادة أن تصف قدميك، وغيرك يقوت لك، ولكن ابدأ برغيفك فاحرزه، ثم تعبّد.

وإذا قصرت الهمم واستلان الناس حياة الدعة

ذهبوا يعللون كسلهم بتفرغهم للعبادة كالدراويش وأصحاب الطرق- وما أكثرهم اليوم في البلاد الاسلامية- ألا فليستمعوا ما يقوله الرسول الكريم فيمن هو على شاكلتهم في مطالع القرن الخامس عشر الهجري:

جلس عليه السلام يوماً، فجلس أصحابه يثنون على رجل فقالوا:

- إن فلانا يصوم النهار، ويقوم الليل، ويكثر الذكر.

فقال عليه الصلاة والسلام:

- «أيُّكُم يكفيه طعامه وشرابه؟»

فقالوا:

- «كلنا يا رسول الله».

فقال عليه الصلاة والسلام:

- «كلكم خير منه.»

سمع الصحابة ذلك فاندفعوا يعملون وينشطون حتى قرن الله التجار منهم بالمجاهدين في سبيل الله.

قال تعالى:

- وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله، وآخرون يقاتلون في سبيل الله[1].

ومما لا شك فيه أن علياً كرم الله وجهه كان إماماً في العمل الصالح والكسب الحلال، كما كان زعيماً في العلم والحرب، فذات يوم كان يسقي النخيل لأحد أهل المدينة بدراهم معدودة، ويقول للائمين له:

- يقول الناس في الكسب عار

فقلت العار في ذل السؤال »

تجاوب شباب

الجمهورية بتركية بخطاب الرسول ﷺ

أيها السادة:

لقد تجاوب الشباب التركي اليوم بخطاب الرسول الأعظم كآبائهم، وتمسكوا بدينهم واقتحموا ميادين العمل في قلب أوروبا، ونشروا الاسلام في البلاد المسيحية، وبنوا المساجد، وأنشأوا مدارس للقرآن الكريم في النمسا، والمانيا الاتحادية، وهولندا، وبلجيكا، وفرنسا.

فأحب أن أكلل حديثي بنداء الطلبة في المدرسة الثانوية الذين

(١) سورة المزمل، الآية: ٢٠

آزروني وشجعوني حينما كنت أخوض المعارك الفكرية والسياسية في البرلمان التركي لإدخال «مادة الدين الاسلامي» في مناهج المدارس الثانوية التركية. وذلك كان ما بين سنتي ١٩٦٦ و١٩٦٧: وكنت في ذلك الوقت نائباً في البرلمان التركي. نادى- ذلك الوقت- الطالب «خيري أكشي» باسم مائة وستين طالباً من زملائه في مدرسة ثانوية «قرة بوك دمرجليك» وهي مدينة المصانع للحديد والصلب في تركية. نادى ذلك الطالب قائلاً:

ساداتنا المحترمون؟

«نريد أن نتعلم ديننا الذي شرع لإخراج العالم من الظلمات إلى النور»

وإننا نؤمن بكل جوارحنا: أن كلا منا إذا طبق مبادئ ذلك الدين القويم لن يبقى أي أثر لكثير من المشاكل.

في ظل هذا النظام الديمقراطي الذي يزداد فيه الذين يستغلون جوعهم المادي ويحصلون في النهاية مآربهم.- في هذه الظروف- نناديكم (فنقول):- نحن جياع.. ولو أكلنا كل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وشبعنا شبعاً مادياً

سنظل جياعاً- إذا كنا محرومين- من الناحية المعنوية. لأن الحرمان المعنوي حرمان من جميع الفضائل ومن كل جمال خلقي... نحن جياع فلتشبعونا.

نحن في ضيق مالي، ولكننا لا نصرخ فيكم قائلا:

- المنحة..... المنحة.....

ونحن في العري ولكننا لا نسعى وراء المأوى....

إننا نؤمن إيماناً يقينياً بفلسفة الحياة التي تبشرنا بحصول جميع المتطلبات المادية في الوقت القصير بشرط الإيمان بالله والثقة به، وبعد العمل والجهد الدائبين.

نحن نؤدي ما علينا وندعو من الله العلي القدير تحقيق أمانينا...

وكفى... فلينته هذا الجوع... نريد أن نتعلم ديننا فنشبع[1] ».

فقد أصغت الحكومة التركية لهذا النداء وقررت تدريس مادة الدين الاسلامي في المدارس الثانوية التركية.

هكذا، تجاوب شبابنا في عهد الجمهورية في تركية بخطاب الرسول ﷺ في أواخر القرن الرابع عشر الهجري.

(١) عن جريدة « باب عاليدة صباح. بتاريخ: ١٩٦٧/٧/٢٤م

ومسك الختام بالصلاة على النبي الهمام

« إن الله وملائكته يصلون على النبي ، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما »[1]

عثمان سراج

من علماء الأزهر الشريف

زاوية الشيخ مصطفى عصمت باستانبول

٢١ ذي الحجة ١٣٩٩ - ١١/١١/٧٩م

---

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٥٦

القدس

مسرى رسول الله

صلى الله عليه وسلم

للدكتور ابراهيم زيد الكيلاني

« الأردن »



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ



القدس

مسرى رسول الله ﷺ ومكانتها في الاسلام

تتبين للباحث مكانة القدس في الاسلام وارتباطها بالعقيدة الاسلامية من عرض الحقائق التالية في الإسلام:

١ - إن الله اختار القدس وفلسطين من بين بقاع الأرض مسرى لنبيه محمد ﷺ، فكان مبدأ الاسراء المسجد الحرام بمكة المكرمة. ومنتهى الإسراء المسجد الأقصى في القدس الشريف- قال تعالى: «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لِنُرِيَهُ من آياتنا إنه هو السميع البصير».[1]

والحكمة الإلهية تتضح اليوم، باختيار المسجد الأقصى من بين بقاع الأرض مسرى للنبي الكريم عليه الصلاة والسلام:

إن الله يعلم الماضي والحاضر والمستقبل وما يُهدِّدُ القدس الشريف من أخطار التهويد والتدويل،

---

(١) آية ١ سورة الاسراء

فربط هذه البلاد المباركة بالمسجد الحرام بمكة، وباسراء رسول الله ﷺ إليها وانطلاقه منها إلى السموات العلى، لتستقر في قلب المسلم عقيدة أن حرمة المسجد الأقصى في القدس كحرمة المسجد الحرام بمكة، وأن الخطر الذي دهى القدس يتهدد الكعبة والمسجد الحرام ومسجد رسول الله ﷺ في المدينة المنورة إن لم يجمع المسلمون كلمتهم ويوحدوا تحت راية الاسلام صفوفهم، لتحرير الأرض وانقاذ المقدسات.

٢ - القدس والمسجد الأقصى مسجد الأنبياء من قبل ومحمد ﷺ هو وارث النبوات وإمام النبيين، وما من نبي بعثه الله إلا وأخذ الله عليه الميثاق أن يؤمن بمحمد عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين ووارث الرسالات والأمة من بعده الأمينة على هذه المقدسات.

٣ - المسجد الأقصى هو القبلة الأولى:

أخرج الإمام أحمد والطبراني في الكبير والبزار عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان

النبي ﷺ يصلي بمكة نحو بيت المقدس والكعبة بين يديه، وبعدما هاجر إلى المدينة ستة عشر شهراً، ثم حرف إلى الكعبة. قال العراقي: وإسنادُهُ صحيح.

من هذا الحديث الشريف تتضح الحكمة الإلهية بأن تكون القدس، والمسجد الأقصى قبلة المسلمين بعد هجرتهم إلى المدينة لمدة ستة عشر شهراً، حتى إذا تشربت القلوب حب القدس وفلسطين ومسجدها الأقصى، شاء الله بحكمته أن يتم الربط بين القبلتين، فنزل الحكم بتحويل القبلة إلى المسجد الحرام بمكة.

٤ - أحد المساجد الثلاثة الذي تشد إليه الرحال.

ورد في الصحيح: لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى.

٥ - من أقدم المساجد في الأرض. ورد في الصحيحين أن المسجد الأقصى بني بعد المسجد الحرام. روى البخاري ومسلم في صحيحيهما بسندهما عن أبي ذر

رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: المسجد الحرام. قال: قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى.

٦ - فضل الصلاة فيه:-

أخرج الإمام أحمد عن ميمونة بنت سعد قالت: يا نبي الله افتنا في بيت المقدس، فقال لها: أرض المحشر والمنشر، ائتوه فصلوا فيه، فإن صلاتكم فيه كألف صلاة.

فقالت: أرأيت من لم يطق أن يأتيه؟ قال: فليهد له زيتاً يسرج فيه فإنه من أهدى كمن صلى. رواه ابن ماجه.

٧ - فضل الإحرام بعمرة أو حج من المسجد الأقصى:

أخرج أبو داود وغيره من حديث أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: من أهل بحجة أو عمرة من المسجد الأقصى غفر له ما تقدم من ذنبه.

وروى ابن ماجة عن أم سلمة أيضاً: من أهل بعمرة من بيت المقدس غفر له، واسناده صحيح- انظر الترغيب والترهيب للحافظ المنذري. ومن

الصحابة الذين أهلوا بعمرة أو حج من المسجد الأقصى:

سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وعبد الله ابن عباس ومعاذ بن جبل رضي الله عنهم أجمعين.

٨ - يستحب ختم القرآن في المسجد الأقصى:

روى سعيد بن منصور في سننه عن أبي مجلز قال: كانوا يستحبون لمن أتى المساجد الثلاثة أن يختم بها القرآن قبل أن يخرج، المسجد الحرام ومسجد النبي ﷺ، ومسجد بيت المقدس. وكان الإمام سفيان الثوري يختم به القرآن الكريم-

٩ - يستحب المجاورة فيه والموت فيه وزيارته: روى الحاكم في مستدركه عن ثور بن يزيد عن مكحول قال: كان عبادة بن الصامت وشداد بن أوس يسكنان بيت المقدس. وروى البزار بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: من مات في بيت المقدس فكأنما مات في السماء. وفي كتاب المدخل لابن الحاج:

- كما يذكر الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي في كتابه القيم زاد المسلم ج ٢ ص٤ ٧-: وينبغي للمسلم

حين خروجه من المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام أن ينوي السفر بنية الصلاة فيه وزيارة نبي الله إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام.

ماذا تعني كلمة المسجد الأقصى

لعل سؤالاً يرد: ما المقصود بالمسجد الأقصى؟ أهو المسجد القائم أم الأرض التي قام عليها؟

لقد اتفقت كلمة علماء المسلمين على أن المقصود بالمسجد الأرض وما قام عليها لأن الإسراء كان إلى الأرض قبل انشاء البناء القائم عليها، ومساحة المسجد الأقصى تشمل البناء وما حواه سور المسجد فكل ما حواه سور المسجد من الأرض هو مسجد سواء أقيم عليه البناء أم لم يقم.

المسجد الأقصى في التاريخ الاسلامي

١) الفتح العمري:

لقد عرف الصحابة الكرام رضي الله عنهم واجبهم في تحرير المسجد الأقصى من رجس الرومان في حياة رسول الله ﷺ، بعد أن علموا أن الله اختاره مسرى لنبيه وحثهم النبي على شد الرحال إليه، وكان

قبلتهم الأولى، فكانت غزوة مؤتة في عهد الرسول ﷺ منطلق الفتح وبداية تحرير أرض بلاد الشام التي يقع فيها المسجد الأقصى، وبعد أن التحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى وانطلقت كتائب الفتح الاسلامي تفتح بلاد الشام، أمر عمر بن الخطاب أبا عبيدة عامر بن الجراح رضي الله عنهما أن يتوجه من الشام إلى بيت المقدس فتوجه أبو عبيدة بجيش عدده خمسة وثلاثون ألف مقاتل، وحاصر مدينة القدس أربعة أشهر، طلب بعدها السكان من أبي عبيدة الصلح على شروط أهل الشام وأن يتولى ابرام العقد معهم الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فجاء عمر، وخرج صفر ونيوس، بطريرك القدس وسلم المدينة إلى عمر بن الخطاب، وبناء على طلب البطريرك أعطاه عمر رضي الله عنه وثيقة الأمان المعروفة بالعهدة العمرية، وتم الفتح دون قتال.

٢) الفتح الصلاحي:

سقطت القدس بيد الصليبيين سنة ١٠٩٩م بعد هزيمة السلاجقة وقتل الصليبيون تسعين ألفاً من

المسلمين داخل القدس حتى خاضت الخيول بالدماء إلى ركبها.

ولكن روح الإسلام التي أيقظها العلماء الدعاة أمثال الشيخ عبد القادر الكيلاني وتلاميذه وابن الجوزي وتلاميذه وغيرهم من العلماء العاملين الذين أحيوا المساجد والتكايا والربط والزوايا بدروسهم في العقيدة والتفسير والحديث والفقه والتربية الروحية والأخلاقية فأحيوا بملازمتهم لتلاميذهم روح الأمة، وبعثوا فيها روح الاسلام من جديد.

وفي هذا المناخ الصالح الذي أوجده العلماء العاملون أنجبت الأمة قادة مؤمنين صالحين أمثال نور الدين زنكي وعماد الدين وصلاح الدين الأيوبي، وهيأت جند العقيدة الذين قاتلوا تحت راية الاسلام والتحرير التي رفعها نور الدين وصلاح الدين رضي الله عنهما.

من أعمال صلاح الدين قبل فتح القدس:

لقد كان من أبرز أعمال صلاح الدين قبل أن يوجه ضربته القاصمة للصليبيين في معركة حطين نجاحه في

ميدانين عظيمين لتعبئة قوى الأمة الروحية والمادية لإحراز النصر.

أ - تعبئة لقوى الأمة الروحية فكان لكثرة ما بنى من مدارس دينية وزوايا وربط وتكايا، حتى قيل لقد بنى نور الدين وصلاح الدين من المدارس والزوايا والربط أكثر مما بنى من القلاع والحصون. وأحكم صلته بالعلماء العاملين يسمع منهم، ويهتدي بهداهم، وحوّل التوجيه العام في الأمة إلى هدف واحد، وهو إحياء روح الإيمان والجهاد والحنين إلى رسول الله ﷺ ومسراه في القدس الشريف، حتى كانت أغنيات الأعراس والمناسبات كلها مدائح نبوية وأناشيد دينية تذكي في الأمة روح الجهاد والاستشهاد والحنين الى المسجد الأقصى والعزم على تحريره وإنقاذه.

وما كان صلاح الدين رضي الله عنه في خطته هذه إلا متبعاً آثار سلفه العظيم نور الدين زنكي رحمهما الله تعالى.

وكان للأدباء والشعراء دورهم في هذه التعبئة المعنوية للأمة. وهذه أبيات للشاعر ابن القيسراني يصور فيها آمال الأمة في تحرير القدس بعد انتصارات أحرزها المسلمون على الصليبيين:

كـأني بهـذا العزم لا فـل حـده
وأقصاه بالأقصى وقد قُضِيَ الأمر

وقد أصبح البيت المقدس طاهرا
وليس سوى جاري الدماء له طُهْر

وصلت بمعراج النبي صوارم مساجدها شفع وساجدها وتر

وقد أدت البيض الحداد فروضها
فلا عهدة في عنق سيف ولا نذر

وفتح قلعة حلب في صفر يبشر بفتوح القدس من قريب في رجب قال الشاعر:

وفتحكم حلب الشهباء في صفر مبشر بفتوح القدس في رجب

وهكذا كان الأدباء والشعراء يستحثون الجيوش لإدراك يوم النصر حتى بلغ بهم الأمر أن يعينوا الموعد ويحددوا التاريخ.

وكان فتح القدس كما رجوا من الله وأمّلوا في السابع والعشرين من رجب يوم الاسراء والمعراج يوافق تاريخ الفتح الروحي في عهد رسول الله ﷺ تاريخ الفتح العسكري في عهد صلاح الدين رضي الله عنه.

واجب أجهزة الاعلام في معركة المصير:

وإذا نجح نور الدين وصلاح الدين رضي الله عنهما بتعبئة الأمة للجهاد والتضحية عن طريق الاعلام الذي كان في ذلك العصر: المسجد والمدرسة والزاوية والقصيدة والأغنية والاحتفالات الخاصة والعامة، فكانت كلها تهدف إلى رفع الانسان المسلم وتحريره من الهبوط في أهداف الحياة الصغيرة من أكل، وشرب، وشهوات، إلى مستوى الحياة الكريمة في الجهاد، والبذل، والتضحية، فما عاد أحدهم يشعر بفرحة الحياة على ما رزقه الله من مال أو ولد أو ملك، والمسجد الأقصى أسير يعبث بحرمته أعداء الاسلام.

يروى أن الوفود عندما دخلت على نور الدين تهنئه بالملك، كان مطرقاً حزيناً.. وعندما تجرأ أحدهم وسأله عن حزنه في يوم الفرح أجاب: كيف أسر والمسجد الأقصى في أسر الأعداء.

وكان وراء هذه التعبئة المعنوية والإعداد الروحي للأمة قيادة مؤمنة صالحة وعلماء عمليون صالحون. وأذكر هنا أن أمين سر صلاح الدين ورفيق جهاده هو العلامة المجاهد ابن شداد رحمه الله تعالى. وأن مجالس نور الدين

وصلاح الدين كانت عامرة بالعلماء الصالحين. وإذا كان القادة وكبار الموظفين يلزمون دوماً في هذه المجالس السكوت إلا بعد سؤال، فإن العلماء كانوا يتحدثون ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويذكرون بالله، ونور الدين وصلاح الدين.. يسمعان، ويتجاوبان، ويشجعان.

وقد أحسن الشاعر المسلم عندما قال في وصف هذه القيادة المؤمنة الشجاعة

جمع الشجاعـــة والخشوع لربـــه

مـــــا أعظم المحراب في المحراب

ب - أما التعبئة الأخرى التي نجح صلاح الدين في تهيئتها فهي توحيده لجهود الأمة المادية وقضاؤه على الفرقة والانقسام وسلك لتحقيق هذه الغاية الخطوات التالية:

١ - تدعيم مركزه في الداخل وتأمين حدوده.

٢ - إزالة الخلاف بين زعماء البلاد الاسلامية وتوحيد مصر وسوريا.

٣ - الإعداد العسكري للجيوش وتجنيد قوى الأمة ليوم النصر، وقضى رحمه الله تعالى سبعة عشر عاماً وهو يجاهد ويعمل حتى تمكن من توحيد الجبهة الاسلامية وأذكر على سبيل المثال الأمور التالية:

- وجه ضربته القوية إلى الباطنية والحشاشين الذين تعاونوا مع الصليبيين

- أرسل إلى أخيه العادل في مصر ليبعث بالأساطيل ليحكم الحصار على الصليبيين من ناحية البحر، ويصف المؤرخون هذه الأساطيل بأنها جاءت كالأمواج تلاطم أمواجاً وأفواج تزاحم أفواجا »

نزل صلاح الدين بقواته على القدس في منتصف رجب ٥٨٣هـ الموافق ١١٨٧م. بعد انتصاره في حطين دارت المعركة في مقابل باب العمود، في ٢٠ رجب استسلم الصليبيون وطلبوا الصلح وسلمت المدينة ودخل المسلمون القدس في ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ - ١١٨٧م.

خطبة الجمعة بعد تحرير المسجد الأقصى:

وخطب في أول جمعة تقام بعد تحرير المسجد الأقصى من الصليبيين قاضي دمشق الشيخ محي الدين بن زكي الدين بدأها بقوله:

« فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.... إلى أن قال: أيها الناس أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى لما يسره الله على أيديكم من استرداد

هذه الضالة من الأمة الضالة وردها إلى مقرها من الاسلام..
الله أكبر فتح الله ونصر وغلب الله وقهر، فأذل الله من كفر.

كيف وقعت القدس وفلسطين مرة أخرى في الأسر:

وما زالت راية الإسلام ترفرف على هذه الربوع منذ عصر صلاح الدين متصلة بالراية التي رفعها رسول الله ﷺ بعد هجرته من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة تصنع هذه الراية الوحدة والقوة. وقد وحدت بين الشعوب المسلمة على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وألوانهم، وعبثاً تحاول اليهودية والدول الغربية الاستعمارية أن تنال من حمى الاسلام.

وقد طرد رسل اليهود إلى السلطان عبد الحميد شر طردة عندما عرضوا عليه فكرة إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين مقابل أن يسد اليهود ديون الخزانة العثمانية ويقدموا لها هبة مالية كبيرة.

ولكن اليهود الذين خابوا في تحقيق هدفهم عن هذا الطريق، عملوا في خط آخر وهو التنظيم السري الماسوني الذي ظهر تحت عناوين كثيرة منها جمعية الاتحاد والترقي، وإصلاح الدستور، واستغلوا أسوأ استغلال أخطاء الدولة العثمانية، وكبروها وضخموها، ليقطفوا ثمرتها على يد كمال

أتاتورك الذي ألغى الخلافة الإسلامية، وحقق حلم الدولة الصليبية واليهود وروسيا بتمزيق وحدة العالم الاسلامي، وتقسيمه إلى دويلات ومستعمرات، يحكمون سيطرتهم العسكرية والثقافية والاقتصادية عليها. وكان الغزو الثقافي ماكراً خبيثاً مخططاً عمل في ميدان:

١ - المدرسة ووسائل التوجيه، حيث وضع كرومر الانجليزي مناهج التربية والتعليم في مصر، وقلدته الدول العربية، ووضع الفرنسيون مناهج الدراسة في بلاد المغرب كلها، لينشأ جيل جديد أسماؤه اسلامية ولكن أفكاره وأسلوب حياته وأهدافه في الحياة غربية، ثم قامت الجامعات لتؤدي هذا الدور الخطير في الأمة عن طريق المستشرقين وتلاميذهم.. والجامعة الأمريكية في مصر وبيروت، والجامعة المصرية، وظهور كتاب «الأدب الجاهلي» لطه حسين الذي يشكك فيه بلغة القرآن، والإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرازق- الذي يشكك فيه بفكرة الخلافة الاسلامية، وأنها ليست من الدين، وما محمد ﷺ إلا مبشر ونذير ليس له هدف في حكم أو دولة أو تشريع.. ما ظهور مثل هذه الكتب في هذه المرحلة إلا

كاشف لأهداف الجامعات والمدارس في هذه المرحلة، وموضح كيف تمكن المستعمرون باسم العلم والدراسة الجامعية والحرية الفكرية من السيطرة على أجهزة التوجيه والتربية التي من شأنها أن تربي الشخصية الاسلامية، وتعد الأمة للتحرير الكامل، فقامت هذه الأجهزة بدور مناقض للدور الذي يرجى منها.

وما ظهور الأحزاب القومية العلمانية وانتشار شعاراتها في بلاد المسلمين، ثم ذوق الأمة لنكباتها وهزائمها في ظل هذه الأحزاب إلا ثمرة مرّة لهذا الغزو الفكري في بلاد المسلمين.

٢ - أما الميدان الآخر فهو ميدان أسر المسجد بالمحافظة على الشعائر الاسلامية الظاهرة ومنعه من أداء رسالته حتى لا تستيقظ الأمة لخطط العدو الماكرة... فما دامت المساجد والصلاة قائمة والآذان يتعالى والقرآن يتلى من الإذاعة، فالاسلام بخير، ولو أنه ينحر عقيدة وخلقاً وسلوكاً في شعور أبناء الجيل عن طريق المدرسة والإذاعة والتلفاز وأجهزة التوجيه بمكر ودهاء وأحكام متخذة من قيم الحضارة الغربية المادية هدفاً ومنهجاً.

إن تخدير الأمة باقامة الشعائر الدينية الظاهرة. وحصر المسجد والتوجيه الديني في نطاق ضيق، تفرض عليه الكلمة التي تدخل كل بيت، والموعظة الحسنة التي يفسرونها، بأن لا تمس من قريب أو بعيد مشاعر الحاكمين، كأن نصيحتهم وتبصيرهم بما ينفعهم في الدنيا والآخرة أمر يخالف ما أمر الله به في كتابه «الذين إن مَكَّنَّاهُم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور».

وهكذا نجد أن وقوع المسجد الأقصى وفلسطين في الأسر إن هو الا نتيجة لمقدمات إبعاد الاسلام عن الحكم والتوجيه والحياة. وغزو الشخصية الاسلامية وإبعادها عن روحها الايمانية العابدة والمجاهدة والمضحية الباذلة.

مخططات اسرائيل بعد احتلال فلسطين.

بعد أن تمكنت الصهيونية من تحقيق حلمها بانشاء ما يسمى بدولة اسرائيل واحتلال فلسطين والقدس والمسجد الأقصى المبارك عامي ١٩٤٨، ١٩٦٧، في ظل الأنظمة المرتبطة بالغرب وبالشرق، وفي ظل القومية العلمانية المعادية للاسلام، المصرة على إبعاده عن الحكم والحياة، وفي ظل

الديكتاتورية والعنف وإسكات الأصوات، وضرب الحركات الاسلامية وزج دعاتها بالسجون وتقديمهم للمحاكمة بتلفيق التهم الكاذبة لهم، وتنفيذ أحكام الاعدام والسجن الظالمة بالعلماء والدعاة والأئمة. بعد هذا كله برز مخططان لإسرائيل في المنطقة.

١ - المخطط الأول داخل الأرض المحتلة، ويظهر:

أ - بتهويد الأرض والمقدسات عن طريق مصادرة الأوقاف الاسلامية ومصادرة الأرض من أصحابها وإقامة المستوطنات اليهودية عليها في القدس والخليل ونابلس وجنين وغور الأردن وسائر أراضي فلسطين المحتلة. كوقفيات المغاربة وأبي مدين الغوث والمحتسب وخاسكي سلطان زوجة السلطان سليمان العثماني.

ب - بتهويد المناهج الدراسية وذلك عن طريق تحريف كتب التربية الاسلامية والتاريخ الاسلامي، ونزع كل ما يتعلق بحق المسلمين في فلسطين منها، وما يزكي روح المقاومة والشخصية العربية والاسلامية

جـ - تشجيع هجرة العرب وخروجهم من فلسطين، وذلك بتضييق سبل العيش عليهم، وتيسير فتح المجال لهم في الخارج.

د - نشر المبادىء الملحدة وتشجيع حزب راكاح الشيوعي ليعمل بين العرب ومحاربة الحركات الاسلامية.

هـ - فتح نوادي الليل وتيسير سبل الغواية والفساد بين الشباب والعمال العرب الذين يعملون في مصانع اليهود باعطائهم بطاقة مجانية لممارسة البغاء، وتسليط الفتيات اليهوديات عليهم وذلك حتى يقتلوا ايمانهم وشخصيتهم الاسلامية، ويخدروا رجولتهم بأفيون الجنس، ويلهوهم بمسرات الحياة ومتعها الرخيصة.

و - العمل على الغاء الأسماء الاسلامية عن الشوارع والمدن والجبال وتسميتها بأسماء يهودية - والعمل على إلغاء كل ما يتعلق بالتراث الاسلامي في فلسطين وطمس معالمه.

ز - وقد تجسد هذا بجريمتهم الكبرى في إحراق المسجد الأقصى المبارك في ٧ جمادى الآخرة ١٣٨٩ هـ الموافق له ١٩٦٩/٨/٢١، وقد أتت هذه الجريمة الهمجية الوحشية على أجزاء تاريخية عزيزة غالية في المسجد الأقصى. منها: منبر نور الدين الذي صنعه في حلب قبل فتح القدس بسنوات. وجاء به صلاح الدين وأركزه في مكانه داخل المسجد بعد الفتح.

وكذلك صلاة الحاخام بريغادير شلوموغورين، حاخام جيش الدفاع الاسرائيلي في ١٩٦٧/٨/١٥، في ساحة المسجد الأقصى المبارك ومعه أتباعه.
وكذلك الحفريات اليهودية في المسجد الأقصى مؤشرات واضحة تبين هدف اسرائيل في هدم المسجد الأقصى وبناء ما يدعى بهيكلهم المزعوم على أنقاضه.

ح- وتعرض مسجد الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام للعدوان وأقام اليهود داخل المسجد كنيسا يهوديا، واعتدوا على المصلين المسلمين داخل المسجد عدة مرات ومزقوا فيه القرآن الكريم والكتب الدينية.

ط - تنكيلها بالشباب المسلمين وملء السجون بهم وتعريضهم لأشد أنواع العذاب، واخراج من تريد بالقوة، كل هذا لتفرغ أرض فلسطين من أهلها وتأتي بمهاجرين يهود من الخارج. ولتقضي على المقاومة والانسان بعد أن احتلت الأرض. هذه بعض بنود المخطط الصهيوني داخل اسرائيل، أما مخططه خارج اسرائيل فيتضح بما يلي: -

١ - إثارة أسباب النزاع والانقسام بين العرب والمسلمين وتزكية الخلافات الاقليمية والطائفية لإلهائهم بها.

٢ - تعريض أكبر حصن للاسلام والمسلمين وهو مصر

لظروف اقتصادية ونفسية خطيرة، حتى كان الجوع والفقر والمرض، وكانت المآسي النفسية والاجتماعية لهؤلاء الــــذين يقاتلون ويتعرضون لأشد أنواع الارهاب النفسي، وهم يرون الكثيرين من اخوانهم العرب يلهون ويسرحون ويمرحون بما آتاهم الله من نعم المـال........ فشعر الانسان المصري أنه هو وحده الذي يعاني مرارة النكبة والحرب.... وغيره يتحدث وهو مستريح. وكان واجب الدول العربية مجمعة الا تعرض هذا الحصن الحصين لهذا الامتحان الرهيب - وأن تكون الوحدة الاقتصادية الكاملة بين البلد الذي يمد الأمة العربية بكفاءات الرجال والمقاتلين وبين البلاد التي حباها الله نعمة المال الوفير ليكون التكامــل وتكون المعركة معركة الأمة الاسلامية العربية الواحدة.

٣ - المناداة بالسلام مع اسرائيل كان الجريمة الكبرى، والدعوة الى اجتياز حاجز الخوف والكراهية مع من احتلوا الارض ودنسوا المقدسات - كان الثمرة المرة للأوضاع العربية القائمة على الانقسام وايقاع الأخ بأخيـه وابعاد الاسلام عن الحياة.... والله

سبحانه وتعالى يحرم مودة المحاربين لله ورسوله صلى الله عليـه وسلم ، قال تعالى : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو أزواجهم أو عشيرتهم - » .

« انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

٤ - ضرب الحركـات الاسلاميـة ، واختـلاق التهم والافتراءات لضربها ، لتفرغ الجبهة الداخلية من المقاومـة الحقيقيـة الشعبيـة للصهونيـة والاستعمار ومخططاتها ، وقد عرف أعداء الاسلام خلال التاريخ أن الاسلام وحده هو الذي يلهب كفاح الجماهير بعقيدة الجهاد والاستشهاد ، والاسلام وحده هو الذي يحرم أي لقاء مع المخططات اليهودية تحت أي عنوان أو شعار ، وقد حسم القرآن الأمر وارتبطت فلسطين بالاسلام عقيدة وقرآنا ونبيا .

أطماع الصهيونية خارج فلسطين .

كتب اليهود على باب كنيسهم : من النيل الى الفرات

ملكك يا اسرائيـل ، وهذا الهدف اليهودي يربى عليه المواطن الاسرائيلي في المدرسة والبيت وهم يدرسون لطلابهم في مدارسهم: أن عمان والسلط وجرش ومأدبا . وغيرها من مدن المملكة الاردنية الهاشمية . بأنها مدن اسرائيلية .

وأطماع اسرائيل تمتد اليوم الى السعودية ومنطقة الخليج حيث آبار البترول ، وحيث تجد الدول الاستعمارية فرصتها لاحكام سيطرتها عليها عن هذا الطريق .

وهذه بعض الحوادث أذكرها للدلالة والتاريخ :

١ - في أثنـاء الحرب العالميـة الثانيـة توجه الرئيس روزفلت بطلب الى المرحوم الملك عبد العزيز آل سعود يعرض فيه أن تسمح السعودية لليهود بطريق الى خيبر ، مقابل مبلغ يدفع للملك عبد العزيز ، فرفض الملك عبد العزيز هذا العرض بإباء وايمان .

٢ - هناك حركة يهودية داخل الارض المحتلة اسمها : خيبر .

٣ - قالت وزيرة خارجية اسرائيل السابقة وهي على فراش الموت: إنني أشم رائحة أجدادي في خيبر .

٤ - قال الجنرال موشى ديان وزير خارجية اسرائيل

السابق في اجتماع مغلق مع الممولين اليهود عندما سافر اليهم بعد الخامس من حزيران /١٩٦٧،، طالبا المزيد من الدعم والتبرعات: اذا كنتم تعتقدون أننا هزمنا العرب بالحرب، بمعركة الأيام الستة فأنتم جاهلون الحقيقــة... انـنـا هزمناهم بالرشوة... بالأموال التي دفعتموها لنا... اننا رشونا كل من له علاقة بفلسطين، اننا لا نريد فلسطين للبكاء على الهيكل. اننا تجار في هذه الأيام... ان هدفنا هو المنطقة بأسرها المنطقة الهامة التي تتحكم بالممرات المائية والثروات البترولية التي تسير العالم، نأمل أن تتابعوا تبرعاتكم حتى نكمل سيطرتنا ونصبح أسياد العصر وشعب الله المختار (مذكرات وايزمان - ص ص /٩٣٩).

وبعد.. إن في ذلك لعبرة.. وإن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.،،،،،

دكتور /إبراهيم زيد الكيلاني
الجامعة الأردنية/ كلية الشريعة
الأردن - عمان

لمحات

حول الإعلام في الإسلام

للدكتور محمد عبده يماني

«السعودية»


لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية
الدوحة - محرم ١٤٠٠ هـ

بسم الله..

والحمد لله خَلَقَ وَعَلَّم..

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد خير من علم وأصدق من أعلم..

وبعد..

فحيا الله هذا اللقاء، وبارك الداعي اليه، ووفق المستجيبين له وأعاننا على مهمتنا حتى يبلغ اللقاء أهدافه، ويحقق استشرافه.

والحق ان هذا اللقاء بجميل اسمه، وأمل الإخلاص لمُسَمّاه يعتبر من أهم اللقاءات وأولاها بالصدارة وأجدرها بالاهتمام. فالتضامن بكل صوره وألوانه، وفي جميع مناحيه ومجالاته يعنى تكامل الهبات لتتكافل، وامتزاج المواهب لتتفاعل، وبهذا يحيا الجزء في ضمان الكل، ويعيش الكل ضمن جميع الأجزاء.

ولقاؤنا هذا لا يؤتى ثماره الا اذا تحقق له وحدة الفهم للمبدأ الذي نحرص على تحقيقه، ونسعى جاهدين لتأصيله وتوثيقه، ونعمل بكل عزم لسيادته وتطبيقه. ولا سبيل لوحدة الفهم الا وحدة الإفهام، ولا أمل في وحدة الإفهام

الا أن تتضامن جميـع الوسائل ومنها وسائل الإعلام، وبهذا التضامن تتساند الجهود ولا تتعاند، وتتوحد ولا تبدد، واصطراع البشرية في معسكراته وتكتلاته واللدادة بين مذاهبهاومعتقداتها، وكل ما تعانيه البشرية من هول ونزاع وتناحر، كل ذلك اثر من اثار ما يفرز الإعلام من شهوات مسلطين، وتزين أوهام لمضللين.

واذا كانت وسائل الاعلام في الأمم الاسلامية لم تبلغ مرتبة الوصاية على الاعلام العالمي، فإنها تحرص اليوم على أن تلتزم هي بالدورة في فلك الدين الذي ارتضته أممها، وتميزت به شخصياتها. وبهذا يظل الاسلام محور كل وسيلة، وجوهر كل تخطيط، وهدف كل منهج.

والاسلام بعلو مبادئه، وواقعية تشريعاته، واستيعابه لكـل أقضية الوجود ومجالات التَّحَرُّك، وتغطيته لكل مطالب الحياة الجادة كفيل بقيادة الانسان ليحقق خلافته في الأرض إعمارا يعين عليه طموح الفكر، وعزم الطاقة في إطار من القيم التي تحمى الحضارة أن تنهار، وتصون المدنية أن تنحرف.

وحتى ينهض الإعلام الاسلامي بذلك الدور، يجب عليه أولا أن يعرف خط موقعه من التأثير في صياغة الأجيال

والجماهير، بما يملك من عديد الأجهزة وألوان التعبير، بالكلمة تقرأ، فتؤثر. أو تسمع فتستميل، وبالرسم يفصح، وبالصورة توضح، وبالحركة تغرى، وبالموسيقى تهدهد، وبالغناء يهيج، وسائل لم تدع لعين غمضا، ولا لأذن سدا، ولا لنفس اعراضا. ولا لملكة انغلاقا، وليتها تعفى من لا يملك وسائلها، فقد اقتحمت على الناس مراقدهم، وفشت في الناس اريحية الدوي فلم يرحم الخلى احزان الشجى.

وسائل بهذه الكثرة، ولها هذا التغلغل تجعل مسئولية القائمين عليها والعاملين فيها جسيمة، فهم محاسبون على كل ما ينشرون ويبثون، لهم أجر من انفعل بخير ما قدموا فاستقام، وعليهم وزر من انفعل بشر ما أعلموا فانحرف.

وهم في خضم هذه المعركة يعملون بكل اجهاد، يسألون الله الهداية والتوفيق، ويتلمسون طرق العلاج، وهم في اجتهادهم هذا يخطئون ويصيبون وخطؤهم اكثر من صوابهم.. ولكن آمالهم في عفو الله اكبر، وهو يعرف مدى نوايا المخلصين فيهم، وابعاد المحنة التي هم فيها، وهم في أمس الحاجة الى التعاون معهم والأخذ بيدهم بدلا من الإعراض عنهم أو هجرهم، أو التأليب عليهم، أو اتهامهم

بما ليس فيهم، ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم القدوة الحسنة في طريقة توجيه المجتمع باسلوب يرجح ولا يجرح، وينصح ولا يفضح.

وهم يحرصون على أن يجددوا مهمة الإعلام في إطار اسلاميتهم حتى لا تحمل أوعية الاسلام اسم الاسلام الا ومعه مسماه، لأن وسائل الاعلام حين تحمل الاسم دون المسمى تكون أخطر في الهدم حتى من وسائل الخصم.

وهذه المهمة يجب أن يخطط لها بعمق تخطيطات تتعانق فيه فنون الاعلام بمفهوم الاسلام التقاء خادم بمخدوم، ووسيلة لغاية. وما دمنا مؤمنين بالله فيجب أن نسلم قيادتنا اليه اسلام الواثق بمن يعلم من خلق، وكما قال أحد الدعاة الاسلاميين:

«الانسان صنعة الله وصانع الصنعة أولى بوضع قوانين صيانتها»

ولا توجد صنعة من صناعة البشر تضع لنفسها قانون صيانتها، فلماذا لا نتعامل مع الله، كما نتعامل مع صناعاتنا.

تلك أول مهمة يجب أن تؤصلها في النفوس وسائل الاعلام حتى تصبح قضية مسلمة، تفتح المدخل لكل قضايا الاسلام، وبهذا تشرح كيف أعز الاسلام الانسان، فلم

يجعل انسانا يشرع وانسانا يتبع. وحين تنتفي تبعية بشر لبشر تكون العزة، ويصبح الناس بحق سواسية كأسنان المشط، أكرمهم أتقاهم، وسيدهم أعبدهم.

وتحاول وسائل الاعلام الاسلامية اليوم أن تجنِّد - لشرح قضايا الاسلام - العالمين من المتخصصين الهادين، حتى لا يقف أحد ما ليس له به علم، ولا شك أنها في بعض الاقطار تلقى الكثير من المصاعب قبل أن تنجح في إقناع العلماء المخلصين في التعاون معها لأنها تدرك أن الإسلام حين يعرض بصور صحيحة ترجح كفته على سائر ما وضع البشر للبشر، وسيفضح هذا العرض كل المذاهب الوضعية حين تقارن به في كل جانب من جوانب الحياة:

عقيدة: تتسم باليسر لأنها دين الفطرة، وبالوضوح لأنها عقيدة التوحيد.

وسياسية: تجعل الحكم تكليفا لا تشريفا، وتبعة لا تسلطا. والمسلمون كلهم أمة واحدة تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم، دستورهم القرآن، وقانونهم ما شرع الاسلام، وحاكمهم أول محكوم به، ومهمته تنفيذ لا

تشريع ، تسعفه الشورى ، ويعينه التناصح ، ويمده الاجتهاد .

واجتماعية :تسوى بين الناس عبودية لله ، ونسبا الى آدم ، فلا تميز لعنصر ولا سمو للون ، ولا فوق لسلالة ، ولا سيادة لطبقة ، كلهم في الحق سواء ، وأمام الواجب أكفـــاء ، يجمعهم نسب الاسلام ، وأخوة الايمان ،قويهم ضعيف حتى يؤخذ منه ، وضعيفهم قوي حتى يؤخذ له ، يتفاضلون بالتقوى ويتعاونون على البر ، أمر بمعروف ونهي عن منكر ، يتكافلون ويتعاطفون ، وكلهم جسد واحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

واقتصاديـة : تكفل للناس جميعا فرصة العمل حتى لا تبقى طاقة معطلة ، ولا يوجد احتراف لفقر ، تسخى الواجد ليبذل ، وترفع همة الفقير ليعمل ، والمال كلـه لله اصلا وللناس استخلافا ، وهو وسيلة ليخدم وليس غاية ليسود ، يبقى على الحوافز ليدفع على العمل ، ولا يطلقها لتسيطر فتستغل ، لا يهدر الفوارق ولا يطغيها بحكم وسائل الكسب

ووجوه النشاط ، فلا يستنبط المال الا من حل ، فلا ضرر ، ولا يثمر الا في مشروع فلا ضرار ، ولا يصرف الا في خير فلا إفساد.

وللفقير في مال الغنى حقه المعلوم ، واجبا لا منَّة ، وفرضا لا تفضلا ، وفي فضيلة التطوع والإيثار ما يقضى على العدم ولا يبقى على الاقتار.

وتربوية: يجعل العلم فريضة ، ويحث عليه من المهد الى اللحد ، تمتزج فيه علوم القيم من دين وخلق بعلوم المادة من تجارب وابتكار حتى يزود النشء بما يسعد حياته من فنون تتطلبها الدنيا وزاد تستلزمه الآخرة ، وبذلك يخرج النشء سَوِيّ التكوين متناسق الملكات يعرف موقعه من الوجود ومهمته في الحياة.

وبحسن العرض لهذه المزايا في الاسلام ، تهزم المذاهب الوضعية وتزداد ثقة المسلم باسلامه ، ويعتز بنعمة ايمانه. وتربى عنده مناعة ايمانية ، وحصانة اسلامية ضد وافدات الشر ، ومستوردات الانحراف مهما زيفت شعاراتها وزور طلاؤها ، ومهما آفتنَّتْ وسائل الإعلام في عرضها ، وتعددت

اسلحة القهر عليها، ولن يطول بالمسلم انتظار فشلها وانتحارها على أيدي دعاتها.

ولا شك أن مسئولية وسائل الإعلام الاسلامية اليوم أن تؤصل في نفوس المسلمين وغيرهم أن الاسلام لم ينزل اليوم ولم يشرع الساعة، بحيث يعوزه تصديق الواقع وشهادة التطبيق.

فالاسلام له واقع سجله التاريخ، وله تطبيق استوت به حضارة وأسست عليه مدنية، حين كان خصوم الاسلام اليوم في ظلمات حجرت على الفكر أن ينطلق وكبلت الطاقات أن تثب، وظل الاسلام على سيادة العالم قرابة ألف عام حتى التحموا به وعرفوا سرقوته، فأجمعوا عليه أمرهم وأخذوا عنه أسس حضارتهم وفتتوا تجمعه في خلافة، وحاولوا فتنة أهله استعمارا وتقطيع أوصاله.

ولما أعيتهم الحيل لجأوا الى التشكيك في الاسلام كتابا ورسولا ومنهجا، ولم يكفهم مستشرقوهم فاستعانوا بالمستغربين من المسلمين الذين صنعوهم على أيديهم، ومكنوا لهم من قيادة افكار شعوبهم فساسوا أممهم بما رسمه لهم سادتهم، وعزلوا الاسلام عن مجالات الحياة.

ولكن لطف الله حمى مطلع الاسلام من كيدهم، فبقي مهبط الرسالة خالصا لله يصلح به آخر هذا الأمر كما صلح به أوله.

ولقد شهدت الأحداث الاخيرة اننا بحمد الله حين توحدت قلوبنا وتساندت إمكانياتنا استطعنا - بما وهبنا الله من تحت أرجلنا - أن نذل أعناق الجبارين، وأن تهرع الينا أنفة المتغطرسين حتى أصبحنا موضع عزل الخصوم تشبيب الاعداء.

وفي هذا الدرس ما يقربنا بالمزيد من التآلف والتعاطف والتكاتف.

واذا كنا قد استطعنا بحمد الله: أن نلفت الدنيا الينا بحسن استغلالنا لما خصنا الله به من مادة، فلماذا لا نلفت الدنيا لحسن ما وهبنا الله من سماوي القيم، فلو أننا أحسنّا استغلال ما في الاسلام من نفائس وكنوز بحسن العرض وجمال الاعلام، وأكدنا ذلك بواقع تطبيقي ونموذج سلوكي لجذبنا الدنيا كلها لتستريح في أحضان هذا الدين من شراسة مسلطين لا يرضيهم الا أن يكونوا ظالمين.

الإعلام قبل الإسلام:

لقد شرف الله تعالى العرب بأن حملهم مسئولية الدعوة

الى سبيله ، وقت أن شاء أن يكون خاتم رسله عربيا ، وأن يتنزل كتابه الكريم باللسان العربي ، وأن يكون العرب هم أول من تبلغهم هذه الرسالة..

فكيف كان حال العرب قبيل ظهور الاسلام ونزول الرسالة الإلهية؟ كانوا - كما نعلم - يعيشون في مجتمع جاهلي يتوزع ، قبائل وأفرادا ، على أجزاء من شبه الجزيرة العربية وأطرافها ، وله تقاليده ، وأسلوب حياته ، التي لا تجد لها مثيلا في غير هذه البقعة من العالم ، ورغم هذا التوزع والتباعد السكاني والجغرافي ، فإننا نعرف كثيرا جدا - من تفاصيل حياتهم وأحداثها ، كبيرها وصغيرها ، فكيف حدث ذلك؟

حدث ذلك عن طريق ممارسات إعلامية طريفة ، لا أحسب أن أمما أخرى غيرهم قد طبقتها كما طبقوها هم.

هناك الشعر مثلا..

ان الشعر - كما نعلم - قد لعب دورا بالغ الأهمية في المجتمع العربي ، قبل الاسلام وبعده ، وعن طريقه وصلت الينا أخبار العرب على النحو الذي نعرفه. أقول «أخبار» وهذا تعبير إعلامي حديث ولكنه كان مستعملا عندهم بالكلمة نفسها والمدلول نفسه.. إذ ذاك..

كان الشاعر أشبه ما يكون بجريدة متنقلة، أو اذاعة متنقلة.. كانت كل أحداث القبيلة، من سياسية واجتماعية، تسجل شعرا، ببلاغة عظيمة وبيان فصيح، فتتناقلها القبائل، ومنها تعرف ما يدور لدى القبائل الأخرى..

كان الشاعر العربي يرصد الأحداث ويتابعها، ويحللها ويسجلها ثم يرسلها في قصائد قد تطول أو تقصر، ولكنها - في معظم - الأحوال تحمل مضمونا إعلاميا لا شك فيه..

واستطيع بهذه العجالة أن أصنف هذا الشعر الى نفس ما تصنف به الجريدة الحديثة في عصرنا هذا..

فهناك أخبار الحروب، والعلاقات بين القبائل، سلبية كانت ام إيجابية، روتها لنا قصائد شعراء فطاحل في مختلف ادوار التاريخ العربي، ومنها عرفنا هذا الجانب من الأحداث..

وهناك الأخبار الاجتماعية.. لا سيما أخبار الهوى، على مثل ما تعنى به بعض الصحف العصرية، من ان فلانا أحب فلانة،. وأن فلانا تزوج فلانة، وأن لفلان أو فلانة مزايا كذا وكذا.. أو عيوب كذا وكذا.. فما يكاد يختلف المضمون

عما هو معروف في أيامنا هذه من باب الأخبار الاجتماعية في الصحافة الحديثة.

وهناك التعليق.. سياسيا كان أم اجتماعيا.. وقد بلغ به الشعراء شأوا عظيما بحيث كان لكل قبيلة شاعر أو اكثر يتحدث بلسانها ويعرب عن رأيها ويحدد موقفها.. ويمدح اصدقاءها، ويهجو خصومها، ويتهدد، ويتوعد ويحلل، ويتفحص، فيتلقف الناس هذه القصائد بمثل ما يتلقف به الناس أيامنا هذه كتابات كبار المعلقين في الصحافة والاذاعة والتلفزيون..

وأود أن اؤكد هنا على ما اشرت اليه، من ان هذه الممارسة الاعلامية الفريدة لم تعرف في مجتمع ما كما عرفت في المجتمع العربي القديم.. واذا كان بعض شعراء الاغريق كهوميروس مثلا، قد فعلوا مثل ذلك، ونقلوا الينا أخبار طرواده، وحروبها، فهو ميروس كان فردا، أما العرب فكانوا كلهم هوميروس، فهم يتحدثون شعرا، ويتخاطبون شعرا،. ويعلنون آراءهم شعرا، ويسجلون وقائع حياتهم شعرا، بحيث بات الشعر مصدرا رئيسيا من مصادر التاريخ العربي السالف، ومنه عرفنا اخبار القبائل، والحروب، والأمجاد،

والعلاقات الاجتماعية، ومنه - بالتالي - استقينا ما صنف بعد ذلك من أخبار العرب..

واكاد أرى، في استعراض دور الشعر في حياة المجتمع العربي، قبل الاسلام وبعده، كممارسة إعلامية لا مثيل لها، موضوعا قائما بذاته، يصلح لدراسات شتى لولا انه - اليوم - وبالنسبة للموضوع الذي نتحدث فيه، لا يشكل سوى جانب يسير من الممارسات الاعلامية التي طبقها العرب، مسلمين وجاهليين، فأكتفى - مع ضيق المجال - بأن أسجل الشعر كنقطة من نقاط الموضوع، وكلون من ألوان العمل الاعلامي، الذي أقبل العرب اليه بالفطرة، ومارسوه بالسليقة، وأصبح معلما بارزا من معالم حياتهم، حتى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان له شاعره، حسان بن ثابت الانصاري رضي الله عنه..

فالشاعر العربي كان - اذا - مخبرا.. ومعلقا.. وناطقا رسميا.. وواضع تحقيقات واستطلاعات صحفية.. وهذه كلها - كما ترون أيها الاخوة - تعبيرات إعلامية حديثة، ولكنها تنطبق كل الانطباق على ماكان الحال عليه عبر سنوات التاريخ العربي كله، ما سبق منه ظهور الاسلام وما تلاه..

واذا نحن اخذنا الإعلام من حيث هو وسيلة اتصال، كما يقول احد التعبيرات الإعلامية الحديثة، فاننا نجد أن المجتمع العربي قد عرف هذا اللون من الاتصالات عبر ناحيتين هامتين كان لهما دور كبير في حياته وهما:

- التجارة..
- والاسواق..

وكانت التجارة مهنة العرب الأولى التي يفخرون بممارستها ويقومون فيها بدور الوسيط ما بين تجارات بلاد الشام وبلاد اليمن..

فكانت لهم اعمال ونشاطات تجارية شتى، حفل التاريخ بأخبارها..

وكانت لهم اتصالات بشعوب أخرى كالفرس والروم..

ولكن التجارة بالنسبة للعرب، ما كانت مجرد بيع وشراء، وانما كانت في الوقت ذاته - ممارسة إعلامية من الطراز الأول، لا أكاد أجد معها فارقا بين ما يحدث اليوم وما كان يحدث بالأمس..

كان التبادل الاخباري - وأعنى هذا التعبير حرفيا - يتم عبر القوافل التجارية، قادمة الى بلاد العرب ومنطلقة منها..

فكان الناس في كل بقعة من البقاع التي تجتازها القوافل، يتساءلون عن الأخبار مثلما يتساءلون عن الاسعار.. أخبار القبائل والمجتمعات الأخرى، وأسعار البضائع والمواد التجارية..

كان التاجر، أو القافلة التجارية، ينقل ما لديه من أخبار، ويأخذ ما لدى سامعيه، لينقلها بدوره الى مجتمعات أخرى في مناطق أخرى، بحيث كانت حركة التبادل الإعلامي نشطة على طول الطريق التي تمر منها القوافل، فيعرف أهل الشام أخبار مكة.. ويعرف أهل مكة أخبار اليمن.. ويعرف أهل كل مدينة أخبار المدن الأخرى، بصورة لا تختلف في مضمونها الفني عما يحدث اليوم من نشاطات مماثلة، وان اختلفت وسائل التبادل فحسب..

ولكن القوافل التجارية لم تكن وحدها وسيلة الاتصال الإعلامية..

فكما نجد اليوم حشودا من أهل الاعلام، صحفيين وإذاعيين وتلفازيين يفدون بأعداد كبيرة من مختلف الانحاء لتغطية الاحداث العالمية الكبيرة..... كانت للعرب صورة مماثلة - أكاد أقول تماما - من خلال أسواقهم الشهيرة، وعلى رأسها بطبيعة الحال، سوق عكاظ.

كانت أسواق العرب هذه، ملتقى جامعا، تقصده القبائل من كل حدب وصوب، وتستعد له استعداد كبيرا، لا سيما على النطاق الإعلامي، فتعهد القبيلة الى أكثر شعرائها كفاءة وعلو كعب، فتدفع به الى حلبة المساجلة مع شعراء القبائل الأخرى، ويتولى كبار الشعراء، كالنابغة الذبياني، تقويم تلك الأشعار، وتحديد مستواها، والمفاضلة فيما بينها، حتى اذا فازت احدى القصائد بالاجماع، أو ما يشبه الاجماع، على قوتها وجمالها وإيفائها بالقصد، علقت على جدار الكعبة، حتى بات لدينا في التراث عشر، وقيل سبع، من عيون الشعر العربي القديم، تكاد تعتبر وحدة قائمة بذاتها بين أشعار العرب، فتدعى بالمعلقات، ويفهم من هذه التسمية أن المقصودة هي احدى تلك القصائد العشر أو السبع..

وكانت الأسواق الى جانب ذلك، مناسبة يتبادل فيها الناس الأخبار، بحيث تنتشر، نثرا أو شعرا، بين الجميع، فعرف هؤلاء ما جرى في مختلف الانحاء، ويتحقق بذلك عنصر هام من عناصر الإعلام وهو تبادل الأخبار، على النحو الذي أشرت اليه قبلا..

وكان من أشهر تلك الاسواق العربية:

سوق دومة الجندل وقد اشتهرت بأنها سوق تجاري يعقد مرة كل عام وهي سوق تجارية وحسب.

سوق هجر:

وهذه أيضا: سوق تجارية كان يديرها أمراء من البحرين وتختص في الدرجة الأولى بتجارة اللؤلؤ.. وبعض البضائع وبصورة خاصة أنواع من المهارات والارزاق التي كانت تأتي من بلاد فارس ومن الهند.

كما كان هناك سوق (عمان) وسوق (جياشة) في أراضي تهامة وسوق (دبى) وسوق (مجنه) وسوق (ذي المجاز).

ولقد بقي بعض هذه الأسواق بعد ظهور الاسلام، وظهرت أسواق جديدة مثل (سوق المربد) التي كانت في مدينة البصرة..

وهناك سوق عكاظ وهي التي كانت اكثر شهرة في أيام الجاهلية..

وبعد ظهور الاسلام.. وقد وقف بها الرسول صلى الله عليه وسلم بعد البعثة بثلاث سنوات..

وكان الرسول عليه أفضل الصلاة والتسليم يدعو الناس

الى الاسلام والايمان بإله واحد لا شريك له ويقصد كل قبيلة في منازلها ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول للناس:

قولو لا إله إلا الله تفلحوا وتنجحوا

وكان الشعراء يفدون الى هذه السوق يعرضون شعرهم وأدبهم عـــلى المحكمـــين.. يستحسنون مـــا يستحسنون ويستنكرون ما يستنكرون.. وتنشر أخبارهم في أنحاء الجزيرة..

وكان الخطباء أيضا يفدون لهذه السوق.. يخطبون في شتى الموضوعات وكانت تعقد كذلك ندوات ثقافية وسياسية واجتماعية. وكانت القبائل تتداول شتى الأمور والشئون في هذه السوق وفي غيرها.

وقد يكون من المفيد، أيها الاخوة، أن ألمس من بعيد ناحية ليست بعيدة من العلوم العصرية، وأعنى بها التوثيق الإعلامي..

فلقد انفرد العرب في مجال التوثيق بخصيصة ما عرفت عند غيرهم، لا قبلهم ولا بعدهم، وهي ما يسمى بالأنساب، أو علم الانساب.. ولعل أجمل تعريف لهذا الفرع الذي يعتبر فرعا هاما من فروع الإعلام - عنيت به التوثيق بوجه عام - هو ما قاله النعمان بن المنذر لكسرى حيث جرى

بينهما حوار . حاول كسرى فيه أن ينتقص من قيمة العرب ، وأن يعرب عن استخفافه بهم ، وتصنيفهم في آخر درجة بين الأمم . فرد عليه النعمان يفند كلامه جملة جملة ، ويبين له فضائل العرب وشيمهم ، حتى اذا تطرق الى الانساب قال ما أعرضه لكم بالحرف الواحد :

« وأما أنسابها واحسابها ، فليست أمة من الأمم الا وقد جهلت أباءهاوأصولها ، وكثيرا من أُوَلها ، حتى ان احدهم ليسأل عَمَّن وراء أبيه فلا ينسبه ولا يعرفه ، وليس أحد من العرب الا ويسمى آباءه أبا فأبا . حاطوا بذلك احسابهم وحفظوا به انسابهم ، فلا يدخل رجل في غير قومه ، ولا ينتسب الى غير نسبه ، ولا يدعى الى غير أبيه » .

انتهى كلام النعمان مخاطبا كسرى ، كما أورده العقد الفريد وهو يروى الحوار بأكمله .

وأود هنا . أن أتساءل : بم يختلف علم الأنساب الذي انفرد به العرب عن التوثيق الإعلامي من حيث المبدأ .. ؟ أليس العناية بهذا الأمر دليل حسي اعلامي فطري ، كان هو السبب في قدرتنا على ربط التاريخ العربي كله بعضه ببعض عن طريق ما تناهى إلينا من أخباره على النحو الذي عرضته آنفا .. ؟ ..

في تقديري، ولعلي لا أكون قد جانبت الصواب. أن وجه الاختلاف بين مبدأ التوثيق الاعلامي العصرى. وبين مبـدأ النسبة عند العرب هو الوسيلة ليس غير.. اما المبدأ من حيث جوهره. فهو واحد. أو قريب احدهما من الآخر على الأقل...

ولم يكن النسابة شخصا عاديا يعنى بهذا الأمر كيفما اتفق، بل كان لا بد وأن يكون رجلا ثقة. طيب السيرة. حميد السمعة. لأن كلامه يعتبر - في العادة - فاصلا. وحاسما.. وكان الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه نسابة معروفا. قبل البعثة المحمدية المباركة وبعدها..

لهذا لم يكن غريبا. أن ينفرد تراث الأسلاف عن تراث الأمم الاخرى، بسرد نسب كل من يترجم له من الأعلام. ويختلـف امتداد النسب الى الاجداد باختلاف مستوى الشخصية التي يترجم لها.. ويكاد لا يخلو كتاب واحد من كتـب التراث في الدين والتاريخ والعلم والأدب والفن وغيرهـا، من ايراد النسب الكامـل، أو شبه الكامل، للشخصيـات الواردة فيها، حتى ما كان منها من غير العرب..

بل لقد بلغت دقة مبدأ التوثيق الإعلامي لدى البعض مبلغا جعله يسود لنا لوائح كاملة بأسماء من حضروا أحد الاحداث الهامة، وتحديد القبيلة التي ينتمي اليها كل منهم، حتى بلغ عدد هذه الأسماء خانة المئات أحيانا، كما فعل ابن هشام في جمعه للسيرة النبوية العطرة فصدَّر كتابه بمنهجه التوثيقي الذي نعرفه، قائلا:

«وأنا إن شاء الله مبتدئ هذا الكتاب بذكر إسماعيل ابن إبراهيم، ومن ولد رسول الله ﷺ ومن ولده، وأولادهم وأصلابهم، الأول فالأول، من إسماعيل إلى رسول الله ﷺ وما يعرض من حديثهم».. إلى آخر كلام ابن هشام في صدر السيرة المعروفة.

ويروى عن ابن اسحق، واضع السيرة النبوية الذي أخذ عنه ابن هشام، أنه دخل على المنصور في بغداد، وقيل في الحيرة، وبين يديه ولده المهدي، فقال له: أتعرف هذا يا ابن اسحق؟.. قال نعم هذا ابن أمير المؤمنين، فقال المنصور: اذهب فصنّف له كتاباً منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام إلى يومك هذا.. فذهب ابن اسحق وصنف الكتاب، فقال له المنصور:

لقد طوّلته يا ابن اسحق اذهب فاختصره.. فاختصره

وألقى الكتاب في خزانة أمير المؤمنين..

هذا- أيها الأخوة- توثيق إعلامي من طراز رفيع وليس مجرد تاريخ، ولا أريد أن أمضي بعيداً في تتبعه لأنه يكاد يعتبر موضوعاً قائماً بذاته لو أردنا إيفاءه حقه من الدراسة والبحث.

وإذا كان لي من كلمة أضيفها إلى هذا القسم من بحثنا، فهي التنويه عن القوة غير العادية، والحدة المذهلة في الذاكرة العربية آنذاك: يحفظ المرء قصيدة من عشرات الأبيات بمجرد سماعها مرة واحدة.. ويسرد نسباً طويلاً لا يتلكأ فيه ولا يتلعثم، ويروي رواية متشعبة فيقبض على أطرافها جميعاً ويلقيها كاملة... ولا ريب في أن هذه الذاكرة العجيبة هي العامل الأساسي في حفظ التراث الذي هو بين أيدينا الآن، فلئن كان الكومبيوتر، أو العقل الالكتروني، يعتبر في أيامنا هذه أداة هامة في يد الاعلام العصري، فإن الذاكرة العربية المدهشة قامت، بكفاءة نادرة، وأمانة مثالية غالباً، بدور الكومبيوتر نفسه، في تلك الأيام..

أيها الأخوة الكرام:

هذه باختصار ملامح عامة عن الممارسات الإعلامية

العربية وخلفياتها الذهنية والاجتماعية، وقد كان لا بد لنا من الإشارة إليها لكي نحيط بفكرة عن تلك الخلفيات، حيث شاء الله تعالى أن ينزل دعوته على رسوله الأمين ﷺ، ويحدث في تاريخ البشرية ذلك التحول العظيم الذي أحدثه الإسلام الحنيف..

أيها الأخوة الكرام:

الاعلام، بأبسط تعاريفه، كما نفهمه هو: إبلاغ، وتثقيف وتوجيه، وتوعية

فالإبلاغ إخبار بشيء..

والتثقيف إحاطة بشيء..

والتوجيه دعوة إلى شيء..

والتوعية تنوير بشيء..

وأستطيع أن ألخص، أو أعرف، الاعلام الإسلامي بهذه النقاط الأربع التي قام عليها هذا الإعلام منذ نزول الرسالة الإلهية على محمد صلوات الله وسلامه عليه، وإلى يومنا هذا..

ولم يكن صدفة أن تكون أول كلمة من كتاب الله أنزلها على نبيه هي كلمة: اقرأ.. فحاشا لشيء من صنع الله أن يكون صدفة، بل لقد كانت هذه الكلمة، والمنهاج الذي

تنبئ به في حروف أربعة ليس غير، هي الحدث الكبير الذي هز أركان المجتمع العربي أولاً، ثم تعداها إلى بقية أرجاء العالم. وما زالت آثاره وتأثيراته تتفاعل إلى اليوم. وستظل كذلك إلى أن يشاء الله....

«اقرأ...

«اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الانسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم»

«صدق الله العظيم»

بهذه الكلمات الإلهية المباركة، التي أنزلت على محمد ابن عبد الله ﷺ. ليلة القدر من شهر رمضان، فتحت في تاريخ البشرية صفحة جديدة. آذنت العالم بما وقع فيه، بعد ذلك، من أحداث جسام...

وما أريد هنا، أيها الإخوة، أن أسرد عليكم السيرة النبوية العطرة ولا أن أعرض لكم تعاليم الاسلام، فكلكم- ولله الحمد- عارف بذلك، عليم بتفاصيله، آخذ بآفاقه، مما يجعلني أسجل على الهامش، على الهامش ليس غير، تطبيقات عملية، للممارسة الإعلامية بمعناها العصري، تلك التي بدأت مع نزول الدعوة..

كان نزول الوحي، بوساطة جبريل عليه السلام، هو الخطوة الأولى في الطريق الذي استمر نيفاً عن ألف وأربعمائة عام، فكانت الإرادة الإلهية بنزول الرسالة.

وكان جبريل عليه السلام هو الواسطة.. فكان هذا هو الإعلام بشيء، التبليغ بشيء.. ويا له من (شيء) أراد الله به لعباده الهداية والتوفيق في الدنيا والآخرة...

وتتالت آيات الله، تروي أخبار الأولين، وتستخلص منها العبرة والعظة، وتلقي بالتعاليم الإلهية فيما خص الدين والدنيا، وتشرح الأوامر والنواهي، وتبين الحلال من الحرام، والهدى من الضلال، والخير من الشر..

كان ذلك إبلاغاً..

كان تثقيفاً..

كان دعوة..

كان تنويراً..

كان ذلك- بكلمة واحدة- إعلاماً على مستوى أكثر من عظيم، وأكثر من رفيع.. إنه مستوى الإرادة الإلهية، وكفى به- كذلك- تعريفاً.. وكان مما تنفرد به هذه الرسالة، أنها ألقت مسئولية الدعوة إليها على عواتق المؤمنين بها.. أي أنها كلفت المسلمين، منذ ذلك الحين وإلى اليوم، وحتى يشاء

الله، بأن يكونوا في خدمة دين الحق، وأن يكونوا- بدورهم- مبلغين ومثقفين، ودعاة، ومرشدين...

وهذه نقطة بالغة الأهمية، لأنها أرست- بصورة تلقائية عبر الأزمان قواعد لتطور أساليب الدعوة، والدعوة إعلام...

وكشأنه في الإحاطة بالأمور، وتفصيلها على أشكال شتى، تضمن القرآن الكريم الخطوط العريضة للدعوة الاسلامية أو الإعلام الاسلامي حيث يقول الله سبحانه وتعالى:

« وداعياً إلى الله باذنه وسراجاً منيرا » (الأحزاب: ٤٦)

« يا قومنا أجيبوا داعي الله » (الأحقاف: ٣١)

« وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله » «التوبة ٣ » « هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب » (ابراهيم: ٥٢).

« وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم » (الأنعام: ٩١).

«ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن »

(النحل: ١٢٥).

« ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ».

(فصلت: ٣٣)

« ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » (آل عمران: ١٥٩).

وكما نعلم، فقد كانت أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها، زوج رسول الله ﷺ، هي أول من بلغته هذه الدعوة، وأول من آمن بها وكلكم تعرفون، بطبيعة الحال، كيف قلقت زوج رسول الله إذ تأخر في العودة ليلة أن نزل عليه القرآن، فما أن رأته حتى قالت:

يا أبا القاسم.. أين كنت؟.. فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إليّ.. فحدثها رسول الله بما كان معه، فقالت:

«أبشر يا ابن العم واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده أني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة ».

- أبشر يا ابن العم واثبت.. هنا نتوقف قليلا عند هذه الجملة، تلقيها الزوج الصالحة على زوجها المختار.

- أبشر يا ابن عم واثبت..

إن الثبات عنصر هام من عناصر الدعوة، والثبات لا يكون إلا بالإيمان والإيمان لا يكون إلا بالإسلام..

أتراه، أيها الإخوة، إلهاماً إلهياً ألقي في نفس خديجة رضي الله عنها، فاستشفت مدى حاجة الدعوة إلى ثبات المؤمنين بها، وتوقعت ما سوف يلقى رسول الله ﷺ من الأذى في سبيل الدعوة؟...

ما كان لأم المؤمنين رضي الله عنها، أن تقول «اثبت» إلا وهي تتوقع ما سوف تحدثه النبوة من آثار في المجتمع القرشي..

نتوقف، إذن هنيهة لنضيف إلى عناصر الإعلام الإسلامي عنصراً آخر هو الثبات والصمود ومواجهة الصعوبات والعقبات..

ونستطرد فنستعرض كيف راح رسول الله ﷺ يدعو- ثابتاً إلى دين الله، فيسلم من الصبيان أولهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو ابن عشر سنين، ويسلم من الموالي زيد بن حارثة رضي الله عنه، مولى رسول الله، ويسلم من الرجال أبو بكر بن أبي قحافة، المعروف بأبي بكر الصديق، رضي الله عنه ثم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، ويتتالى المستجيبون للدعوة ولكنهم يظلون قلة، تستخفي في عبادتها

وصلاتها إلى أن فشا ذكر الدين الجديد في مكة وتحدث فيه الناس، ثم أمر الله تعالى رسوله الأمين بأن يجهر بالدعوة فقال:

(فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) وقال أيضاً: (وأنذر عشيرتك الأقربين، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين).

وكان ذلك على ما ذكر ابن اسحاق، بعد ثلاث سنين من بدء نزول الدعوة أو أن الإعلام الاسلامي، تبليغاً وتثقيفاً وتوجيهاً وتوعية، قد خرج- بأمر الله تعالى من السر إلى الجهر، ومن التخفي إلى العلانية.

وهنا أستميحكم عذراً في التوقف لحظة عند هذه المرحلة من تاريخ الإعلام الاسلامي لنلقي نظرة خاطفة على الأسلوب الذي اتبعه رسول الله ﷺ وأصحابه رضوان الله تعالى عليهم أجمعين..

كانت المشافهة، في نجوة من العيون، هي وسيلة التبليغ الوحيدة تقريباً.. كان المسلم يأتي من يتوسم فيه خيراً من غير المسلمين، فيخاطبه في الأمر، ويعرض له أن الصادق الأمين، عليه صلوات الله وسلامه، قد أتى البشر من عند ربه بخير الدنيا وخير الآخرة معاً...

ويصف رسول الله ﷺ ردود الفعل لدى من دعاهم بنفسه إلى الاسلام فيقول:

- ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة، ونظر وتردد، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة، ما عكم عنه حين ذكرته له وما تردد فيه.)

ومما لا شك فيه، أن ثقة أبي بكر المطلقة في رسول الله، كانت هي السبب في سرعة استجابته، على نحو ما ذكره ﷺ، ولقد رأينا من أدلة هذه الثقة فيما بعد شيئاً كثيراً، فما دام ابن عبد الله ﷺ ثقة ومصدقاً من قبل أبي بكر، وما دام أبو بكر قد اطمأن إلى رسول الله، فهو يصدقه من غير تردد، ويؤمن بما يقول وما يفعل من غير إحجام، فلا عجب إذا أكرم بذلك النعت الذي عرف به: الصديق...

فالثقة إذا، هي عنصر آخر من عناصر الإعلام الاسلامي، نضيفها إلى ما سلف من عناصر، ذلك أن أوائل المسلمين كانوا يسارعون إلى الإيمان بعد أن يزول عنهم ردع المفاجأة بالدعوة، لأنهم يثقون برسولها ونبيها، وكما نعلم فقد كان رسول الله معروفاً طوال حياته بالصدق والأمانة، حتى لقبته مكة بمحمد الأمين.

ولا ريب في أن الجدارة بالثقة إنما يستمدها الداعية من ثقته بالدعوة نفسها فلولا أن الإيمان قد وقع من قلوب أوائل المسلمين حتى أعماقها، فما كان أحد منهم ليجرؤ على مفاتحة الآخرين بها، سراً أو جهراً، لو لم يكن هو نفسه مطمئناً، وواثقاً، من أنه إنما يدعو إلى دعوة الحق.

وقد أثبتت تجارب التاريخ، لا سيما بعد أن تطور الإعلام إلى علم قائم بذاته، أن الصدق شرط أساسي لنجاح الخطط الإعلامية، وأنه لا صحة للمبدأ الذي وضعه وزير دعاية هتلر- غوبلز- (اكذب، ثم اكذب، ثم اكذب، فلا بد وأن يبقى شيء في الأذهان من كذبتك..) هذا المبدأ قد أثبت إخفاقه الذريع بدليل سقوط الرايخ الثالث قبل أن يتم عقداً واحداً من الزمن، بعد أن كان إعلام غوبلز قد روج بأن الرايخ الثالث سيعيش ألف عام.. وثبت إخفاق هذا المبدأ أيضاً في الإعلام الصهيوني، الذي استطاع لفترة من الوقت أن يقلب الحقائق، وأن يصور الباطل على صورة الحق، ويعرض الكذب على أنه الصدق، بدليل أن العالم، وبعد ثلاثين سنة متواصلة من الإعلام الصهيوني المضلل- قد بدأ يكشف زيف الدعاية الصهيونية، ولا أقول الإعلام

الصهيوني لأنه لا وجود في رأيي لإعلام صهيوني، وإنما هناك دعاية فحسب، وفارق كبير، كما تعلمون بين الدعاية والإعلام.

الصدق إذاً، هو الذي يولد الثقة، وهو ركن جوهري لا غنى عنه في الإعلام الناجح على المدى البعيد.

اسمحوا لي أن أذكركم بالفارق العظيم بين الإعلام العربي أيام حرب حزيران، والإعلام العربي أيام حرب رمضان، لنستخلص بديهية مؤكدة في الإعلام الاسلامي، هي الصدق القائم على الإيمان، والثقة المنبثقة عن الصدق.

إنكم ترون أيها الإخوة الأعزاء، أن ملامح الإعلام الإسلامي قد أخذت تتضح لنا أكثر فأكثر مع استرسالنا في استعراض تطورات الدعوة، لتضع بين أيدينا خططاً محكمة من التطبيقات العملية التي صلحت بنجاح عظيم في مطلع الإسلام، وما تزال تصلح بعد مرور أربعة عشر قرناً كاملة.

كان الجهر بالدعوة إيذاناً بمرحلة جديدة في تاريخ الاسلام إذ بات الصراع سافراً بين رسول الله وأصحابه من جهة وبين قريش ومشركيها من جهة أخرى، لا سيما بعد أن تناول رسول الله آلهة قريش بالعيب، وخاض فيها وسفّه

أمرها، فكبر الأمر على رجالات قريش، وبدأوا يرنون إلى الدعوة من منظور جديد، أشعرهم بجدية الخطر الذي تمثله دعوة الحق على ما كانت قريش تعيش فيه من جهالة وضلالة كانوا هم السادة فيها والزعماء، فرأوا في دين الله ما يهدد مصالحهم وزعاماتهم ونعود إلى ما سلفت الإشارة إليه من مبادىء الإعلام الإسلامي فنرى الثبات والثقة والإيمان في رد رسول الله على عمه أبي طالب:

«يا عمّ والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

وكما نلاحظ، فالصراع بين رسول الله وسادة قريش من المشركين كان صراعاً بين فكرين، أو اتجاهين أو طريقين.. فهو- إذاً- صراع إعلامي السدى واللحمة، يقارع فيه الرأي بالرأي والفكرة بالفكرة والاتجاه بالاتجاه، وتكون الكلمة النهائية فيه للحق وحده فما كان لآلهة قريش الشائهة أن تقنع عاقلاً بأنها- كما قالت قريش- خير من الإله الواحد الأحد، فهي أصنام لا تنفع ولا تضر، وكثيرون آمنوا بمجرد المقارنة العقلانية، بين ما سمعوا من رسول الله وبين

ما رأوا من شأن سادة قريش.

نرى صدق الدعوة عاملاً هاماً من عوامل نجاحها وصدق الداعية عاملاً آخر من عوامل هذا النجاح فالصدق- إذاً- وكما أشرت من قبل، شرط لا بد منه في الإعلام الناجح أياً كان هدفه وموضوعه.

كان «الإعلام» بالدعوة بعد أمر الله بالجهر بها يتم بنفس الوسائل التي عرفها العرب إذ ذاك أي بالمشافهة والمخاطبة، وتناقل الأخبار مع فارق هام هو أن رسول الله وأصحابه قد باتوا يدعون إلى دين الله جهاراً بعد أن كان ذلك يتم في السر.

كان رسول الله ﷺ يرود أماكن تجمعات العرب لا سيما في المواسم والأسواق ويعرض عليهم الدخول في دين الله قائلاً:

«يا بني (فلان).. إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي وتصدقوا بي، وتمنعوني، حتى أبين عن الله ما بعثني به».

ولقد كان ممن عرض لهم رسول الله ذلك.. بنو كلب،

وبنو حنيفة، وبنو عامر، وغيرهم.. ومع أن ذلك لم يثمر بادئ الأمر لتصدي قريش إلى تضليل تلك القبائل، إلا أن نتائجه أتت فيما بعد، طيبة سائغة، إستناداً إلى قاعدة أقرتها سيكلوجيـة الإعلام الحديث وأخذت بها وهي: زرع بذور الفكرة المطلوبة لتنمو على مهل، وتؤتي ثمارها إن آجلاً وإن عاجلاً.

ذلك أن نبأ بعثة رسول الله ﷺ، قد بدأ ينتشر بين القبائل حين تعود إلى ديارها وتروي ما يحدث في مكة من أحداث جسام.

وبنتيجة انتشار هذا النبأ كثر التساؤل والاستفهام بحيث بات لدى معظم الناس استعداد نفسي مسبق لقبول الدعوة في وقت لاحق كما أن التبليغ لم يعد يتم بصورة إفرادية كما كان الأمر من قبل، بل العكس، فالأمر الإلهي بالجهر بالدعوة إنما كان يهدف إلى تبليغ الناس وهدايتهم جماعات، وهـذه نقطـة هامة من نقاط تطور الإعلام الإسلامي.

كان المسلمون يشعرون بحاجتهم إلى إسماع كلام الله إلى أكبر عدد ممكن من الناس، وبمعنى آخر: إذاعة كلام الله

ونشره.. أي أن الحاجة إلى وسيلة تؤدي هذا الغرض، يمكن أن يترجم في وقتنا الحاضر إلى الحاجة إلى: إذاعة.

فإذا كان الملايين يسمعون، أيامنا هذه كلام الله عبر الإذاعات الإسلامية المنتشرة في طول الدنيا وعرضها فإن المسلمين شعروا آنذاك- بالفطرة- بحاجتهم إلى تلك الوسيلة.. فكيف توصلوا إلى الحل المنشود؟

قال ابن اسحق:

- وحدثني يحيى بن عروة بن الزبير، عن أبيه، قال: كان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة، عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: اجتمع يوماً أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر به قط، فمن رجل يُسمعهموه؟... قال عبد الله ابن مسعود: أنا.. قالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه، قال: دعوني.. فإن الله سيمنعني.

قال: فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى، وقريش في انديتها، حتى قام عند المقام ثم قرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم» رافعاً صوته «الرحمن علم القرآن، قال: ثم

استقبلها يقرؤها ، قال: فتأملوه وجعلوا يقولون: ماذا قال ابن أم عبد؟... ثم قالوا: إنه يتلو بعض ما جاء به محمد ، فقاموا إليه ، فجعلوا يضربون في وجهه ، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا في وجهه فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك، فقال: ما كان أعداء الله أهون علي منهم الآن ، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غداً ، قالوا: لا .. حسبك... قد أسمعتهم ما يكرهون »...

في اعتقادي ، أيها الأخوة ، أن هذه الحادثة تعتبر صورة نموذجية من صور الممارسة الإعلامية ، شعر المسلمون بالحاجة إليها ، وطبقوها بالفطرة ، وهذا يدل على مدى ما بث الإيمان في نفوس الدعاة من أفكار وخطط ، إذا نحن وضعناها في الموازين الإعلامية الحديثة ، وجدناها متناسبة كل التناسب مع أحداث ما توصل إليه الفن الإعلامي الحديث ، فسواء- عندي- في المدلول أن يغادي ابن مسعود رضي الله عنه قريشاً بالقرآن يتلوه على مسامعها جهراً ، وأن يذاع القرآن في عصرنا هذا عبر الأثير من محطات الإذاعة ، فالهدف واحد وإن اختلفت الصورة ، مع فارق هام جداً هو أن ما فعله ابن مسعود ، يعتبر نوعاً من المخاطرة ، نوعاً من

الجهاد.. مضى إليه وهو يعلم سلفاً أنه سوف يتعرض للأذى.. فله في ذلك ثواب الجهاد.. وله في ذلك ثواب الدعوة..

والمهم، أن نضيف إلى معطيات وإنجازات الإعلام الإسلامي في الماضي، فضل الشعور بالحاجة إلى وسيلة لإسماع أعـداد كبيرة من الناس صوت الدعوة وبتعبير إعلامي حديث: إذاعة صوت الدعوة إلى أسماع أكبر عدد ممكن من الناس... ترى ما الذي جعل المسلمين يشعرون- إذ ذاك- بالحاجة إلى إسماع قريش كلمات الله ما الهدف الذي رموا إليه من وراء ذلك؟..

هنا نجد بين أيدينا السر الأعظم فيما يحقق الاسلام من انتشار، وما أنجز من انتصار: إنه كتاب الله الذي أحكمت آياته، وأنزلها الله لهداية البشر، وردهم عما كانوا فيه من ضلال. فالإعجاز البياني المذهل، والفصاحة التي تعجز الإنس والجن عن الإتيان بآية واحدة مثلها، كانا- على الدوام- إحدى معجزات الإسلام الكبرى.

وإني لأجد، في هذا السبيل، كثيراً، وكثيراً جداً، من الحوادث والأقاصيص التي تدل على مدى ما أحدث القرآن

الكريم ويحدث في النفوس من تأثير روحاني عميق، فيهتدي- بفضله- إلى دين الله من شاء الله له أن يهتدي..

فلقد اجتمعت قريش مرة، وكان فيهم الوليد ابن المغيرة، وكان ذا سنّ فيهم، فقال لهم: يا معشر قريش.. إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويردّ قولكم بعضه بعضا...

قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل.. وأقم لنا رأياً نقول به..

قال: بل أنتم فقولوا وأنا أسمع.

قالوا: نقول كاهن

قال: لا والله، ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه.

قالوا: مجنون..

قال: لا.. ما هو بمجنون.. لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه، ولا تخلجه ولا وسوسته..

قالوا: شاعر

قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله، رجزه

وهزجه، وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر.

قالوا: ساحر

قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحّار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم..

قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟

قال: والله إن لقوله لحلاوة، وأن أصله لعذق (والعذق هو النخلة ثبت أصلها وطاب فرعها) وأن فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل.. وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر، جاء بقول هو السحر يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته.

هذا واحد من كبار سراة قريش، يشعر بسحر القرآن وتفرده فيما عرف العرب من زمزمة الكهان وسجعهم، أو قريض الشعر مقبوضه ومبسوطه، ويعترف بالحق وهو يشعر في قرارة نفسه فيما اعتقد أنه لم يجانب الصواب فيما قاله تعريفاً بما جاء به محمد: إن في قوله لحلاوة.

والواقع أن ما تميز به القرآن الكريم من إعجاز البيان، وحلاوة العبارة وإحكام الاسلوب، كان أمضى سلاح في أيدي المسلمين الدعاة إلى سبيل الله فهم يتلون آيات منه

فور اجتماعهم إلى من يتوسمون فيه القابلية للإيمان، أو هم يتحدون به أعداء الله إذ يشددون عليهم النكير ليرغموهم على ترك دين الله، فيشدونهم إلى أخشب في أقتاد، ويحرقونهم فما يستجيب المؤمنون الصامدون لهم. وإنما يتلون كلمات الله، **منها** يستمدون مزيداً من العزم على الصمود، وبها يثيرون غيظ أعدائهم إذ **يعلمونهم** تمسكهم بما هداهم الله إليه.

إن بين أيدينا كثيراً من أخبار من اهتدوا بمجرد سماعهم كلمات الله تتلى عليهم. فهذا عمر بن الخطاب، وهو يعد في ضلالة الشرك، يعزم على قتل رسول الله ﷺ، فيراه نعيم بن عبد الله فيسأله: أين تريد يا عمر؟ فيقول: أريد محمداً.. هذا الذي فرّق أمر قريش، وسفّه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها.. فأقتله.

قال نعيم لعمر: والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر.. أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟.. أفلا ترجع إلى بيتك فتقيم أمرهم؟ وسأل عمر: وأي أهل بيتي..

ويجيب نعيم: ختنك وابن عمك سعيد بن زيد،

وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما ، وتابعا محمداً على دينه فعليك بهما .

فعاد عمر إلى بيت أخته وختنه ، وكان عندهما خبَّاب إبن الارتّ ، يقرئهما من صحيفة سورة « طه » ، فلما دخل عمر سأل : ما هذه الهيمنة التي سمعت (والهيمنة هي صوت كلام لا يفهم) قالا : ما سمعت شيئاً .. قال : بلى والله لقد أخبرت انكما تابعتما محمداً على دينه .

وتصاعد غضب عمر ، فبطش بختنه سعيد ، فقامت إليه أخته فاطمة لتكفه عن زوجها فضربها وشجها ، فلما فعل ذلك صاح به ختنه واخته : نعم .. قد أسلمنا وآمنا بالله فاصنع ما بدا لك يا عمر .

وإذ رأى عمر الدم يغطي وجه أخته ندم على ما صنع ، وقال لأخته : اعطني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون منها آنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمد ، وكان عمر كاتباً ، فقالت له أخته : إنا نخشاك عليها .. قال : لا تخافي ، وحلف بآلهته ليردنها إليها بعد أن يقرأها ، فلما قال ذلك ، طمعت في اسلامه فقالت له : يا أخي .. أنت نجس .. على شركك وأنه لا يمسها إلا الطاهر ، فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة ،

وفيها سورة.. « طه » كما قلنا ، قال ما أحسن هذا الكلام وأكرمه.. فلما سمع خباب ذلك خرج إليه قائلاً: يا عمر.. والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه فإني سمعته أمس يقول..اللهم أيد الاسلام بأبي الحكم بن هشام، أو بعمر بن الخطاب.. فالله الله يا عمر.

وقال عمر: فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم.. وهكذا كان، أسلم عمر بين يدي رسول الله ﷺ، وكان ما كان من شأنه في نصرة الاسلام والجهاد في سبيله، والقيام على ولاية المسلمين خليفة لأبي بكر.. إننا نجد أشياء كثيرة لقصة اسلام عمر، رضي الله عنه، فما يكاد المشرك الكافر يسمع كلمات الله حتى ينزل الإيمان بقلبه.

وتلك قصة سعد بن معاذ وأسيد بن حضير، اللذين كانا من سادة المدينة.

يطلب ابن معاذ من أُسيد بأن يذهب إلى أسعد ابن زرارة ومصعب بن عمير اللذين كانا على دين الله، ليثنيهما عما هما فيه، فقد كان أسعد بن زرارة ابن خالة سعد بن معاذ فرأى ألا يواجهه بنفسه..

ويذهب أسيد بن حضير إلى أسعد ومصعب وهو حامل رمحاً دلالة أنه يريد بها الشر، فلما رآه أسعد بن زرارة قادماً

قال لمصعب: هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق فيه..

فدخل عليهما أسيد وراح يهددهما قائلاً: اعتزلانا إن كانت لكما بنفسكما حاجة فقال له مصعب: أوتجلس فتسمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كفّ عنك ما تكره.. قال أسيد: أنصفت.. وأسند حربته إلى الجدار وجلس إليهما، فتلا عليه مصعب شيئاً من القرآن فقال: وقد بدا على وجهه إشراق الرضى- ما أحسن هذا الكلام وأجمله.. كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين قالا له: تغتسل فتَتَطَهّر وتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق.. ففعل مثلما قالا ثم قال: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه.. وسأرسله إليكما الآن..

ثم أخذ أسيد حربته وانصرف عائداً إلى سعد بن معاذ، فلما رآه سعد مقبلاً فقال لمن معه: أحلف أن أسيداً قد جاءكم بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم وعندما وصل أسيد سأله ابن معاذ عما فعل، فقال له: كلمت الرجلين.. فوالله ما رأيت بهما بأساً..

فغضب ابن معاذ، واختطف الحربة من يده وقال وهو يمضي خارجاً: ما أراك أغنيت شيئاً.. وتكرر مع ابن معاذ

ما حدث مع أسيد، فما أن استمع إلى مصعب بن عمير يتلو له شيئاً من كلمات الله حتى تلاشى غضبه، وأشرق وجهه، ورغب إليهما أن يعلماه كيف يدخل في الدين الجديد، وشهد شهادة الحق، ثم عاد إلى قومه فقال بعضهم إذ رأوه مقبلاً: نحلف أن سعداً عاد إلينا بغير الوجه الذي ذهب به...

ولما أقبل سعد، وقف فيهم فقال:

- يا بني عبد الاشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟.. فقالوا: سيّدنا، وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة.. قال: إن كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله، فوالله ما أمسى في ديار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا وهم مسلمون ومسلمات..

إن بين أيدينا- كما ذكرت- كثيراً من أمثال هذه القصص المؤثرة، التي يبدو فيها فعل كلمات الله في النفوس، فتحيلها في لحظات من الظلام إلى النور.. ومن الكفر إلى الايمان، ولئن لم يتسع لنا المجال لاستعراض مزيد منها فإنه لا بد لنا من وقفة قصيرة، نستخلص فيها الدروس الاعلامية التي توحي بها...

ونستطيع تلخيص الأسس والقواعد التي قام عليها

الإعلام الإسلامي واستند إليها بالنقاط التالية:

١ - القرآن الكريم.

٢ - الأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة والخطب النبوية الموثقة

٣ - القدوة الحسنة.. والقيادة الحكيمة.

٤ - عملية الاتصال سواء على النطاق الشخصي أو الجماعي، والدقة في اختيار أسباب الاتصال وأوقاته والمبعوثين، وحسن استقبال القادمين.

٥ - ندب المعلمين للإقراء والتفقيه والدعوة.

٦ - مواسم الحج.

٧ - الغزوات.

ولقد أفاضت كتب السيرة النبوية والكتب التاريخية في شرح وتفصيل هذه الأسس مما يعلم الكثير منه كافة الأخوة الحاضرين، فلا أود أن أطيل عليكم بتكراره في هذا اللقاء، ولكن حسبنا أن نستفيد منها لنبحث في وضع الإعلام الإسلامي في وقتنا الحاضر.

الإعلام الاسلامي في الوقت الحاضر:

حضرات الاخوة الكرام

تعلمون ولا شك أن الاسلام قد ألقى بمسئولية الدعوة

على عواتق المؤمنين أي أنه كلف أمة الاسلام منذ نزلت الرسالة إلى اليوم وإلى ما شاء الله- أن يكونوا في خدمة الـدين وأن يكونوا مبلغين ومثقفين ودعـاة موجهين ومرشدين- وهذه نقطة عظيمة الأهمية في الواقع- لأنها أرست بصورة تلقائية عبر الزمان قواعد الدعوة والإعلام وبينت الحدود التي يسمح فيها بتطوير الأساليب.

ومن المؤلم حقاً أن نرى هذه الأمة التي هي (خير أمة أخرجت للناس) تتعثر في دعوتها وإعلامها وسط موجات من إعلام الطواغيت والدعوات الإلحادية الانحلالية- ولا تسلم من الأذى- أو تحاول أن تقوم برد فعل يدفع الأذى. بعيداً عنها ويحفظ على شبابها القيم والمثل التي وضعها لهم الاسلام.

ومن المؤلم حقاً أن نرى شبابنا وقد حوصر بإعلام قوي منظم يعمل على تشويه المفاهيم وتزييف الحقائق الاسلامية والنيل من متانة العقيدة وقوتها في نفوسهم..

وإذا كان الأمر يقتصر اليوم على الصحف والكتب والمجلات المصورة وما تذيعه محطات الإذاعة وما تعرضه بعض شاشات التلفاز - كأسلحة موجهة إلى عقول أبنائنا

وبناتنا- فإنهم سيواجهون غداً- أو بالتحديد بعد سنوات، قلائل عندما تتم سيطرة الأقمار الصناعية على الأرض- سيواجهون أسلحة أفتك، وغزواً فكرياً أشد وأخطر.. ذلك ما سوف تعرضه المحطات التلفازية في أوربا وأمريكا من مواد إعلامية ظاهرها البريق وباطنها الحريق كما يقول المثل.

وأبادر فأقول إني لست متشائماً رغم كل ما في إعلامنا اليوم من أخطاء ونقص وسلبيات تجعله عاجزاً بوضعه الحالي عن رد موجات الغزو الفكري حالياً ومستقبلاً عن شبابنا وتحصينهم ضد التأثر بها والانقياد لها- ذلك لأننا نشعر بالألم الحقيقي- والشعور بالألم علامة الحياة.. ثم إننا نشعر بالخوف من الخطر الذي يهدد أجيالنا وهذا وذاك هما اللذان جاءا بنا اليوم إلى هنا لندرس ونناقش ونقترح ونضع الخطط السليمة لإصلاح إعلامنا في الداخل والخارج ونعمل على استغلاله أحسن استغلال في الحدود التي رسمها الله ورسوله ولم نقع بعد في معضلة الجهل المركب وهي أن تكون الأمة جاهلة وتجهل أنها جاهلة بمشاكلها.

وهنا أيها الأخوة الكرام أجد عدداً من الأسئلة يطرح

نفسه ويلح في طالب الإجابة.. وإني أستميحكم العذر في عرضها عليكم..

السؤال الأول يقول:-

هل الصحافة كلها في مختلف بلداننا صحافة إسلامية تهتم قولاً وفعلاً بقضايانا المسلمة- سواء أكانت قضايا فكرية أو اجتماعية أو سياسية أو حتى فنية؟ وهل تعمل هذه الصحافة على دراسة تلك القضايا دراسة موضوعية يحكمها المنطق المرتبط أساساً بالحياة داخل الأمة الإسلامية؟

وهل تتوفر في كل الصحف وما تنشره القواعد الأربع التي وضعها الاسلام للإعلام والدعوة - وهي الإبلاغ والتثقيف والتوجيه والتوعية؟ وهل يتحسّس العاملون في تلك الصحف واجبهم كإعلاميين عليهم أن يحتذوا خطوات الرسول ﷺ، ويعملوا بوحي من توجيهاته على ترسيخ القيم والمثل والمفاهيم، الاسلامية في عقول القراء؟

وهل كل وكالات الصحافة والأخبار في مختلف بلادنا اسلامية خالصة أم هي تعتمد اعتماداً رئيسياً على تلك

الوكالات الأجنبية التي تقف من الاسلام موقفاً معادياً وتنحرف بقضاياه دائماً عن الحق والواقع وتتعمد أن تطبخ الأخبار الاسلامية وتشوهها وتضيف إليها؟؟

إننا نعلم يقيناً أن الصهيونية العالمية تبذل جهدها للسيطرة على وسائل الإعلام بالخارج- مبتدئة من عقل الكاتب ووجدانه إلى الحبر الذي تطبع به مقالاته أو قصته أو كتابه- وتحاول أن تفرض سلطانها على محطات الإذاعة والتلفزيون مبتدئة من معدِّ البرنامج ومقدمه إلى العامل الذي يحمل الأشرطة إلى ستوديو البث الإذاعي أو العرض التلفزيوني.. فماذا فعلنا لكي نقي شبابنا ما تدسه الصهيونية العالمية من سموم فتاكة داخل المواد الإعلامية عبر الشاشة والميكريفون.

هل بادر واحد أو جماعة من أعضائنا وتجارنا إلى شراء مؤسسة إعلامية تسجل الأشرطة الإذاعية التي تقدم للشباب تمثيليات وبرامج تاريخية عن أعلام الاسلام وقادته أولئك الذين أقاموا صرحه الشامخ وقدموا له أعز ما يملكون بل قدموا دماءهم وأرواحهم لكي ترتفع كلمة (لا إله إلا الله)؟؟

تسجل الأشرطة الإذاعية التي تقدم للشباب تمثيليات

وبرامج تاريخية عن أعلام الاسلام وقادته أولئك الذين أقاموا صرحه الشامخ وقدّموا له أعز ما يملكون بل قدموا دماءهم وأرواحهم لكي ترتفع كلمة (لا اله الا الله)؟؟

وهل اشترى أحدنا مؤسسة إعلامية أجنبية كبرى وسخرها لكي تنتج المسلسلات التلفزيونية المحتوية على موضوعات اسلامية تصور على سبيل المثال لا الحصر - تلك المواقف الجليلة النبيلة التي وقفها المسلمون الاوائل في مختلف المجالات الإنسانية أو تلك المواقف البطولية الرائعة التي قاموا بها رجالا ونساء عبر الاجيال؟ وحتى الجهود الفردية المخلصة التي حاول البعض أن يقوم بها إما أن تكون إقليمية ومحلية لا تخدم الأهداف الكبرى التي ننشدها جميعا وأنها حوربت وسفهت جهودها دون مبرر.. وقذفنا في وجهها من العقبات ما يكفل تثبيط الهمم دون أن نتحسب لأبعاد هذه التصرفات أو نقدر عواقبها.. أو حتى نتحسس أبعاد الحكمة فيها.

إن أولادنا يعرفون عن أبطال الغرب مالا يعرفونه عن أبطال الاسلام ورجاله ومواقفهم - وليس الذنب ذنبهم فنحن لم نقدم لهم سير الصحابة ولا تراجم من حياة أبطالنا

ومشاهير المسلمين في تاريخنا. والمؤسسات الغربية لا يهمها ان تقدم شيئا من هذا وان تصدت لإنتاج عمل عن الاسلام أو العروبة فهي تتعمد إنتاجه في صورة مشوهة مبتورة أو في اطار من الضباب والعتامة يخفي كل جميل وكل عظيم.

وليس لنا أن نتوقع من تلك المؤسسات وهي تعيش في ظل الاديان التي جبها ديننا الحنيف وتلك الهيئات التي تعمل تحت سيطرة الشيوعية أعدى أعداء الاسلام - ليس لنا أن نتوقع من هؤلاء أو هؤلاء اعمالا تؤكد عظمة ديننا أو تدعو الى قيمه ومقدساته. بل العكس هو الصحيح يقينا..

اننا أيها السادة المسئولون وحدنا عن إنتاج الأعمال المسلمة بمختلف اشكالها الفنية - ولا بد ان تكون لنا مؤسساتنا الخاصة، وعلى الجهات الرسمية في مختلف بلداننا ان تساعد الافراد أو الجماعات التي تصدى للانتاج الاسلامي فترفع العراقيل من طريقهم ومدهم بكافة الوسائل والطاقات لكي تخرج اعمالهم على المستوى الذي يتناسب وعظمة الاسلام.

وعلى علمائنا ان يدركوا خطورة هذا الأمر وأهمية

دراستـه.. وسبـل اعانـة من يقـدم عليـه وترشيـده.. وتأييده.. والأخذ بيده.. حتى نوجه هذه الأجهزة لانتاج ما فيه الخير بدلا من محاربتها.. والتشهير بها وإعطاء الفرصة لأعداء الأمة لكي يوسعوا الهوة بين العلماء . والعاملين في حقول الإعلام أملا منهم في ان نصل الى طرَيق لا عودة فيها ولا رجعة.

أجل أيها الاخوة الاعزاء.. لقد آن الأوان لكي نبدأ السيرة المباركة نحو صحافة اسلامية وانتاج فني اسلامي وآن لنا من رصيدنا التاريخي والمالي الضخم ما يكفل لنا تحقيق كل نجاح.. ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة.

وفي المنهج الاسلامي - القدوة اللازمة وليكن معلوما ان لكل وسيلة من وسائل الإعلام قدرتها الخاصة على الاقناع واجتذاب الجماهير - ولا بد ان يكون انتاجنا على أعلى المستويات من حيث الشكل والمضمون لكي ينجح في اجتذاب الجماهير - خاصة الشباب - وحصر اهتمامهم داخل ما يقدم لهم - من أعمال مقروءة أو مسموعة أو مرئية - ولا بد ان تكون هذه الأعمال قادرة على ان تخاطب عقولهم وترضي نزعات نفوسهم ودوافعها السلوكية

وفي الوقت نفسه تسمو بغرائزهم وترتفع بانفعالاتهم وتربط حاضر الشباب بماضيه وتعرفه ببلاده العربية المسلمة وامجادها في الحاضر والماضي.

والسؤال الثاني يقول:

لماذا تراجعت مكانة المسجد في بعض الدول الاسلامية وقد كان بالماضي ولا يزال مدرسة للدعوة ومركزاً من أهم مراكز النشاط الاعلامي الاسلامي؟

والحق ان دور المسجد في بعض الدول الاسلامية قد تراجع بالفعل الى خلفية الاهتمام بفعل مؤشرات الطغيان المادي والالحادي - ولقد أدى هذا بدوره الى تخلفه تلك الدول وانتشار الأمراض النفسية والجرائم الخلقية بين افرادها - فالمساجد هي بيوت الله يؤمها الناس ليغتسلوا من أدران الحياة ويتزودوا بشحنات روحية تعيد السكينة والتوازن الى نفوسهم،

وقد كانت وسوف تظل الحصن الحصين للأمة الاسلامية.

وعلى هذه الدول التي أغفلت المساجد أو تجاهلت دورها واهميته ان تصحو من غفلتها وان تفيق من غفوتها

وان تعيد المساجد الى مكانتها لتخلص مجتمعاتها من شرور هي في غنى عنها..

وعلينا نحن امة الاسلام ان نطور عنايتنا بالمساجد فنزودها بوسائل الاعلام الحديثة من ميكروفونات ومكتبات تزود بالكتب الاسلامية المختلفة واخرى تحوي اشرطة تسجيلية للقرآن الكريم وتفسيره وشرح الاحاديث النبوية الشريفة وثالثة تلفازية تعرض المسلسلات الدينية الكبيرة.

والسؤال الثالث يقول:

على من تقع مسئولية حفظ الشباب ورعايته إعلاميا في الداخل والخارج، قد يقول البعض إنها مسئولية العلماء، وقد يقول البعض الآخر إنها مسئولية الدولة بكافة اجهزتها وقد يقول البعض الأخير انها مسئولية الاسرة أو غير ذلك. ولكنها في الحقيقة مسئولية مشتركة بين الدولة بكل اجهزتها الاعلامية والتعليمية والاسرة بما فيها الاب والام وهي ايضا مسئولية الشباب انفسهم - ولن يستطيع مجتمع - أن ينهض ويحقق أهدافه ما لم يقتنع كل فرد فيه بالحديث الشريف (كلكم راع وكل مسئول عن رعيته) ومالم يكن

أفراده متعاونين على البر والتقوى متكاتفين متناصحين غير متنابذين والكبار فيهم قدوة حسنة للشباب.

ويحضرني بهذه المناسبة القول المشهور (لا تجبروا أولادكم على أخلاقكم فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم) بمعنى أن طبيعة المرحلة لا بد وأن تؤخذ في الاعتبار - ولا بد أن ندرك أننا نحتاج أن نثبت العقيدة الايمانية في نفوس أولادنا وأن نربيهم على أسس الإسلام بالاسلوب العصري الذي يصل الى عقولهم ويستقر في أذهانهم رغم الخضم الهائل من التحديات الإعلامية التي لم تعرف من قبل.

السؤال الاخير يقول:

ماذا فعل الإعلام الإسلامي خارج البلاد العربية وما هي الجهود التي بذلتها الدول الإسلامية من اجل ذلك؟

والحق ايها الاخوة الكرام، اننا لم نقم بأعمال كبيرة في هذه الناحية وسوف يظل هذا السؤال بلا جواب كامل الى أن نقوم بهذه الأعمال فعلا..

والى أن يكون لنا إعلام إسلامي مضاد يعتمد على الأسس الإعلامية الإسلامية وعيا وعقيدة وحسا وتنفيذا - والى ان تتمكن منظماتنا من اداء واجبها على الوجة الأكمل.

ولكنني أحب أن اقول هنا أن للإعلام الخارجي جهوداً متضافرة مكثفة لا تعتمد على ما تقدمه الصحف والاذاعة والتلفزيون فحسب - بل هو عمل أضخم بكثير يشترك فيه ابناء الأمة المسلمة كلها - ويبدأ بالطالب الذي يسافر الى الخارج للدراسة الى السفير الذي يمثل دولته في الغرب أو الشرق.

وما قيمة ان نقدم جهودا إعلامية عظيمة ممثلة في فيلم أو برنامج مشرف عن بلادنا اذا ذهب البعض الى الخارج وتصرف تصرفا غير لائق به كانسان مهذب متحضر ومسلم؟

والحقيقة التي يجب ان يعلمها أبناء الامة المسلمة جميعا هي ان كل فرد منهم رسول إعلام..

وقد يعودون الى بلادهم بانطباع جيد يكتبون أو يذيعون الحقائق في صدق وأمانة أو يعودون بانطباع سيء وتكون النتيجة العكس.

وهناك قضية أساسية في الإعلام الخارجي تظهر اهميتها بوضوح بالنسبة للملكة العربية السعودية ودول الخليج هي موضوع الإعلام الخارجي بعد التحركات البترولية في السنوات الاخيرة وما كان لها من آثار كبيرة في

تعريف العالم أجمع بنا فقد أصبح الناس في كل مكان يتنادون باسم المملكة والخليج - وهي نعمة كبرى من الله سبحانه وتعالى إذ أكرمنا بها ونصرنا وجعل الارض من تحت أقدامنا تخرج هذه الثروة الطيبة وما كنا لنعلم بوجودها وهو فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده المؤمنين المخلصين.

ولكن هذا يجب أن لا يطغى على قيمنا الأساسية أو يجعلنا ننظر إليه على أنه كل شيء - فهذه البلاد كانت قبل البترول بحمد الله وسوف تظل بعده بإذن العلي القدير حتى يرث الله الارض ومن عليها - كذلك يجب ألا ننسى أن هذه الثروة مسئولية أمام الله جل جلاله ثم هي مسئولية أمام العالم. وهي مسئولية كبرى أمام الاجيال القادمة.

ولا بد أن نعمل على إيضاح أبعاد سياستنا البترولية والمالية المتزنة التي تستهدف خدمة العالم أجمع.. وهي مسئوليتنا أن نفضح دور الشركات والمؤسسات التي تتاجر بقوت أمتها ترتزق من بؤسها وشقائها.

أيها الاخوة الكرام

الأصل في مجتمع الأمة المسلمة أن ينطلق في كل تصرفاته العملية من عقيدة التوحيد ملتزما بالنظام الذي شرعه الله للأفراد والجماعات والسلطات.

ولقد جاء الإسلام بتشريع كامل يكفل الحياة الكريمة للجميع فهو ينظم علاقة الفرد بالفرد ثم علاقة الفرد بالمجتمع - وقد ميز مجتمعنا بميزات خاصة وأحاطه بسياج خاص وجعل له حدودا يسعد مادام داخلها ويشقى إن حاول الخروج منها - بل إنه يتورط في الشرور والآثام ويفقد سعادته إن تعصاها تماما كما حدث في المجتمعات الاخرى شرقة وغربة، فهم لم يستطيعوا تحقيق السكينة للنفس البشرية أو الاطمئنان أو الأمن.. ولم يستطيعوا أن يحققوا السعادة للاسرة الواحدة أو التماسك لأفرادها مع أنهم وصلوا إلى القمر وطافوا حول الارض واستخدموا سلطان العلم في كافة نواحي الحياة.

وإني أحمد الله أيها الإخوة الأعزاء على ما أفاء به سبحانه علينا من فضل وما وضعه لنا من حدود ونرجوه أن يوفقنا فيما نحن بصدده من دراسات واقتراحات

وتوصيات - أرجو أن تأخذ طريقها للتنفيذ وأن تؤتي ثمارها في القريب باذنه تعالى.

وأول ما أراهُ واجبا علينا بهذا الصدد هو تحديد المضمون المطلوب للاعلام الإسلامي في هذه الفترة- والرأي عندي ان يشمل هذا المضمون على مواد تهدف إلى أمور رئيسية: -

أولا: ترسخ القيم والمثل العليا المستمدة من الشريعة الإسلامية في عقول وقلوب أبناء الامة الاسلامية خاصة الشباب من الجنسين

ثانيا الدعوة إلى التمسك بالمبادىء والأهداف الإسلامية في مواجهة التيارات المادية الملحدة التي تسود العالم هذه الايام.

ثالثا: شرح الحقائق والمواقف التي تؤكد سماحة الإسلام واعتداله وتوسطه في الأمور بين التفريط والإفراط وحرصه على سعادة الانسان.

رابعا: تأكيد مسئولية الشباب عن بناء المستقبل للمجتمع الاسلامي الذي يقوم على أساس الشريعة الإسلامية ويأخذ بأحدث منجزات العلم والتكنولوجيا العالمية.

خامسا: بيان أن الفطرة التي فطر الله الانسان عليها هي فطرة طيبة خيرة واذا كانت النفس تجنح أحيانا إلى العكس فالأوامر الاسلامية والنواحي تستهدف تنمية الجوانب الخيرة وردع النزعات الشريرة أو إبدالها أن التسامي بها.

سادسا: دعوة المرأة إلى المساهمة في تحقيق المبادىء والمثل العليا المستمدة من الشريعة الإسلامية من خلال تربيتها لأولادها وتنشئتهم التنشئة الصالحة على أساس من هذه المبادىء والاهداف.

سابعا: إيضاح المسئوليات الكبرى الملقاة على عاتق كل فرد من الأمة المسلمة تجاه غير المسلمين كداعية مكلف بالتبليغ والتثقيف والتوجيه والإرشاد ومسئوليته في الوفاء بالهدف كقدوة حسنة في القول والفعل والسلوك.

وهنا تبرز أهمية وسائل التنفيذ ويتضح لنا مدى الحاجة إلى العديد من الخبرات والطاقات البشرية لتمكنه من مختلف الدراسات العلمية والفنية والأدبية.

خاتمة

الإعلام الاسلامي هو كل إعلام يلتزم بالإسلام منهجا وسلوكا وان تعددت الوسائل الفنية التي يستخدمها.. وهو في منهجه واطاراته.. هو الاعلام الذي يهدف أول ما يهدف الى العمل على بث المفاهيم والقيم الاسلامية وترسيخها في نفوس الناشئة. بصورة خاصة، والمجتمع بصورة متكاملة. وهو إعلام يعني بالتصورات الاسلامية في كل ما ينشره أو يذيعه أو يصوره، ولا حرج في أن يستخدم كل وسيلة فنية او تقنية في هذا المضمار مادام ملزما بالمنهج ومحققا لاهدافه الاساسية، ومن واجبه أن يكون قريبا من المجتمع، يناقش قضاياه ومشاكله، وأن يتحدث الى الناس بلغة يفهمونها، كما ان من واجبه أن يتصدى للدفاع عن قضايا الامة، وصد كل من يحاول تشويه القيم أو المفاهيم الاسلامية أو النيل منها.

والوسائل الفنية متاحة للاستخدام في الحق والباطل على السواء، ولا شك أن إهمالنا لاستخدام أحدث الوسائل الفنية الإعلامية يعتبر تقصيرا وليس إخلاصا وقد أمرنا الله بالجهاد، والإعلام لون من الجهاد أمرنا أن نستخدم كل عدة

ممكنة، وسبحانه حيث يقول: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة..»

«ونحن لو نظرنا الى الوسائل الاعلامية في بلاد المسلمين لوجدنا بأن المسلمين قد اخذوا منها موقفا غريباً منذ البداية، فقد تأخر استخدام الطباعة العربية في الاستانة مائتي سنة لأن شيخ الاسلام أفتى ضد الطباعة بالأحرف العربية مع أنه سمح لا تباع الملل الأخرى بالطباعة بلغاتها، وحتى بعد أن سمح بالطباعة العربية اشترط عدم طبع الكتب الدينية بها كما لو أن هناك شيء اسمه كتاب ديني وآخر لا ديني مما أعطى الفرصة للأفكار العلمانية أن تجد مجالا أفسح للدخول والانتشار، وما يقال عن الطباعة يمكن أن ينطبق على بقية الوسائل الاخرى كالاذاعة والتلفزة والخيالة والشرائط المسموعة «الكاسيت» و«الفديو» ونحن كأمة راشدة نستطيع أن نختار وان ننتقي من الوسائل ما نخدم به الدعوة وقد تأخر استخدامنا لهذه الوسائل حتى أصبحنا عالةً على غيرنا[١].

وهناك حقيقة هامة وهي أن منطلق الإعلام في البلاد

---

(١) رسائل الاعلام المعاصرة - علي رمضان ابو زعلوك

المسلمة لابد أن يكون منطلقا إسلاميا، وليس مجزءا.. بمعنى أن تصدر صحيفة أو مجلة تلتزم بهذا المنهج في وقت تتصادم فيها جهودها مع بقية الصحف أو المجلات في المجتمع وليس هذه من قبيل الاعتراض على التخصص.. وهو منهج أحبذه وأدعو اليه دائما، ولكن المهم ان يكون تكامل لا تصادم، وتعاون لا تعاند، ولابد ايضا ان تكون أوعية الاعلام الاسلامي على درجة كبيرة من التشويش والاتقان والمظهر الحسن بالاضافة الى مخبرها وإلا انصرف عنها الشباب. وربما مع مضي الزمن، حتى الشيوخ وتبقى هي في واد والمجتمع في واد آخر.

ودور وسائل الإعلام الاسلامية دور حساس لأنه مؤثر في النفس، وعليه مسئولية العناية بالغرائز وتوجيهها وجهة الخير. وعليه أن يتحسب لأبعاد وأغوار النفس البشرية، وهذه أمور تحتاج الى خبرة ومعرفة. ولابد من حسن استخدام أساليب الترغيب والتشويق بكل أشكالها وألوانها في إطار المنهج، ولابد أن يعرف رجل الاعلام كيف ينفذ الى النفس، وشد المستمع أو القارئ أو المشاهد اليه.

ولعله من الخطأ الفادح أن يتصور البعض أن الاعلام

الإسلامي هو مواعظ وخطب كخطب المنابر والساحات العامة.

وعلى أجهزة الاعلام مسئولية كبرى في أن تكون رائدة وليس تابعة،وأن تخرج من دائرة الحصار الاجنبي الى مفهوم سوي ومنهج أصيل وأن لا تعتمد على مؤسسات الإعلام الأجنبي اعتمادا كليا وربما تلقائيا عفويا بدون فحص أو تدقيق.. ولعل أخطر المراحل التي مررنا بها كانت يوم كنا نعتمد على شبكات الاخبار ووكالاته كمصدر رئيسي لأخبار إعلامنا عموما.. وهي شبكات ووكالات لها ميولها واهدافها ومواقفها المليئة بالدس في بعض الأحيان. وقد كنا نلوم الصهيونية أو حضاراتنا عموما. وكان الواجب أن نلوم أنفسنا.. فالفاعل شيء..والقابل شيء آخر. ولولا ان هؤلاء القوم وجدوا القابل عندنا لما استطاعوا أن يكيدوا هذا الكيد، ولولا ضعفنا وغفلتنا لما حققوا شيئا من أهدافهم. كنا قد رضينا بالتبعية لهم فكانت تلك النتائج متوقعة. ونسأل الله أن يتم الخلاص من دائرة هذه التبعية بصورة نهائية.

ولعل الوقت قد حان لكي ندرك الارتباط الوثيق بين الإعلام والتعليم والأسرة والدعوة والإرشاد وأهمية

التنسيق بين الجهود المختلفة والعمل على آن تكون جهودا متناسقة..متعاونة.. متكاتفة وليست متعاندة متصادمة. وأن يكون هدفها واحد وغايتهاواحدة.

وأول الواجبات هي ادراك أن دور الاعلام متمم لدور المسجد ورسالته ومن الصعب ان نتصور اقبال الاعلام على قبول توجيهات المسجد، والأخذ بها والانتفاع بهديها الا اذا أحسوا بالثقة فيهم وبصدق توجيههم وبالتقارب والتآلف والتعاطف معهم وفهم مشاكلهم، فاذا فقد رجال الاعلام الثقة في رجال المسجد أو يتهمونهم بما ليس فيهم. فإنه عندها تفقد الثقة وتتوسع الهوة.. ويضيع الجيل بين عناد المعاندين وتزمت المتزمتين أو انحلال المنحلين، وتحصل الفتنة وتتهيأ الفرص المناسبة لاعداء الامة - ممن يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا - أن يشعلوا نار الفتنة ويواصلوا كيدهم في تمزيق الصفوف لكي يصلوا بنا الى نقطة لا عودة فيها ويوغروا صدور قوم مؤمنين.

ولهذا وجب على العلماء في المسجد إدراك خطورة هذا الأمر وأبعاد هذه الفتنة، ولنا في رسول الله قدوة حسنة حيث يقول الله سبحانه في حقه:

« ولو كنت فظا غليظ لانفضوا من حولك »

« وإنك لعلى خلق عظيم »

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة »

وأحسب أن من الواجب مخاطبة الناس على قدر عقولهم وتفهم طبيعة المشاكل التي يعاني رجال الاعلام منها، ويشاركوهم في حلها، وأن يسددوا ويقاربوا في اطار المنهج الذي ارتضيناه جميعا ليحكم سلوك حياتنا.

واني.. بكل صراحة.. اشعر اليوم ان الهوة قد اتسعت حتى لتكاد تصبح سحيقة بين رجال الاعلام وبعض العلماء ممن يتهم رجال الاعلام بالفساد والتسيب والانحلال، وربما الزندقة والفجور. وبالمقابل يتهم رجال الاعلام هؤلاء العلماء بالتزمت والجمود والسطحية في الحكم.

وأحسب ايضا ان الوقت قد غدا مناسبا للقاءات خيرة بين كل الفئات للاتفاق على منهج قويم نخرج به الجيل من حيرته. والأمة من محنتها ولابد أن نتعاون على أن تبقى للمسجد كلمته، وقوته، وتوجيهه القويم في وعي وحكمة.. وأن نحترم رأيه في قضايانا الإعلامية وسلوك اجهزتنا مستندا على إدراك دقيق وموضوعي لطبيعة العمل الإعلامي في

بلادنا الاسلامية ومشاكله وتفهم لابعاد التحدي والغزو الذي تواجهه الامة بكاملها، وأن لا تنشغل بصدمات وخلافات جانبية عن المعركة الحقيقية التي نحن بصدد خوضها والتي تستهدف النيل من عقيدتنا ومبادئنا وأخلاقنا وقيمنا.

ونحن لا ندعو الى اسلام عصري، فالاسلام واحد ولا مبدل لكلمات الله ومنهجه السماوي ولا لسنة رسولنا صلى الله عليه وسلم، ولكننا نطالب باسلوب عصري يتفهم أبعاد المرحلة التي نمر بها، خصوصا وقد دخلنا الى عصر الأقمار الصناعية وأصبح الفنيون يتحدثون عن إمكانات الفترة القادمة عندما يتصل العالم ببعضه بصورة أوثق وتصبح من الميسور مشاهدة ألوان من البث التلفزيوني في أنحاء المعمورة في وقت واحد وفي كل مكان، ويغدو من الصعب حجب هذه الفتن عن شباب الأمة وغيرهم أو حجبهم عنها.

فلابد من الحوار الهادف البناء، والعمل الجاد والتعاون المثمر وقبل كل شيء لا بد من وجود الثقة المتبادلة بين العاملين في الدعوة وفي الإعلام ولابد من تكاتف جهودهم وعدم تصادمها وانني متفائل ان شاء الله من لقاء كهذا

يتحاور فيه الجانبان ويتناقشون في هدوء وموضوعية، وقد كنا نشاهد في السابق مؤتمرات لرجال الاعلام لا يحضرها العلماء مع أنهم يبحثون قضاياتهم المنهج الذي ننشده جميعا، والهدف الذي نسعى اليه، وبالمقابل مؤتمرات للعلماء يبحثون نفس الموضوعات ويشجبون فيها الاعمال الاعلامية ورجالها. والمحصلة لكل هذا فتنة تمزق الأمة وتضعف قوتها، وتزعزع كيانها، ويحصد أعداء أمتنا الاسلامية نتائجها.

بارك الله لقاءكم وسدّد خطاكم، وهدى الله على أيديكم حيرة الدنيا حتى تكون كلمة الله هي العليا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

المراجع

١- السيرة لابن هشام

٢- الأسس العلمية لنظريات الاعلام دكتورة جيهان أحمد رشتى دار الفكر العربي (الطبعة الثانية) ١٩٧٨.

٣- الإعلام والتنمية دكتور محمد سيد محمد مكتبة كمال الدين (الطبعة الاولى) ١٩٧٨م

٤- بحوث الإعلام- الأسس والمبادىء دكتور سمير محمد حسين مؤسسة دار الشعب (الطبعة الاولى) ١٩٧٦م

٥- الاعلام الدولي بين النظرية والتطبيق الدكتور محمد علي العونس مكتبة الانجلو المصرية الطبعة الاولى ١٩٧٨م

٦- وسائل التعليم والإعلام دكتور فتح الباب عبد الحليم سيد دكتور إبراهيم مخائيل حفظه الله عالم الكتب (الطبعة الثانية) ١٩٧٦م

٧- الإعلام في صدر الاسلام الدكتور عبد اللطيف حمزة دار الفكر العربي

٨- المعادلة الحرجة الدكتور محمد عبده يماني.

مراجع أجنبية

reference / Titles:

1. Brown, James, Lewis R., Harclerorad Fred «A V INSTRUCTION TECHNOLOGY MEDIA AND METHODS» Mc Graw-hill Book Company 1973
2. The Corter for Understanding Media, «DOING THE MEDIA», N. Y 1972
3. Hale, Julian, Radio Power, propaganda and International Broadcasting, Paul Elek, London, 1975.
4. Klapper, Joseph T., «THE EFFECTS OF MASS COMMUNICATION» New york, Free Press. 1960
5. Schramm, Wilbur. «MASS MEDIA AND NATIONAL DEVELOPMENT, THE RLOLE OF INFORMATION IN THE DEVELOPING COUNTRLES», Stanford University Press, 1966.
6. Darnell, Donald K., «INORMATION THEORY», in Joseph A. Devito (ed.) Communication: Conçepts and Process (N. J. Englewood Cliffs. Prentice hall, 1917).
7. Rapport, Anatol. «WHAT IS INFORMATION», in smith (ed.) Communication and Culture (N. Y.: Holt, Rinehart and Winston, 1966).
8. Schramm Wilbur, «INFORMATION THEORY AND MASS COMMUNICATION», Journalism Quarterly, Spring 1955).


لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية
الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

الحضارة الإسلامية

أسسها الدينية - مميزاتها - مكانتها بين الحضارات العالمية

للدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة

« مصر »


لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية
الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

الحضارة الاسلامية

أُسسها الدينية ومميِّزاتُها ومكانُها بينَ الحضارات العالمية.

تمهيد:

الحضارةُ بمفهومٌ واضحٌ، مقابلٌ، في اللغة والاصطلاح العربييْن للبداوة، وحياةُ الحضارة هي حياةُ الإنسان الذي يستعمل فكرَه وخيالَه ويديْه وما يصنع بهما لترقية ذاته وأُمور حياته وترقية البيئة التي يعيش فيها، ولا يمكن تعريفُها بأحسنَ من ذكر مظاهرها.

ويمكن أن نقول: «حضارة» أو «تحضُّر» بالمعنى المتقدم، وأن نقول: «مدنيّة» أو «تمدُّن»، بمعنى الحياة في مدينة يشيدها الانسان ويهيء فيها لنفسه مظاهرَ التحضر. واللفظ الاوروبي الذي يقابل لفظ مدنية مشتقٌ أيضا من اللفظ الذي تسمى به المدينة.

وكلُّ ذلك صنع الإنسان وإنشاؤُه في مقابل حياة «الطبيعة» أو «الفطرة».

وإذا كان بعضُ المحدثين يعرِّف الحضارة بمعناها

الواسع ، كما فعل الأنتروبولوجي الانجليزي تيلور E. B .Tylor (ت ١٩١٧) بأنها « ذلك الكُلُّ المركب الذي يشمل المعرفة والاعتقاد والفن والأخلاق والقوانين والأعراف وكلَّ القدرات والعادات التي يكتسبها الانسان كعضو في المجتمع »[١]، فان ابنَ خلدون (ت ٨٠٨ هـ - ١٤٠٦م) قبل ذلك يذكر عبارة « الاجتماع الإنساني » ويقول: إنه « عمرانُ العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحُّش والتأنُّس والعصبيات وأصناف التغلُّبات للبشر بعضِهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من المُلْك والدُوَل ومراتبها وما يَنْتَحِلُهُ البشرُ بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث من ذلك في العمران بطبيعته من الأحوال ».[٢]

والمقابلُ الأوروبي للفظ الحضارة أو المدنية هو على سبيل المثال كلمة Givilization الانجليزية أو كلمة kultur التي يميل اليها الالمان ويرون أنها أقرب للحضارة المعنوية الخاصة بتنمية الانسان وتلبية حاجات إنسانيته.

---

(١) في كتابه: الحضارة البدائية Primtive Gulture الذي ظهر عام ١٨٧١ .

(٢) المقدمة: فاتحة الكتاب الأول.

روحُ الحضارات

لكـل حضارة روحٌ تسرى فيها وطابَعٌ عامٌّ يميِّزُها ومظاهرُ تتجـلى فيها، وكلُّها مستمدةٌ من تصوُّر أهلها للوجود والكون والحياة والقيم، ومن تكوينهم كأمةٍ لها خصائصُهـا الحسيَّـة والمعنويـة ومن شعورهم بذاتيتهم ورسالتهم في الحيـاة، ومن ظروف حياتهم ومكانهم في التاريخ.

والأُمم تتبايـن في روحها ومواهبها وفي الكثير من أعمالها، وحضارتُها تتشكل بعوامل ترجع الى طبيعة الأمة وظروفها، وقد يتدخل في ذلك توجيهٌ من مصدر أعلى، هو الذي يدبِّر الكونَ ويوجِّه الانسانَ فيه.

ونحن عندما نتأمل في الحضارات الكبرى نجد أنفسنا أمام تنوع لا حدود له، ونكتفي بذكر بعض الأمثلة:

= هناك حضارةٌ أخروية في الروح الدافعة لها، لكنها علمية فنية في مظهرها ووسائل التعبير عن ذاتها (حضارة مصر القديمة).

أو حضارة تنظيم اجتماعي بحسب مبادىء العدالة والمحبة الانسانية وإرساء العلاقات الاجتماعية المتعددة على

أسس أخلاقية وتربية الانسان من طريق التنوير الفكري والإرشاد إلى القدوة الحسنة، وهذا من غير أن يكون هناك بحث عقلي حول حقائق الأشياء أو اتجاه إلى تصورات ميتافيزيقية، لكن مع عدم الجهل بكائن أعلى كامل عادل هو المشرف والرقيب على الناس وأعمالهم، ومع تصور لما يسمى «روح الإنسانية»، أعني ما يقابل لفظ «المروؤة» عند العرب القدماء، وتصور لشمائل «الإنسان الرفيع»، وهي تقابل شمائل «الفتى» أو «الفتى السيد» عند العرب أيضا (الفلسفة الصينية القديمة كما يمثلها كونفوشيوس مثلا).

أو حضارة تسرى فيها روح التشكك في هذا العالم، فترى أنه «وَهْم»، كما ترى في الوجود الإنساني نفسه شراً وألماً، وترسم الطريقَ للخلاص منه - وهذا مع تصورات يكتنفها الغموض، من قبيل القول بالتناسخ، بمعنى تنقل النفس الفردية في شتى الصور الى أن تتخلص من وجودها، أو القول بما يسمى «وحدة شاملة» وراء الاشياء، على الفرد أن يحارب فرديته وإزادة الحياة في نفسه لكي يفنى فيها، وهذه هي حالة الفناء التي تسمى النرفانا - ونحو

ذلك من تصورات في الفلسفة الهندية، ومن الواضح أنها بوجه عام تصوراتٌ لا تشجِّع على الفاعلية وعلى احتمال العبء الضخم الذي ينهض به من ينشىء حضارة.

أو حضارة شعب مفكر مرهف الحس والروح، يريد من طريق الاستنباط الفكري أن ينشىء تصوراً عقليا للكون ولتنظيم الحياة، لكن مع شيءٍ من النزعة الخيالية أو الفنية الشعرية وتصور الأشياء قياساً على الأمور الانسانية، مع بروز فكرة «الحقيقة» و «الفضيلة الانسانية» ومع طموح إلى شمول الانسانية بمثل أعلى فكري وإنساني - وكل ذلك بالاستناد الى ما في فطرة الانسان من عقل وضمير (الحضارة اليونانية).

أو حضارة شعب عملي طموح شديد المراس يتميّز بروح الإقدام ويربّى نفسَه على احتمال المشقة، كما يتميّز بروح عسكرية وبتنظيم الحياة بالقانون والسيطرة الواسعة النطاق، لكي يسود الشعوب بسلطانه ويفرض السلام ويقهرُ الجبّارين، كما يزعم قادتُه(١). وإلى جانب أنها حضارةٌ

---

(١) عبد اللطيف أحمد علي: التاريخ الروماني من تأسيس المدينة حتى بداية الثورة - مكتب كريدية إخوان، بيروت ١٩٧٤.

سيادةٍ فهي حضارةُ قوة مادية واستغلال، هذا مع بروز مفهوم الرجولة Virtus الذي يقابل مفهوم «المروءة» أو «الفتوة» عند العرب القدماء.

- **أو حضارة شعب يعيش على الفطرة،** في حلٍّ وترحال، وفي صراع، يتغنّى بالحرب والحُبّ ومآثر الآباء، وله حكمتُه في الحياة وفضائلُه ومُثُله العليا ونظامٌ من القيم الإنسانية والاجتماعية، يدرك معنى الانسانية، فيعبِّر عنه «بالمروءة» أو «الفتوة» وما ينطوي فيها من خصال الشجاعة، والصبر والتجلد أمام ضربات القدر، والكرم ونصرة الضعيف وإغاثة الملهوف ومن صفات القوة مثل إباء الضيم والحَمِيَّة والأَنَفَة والشعور بالعزَّة والطموح الى المجد، رغم الشعور بزوال هذه الحياة وانتهاء خيراتها - هذا مع شعور بوجود إلٰه هو الرقيبُ والعدو للغادر والشرير، لكن من غير معالم حياة دينية. وهذه هي حضارة اهل البادية في الجاهلية، وهي رغم بساطتها حضارةٌ انسانية لأنها طبيعية، مستمدَّةٌ من عقل الإنسان وشعوره وما توحيه إليه أحداثُ الحياة من مفهومات وأحاسيس، من غير ميتافيزيقي ولا تفكير في أُمور متعالية.

- أو حضارة تريد منذ قرون أن تقوم على التمرد على السلطة في كل شيء، وعلى النقد للمعرفة الى حد الشك والانطلاق في التفكير حتى الوصول الى أكثر التصورات تعارضا، وهي تريد التجديد والتغيير المستمر، وتتطور حتى تتدخل في القوانين التي تحكم الأشياء، مع الاستعانة بالعلم وتطبيقاته لتسخير قوى الطبيعة، وتنظيم أمور الحياة على نحو آلي دقيق، عملا بالشعار الذي وضعه منذ أوائل العصور الحديثة الفيلسوف الانجليزي فرانسيس بيكون (Bacon Francis (ت ١٦٢٨م)، وهو قوله Scientia est Potenti العلم قوة، وقوله Natura parendo vincitur = يمكن اخضاع الطبيعة باطاعتها، لكن مع اهتمام بالإنسان وحقوقه وحاجاته ورفاهيته وحريته، غير أن هذا الاهتمام يتضارب في مظاهره ووسائله، بين ما يشبه الحجر على الانسان من كل وجه - وبين إطلاق حريته ليفعل بنفسه ما يشاء، حتى يمكن أن يضرَّ غيرَه، أو يهلَكَ نفسَه، وهذا كله بحسب اختلاف النظم والايديولوجيات والأهداف، مما أدى الى تكتلات تعتدّ بالقوة المادية وتهدِّد بانفجار قد يدمر الحضارة ومن أنشأها (الحضارة التكنولوجية الاوروبية

الحديثة التي لا يسير فيها التقدم المعنوي الروحي والخلقي للانسان، موازيا للتقدم المادي، ويتنبأ لها بعضُ مفكريها بالانهيار).

هـذه نماذج لحضارات لا تتحدث حديثا خاصا عن أنها تصدر عن رسالة محدَّدة تعينها الإرادة الحكيمة العليا، حيث يكون إنشاء الحضارة تكليفاً من تلك الإرادة وأمانةً مقدسةً عُهِدَ بها إلى الإنسان، وهو مسئول عنها في حياة مقبلة.

وتاريخ الحضارات يدل على أن من بينها حضاراتٍ محليةً مقفلةً لا تتجاوز - أو لا تريد أن تتجاوز - حدودَ بلادها، وحضارات تندفع نحو الفاعلية والتوسّع، حضارات قوة في خدمة الفكر، وحضارات قانون في خدمة القوة، حضارات عملية أخلاقية، وحضارات زهد ميتافيزيقية - وهذا واضح مما تقدم.

وهناك نماذج لحضاراتٍ متصلة بالديانات المنزلة الثلاث المعروفة، ولكل منها صبغتُها ومجرى تاريخها وتأثيرُها في غيرها ومصيرُها المقدر لها.

ونحن لا نريد التعرضَ هنا لروح الحضارة اليهودية أو

النصرانية، ولا لما لكل منهما من مميزات، لكننا نحب أن نلاحظ أنه رغم اشتراك هذه الديانات الثلاثة في أمور جوهرية، مثل الإيمان بالخالق الواحد الذي أبدع هذا العالم وأن الانسان كان في حياة سابقة على حياته على الأرض، ثم جاء الى هنا بعد معصية، لكن عنايةَ الله ترعاه بالإرشاد، والأرضُ وما عليها تحت سلطانه، وهو مسئول محاسب في حياة بعد هذه الحياة.

لكن الأديان الثلاثة تختلف في الكثير حول محتوى هذه الأمور وتصورها وتختلف في الوضوح والتحديد في كثير من النقط والمفهومات، وتختلف في الروح ومنهج الوصول الى المعرفة، وإلى الامان أيضا من طريق الاعتماد على العقل والعلم، وتختلف في تصورات شتى خاصة بأمور هذه الحياة والحياة التي بعدها.

وفي ضوء هذه الاعتبارات نحب أن نقصر كلامنا عن الحضارة الإسلامية من حيث الأسس الدينية التي قامت عليها ومن ناحية مميزاتها ومكانها بين حضارات العالم.

ومن الطبيعي أن تكون هناك علاقةٌ وثيقة بين الأُسس التي يقوم عليها أيٌّ تصور شامل للأشياء يعتنقُه الانسان

وبين تشكيله للحياة حوله وتشكيله لحياته فيها - والعلاقةُ هنا بين الدين المنزل ونظام الفكر والحياة الذي جاء به وبين الحضارة التي تنشأ عنه..

ومن أصوب ما قيل في هذا الباب عباراتٌ افتتح بها يوسف هِلْ، في كتابه « حضارة العرب » Kultur der Araber Die الفصل الخاص بالرسول محمد عليه الصلاة والسلام، وهي قوله:

« تتّسم الأديان كلُّها بأنها تطبع تاريخَ الانسانية بطابعها، والمؤسسون والأنبياء والرسل لهم نصيبهم في حضارة عصرهم وشعبهم. غير أنه لم يتهيأ لأية ديانة ألْبَتَّة أن تصير دفعةً أولى، وعلى نحو سريع ومباشر، لحدوث تغيراتٍ حرَّكت الدنيا كما صار الإسلام، وكذلك لم يتهيأ لمبلِّغ دين، إلى المدى الكامل، أن يصبح سيدَ عصر وشعبه كما أصبح محمد (عليه الصلاة والسلام). ولذلك فانه من المستحيل كليةً أن ندركَ تطورَ الشعب الذي صار بفضل الإسلام حاملا للحضارة وناشراً لها، من غير أن نعرف التعاليم التي كانت تقودُه. وأيضا، فإنه بالنظر الى خصوصية التاريخ الأول للإسلام، يستحيل فصلُ تعاليمه

عمن جاء بها ، فالعلاقة بين الشخص والتعاليم ، وبين التعاليم والسياسة ، وبين السياسة والتقدم الحضاري ، هـي في بناء الإسلام ، كالعلاقة بين الحامل والحِمْل . ولذلك يتحتم بيانُها بعضها إلى جانب بعض وفي علاقة بعضها ببعض » (نقلا عن الأصل الماني ، ص ٢٥ - ٢٦ ، طبعة ليبتزج ١٩١٩).

تكلم الكثيرون عن حضارة الإسلام ، وبعضُ المؤلفات فيها يكرر البعضَ ، وسيجدُها القارىء في آخر هذا البحث .

ومع أن الكاتب المسبق لا بد أن يتكلم كما تكلم من سبقوه إلا أني لا أجد كبيرَ جدوى من تكرار ما قيل تماماً ، وأحب أن أُشير الى أمور في الإسلام قد لا يتبادر إلى الذهن كيف كان تأثيرُها في حضارته الرائعة العجيبة من حيث الأساس والمميزات .

عناصر البناء الحضاري :

وقبل الدخول في ذلك يحسن أن نلاحظ أن كلَّ بناء حضاري يحتاج إلى أساس من فكر أو إيمان ، وهو روح الحضارة ، وإلى مؤمن بالفكر يحمل روح الحضارة ويشرع في البناء أو ، يهيء له الظروف ، كما لا بد من مناسبة وتعاون في التنفيذ .

والإسلام نفسُه بجميــع جوانبــه أساس للحضــارة الإسلامية. والمؤمنُ بروحها الذي شرع في البناء هو الأمة العربية، والمنفِّذ هو الامة الإسلامية الكبرى ومن اندمج فيها من أهل الديانات والمذاهب الأخرى. والمناسبة هي خروج الأمة العربية ومعها الإسلام واللغةُ العربية وخصالُ العروبة الى مسرح التاريخ العالمي الكبير ولقاؤها مع الحضارات الأخرى.

الأساس الاسلامي:

أشرنا إلى وجود فوارق بين الديانات الثلاثة، رغم اشتراكها من الناحية العامة في أمور جوهرية.

ومن السهل على من ينظر في هذه الأديان أن يلاحظ انفرادَ الإسلام بأمور كثيرة مميِّزة قد يكون أَوَّلُها مفهومَ التسمية التي سُمِّيَ بها والتي تَسِمُ الدينَ والتدينَ بمعناهما المطلق.

مفهوم الإسلام وتأثيره:

الإسلام هو «الإسلام لله»، إسلام الذات من وجوه شتــى، لا بمجرد الطاعة والانقياد وحسب، بل، وخصوصا، بالاستجابة لأمر الله اختياراً، مع الصدق والإخلاص في

ذلك وتبرئة العقل والقلب من كل الشوائب الشرك، ومع منتهى التعظيم والإجلال والمحبة لله، بحيث يكون للإسلام، في الظاهر، سلوكا، وفي الباطن، حالاً وصبغةً، ومن طريق هذه التسمية وصل الدين والتدين إلى المفهوم والتعبير عنه معا.

وإذا كان الإسلام هو الموقفُ الفكري والنفسي للانسان، فهو موقف جميع المخلوقات. فالكونُ كلُّه لسماواته وأرضه وغيرها مُسْلِمٌ لله، والمخلوقات كلُّها ساجدةٌ لله. وهي مسبِّحة بجلاله وبحمده، بلسانٍ واحد.

ولا شك أن هذا يهيىء الفكر للتصور الكلي للعالم، وهو من مميزات العلم والفلسفة.

وفي الإسلام أمورٌ كثيرة تعمَّقت في عقل المسلم وقلبه، وكان لها تأثيرُها في طريقة تفكيره وتصوره للأشياء. وكيفية استعمالها وتجلَّت في سلوكه في نفسه وإزاء ما حوله، من شتى الوجوه.

حب المعرفة:

من ذلك ما غرسه القرآن في روح قارئه من حب المعرفة، بفضل ما جاء في «الكتاب الحكيم» من إشادة

بالعلم ورفعٍ لشأن العلماء وتعظيمٍ للحكمة ومن أُوتيها ، ومن حثٍّ على النظر في هذا العالم وآياته والنفس الانسانية وأسرارها ، مع ترك التقليد للموروث من غير بحث وتجنب الحكم بالظن والهوى ، ومع الاهتمام بطلب العلم اليقيني والمطالبة بالدليل والبرهان ، على أساس أن الإنسان مسئولٌ عن حواسه وعقله وعما يعتقد أو يرى من آراء .

ولا شك أن حضارة الاسلام العلمية والفلسفية ترجع ، في الباعث عليها وفي كثير من أصول المعرفة ومنهج تحصيلها ، الى توجيهات القرآن . وقراء كتب العلم عند المسلمين ، على تنوع ميادين بحثهم واختلافهم ، يلاحظ أنهم اتخذوا من آيات « الكتاب الحكيم » باعثا وحافزاً ، وافكاراً قائدة لهم ، أو أدلةً وسنداً لوجهات نظر علمية أو فلسفية . وكان هذا شأن علماء الاسلام قديما وحديثا ، وهو يزداد مع زيادة المعرفة والتعمق فيها ، ويُلاحَظ واضحا في جميع البلاد الاسلامية في نهضتها العلمية الحاضرة .

بل إن الأوربيين قد لاحظوا أخيرا هذا الفرق بين الإسلام وغيره ، وكيف أن العلمَ في الإسلام قد انبثق من القرآن سواءٌ من حيث المنهج - وهو منهج حسي -

عقلي، لأن الله يأمر باستعمال الحواس والعقل معا - أو من حيث موضوعات البحث[1].

ونحن، بعد هذا، لا نحتاج الى التنبيه الى أن كثيرين من الأوربيين الذين كتبوا عن حضارة الإسلام لم يتفطَّنوا إلى ذلك، رغم معرفتهم التاريخية الواسعة بحضارة الإسلام ومشاهدتهم لمعالمها، وذلك لأنهم لا ينظرون في الغالب إلا إلى المظاهر، ولا يذهبون الى الأُسس والبواعث الأصيلة.

التوحيدُ وتأثيرُهُ:

إن الإسلام، في حقيقته، دينُ الإيمان بالتوحيد الخالص الذي لا تشوبه شائبة، فالله هو الخالق الذي لا خالقَ غيرُه، «بيده ملكوتُ كلِّ شيءٍ»، خلَق كلَّ شيء «بالحق» أي بحكمة وقانون، وهو دينُ الايمان **بالتنزيه** الكامل لله عن كل مشابهة لما يعرفه الانسان أو يتصوره، والله يدبر هذا العالم بالحكمة والرحمة المحيطة بكل شيء. ومفهوم الألوهية في الإسلام، كما يتعقله المؤمن المفكر، في ضوء ما ذكره القرآن

---

(١) هذا ما نجده عند الطبيب العالم الفرنسي موريس بوكاي في كتابه عن التوراة والإنجيل والقرآن والعلم الحديث - انظر المراجع.

لله من صفات الكمال والجلال والإكرام والجمال، هو أعلى مفهوم في العقل، بل فوق كل ما يخطر له.

والمفهوماتُ العاليـة والمسائل الكبرى ترفع مستوى المفكر ومستوى تفكيره، ولا شك أن التوحيد الإسلامي، إلى جانـب سموه بالفكر الى التصور الموحَّـد للأشياء ونظامها، قد ارتفع بالفكر الى مستوى التجريد والعلو عن الحس والمحسوس، وبذلك هيَّأ عقل المسلم للقدرة على تحصيل نظام من التصورات المجردة التي هي من مميزات التصور العلمي والفلسفي، لأن قوانينَ العلم - وكذلك الفلسفة - ليست إدراكا مباشراً للأشيـاء بـل تصوراً مجرَّداً لهـا يستخلصه الفكرُ بنشاطه الخاص وينظر للاشياء ويتصرف فيها من خلال ذلك.

وعلى أساس الإيمان بالإله الواحد الحق الذي يُمْسِكُ بقدرته نظامَ السموات والأرض، والإيمان بالدين الذي جاء من عنده مُحْكَماً بأدلته وبرسالة الانسان على الأرض، كان من الطبيعي أن تلتقي عقولُ المسلمين وقلوبُهم على عبادة الله وأن تتضافر إراداتهم عـلى عمران الدنيا وإنشاء الحضارة فيها، في ضوء الإرشاد الإلهي. فقد كان الإيمان

هو أساس الحضارة، وهذا لا يحتاج الى دليل، وروح الإسلام ساريةٌ في حضارته، وقد لحظ هذا باحثون من غير المسلمين، فيقول أحدهم في حديثه عن حضارة المسلمين إنها «كانت حضارة متكاملة في ذاتها، لأن طرازها اتخذ صورته من الفاعلية الخلقية لإجماع المسلمين على عقيدتهم، وتتجلى في نُظُمهم تلك السماتُ المميِّزة لعقيدتهم»[1].

كلام القرآن عن الكون وتأثيره:

نظر الانسانُ في هذا العالم واضطربت في أمره أفكارُ البشر، بين من زعم أنه وَهْمٌ، ومن رأى أنه واقعٌ أزلي أبدي، ومن تصور أنه في جملته كائنٌ حيٌّ هائل، ومن عبد بعض ما فيه أو نظر إليه نظرة تقديس فنية شعرية.

أما بحسب القران فإن هذا العالمَ الذي يشاهده واحدٌ من عوالم كثيرة، وهو «عالم الشهادة» أي العالم المدرَك بالحواس أو «عالم المُلْك»، وهو علامة كبيرة، كما يدل على ذلك لفظ «عالم»، وصنعٌ بديعٌ يتجلى فيه الإتقان والجمال، ويدل على القدرة التي أبدعته والحكمة التي صدرت عنه

---

(١) راجع مقدمة كتاب ج. أ. وليامز، وهو مذكور في المراجع

والعناية الشاملة لكل شيء فيه.

والقرآن يشير إلى تعدد العوالم، ولذلك يذكر علماء المسلمين الى جانب «عالم الشهادة»، عوالم أخرى ويسمونها بأسماء لها دلالتها.

والعالَم كبير جداً بحيث أن كلَّ المجموعات الكَوكبية والنجومَية الهائلة التي نرى بداياتها ويعجز خيالُنا عن تصور الأرقام الدالة على امتدادها، عبارةٌ عن «زينة». لما يسميه القرآن «السماء الدنيا».

وكلُّ شيء في هذا العالم له «خَلْقُه»، وقد خُلق «بالحقّ» وله «أجلٌ مسمًّى»، بمعنى أن له طبيعتَه وقانونَه وأنه داخلٌ تحت مفهوم الزمان، بل إن ما نسميه الزمان عنصرٌ في بنية المخلوقات، وهو «مدة» وجودها المحدَّدة لها.

وبيانُ القرآن لتكوين هذا العالم ليس على صورة القصة، كما في غير القرآن من كتب الأديان السابقة، بل على سبيل قضايا حول وقائع وحوادث محدَّدة، مع ذكر أحوال الأديان السابقة، بل على سبيل قضايا حول وقائع وحوادث محدَّدة، مع ذكر أحوال وطبائع ووقائع زمانية والإشارة الى الفعل الإلٰهي الخلاَّق (مثل س ٤١/ فصلت/

٩ - ١٢).

والعالم بناءٌ مبين، وهو ليس كُرَةً محدودة مقفلة على ما فيها، بل عالمٌ لا حدود له، وَيُؤخَذ من آيات القرآن أن حجمه في ازدياد.

«والسماء بنيناهـا بأيـدٍ، وإنَّا لموسعون» (س ٥١/الذاريات/٤٧).

وقد فهم المفسرون أن السماء تتسع. ولا بدَّ أن يكون هذا العالم الذي نشاهده، بل نظامُ الخلق كلـه في ازدياد، لأن قدرة الله المبدعة لا نهاية لهاوإلا لما يمكن أن يصدر عنها من مخلوقات، وهو سبحانه وتعالى دائمُ الإبداع والخلق والتدبير والعناية.

«كلَّ يَوْمٍ هُوَ في شأن» (س ٥٥/الرحمن/٢٨).

وإذا كان الله هو مبدع العالم فهو الذي يُمْسِكُ بقدرته الشاملة نظامَه.

والقرآن ينبه الى جوانب في هذا العالم لكي يجعلها الإنسان المفكر موضع دراسة، فيشير الى الكمّ والمقدار وإلى الهيئة والتركيب والوظائف (مفهوم الكيف) والى الطبيعة والقانون (مفهوم «الخَلْق» . «الخلق بالحق») والحتمية

التي تسود نظام الكون المادي (مفهوم التسخير وإلى أن قوانين أشياء هذا العالم ليست واجبة في ذاتها، وأن وجود هذا العالم نفسه متوقفٌ على إرادة القدرة المبدعة له - وكل هذا يؤكده العلمُ الحديث.

وإذا كان القرآن يشير الى الظاهر المتبادر تحت المشاهدة فإنه ينبه إلى المجهول وراءَ ذلك مما لم يصل اليه علمُ الإنسان أو لم تدركه حواسُّه.

وفي آيات القرآن مادةٌ غزيرةٌ حولَ كل ما يقع تحت الحس من هذا العالم وما يجول في الفكر وأعماق النفس.

فاذا تفطنّا الى ما في القرآن حولَ المعرفة ومنهجها الحسي - العقلي - والى ما فيه من تنبيه إلى ظاهرات الطبيعة الكبرى والى أدق ما فيها وإلى الأمر بالنظر والاستدلال أدركنا أن «الكتاب الحكيم» قد وضع العقل أمام مهمة استقراء علمي على مستوى الكون.

وأيضا إذا راعينا ما جاء في القرآن في مواضع شتى من أن الله قد سخر للإنسان ما في السماء والأرض جميعا منه وأنه مكَّن للإنسان في الأرض وذلَّلها له وجعل له فيها معايش وَمُسْتَقَرّاً، مؤقتا على كل حال، أدركنا غرضَ

القرآن، وهو أن يستخدم هذه الطبيعة في مصالح حياته.

وبذلك فتح القرآن أمام الإنسان طريقَ الاستدلال لمعرفة صانع الأشياء سبحانه وطريقَ العلم الطبيعي، لكي يعرف الإنسان طبائع الأشياء وقوانينها ثم يستعملها في مصالح حياته.

ولا حاجة بنا هنا الى ذكر تنبيهات القرآن وإشاراته التي من شأنها أن تؤدي الى تصورات بل نظريات علمية من أعلى مستوى.

ويكفي أن نشير إلى أنه إذا كان الإسلاميون قد نقدوا المعرفة العلمية التي وصلت إليهم وجدَّدوا المعرفة، فوصلوا الى معارف جديدة، بل وضعوا علوما بأكملها لم يسبقهم أحدٌ اليها، بفضل وضعهم منهج البحث الاستقرائي على مستوى ملاحظة السماء وما فيها وعلى مستوى دراسة ما على الأرض بالمشاهدة، والتجربة، فانه لا شك أنهم كانوا يعملون بما استقر في طريقه تفكيرهم من النزعة العلمية التي تتضمنها توجيهات القرآن.

كلام القرآن عن الإنسان:

وإذا نحن تأملنا ماجاء في القرآن عن الإنسان وجدنا

نظريةً كاملة متماسكة شاملة للانسان من جميع النواحي في وجوده وحقيقته ورسالته.

وجودُ الانسان مرتبةٌ خاصةٌ بين المخلوقات، وهي أعلى المراتب، في الإنسان نفحه إلٰهيةٌ، والله أفردَه بعلمٍ من عنده، وجعل له كرامتَهُ بين المخلوقات وجعله «خليفةً في الأرض، لكي يعمرها بفضل العلم بخالقه وحكمته من وجوده ومعرفة الحق والحكم بالعدل وإفاضة الخير والرحمة. وقد أعدَّه الله لرسالته على الأرض، هناك في عالم آخر. والمتأمل لمسألة حياة الإنسان في الجنة والأمر والنهى هناك، ثم النسيان والمعصية والتوبة يلاحظ أن ذلك هو الإعداد لحياةالإنسان على الأرض، وهي ليست أمراً عارضا، بل أمراً مرسوما في الخطة الحكيمة للخلق، والله قد أعْلَمَ بها ملائكته مقدما: «وإذْ قالَ رَبُّكَ للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفةً» (س ٢ /البقرة / ٣٠ - ٣٨).

فالإنسان جاء الى الأرض صاحبَ أمانة عَهِد اللهُ بها إليه، هي عمرانُ الدنيا والتمتع بخيراتها بالحق والعدل، وهذا هو مفهوم الحضارة الإنسانية.

ولقد أمرَ الله ورسولُه، الى جانب عبادته، بالعمل

الدنيـوي الذي هو بحسب الإسلام عبادةٌ أيضا، بحيث لا يهمل الإنسان العملَ في عمران الدنيا، حتى لو قامت الساعة، وكان في يده فسيلةٌ عليه أن يغرسها، لوجب عليه أن يُتِمَّ عملَه، كما أمر بذلك رسولُ الاسلام عليه الصلاة والسلام.

فاذا تَفَطَّنَّا الى أَنَّ الإنسان جاء مُعَداً لحياته هنا لها، بعد أن تلقى الأمر وأخطأ وتاب، أدركنا أنه جاء بلا عُقَدٍ ولا مشكلات، لأن هذه هي طبيعة حياة الإنسان وطبيعةُ بناء الحضارة على الأرض، لأن الحضارة اجتهادٌ انساني وسَط المعاناة وإمكان الخطأ مع اصلاحه والاجتهاد في التقدم المستمر في طريق الخير.

ويستطيع الإنسان أن يكون فخورا برسالته وأن يُقْبِلَ عليها متفائلا واثقا» مستعدا للكفاح والجهاد. حتى إذا أدى رسالته عادَ الى عالَمه، وهكذا يلتقي آخر حياة الانسان بأولها في انسجام جميل تخلّله الكفاح وانتهى بالفوز.

ولذلك، وبهذه الروح، أقبل المسلمون، يمثلهم كبارُ خلفائهم وحكامهم، على عمارة الدنيا، فكان لحضارتهم

عظمتُها وشأنُها في تاريخهم وتاريخ بني الإنسان.

القيم في القرآن: الحق والخير والجمال.

نظام القيم العليا أهمُ ما تتسم به الحضاراتُ الراقية الكبرى، وهي معاييرُ ننظر في ضوئها إلى تقدير الأشياء.

واذا كان الحق هو مدار القرآن: الحق في الوجود، وهو الله تعالى، والحق في المعرفة، وهو العلم بالأشياء والكلام عنها كما هي، فان القرآن يدور أيضا حول الخير، بمعناه المطلق، وهو الله تعالى أيضا، وبمعانيه الأخرى، أعني، خيرات الفكر وخيرات الحياة على تنوعها.

والقرآن ينبه أيضا الى الجمال في هذا العالم، إلى جمال السماء بنجومها وكواكبها، وجمال الأرض بزينتها، وجمال ما صنع الله من مخلوقات قد لا ندرك جمالها بحسب معاييرنا السطحية، لأن الله قد «أحْسَنَ كلَّ شيءٍ خَلَقَهُ» وهو «صُنْعَ الله الذي أَتْقَنَ كلَّ شيء».

فأما عن محبة الحق فقد كان طلبُه ديدنَ علماءِ الإسلام، ويكفي أن نذكر قول الكندي، أول فلاسفة الإسلام: «وينبغي لنا أن لا نستحيَ من استحسان الحق واقتناء الحق من أيْنَ أتى، وإن أتى من الاجناس القاصية عنا

والأمم المُبَاينة لنا ، فإنه لا شيء أولى بطالب الحق من الحق ولا أَحَدَ بُخِسَ بالحق ، بل كلٌّ يُشَرِّفُه الحق »[1].

وأما الخير فقد أقبل المسلمون في حضارتهم على خيرات الفكر بطلب العلم . وعلى خيرات الروح بالعبادة الى حد الزهد والتصوف الرفيع ، وعلى خيرات الدنيا فأخذوا منها ومن زينتها بأوفى نصيب وتفننوا في ذلك .

وأما الجمال فقد هاموا به : فالصوفية والشعراء الصوفيون تغنوا بحب الله وجلاله وجماله في تعبير رائع ، وأهلُ الدنيا زَيَّنُوها بكل زينتها ، وكان الجمال الخلاَّب من سمات الحضارة الاسلامية في شتى جوانبها ، وهذا ما دعا أهلَ اوربا ، وهم في تخلفهم وحياتهم الخشنة ، الى الاستمتاع بحضارة الإسلام ، سواءٌ من ذلك جمال فنونها الجميلة أو جمال المظهر الانساني أو جمال اللذات الحسية .

حامل روح الحضارة ، بانيها ومنفِّذها :

أما الحامل الأول لروح الحضارة الاسلامية فهم العرب ، بما لهم منذ أول أمرهم من حماس طبيعي وعُلُوٍّ في

---

(١) كتاب الكندي في الفلسفة الأولى ، رسائله ، القاهرة ، ١٩٥٠ ، جـ١ ص ١٠٣

الهمة وكثير من صفات البطولة والطموح الى المجد والصدارة.

وليس المجال هنا مجال الكلام عن الطبيعة أو الروح العربية، وان كانت طبيعة الأمة عاملا حاسما في طبيعة حضارتها.

وانما يهمنا أن نذكر أن الإسلام، بروحه ومبادئه، هو الذي وجه الطبيعة العربية والطاقة الحضارية العربية، فأمدّها بالحافز والغاية. ومع أن الأمم الإسلامية ساهمت بأعظم نصيب في حضارة الإسلام، فان العرب هم وحدهم المؤسسون لها، الذين هيئوا لها الظروف، ولم يزالوا يُظِلُّونها برعايتهم، والأمم الاسلامية، ولقد ظل العرب، على طول التاريخ الاسلامي، يدافعون عن حضارة الإسلام، وهم يصدّون عن أنفسهم وعن رسالتهم عدوانَ غيرهم، في عالم الصراع بين الأمم والحضارات، ولمن يشاء، على كل حال، أن يقرأ ما يقوله جوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب»، ثم يرى رأيه في كلامه:

«حضارة الإسلام» أو «حضارة العرب» اسمٌ لحضارة الشرق في القرون الوسطى، ولم يكن العربُ وحدَهم

مبتكري هذه الحضارة، ولكن جميع سكان الشرق الأدنى وقسم من أفريقيا، الذين ظلوا مدةً طويلة منفصلين عن الحضارة الأوربية، آخى بينهم الاسلامُ، دينُ الدولة، واللغة العربية، لغة العلم والادب.

ففضل الشرق في تأثيره في الغرب يعودُ الى العرب وحدهم، وأما الشعوب التي حلَّت محلَّ العرب، وإن اتفقَ لها شيءٌ من التأثير السياسي أو الديني، فلم يكن تأثيرُها العلمي والأدبي والفلسفي في غير درجة الصفر».

«إنه كان من الحضارة الاسلامية تأثيرٌ عظيم في العالم وإن هذا التأثيرَ خاصٌ بالعرب وحدَهم، فلا تشاركهم فيه الشعوبُ الكثيرةُ التي اعتنقت دينَهم، وإن العرب هذَّبوا البرابرة الذين قضوا على دولة الرومان بتأثيرهم الخلقي، وإن العرب هم الذين فتحوا لأوربة ما كانت تجهله من عالمَ المعارف العلمية والأدبية والفلسفية بتأثيرهم الثقافي، فكانوا مُهَذَّبين لنا وأئمةً لنا ستة قرون».

«(حضارة العرب، الترجمة العربية ص ٣٥، ٥٧١، ٥٧٩).

والطاقةُ الحضارية العربية، كبيرةٌ، وهي لا تزال على

قوتها، والملاحَظُ أنه لا تكاد تتهيأ للعرب ظروفُ الحضارة حتى تندفع في طريقها بقوة تكاد تشبه قوةَ الطبيعة. وكل ذلك في ضوء الإيمان بالله وبرسالة الانسان وانطلاق مده وقدراته بفضل روح الاسلام.

وليس أدل على ذلك مما نشاهده اليومَ من تحضُّر، بل اندفاع حضاري، في الدول العربية الحديثة، وهي تبلغ في عشرات السنين ما لم يبلغّه غيرُها في قرون.

وإذا كان العرب قد استعانوا بمحاكاة الأمم في بناء حضارتهم التاريخية، فانهم اليومَ يسيرون السيرة نفسها، وتتسع روحهم، من الناحيتين الدينية والإنسانية، وهي روح الاسلام، للتعاون مع غيرهم لأجل مصلحة تقدم الانسان وحضارته.

اللقاء الحضاري:

استحوز العربُ، وهم يبلِّغون الاسلامَ، على جميع بلاد الحضارات السابقة، ولما كان هدفهم عمرانَ الدنيا باسم الله، فإنهم لم تكد تستقرّ دولتهُم حتى أقبلوا على بناء الحضارة، خصوصا في العصر العباسي الأول واستمروا في

الإنشاء رغم عوامل التغيير ورغم الأحداث الكبرى التي تطرأ على تاريخ الأمم.

ثم إنهم لم يلبثوا، بعد أن تعلموا من غيرهم، أن بدءوا في مرحلة الإبداع. ولم ينشأ عن انحلال دولتهم العالمية أيٌّ تخلف حضاري، بل إنه في داخل إطار الحضارة الكبرى الموحِّدة في أساسها وروحها وأهدافها، كانت الحضارات الإسلامية المحليَّة تسير في طريق الازدهار وتتخذ طابعا من العبقريات المحلية، من غير فقدان الطابع العام.

المراحل الكبرى للحضارة العربية الاسلامية:

يذكر الاستاذ ناجي معروف في كتابه «اصالة الحضارة العربية» أن مراحل الحضارة العربية هي:

مرحلة النشوء والتكامل في الجزيرة العربية.

،، الاقتباس من الأمم بعد الفتوح الإسلامية.

،، الابتكار والإبداع.

،، التأثير في الشرق والغرب.

ونستطيع، على أساس نظرة أخرى، أن نتبين مراحل للحضارة الاسلامية، اذا صرفنا النظر عن حضارة ما قبل

الاسلام، سواء حضارة الأمم الجنوبية أو حضارة القبائل المستقرة في قرى الوسط والشمال أو حضارة أهل البادية.

يمكن أن نتبين المراحل التالية:

- مرحلة تكوين الإنسان المؤمن المجاهد، تكوينا دينيا شاملا لحياة التدين ولحياة الدنيا، وهذا تمَّ في عهد النبي عليه السلام، وهو أساس كل تحضر إسلامي، لأن حامله هو الانسان، ولا حضارة بدون إنسان متحضر في فكره وحياته.

مرحلة تبليغ أساسيات الحضارة الاسلامية للأمم، وهي مرحلة الفتوحات الكبرى التي بلَّغ بها العربُ رسالةَ الاسلام للأُمم وأسسوا دولةَ الإسلام ودارَ حضارته. وكانت عناصر حضارته هي أُصول الاسلام واللغة العربية الرائعة وشعرهم الذي اشتمل على فضائلهم ومثلهم العليا، وعلى جملة خصال العروبة التي وجَّهها الإسلام نحوَ اهداف أوسع واعلى من أهدافها. وهذه هي مرحلة العصر الأموي.

- مرحلة اللقاء الحضاري بين الإسلام وبين

حضارات الامم، وهنا بدأ تتلمذ العرب على غيرهم، وسرعان ما تفهَّموا روحَ الحضارات الأخرى وعناصرَها، وبدءوا هم ومن اشتملت عليه دولتهم، في بناء حضارة، روحها وجوهرها الإسلام ورداؤها كلُّ مظاهر التحضر الانساني، وهذا تحقّق في العصر العباسي حتى أواسط القرن الرابع للهجرة - وكانت مرحلة إبداع أساسي احتفظت فيه الحضارةُ بروح الإسلام كاملةً وبكثير من مُثله العليا.

- مرحلة الإبداع مع التنوع، وهي تمتد حتى أوائل القرن الثامن الهجري، وإن كان قد عاقتها غزواتُ المغول وما أعقبها، وفي هذه المرحلة كان تأثير حضارة الإسلام في الحضارة الأوربية.

- مرحلة الحضارة عند مختلف شعوب الإسلام في فارس والهند ومصر وفي الدولة العثمانية.
- مرحلة الركود والتخلف في عصر الاستعمار.
- مرحلة النهضة الحضارية الحديثة في مختلف بلاد الإسلام في القرنين التاسع عشر والعشرين،

وهي على أقوى صورها في أيامنا، وتسير في الحضارة سيرا حثيثا، لكي تتدارك ما فات وتلحق الحضارة المتقدمة.

وهذا لا يتم بدون مشكلات أو مساوىء.

مميزات الحضارة الاسلامية.

لعلك قد تبيَّنت مما تقدم بعضُ السمات في حضارة الإسلام:

- هي أولاً وقبل كل شيء حضارةٌ تقوم باسم الله تعالى وعلى يد الانسان، ونصوص القرآن صريحة في أن الله قد «استخلف» البشر في الأرض «واستعمرهم» فيها، أي طلب منهم عمارتها (مثلا س ٢/البقرة /٣٠، ٦/الانعام/ ١٦٥، ١٠/يونس/ ١٤، ٣٥ /فاطر ٣٩). والله تعالى هو الذي بيَّن دعائمها النظرية والعملية، فأخرجها، سواءُ في نظام الفكر أو نظام حياة المجتمع والدولة، من دائرة قصور البشر وتعسفاتهم واختلافاتهم، وللبشر بعد معرفة الأسس أن يفصلوا ويجدّدوا، بحسب ما تتطلبه الحياة

الانسانية ومصالحها.

- وهي حضارة مضت عليها القرون الكثيرة، وتعرضت لأزمات ومعوقات، بل لهجمات مدمرة وعداوات قاسية، لكنها استطاعت البقاء، وما ذلك إلا بما كان يبقى فيها دائمًا من مبادىء الحق والخير والعدل التي بدونها لا يقوم نظامٌ في هذه الدنيا.

- قد يعرض لها الركود أو الانكماش، لكنها، كالكائن الحي الذي تكمن قوته في داخله، تسكن تحت مجاري الأقدار وتصبر، حتى إذا تهيأت لها الظروف المواتية تفتحت وازدهرت من جديد.

- هي حضارة متفتحة لتقبل كل الثمرات الروحية والعقلية والمادية لعناصر الحضارة الصحيحة، وهذا هو سِرُّ تجددها المستمر، وهي تقدر دائمًا على النقد والاختيار وتتغلَّب، كما يتغلَّب الجسمُ القوى، على كثير من العوارض والآفات، ومرجع قدرتها على البقاء الى أنها حضارةٌ روحية عقلية أخروية دنيوية مادية علمية فلسفية.... بحيث تتمثل كلَّ شيء

وتحوله إلى ذاتها العميقة، ولا يمكن استئصالُها إلاّ بازالة من يحملها ويتعهدها ويمثلها، وقد يجمع المسلمُ في ذاته كلَّ هذه العناصر.

هي حضارة تنتشر انتشاراً تلقائيا، وتجد طريقَها **بوسائل بسيطة**، لأن روحَها وأُسُسَهَا الفكرية والأخلاقية تتجلى في المسلم الحق البسيط، فهو قد يكون سجينا عند الأعداء أو تاجراً أو رحالة ينزل عند من لا يعرف الإسلام، فسرعانَ ما يدرك الناسُ روحَ الإسلامِ مِن مظاهره على المسلم في عبادته وفي سلوكه ومعاملته، ثم لا يكاد يجتمع عدد من المسلمين حتى تربطهم الروابط التي تربط بين المؤمنين، من عبادة وأُخُوَّة وتعاون، فيضعون الأسس لتطور لا يتوقف.

وعلى هذا النحو وصل الاسلامُ الى **أقاصي** البلاد والجزر وأعماق الفيافي والغابات، بلا خطة مرسومة، وقد تغلّب الاسلام بفضل ذلك على كل الديانات بخططها ووسائلها.

وهي كذلك حضارة عالمية، انسانية، شأنها شأن الإسلام نفسه، وإذا كانت قد صارت عالميةً فذلك على أساس أن

الإسلام نفسَه صار عالمياً ، وأن وحدة الحضارة الاسلامية ، رغم تنوع مظاهرها ، مبنيةٌ لوحدة الشعوب الإسلامية ، وهذه بدورها مبنية على التوحيد الذي أشرنا إلى تأثيره فيما سبق .

وكما أن الله يُمْسِكُ نظامَ الكون بقدرته الشاملة فانه تعالى ، بفضل الإيمان به ، يمسك نظامَ الأمة الإسلامية كلها . كما يشمل معَها جميعَ من آمن بالله من أهل الديانات الأخرى .

- والإسلامُ **دينُ الكائنات كلها**، وهو في الأعماق أو بلسان الحال أو المقال ، دينُ البشر جميعا ، ودينُ الإخاء والمساواة بين البشر ، على اختلاف اللغات والأجناس ، بلا تمييز ، لأن هذا الاختلاف من آيات الصنع الإلهي البديع في هذا العالم .

«وَمِنْ آياتِه خَلْقُ السماواتِ والأرض واختلافُ أَلْسِنَتِكُم وأَلْوَانِكم ، إنَّ في ذلك لآياتٍ لِلْعالمِينَ » (س ٣٠ / الروم/ ٢٢).

- والإسلامُ دين **الحرية في العقيدة والعبادة**. ودينُ التسامح المبنِيّ على أنه مصدق للحق فيما سبقه من أديان ومتقبِّلٌ للحق أينما كان .

عالميَّةُ الإسلام وحضارتهِ:

ولا بدَّ من تأكيد هذه المعاني بشواهدَ تبيِّن كيف انتشر الإسلامُ وصار ديناً عالَميا، وكيف صارت حضارتُه في ظلِّه حضارةً عالميةً أيضا.

فقد شاع بين المؤلفين الغربيين أن الإسلامَ انتشر بالسيف، لأنهم لاحظوا أن الأمم دخلت في الإسلام بعد فتح بلادهم، وفاتهم النظر في أحوال مختلف الأمم التي عاصرت انتشار الاسلام وكيف رحبت بقدومه ليصلح من أُمورها. ونَسُوا أو تناسوا أن الفاتحين ما كانوا يريدون بحروبهم إلا التمكنَ من التغلُّب على من حال بينهم وبين أن يبلِّغوا الإسلام ويعرضوه لِلأمم. وكانوا يُقرُّونَ أهلَ الديانات المنزلة على دينهم. إذا أرادوا - ويضمنون لهم حقوقَهم بعهود ومواثيق لم تُعْرَف في تاريخ الاديان من قبل. أما إذا دخلوا في الاسلام فقد صار لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم. أما الجزية التي كان يؤدِّيها أهلَ الكتاب فقد كانت في مقابل إعفائهم من أعباء الحرب وحماية جيوش الإسلام لهم.

والحق أن الإسلام بَهَرَ الأممَ بعقيدته التي يتصورها

العقل وشريعته التي تنظم أمور الحياة. ولقد أعجب الأُمم ما تمثل في معتنقي الإسلام من السيرة الحميدة والتسامح والعدل ومكارم الأخلاق بوجه عام.

يقول جوستاف لوبون في صدد تأثير عقائد أي دين من الأديان » إن الإسلام إذا ما نظر اليه الإنسان من هذه الناحية (يقصد ناحية العقائد) وجده من أشدِّ الأديان تأثيراً في الناس، وهو مع مماثلته لأكثر الأديان في الأمر بالعدل والإحسان والصلاة.... الخ. يعلِّم هذه الأمور بسهولة يستسيغها الجميع، وهو يعرف. فضلا عن ذلك. أن يصب في الناس إيمانا ثابتا لا تزعزعه الشكوك.... فالإسلام من أكثر الديانات ملاءمة لاكتشافات العلم ومن أعظمها تهذيبا للنفوس وحملا على العدل والإحسان والتسامح (حضارة العرب ص ١٢٥ - ١٢٦، ط. ١٩٦٤/ القاهرة).

ويقص علينا التاريخُ من تسامح الاسلام وسعة روحه، ممَّثلاً في خلفائه، ما يندهش له الإنسان.

فهاهو ذا الخليفةُ المنصور العباسي، مثلا، يعرض الإسلام على طبيب نصراني عالج الخليفة فشفى على يديه،

فيجيب الطبيب قائلا: «أنا على دين آبائي أموت، وحيثُ يكون آبائي أحبُّ أن أكون في الجنة أو في جهنم». عند ذلك يبتسم الخليفة ويصرفه موفور العطية[1].

وهذا المأمون العباسي يعرض الإسلام على زعيم للمانَوية، بعد أن ناظره العلماء وأفحموه، فيردُّ على المأمون قائلا: «نصيحتك يا أميرَ المؤمنين مسموعة، وقولُك مقبول، ولكنك ممن لا يُجْبِرُ الناس على ترك مذاهبهم». فيرضى المأمون بهذا الجواب ويبعث مع المانوي قوما يحفظونه من العامة.

وكان لمظاهر العبادات الإسلامية أكبر تأثير في نفوس من شاهدها:[2]

يقول الفيلسوف الفرنسي ارنست رينان Ernest Renan الذي اشتهر بحرية الفكر: «ما دخلتُ مسجداً قط إلا هزّت نفسي

---

(١) راجع ترجمة جورجيس بن جبريل بن بختيشوع في طبقات الاطباء جـ٩ ص ١٧٥.

(٢) خيرُ مرجع معرفة كيف انتشر الإسلام كتابُ المستشرق البريطاني توماس أرنولد بعنوان The Preaching of Islam وهو مترجم إلى العربية، ترجمة عبد المجيد عابدين، بعنوان «الدعوة الاسلامية».

عاطفة شديدة... وأحسستُ بأسف حقيقي لأني لستُ مُسْلِماً ».

ويتحدث أحد علماء بني اسرائيل الذين اعتنقوا الإسلام عما أحدثته الصلاةُ في المسجد من أثر في نفسه فهو عندما رأى صفوفَ المصلِّين أحسَّ بأنهم هم الجماعة التي أخبر الأنبياء بظهورها. حتى إذا قام الخطيب استولى على نفسه شعور بالرهبة، فلما ختم الخطيب خطبته قائلا: «إن اللهَ يأمرُ بالعدلِ والإحسان وإيتاء ذي القُرْبَى وينهى عن الفحشاءِ والمنكرِ والبغيِ، يَعِظُكُمْ لَعَلَكُمْ تذكرون». أحس ذلك العالم الإسرائيلي بقوة تدفعه إلى النهوض مع المصلين. لأنه، كما يقول، أحسّ بأن الله يتجلى لهم في ركوعهم وسجودهم عند كل صلاة، ثم يختم كلامَه قائلا إنه، عند القيام للصلاة، أيقن بأنه خُلِقَ ليكون مسلما.

ويتحدث أسقفٌ نصراني عما يبهر من يتصل بالمسلمين لأول وهلة من مظاهر دينهم، حيثما كان الإنسان، في الطريق أو في الحقل، يرى الرجلَ منهم، متى حان وقت الصلاة، يترك عمله وينهض في سكينة وتواضع وفي غير رياء ولا تظاهر، ليؤدي صلاته في وقتها. ويتحدث هنا

الأسقف عن الأثر الذي يحْدُث في نفس الرائي في مشاهدته ساحة مسجد كبير، وهي غاصّة بآلاف المصلين مستغرقين في صلاتهم يُظْهِرون في كل إشارة ما يدل على أعمق الإجلال والخشوع لله، كما يتحدث عن أثر النداء للصلاة من منارات المساجد، سواءٌ في أثناء ضوضاء العمل اليومي أو عندما يُرْخي الليلُ سُدولَه، أو في وقت السحَر، قبل أن يتنفس الصبح، هذا إذا تركنا تأثير بقية العبادات والشعائر الاسلامية، من مظاهر حياة الصيام في رمضان وأثر الزكاة والحج، وغير ذلك من مظاهر تتجلى في حياة المسلم كلّها ولا تختفي في أي حال من أحواله.

وكثيراً ما كان أسرى المسلمين الذين وقعوا في يد الأعداء، بمظاهر عبادتهم، سببا في إسلام آسريهم.

ومن أروع الأمثلة على قوة تأثير الإسلام أنه بعد أن جاءت جحافلُ المغول والتتر والترك القدماء واجتاحت بلاد الإسلام، حاول أعداء الإسلام بوسائل شتى أن يوغروا صدورَ المغول على الإسلام والمسلمين، لكن المغول ما لبثوا أن عرفوا الاسلام على حقيقته حتى أسلموا وصاروا من أحسن المسلمين.

ورأى جوته شاعر الألمان الكبير في مدينة ڤايمار بألمانيا جماعةً من جنود البشكير المسلمين قادمين من جنوب روسيا، وشهدَ كيف أقاموا الصلاة في قاعة مدرسة هناك، فأثَّر منظرُ عبادتهم في نفسه تأثيراً كبيراً هيّأه لمزيدٍ من دراسةِ الإسلام والإعجاب به. وقد تبين شاعرُ الألمان في الإسلام عنوانَ التقوى، بمعنى الإيمان بالله والتسليم له مع الحمد والمحبة والشوق الى الفناء فيه. وجوته هو القائل: «إذا كان معنى الإسلام أنه التسليمُ لله فإننا جميعا على الإسلام نحيا ونموت»[1].

فكيف لا يدخل في الإسلام من يعرفه، إلا إذا كان جاحداً أو مُعْرِضا عن الدين جملةً أو مقلِّداً لا يدرك غيرَ مألوفه وما اعتاد عليه.

أما كيف صار الإسلام حضارة عالمية فهو نتيجة طبيعية منطقية لانتشار الإسلام. فأينما حلَّ الدينُ الحنيف كانت تبدأ الحضارةُ وتنشأ على الأسس التي أشرنا اليها ويبدأ العمرانُ بكل صوره، وسرعان ما تنشأ مدنٌ جديدة

---

(١) راجع مقدمة عبد الرحمن بدوي للديوان الشرقي لجوته، دار النهضة القاهرة ١٩٦٧ ص ٧، ٣٣، ٣٧.

تصبح مراكزَ لحضارة الإسلام ومنارات لاشعاعها فيما حولها.

ولما كان الإسلام يحترم الديانات السابقة. وكان الخلفاءُ بفضل الإسلام أيضا يعظِّمون كلَّ علم وحق وخير ورقي إنساني ويعرفون الفضل لأهله، فإن ذلك دعاهم إلى الاستفادة من مواهب الأمم المتحضرة، فمهدوا السبيل إلى تعاون انساني واسع النطاق فتضافرت في دولة الاسلام جميعُ مواهب الأمم العقلية والفنية، ومنذ عهد معاوية بن أبي سفيان نجد الخلفاء يتخذون من علماء أهل الكتاب من يستشيرونه أو يستفيدون منه في تثقيف أبنائهم أو في وظائف ينهضون بعملهم فيها: جيلا بعد جيل، وقد تظلُّ الأسرة الواحدةُ (أسرة بختيشوع مثلا في العصر العباسي) أكثر من قرن تُمِدُّ الدولة بالأطباء والكُتَّاب والموظفين، كما نجد من أهل الكتاب عُمّالاً ووزراء في الدولة الإسلامية (سواء في الأندلس الإسلامية أو في مصر). يؤدون أعمالهم بإخلاص ويتمتعون هم وأبناء دينهم بالحرية والإكرام، في ضوء قوله تعالى: «لا إكراه في الدّين».

وفي ظل حضارة الإسلام نشأ الفكرُ العلمى والفلسفى

وازدهر ازدهاراً كبيراً عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى، بل عند غيرهم من أتباع نحل دينية وفلسفية سابقة، كالحرّانيين. وكان ممثلو ذلك الفكر موضعَ التقدير والاحترام[1].

وفي هذه الظروف كلها، وفي جو هذه الحضارة الزاهرة، كيف لا تدخل الأُمم في الإسلام وتشارك في حضارته. وكيف لا يتسابقون، بل يتنافسون، في ذلك!؟ فالإسلام يحتوى على كل حق في عقائد أهل الكتاب، وهو متفتح لكل علم حق وفكر صحيح ومتقبل لكل ما يرقى بالانسان رقيا حقيقيا في هذه الحياة.

وكان من نتائج سعة الدولة الاسلامية الشاسعة وتنوع البلاد والأمم فيها أن تنوعت مظاهرُ الحضارة. بحسب التراث السابق وتنوّع البيئات. وقد بلغ أن بعض المدن خارج العالم العربي بمعناه التقليدي صارت حواضر الثقافة تضاهي بغداد والقاهرة ودمشق، وفيها كبارُ العلماء كلها.

(١) راجع تراجم العلماء والفلاسفة مثلا عند القاضي صاعد الأندلس في كتابه « طبقات الأمم » وعند ابن أبي أصيبعة في كتابه « عيون الأنباء في طبقات الأطباء ».

وفي العلوم الإسلامية بمعناها الخاص، الى جانب فنون الحضارة.

ومؤرخُ الحضارة يرى أمامه رقعةً شاسعة من الأرض، تمتد من داخل بلاد الصين والهند الى وسط آسيا، امتدت فيها مراكزُ الحضارة من بُخارى وسمرقند وخوارزم إلى بغداد ودمشق والقاهرة، إلى تونس والقيروان وفاس، إلى أشبيلية وغرناطة وطليطلة، هذا إلى پالرمو في صقلية، ثم في مدن بعد ذلك صارت مراكز حضارة إسلامية كبرى كالقسطنطينية.

وكانت مراكز العناية بدراسة حضارة الإسلام، عقيدته ولغته وعلومه على تنوعها، وترجمة ذلك كله، موزَّعة على حواضر العلم في أوروبا: دير مونتي كاسينو (جبل قاسم أو رباط قاسم) في جنوب ايطاليا، البلاط البابوي، على عهد البابا أدريان الرابع (ت ١١٥٩م)، پالرمو، على عهد الملك النور ماندي فريدريك الثاني (ت ١٢٥٠م)، وفي اكسفورد، والقسطنطينية - قبل أن يفتحها المسلمون.

وكانت الحدود ممسوحة في طول بلاد الإسلام الشاسعة، والعلماء وطلاَّبُ العلم والحجاج والتجار والرَّحالون

والصوفية السّواحون. جميعاً يجوبون البلاد، كلٌّ فيما يريد، وكانوا أينما ذهبوا يجدون عقيدة واحدة وشريعة واحدة وأخلاقا وعادات وآداباً واحدة ولغة ودين وعلم وأدب واحدة، الى جانب لغات محلية هي أيضا لغةُ حضارة إسلامية.

وإذا كانت دولةُ الإسلام قد انحسر سلطانها عن بعض دار الإسلام، كما في أواسط آسيا وتركيا، فإن الإسلام باق فيها، وعناصرُ حضارته باقيةٌ في العقل والقلب والضمير كالجواهر التي لا تتغير ذاتُها. ومعالم حضارته المودعة في الكتب أو القائمة على الأرض تقف ضخمة شاهدةً على قوة الروح الحضارية التي انبعثت من الإسلام.

مكان الحضارة الاسلامية بين الحضارات العالمية.

ظهر الإسلام بعدَ ديانات ونحل قديمة. وبعد ديانات منزلة كبرى، وبعد تجربة إنسانية في الفكر العلمي والفلسفي وفي تنظيم أمور الحياة.

ثم ظهرت الحضارةُ الاسلامية وازدهرت واشتملت على كلِّ ما سبقها في مجال الدين. (بحكم اشتمال الإسلام على جوهر ما في الديانات المنزلة) وفي مجال الحضارة. وهي إلى

جانب أنها أضافت الى الحضارة إضافات كبرى، فإنها في الحقيقة وجّهت الحضارة توجيها جديداً.

فالحضارة الاسلامية تحتل، في التاريخ الانساني، مكاناً متوسطا، وإذا كان الإسلام، في الحقيقة، هو الحكَم بين الأديان السابقة والمُهَيْمِنُ على ما عندها من وحي، فإن حضارته، من جيث أصولُها ومعاييرُها، نموذجٌ للحضارة الانسانية، وهو نموذج يمكن أن يتطور ويزدهر على، أسسه الربّانية، كالشجرة الطيبة التي تُؤتي أُكُلَها كُلّ حينٍ بإذن ربِّها.

وكلُّ ما في الأمر أن يكون المسلمون على وَعْيٍ وإدراك لأُصول حضارتهم وأن يطوِّرها بقوّة مستمدة من المثل العليا التي وضعها الإسلام لهم.

وعلى بُنَاةِ الحضارة الإسلامية اليومَ أن يُطيلوا التأَمل في الخطاب الإلٰهي الذي وجهه اللهُ لهم وأن يعملوا به:

«وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ على النــــاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عليـــكم شَهِيــداً». (س ٢/البقرة/١٤٣).

والناظرُ في تاريخ الحضارة الإسلامية. منذ أول ازدهارها الى اليوم، يلاحظ أنها كانت دائما، رغم كل الظروف غير الملائمة تأخذ وتعطى.

ولقد صنعت وأعطت أكثر مما أخذت وأحسن مما أخذت، لأنها أعطت الروحَ للانسان وحضارتهِ، على حين أن ما أخذته إمَّا ثمرات لمحاولاتٍ في مضمار الفكر (مثل فلسفات الأمم)، وإما مظاهر خارجية لحياة التحضر أبدعت هي ما هو أعظم منها.

والآن ينهض المسلمون بفضل وسائلَ جديدة لينشئوا حضارةً جديدة، وهم في نهضتهم يأخذون جوانبَ من حضارات الأمم، وهي الجوانبُ العلمية الحديثة ومقتضاياتها ومظاهر العمران المادي.

ونحن إذا استقرأنا تاريخ الحضارة الإسلامية استطعنا أن نتوقع أن تؤدي حضارة الإسلام الحديثة دورَها في العطاء، كما فعلت مراراً من قبل.

نظرةُ الى المستقبل

بدأت حضارة الإسلام في المشرق وازدهرت، ثم جرى

عليها حكم التاريخ، وتعرضت للانحلال بسبب الفساد الداخلي وغزوات المغول وغيرها.

وبعد أن فتِحت بلادُ الأندلس ازدهر فيها فرعٌ رائع جميلٌ من حضارة الإسلام التي أشعّت على أوروبا، لأن الأوروبيين تتلمذوا في الفكر العلمي والفلسفي على العرب طول العصور وفي أوائل العصور الحديثة، وبقوا تلاميذ للعرب في بعض العلوم (كالطب) إلى أوائل القرن الثامن عشر.

وكان وجود دولة الأندلس حائلا دون الغزو الأوروبي للشرق. فلما قُضِي على تلك الدولة بدأ غزوُ بلاد الإسلام من أطرافها البعيدة في الشرق.

وأيضا كانت الدولة العثمانية منذ فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م وتوغلها في البلقان تقف حائلا دون غزو بلاد الإسلام من تلك الجهة.

وبدأ الكفاحُ ضد دولة آل عثمان في شرق أوروبا، فلما ضعفت بدأ الغزوُ الاستعماري لبلاد شمال افريقيه منذ ١٨٣٠م، ثم استمر في بلاد أخرى، وظل سلطانه إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية.

وظلت بلاد الإسلام، قبلَ هذه الحرب وبعدها، تكافح في سبيل تحررها إلى أن تمَّ لها الاستقلال مع تحرر بلاد كثيرة، منذ أول النصف الثاني من هذا القرن.

ولم يكن هناك بُدٌّ من أن يؤدي الغزوُ الأوروبي لبلاد الإسلام إلى اتصال الإسلام وحضارته بأوروبا وحضارتها الحديثة، هذه الحضارة التي نشأت وتطورت منذ القرن السادس عشر.

وكان لا بدَّ، بحكم طبيعة الأشياء، أن تتأثر بلاد الإسلام في كثير من مظاهر الحياة بحضارة أوروبا.

وكان هناك تفاعل حضاري حقيقي، وقامت حركات تنوير وإصلاح وتجديد في شتى بلاد الإسلام من الهند إلى مصر وتونس. وقد حاول المصلحـون على تفاوت، أن يحتفظوا بأسس حضارة الإسلام من غير أن ينكصوا عن الأخـذ بأسبـاب التقـدم، خصوصا التعليمي والعمراني والفكري، العلمي والفلسفي، بوجه عام، وفي نظم الحياة السياسية والاجتماعية، مما تتسع له روح الإسلام.

وسار الإصلاح والتجديد سيراً هادئا في بعض البلاد (مصر) وأخذ صورة انقلاب في بعضها (تركيا مثلا).

واليومَ يسير التجديد الحضاري بحكمة وأناة حينا. ويتسرع حينا آخر، ويميل إلى اتجاه أو آخر، ويقلّد ويجرّب ويعدّل........ ويعقد المعاهدات والاتفاقيات، ويحاول إنشاء حضارة جديدة، لكن من غير تخطيط موحَّد واضح المعالم لتشكيل الحضارة الإسلامية المقبلة.

والإسلام يقف الآنَ هو وحضارته موقفاً سبق أن وقفه في تاريخه أكثرَ من مرة في العصر العباسي، لما وقف الإسلام في مواجهة حضارة الأمم والأديان السابقة، وفي القرن التاسع عشر عندما وقف أمام فكر أوروبا وحضارتها.

وقد استطاع في الحالين أن يخرج بحضارته المتكاملة، بعلوم الدين والعوم العقلية والعملية وكل مظاهر التحضر.

وهو يقف اليومَ أمام الحضارة الغربية المعاصرة، بكل علومها وتياراتها الفلسفية ونظمها الاجتماعية والسياسية، وبكل مُنْجَزَات التطبيقات العلمية في الصناعة، صناعة أدوات الحياة ورفاهيتها وصناعة أدوات القوة والفتك.

ومع أن بلاد الإسلام قد استقلت وتحررت فإنها، لأسباب تاريخية معروفة ولأسباب جدّت مع امتلاك بلاد الإسلام لمصادر الطاقة والمواد الخام والنقط الاستراتيجية،

لا تزال هدفَ مطامع الدول الغربية، خصوصا ذات الأيديولوجيات المتعارضة المتنافسة.

ونظراً لسهولة الاتصال بين الأمم، بحيث يستطيع صاحب حضارة أن يخاطب من غرفته أتباعَ الحضارات الأُخرى. وأيضا نظراً لسهولة الانتقال بين البلاد والاختلاط بين الشعوب، فان تيارات الفكر والحضارةتتلاقى، وكلُّ التيارات والمطامع تتلاقى في العالم الإسلامي، بل هي تهاجمه بتخطيط منظم، وقد أثرت، وتؤثر فيه، أبلغ تأثير.

وحضارة البلاد الإسلامية الحديثة في النصف الثاني من هذا القرن حديثةُ العهد، وهي،رغم إنجازات لا شك فيها ورغم التعاون فيما بينها والاستعانة بغيرها، لا تزال في أول الطريق. ويلاحظ الانسانُ كثيراً من التناقضات التي تنذر بأَخطار، من انقسام في الوجهة وتضارب في النظم ومجاراة الغير في مفهومات حضارته ووسائلها. كأن بلادَ الإسلام لم يكن لها في يوم من الأيام حضارةٌ رائعةٌ ولا نظامُ حياة رائع أيضا يمكنها أن تبنى عليه.

إن كاتبَ هذا البحث أبعدُ ما يكون عن الأسلوب

الوعظي أو الخطابي، وإنما يجب أن يقرر وقائعَ التاريخ وقوانين نشأة الحضارات وبقائها وزوالها.

وقبل أن نبين كيف يكون الطريق إلى حضارة إسلامية مقبلة يجب أن نعرف كيف نشأت حضارة الإسلام وازدهرت وكيف ضعفت أو فسدت.

واذا كان بعض فلاسفة الحضارة كالفيسلوف المؤرخ العربي ابن خلدون والفيلسوف المؤرج الانجليزي أرنولد توينبي Arnold Toynbee يتكلمون عما يشبه الحتمية في سير الحضارة من النشأة الى الازدهار والاكتمال، الى الانحدار، شأنَ الكائنات الحية وحياتها في عمرها، فإنه مع الاحترام لمثل هذا التصور الذي يؤيده التاريخ تأييداً ما. يمكن القول إن الحضارة لا تنشأ إلا في ضوء فكرة ومؤمن بها ومثل أعلى سليم أمامه، وهي تزدهر أيضاً ما دامت قائمة على هذه الأُسس، فإذا دبّ الفساد في تصور الفكرة أو في المؤمن بها وتشوش مثلُه الأعلى، فانه لا بدَّ أن تنحل الحضارة، لأنه لا دولةَ ولا حضارةَ ولا نظامَ سياسةٍ للحياة يمكن أن يستمر إلا إذا ظلَ مستنداً الى الأساس السليم الذي قام عليه.

وحَضارةُ الإسلام قامت على الإسلام والمؤمنين به والمثل الأعلى الذي كان يحدوهم، فلما فسد الانسانُ المسلم في نفسه فسدت سياستُه ودبّ الفساد في حضارته.

وقد تحدث القرآن عن القانون الذي يحكم حياة البشر على هذه الارض، وهو قوله تعالى مُخاطِباً آدم ومن معه:

«فَإِمّا يَأْتِيَنّكُمْ مِنّي هُدىً فَمَنْ اتّبَعَ هُداىَ فَلا يَضِلُّ ولاَ يَشْقى★ وَمَنْ أَعرضَ عن ذِكرى فإِنَّ له معيشةً ضَنْكاً ونحشره يومَ القِيامة أَعْمَى» (س٢٠ / طه / ١٢٣ - ١٢٤).

وكثيراً ما يتعرض القرآنُ لأسباب تغير الحضارة، خصوصا الإعراض عن قوانين سياسة الحياة التي بيّنها اللهُ، وهي مبادىء الحق والعدل والخير التي وضعها الله، ثم الظلم والترف وضروب الانحراف والفساد الذي ينخر في جسم الأمة وحضارتها.

ولكل شيء في نظام الخليفة عمُره المقسوم أو هو له «أَجَلٌ مُسَمًّى»، كما يقول القرآن، إلا الحقّ فإنه أزليٌّ أبديٌّ، فالله هو الحق، وقوْله وأمرهُ حق، والعلم والهدى الذي جاء من عنده حق.

وحضارة الإسلام قامت من أول أمرها وازدهرت على

الحق، وقد تعرض أهلُها، وتعرضت مظاهرها، لعوامل التغير التاريخي، وأسباب ذلك معروفة.

لكن جوهرَ حضارة الإسلام موجودٌ في المسلمين، وسيظلُّ إلى أن يرث الله الأرضَ ومن عليها، وشعوبُ الإسلام لا تزال على حال جيّدة من السلامة من شَتم الوجوه، والإمكانيات لإنشاءِ حضارة جديدة متوفرةٌ لديهم، والفكرة الإسلامية واضحة في عقولهم، ومواهبُهم لا تزال سليمة تنتظر من يوجهها.

وتجربتهم الحضارية الماضية، بخيرها وشرها، ماثلةٌ أمامهم، والتجربةُ الحضارية الاوروبية أمامَ أعينهم بخيرها وشرها أيضا، ولا بدَّ لهم من الاستمرار في دورهم الحضاري.

وكما أنهم أكثرَ من مرة وقفوا هذا الموقف وخرجوا بحضارتهم الرائعة، فما عليهم الآن إلا أن يُقبلوا على العمل بقوة وشجاعة وبتخطيط مشترك في أسسه، مُحكم في تنفيذه وبحكمةٍ وكلمة مجتمعة، مع البعد عن التقليد الذي يدل على الخمول في الفكر والعمل.

وإنَّ إنشاء الحضارة ليس سهلا، لأنه تكوينُ الإنسان

الفرد المُبْدِع من جهة، والإنسان كأمة تتقدم بمجموعها من جهة أخرى.

والمسلمونَ لما أَنشأوا حضارتَهم التاريخية قَضَوا في ذلك أكثر من قرن ونصف، وعليهم اليوم أن يسيروا في طريق التحضر مع قليل من الاعتزاز بالمفاخر الماضية أو بالإنجازات الحاضرة وكثير من العمل المنظم ومن الهمة والأناة، لأن التسرع أدى في بعض ميادين التحضر الحديث الى التأخر.

وأعظمُ خطرٍ يهدِّد سيرَهم الحضاري هو أخذُهم بمظاهر التقدم المادي وإهمالُ التقدم الانساني المعنوي، أو تقليدُهم الغرب في مظاهر عاداته التي تتنافى مع معاييرهم أو اتجاهِهم إلى الترف.

فلا حضارةَ يمكن أن تبقى من غير روحانية الانسان التي تتمثل في الإيمان أو من غير العلم الرفيع والفن الانساني الرفيع والأخلاق والآداب الاجتماعية السليمة وقواعد المعاملات العادلة، فهذه كلُّها عناصرُ ثابتة في كلِّ حضارة قادرة على البقاء، وهي من معالم حضارة الإسلام.

ولقد كان الترفُ، كما لاحظ فلاسفة الحضارة، ومنهم

ابن خلدون، من أكبر الأدواء التي تصيب الأمم.

ويلاحظ العلماءُ وفلاسفةُ الحضارة الأوروبية أنها، بسبب اعتمادها على الآلة وعلى التكنولوجيا، وإهمالها للانسان، مهددةٌ بالأخطار، وهم يلاحظون أيضا أن المسلمين في تطورهم الحضاري الحديث يأخذون بظواهر حضارة الغرب، ويهملون روحَ حضارتهم الخاصة، فتكون النتيجة انهم سيتحضرون تحضُّراً سطحيا أو ستنقل إليهم حضارةُ الغرب بجوِّها وروحها التي هي موضع النقد بل الاستنكار.

لقد استطاع الاسلامُ بحضارته أن يقودَ العالم كلَّه قرونا كثيرة، بفضل سلامة الروح والجوهر في الفرد والمجتمع، واليومَ لا بدَّ من الإصلاح على جميع المستويات بشجاعة وإخلاص.

وأهمُّ ما في الأمر تكوينُ وتربيةُ نموذج الفرد المسلم ذي الروح الإسلامية المستنيرة بأنوار الفكر والمعرفة والثقافة المتكاملة، بحيث يكون رجل الدين المتخصصُ فيه قائداً في مجال المعرفة ويكون رجلُ الدنيا المشتغل بالفنون اللازمة للحضارة متمكنا في العلم بأصول الدين ولقد كان هذا هو شأن كبار علماء الإسلام المشتغلين بالعلوم الشرعية وكبار

العلماء المشتغلين بالعلوم الدنيوية.

وهذا النموذج المتكامل الذي تتسع له الطاقةُ الحضارية الإسلامية يجب أن يكون هدفَ نظام التربية الإسلامية.

لقد كان المسلمون بحضارتهم التاريخية شاهدين على امكانيات الإسلام في مجال تحضر الإنسانية، فَلْيُدْرِكوا أنَّ هذا هو الذي يريده اللهُ منهم بخطابه الذي تقدم ذكره، ويجب أن نذكره في ختام هذا البحث:

« وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لتكونوا شُهَدَاءَ على النَّاسِ وَيَكُون الرسولُ عَلَيْكُمْ شهيداً » (س ٢/البقرة/ ١٤٣).

إن الله الذي هو « علىٰ كل شيء شهيد » والذي جعل رسولَه شهيداً على الأمة التي اختارها لخاتمة رسالاته يريد من الأمة الاسلامية أن تكونِ شهيداً على الأُمم بالحضارة التي تنشئها باسم الله وفيها تتحقق المبادىء والقيم التي جعلها الله أسساً لعمران الدنيا.

وإذا كانت حضارةُ الإسلام قد قامت، ولا تزال لها قوتها في الانسان المسلم، ولا تزال لها حيويتها على مرّ القرون، فالمأمولُ أن يكون مطلعُ القرن الخامس عشر بدايةَ نهضة حضارية مطبوعة بطابع الإسلام الخالد:

« يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نورَ اللهِ بأَفْوَاهِهِم ، واللهُ مُتِمُّ نُورِه »
وَلَوْ كَرِهَ الكافرونَ★ هُوَ الذي أرسلَ رسولَه بالهُدى ودينِ
الحقِّ لِيُظْهِرَهُ على الدّينِ كُلِّهِ ، ولو كَرِهَ المُشْرِكُونَ »

(س ٦١ / الصف/ ٨ - ٩)

★ ★ ★ ★ ★ ★ ★ ★ ★

لقد تكلمنا عن الحضارة بمعناها الروحي والمعنوي الإنساني ، لكن الحق والخير ، في هذه الدنيا التي يسودها قانونُ الصراع لا يمكن أن ينتصرا إلا بقوة تؤيِّدهما ، ولذلك أمرَ اللهُ المسلمين بالجهاد في سبيل إعلاء كلمته التي هي أساس حضارة الدنيا ، كما أمرهم بأن يُعِدُّوا لأنفسهم ما يستطيعون من قوة للدفاع عن أنفسهم وعن رسالتهم.

وهذا يتطلب منهم أن يعتدّوا بالعلم وتطبيقاته وصنع وسائل القوة التي يستعملونها في تأييد الحق ورفع راية العدل ، كما فعلوا دائما .

والله ولى التوفيق ،،،

أ.د/ محمد عبد الهادي أبو ريدة

المراجع

الحضارة في حياة الأمم هي كلُّ ما فكرت فيه أو شعرت به وعبّرت عنه، وكلُّ ما صنعته وصدر عنها من أفعال.

ومراجعُها هي كل آثار مفكريها وعلمائها في مجال النظر ومجال التطبيق.

وفي كل مظاهر الحضارة مؤلفات متخصصة في ميادين معينة، إلى جانب مراجع تشمل حضارة الأمة في جملتها.

وقد صدرت دراسة الحضارات الكبرى وتاريخ تطورها من أهم الدراسات، خصوصا في النصف الثاني من القرن الماضي بدأت تظهر في أوروبا دراسات للحضارة العربية الإسلامية، ثم، وبعد حين، بدأت تظهر الدراسات على يد علماء العرب.

وقد أدت ظروف العلاقات بين العالمين الاوروبي والعربي الاسلامي، بما كان فيها من وعي سياسي قومي وحضاري انساني، الى زيادة العناية بحضارة الإسلام وهذا يتبين من النظر في تتابع المراجع وكثرتها، خصوصا في السنوات القليلة الأخيرة

ونحن لا نريد بذكر هذه المراجع أن يكون بديلا عن الرجوع الى فهارس دور الكتب - لأننا لم نذكر إلا بعض ما رأيناه مفيداً - وإنما أردنا تعريفَ الدارس أو الباحث الناشىء بمراجع يمكن أن يرجع اليها للبحث فيما يريده من موضوعات.

ومع أن المراجع تتفق في الموضوعات وفي المادة فاننا لم نجد بأسا من ذكر مراجع كثيرة، لكي يكون بعضها عوضا عن بعض، بحسب توفير المراجع أو قلة توفرها.

والمؤلفون الذين كتبوا في حضارة الإسلام منهم من شمل جميع مظاهرها، ومنهم من اقتصر على جوانب قليلة، لكنها جميعا في الموضوع.

والحق أن تاريخ الحضارة العربية الإسلامية يحتاج الى مزيد من الدراسات الشاملة والدراسات الجزئية، بحسب الحضارات المحلية الكثيرة. وهذا ما ننتظره من العلماء في القرن الخامس عشر الهجري.

تاريخ التمدن الاسلامي:

تأليف جورجي زيدان

هذا الكتاب الكبير الذي بدأت أجزاؤه في الظهور منذ ١٩١٠، بعد ظهور مؤلفات أوروبية في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية، مثل كتاب فون كريمر وكتاب جوستاف لونون، من أهم كتب الحضارة الاسلامية بالعربية، وهو حافل بالمعرفة.

وهو في أجزائه الخمسة يتناول على التوالي:

نشأة الدولة الإسلامية ونظمها المتنوعة، ثروة الدولة وأسبابها واضمحلالها، العلوم وأنواعها، سياسة الدولة والصراع فيها حول السيادة، الحياة الاجتماعية ومظاهر الحضارة في الدولة.

الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري

تأليف آدم متز نقله الى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة، وطبع أكثر من مرة في القاهرة وبيروت.

الإسلام والحضارة العربية

تأليف محمد كرد علي.

لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٦٨.

أثر العرب في الحضارة الاوروبية

تأليف عباس محمود العقاد

(دار المعارف ١٩٦٥).

دور العرب في تكوين الفكر الاوروبي

تأليف عبد الرحمن بدوي

دار الآداب - بيروت ١٩٦٥.

حضارة العرب

في العصور الاسلامية الزاهرة

تأليف الدكتور مصطفى الرافعي

بيروت - دار الكتاب اللبناني ١٩٦٨

مؤلفات الاستاذ الدكتور/ أحمد شلبي وخصوصا في كتابه التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية وهو أجزاء كثيرة.

نشرته مكتبة النهضة بالقاهرة.

مآثر العرب على الحضارة الاوروبية   الحضارة الاسلامية أساس التقدم العلمي الحديث »

تأليف جلال مظهر   مركز كتب الشرق الاوسط - القاهرة ١٩٦٩.

مكتبة الانجلو القاهرة

أثر العرب في النهضة الاوروبية

باشراف الاستاذ محمد خلف الله أحمد

مجموعة أبحاث لعلماء متخصصين تبين أثر الحضارة الإسلامية في الاوروبية في مجالات الآداب والفلسفة - والعلوم والفنون.

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر. القاهرة ١٩٧٠.

أثر المدنية الإسلامية في الحضارة الغربية

تأليف د. مختار القاضي.

نشرات المجلس الأعلى للشئون الاسلامية - القاهرة ١٩٧٢.

معالم الحضارة الاسلامية

تأليف الدكتور مصطفى الشكعة

الاستاذ بجامعة عين شمس - القاهرة
دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٣.

مؤلفات عديدة في الحضارة، والحضارة العربية - الاسلامية.
تأليف أنور الرفاعي، منها كتابة بعنوان الانسان والحضارة دمشق ١٩٧٠.

حضارة الوطن العربي الكبير في العصور القديمة - دار الفكر ١٩٧٢.
الإسلام في حضارته ونظمه الادارية والسياسية الادبية والعلمية...
قصة الحضارة العربية في الوطن العبي الكبير من فجر التاريخ حتى «العصور الحديثة بيروت دار الفكر ١٩٧٣.

عالم الإسلام
تأليف حسين مؤنس.
دار المعارف ١٩٧٣.

الحضارة الاسلامية
تأليف د. علي حسني الخربوطلي مكتبة الخانجي - القاهرة ١٩٧٥.

المثل الأعلى للحضارة العربية
تأليف محمد يحي الهاشمي
بيروت - دار الكاتب العربي.

اصالة الحضارة العربي.
تأليف ناجي معروف بغداد.

دراسات في الحضارة الإسلامية
تأليف الاستاذ أحمد ابراهيم الشريف.
بجامعة الكويت - دار الفكر العربي - القاهرة ١٩٧٦.

الحضارة
تأليف: الكتور حسين مؤنس.
نشرات المجلس الوطني بالكويت ١٩٧٨.

الحضارة الإسلامية أسسها ومبادئها.

- نحن والحضارة الغربية.

تأليف المرحوم العلامة «ابو الأعلى المودودي»

مجموعة ابحاث في الحضارة العربية الاسلامية والمجتمع العربي

تأليف المرحوم أحمد شوكت **الشطي** دمشق ١٩٦٣.

مراجع اوروبية مترجمة الى العربية

حضارة العرب
تأليف العلامة الفرنسي
جوستاف لوبون - باريس ١٨٨٤
ترجمة الى العربية عادل زعيتر

حضارة العرب
تأليف: يوسف هل
ترجمة الى العربية د. ابراهيم العدوي - الانجلو - القاهرة ١٩٥٦.

قصة الحضارة
تأليف ول ديورانت
ح ٢ من مجلد ٤ - القاهرة ١٩٦٤ (لجنة التأليف).

شمس الله فوق الغرب
زيجريد هونكه
ترجمة الى العربية - بيروت ١٩٦٩ - المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر.

الإسلام في العصور الوسطى
دراسة في الاتجاه الحضاري
تأليف جوستاف فون جرونباوم
ترجمة الى العربية - مشروع الف كتاب - مكتبة مصر ١٩٥٦.

تاريخ الحضارة الاسلامية
تأليف ف - بارتولد
بالروسية - ترجمة الى العربية حمزة طاهر.

دار المعارف - القاهرة ١٩٦٦.

حضارة العرب في الأندلس

تأليف ليفي بروفانسال

ترجمة عن الفرنسية - دار مكتبة الحياة بيروت -

الحضارة العربية

تأليف جاك س. ريسلر

ترجمة الى العربية - ونشر بالقاهرة - الدار المصرية

العرب والالمان

لقاءات في ألف عام

لمجموعة متخصصين ترجم الى العربية ونشر في دار صادر، بيروت ١٩٧٤.

تراث الاسلام

أخرج المجلس الوطني للثقافة بالكويت ترجمة هذا الكتاب، ١٩٧٨، قام بها الدكتور/ حسين مؤنس والدكتور/ احسان العبد.

عبقرية الحضارة العربية

ينبوع النهضة

أبحاث لمجموعة من المتخصصين

في بيان دور العرب في الثقافة

الاسلامية، والادب، والفلسفة،

والعمارة والفن وعلوم الحياة وغير ذلك.

وهو مزود بلوحات وفيه ذكر مراجع.

أصدره مركز الوثائق، باللغتين العربية والانجليزية، بدولة الإمارات العربية ٢٩٧٧. (طبع في لندن).

Maurice Bucaille:

La Corant et le Science

Seghers Paris, 1976,

D. et J. SOURDEL:

LA CIVILISATION DE L'Islam Classique

Arthaud 1976 Paris

(Collection Les GRANDES Civilisations)

Andre Migquel:

L'Islam et sa Civilisation

(Armand Colin — Paris 1977

(Destins du monde)

Eneyclopaedia Universalis)1968(

Islam Grosse Brockhaus:

Encyclopaedia Britannica

Knowledge in Depth)1974):

İslamic Peoples, Arts of Vol p. 952 — 1011

Eneyclopaedia Universalis)1968(

Islam Vol 9 p. 125 — 190

Der Grosse Brokhaus:

Islam

Titus Burckhardt:

Art of Islam

Language and Meaning

(World of Islam Festival Trust 1976)

ISBN 0905035 003

Seyyed Hossein Nasr:

Islamic Science

An Illustrated study

London 1976

The World of Islam,

Faith, people, Culture

edited by Bernard Lewis

Fhamed and Hudson, LONDON 1976

Marc Berge:

LES Arabes

Historie et cwilisation des Arabes

et du Monde Musulman des

origines a la chute du royaume de Grande

Editions Lidis, Paris 1977

Alfred von Kremer:

Kulturgeschichte des Orients

unter den Chalifen

Wien 1875

H.A.R. Ljibb:

Studies on the Civilization
of Islam
London 1962

J.A. Williams:

Themes of Islamic Civilization

Berkely. Univ. of Calif. Press, 1971

W. Montgomery Watt:

The Influence of Islam

On Medieval Europe

Edinburgh University Press 1972

Introduction to

Islamic Civilization

edited by R.M. Savory

Cambridge University Press 1975

5. Ibid.

6. Medicine Digest 5:8 August 1979.

7. ZAHABH p. 74.

8. ZAHABI p.137.

9. Ibid p.64

10. Ibid p.70

11. Ibid p.78

12. Iqbal, RECONSTRUCTION OF RELIGIOUS THOUGHT IN ISLAM. Lahore 1963 p. 18.

13. Badri, M. The DILEMMA OF MUSLIM PSYCHOLOGISTS. London 1979 p.47.

14. Encyclopedia Brittanica 1968 Year Book. Soviet Psychiatry

15. WHO Annual Report: Child Care. 1978.

16. ZAHABI p. 100.

17. Qur'an: 2:219

18. 5:93

19. 5:32

Abu Daud relates that either the Chapter Ya Sin or Al – Baqarah should be recited which would help to allay apprehension, anxiety and maintain decorum.

When the eyes of the patient close, one should recite: In the name of Allah and in the religion of the Prophet Muhammad Sallahu Alaihim.

Burying of the patient is enjoined, according to the Qur'an, where the raven showed Cain (Qabil) how to bury his brother. (18)

This reveals how the Prophrtic sunnah and the Qur'an contain guidance on all aspects of life, from birth, through life and till death, and in every instance we can find no peer. How true is the Quranic ayat: (19)

There is for you in the Noble Messenger, a perfect exemplar.What a tragedy it is that the Quran is still unknown in the West and how great is the challenge facing Muslims to convey this great and true Message, inshallah, as a contribution to the alleviation of suffering and to better the quality of life for our fellow beings.

REFERENCES:

Naser, S.H., ISLAMIC SCIENCE. London 1976. p. 154.

2. Ibid p. 162.
3. ZAHABI, Imam al Hafiz Abdallah Muhammad bin Ahmad. al – TIBB un – Nabi 1961 Halabi and Son Cairo. p.35.
4. SOUTH AFRICAN CANCER BULLETIN 23:3 Sept. 1979 Johannesburg p. 20.

nobility, it strengthened their resolve to recover and to seek treatment.

It is recommended that the patient say Alhamdollillah before talking of his illness, which will enable him to bear his affliction.

This instrumental view of suffering has much to commend it, contrasted with the prevailing Irenean view practiced in the West, where pain and suffering have no theocentric basis. Pain and suffering have to be borne by a Muslime and as the Quran enjoins: Seek assistance with patience and salaat. This greatly assists the patient to bear pain with the consequent lesser need for drugs to kill pain. On the otherhand where the patient has no theocentric basis, his need for drugs is increased. This observation was known to the early Muslim doctors.

When death approached, clear injunctions were giver by the Prophrt. The dying should repeat the first part of Kalimah, and should request people to assist him should he become confused or delirous. Abu Daud quotes the Hadith that such a person will verily enter Paradise.

The family of the dying are also exhorted not to weep, to resign themselves to the power of Almighty Allah, and not to raise their voices when reading the Qur'an, and to contuct themselves in a refined and dignified manner. Here too, is advice to physicians, since when the inevitable is near, not to resort to sophisticated machines and chemical armementaria in an effort to preserve life. It is these ethical considerations which have led doctors to think of euthanasia, both passive and active. Since Euthanasia is totally forbidden in Islam, on the other hand, every effort should be made to make the patient comfortable and to seek cures.

in Western cultures which are groping in darkness. Visiting the sick was regarded as an Ibadah, and the placing of a hand on the sick was enjoined, (Tirmidhi) and one had to enquire after the health of the ill. There is profound hikmah in this, since Zahabi ststates that sympathising with the ill, makes them think of their illness, assists in fortifying them, and makes them aware of the Akhirah.

However according to Abu Hurrairah, there were three cases which the Prophrt did not visit, and these were those suffering from boils, ophthalmia and deafness. One could readily appreciate the prohibition of the former of two cases, since doctors do not visit septic cases, first in the case they spread the infection to othera. The latter case needs further elucidation. Just as in the case of the fly Hadith, which may seemingly be irrational or incongruous, and which on expert investigation proves to have considerable latent hikmah, one cannot, on this basis alone reject any Hadith, for after all, as the Qur'an states the Prophet only acted according to Divine Command.

Zahabi comments that sickness is the strongest incentive for a believer to repent, to speak the Truth, and to do penance for sins, and to raise himself Heavenwards, and the Prophet said that he sho dies on a sickbed is martyr and is secure from the inquisition of the grave. Illness and fever were regarded as purifiers of sin, and this view of illness was in contrast to those held by the ancient Semities, who regarded illness as being possessed, or being cursed, or as wrath from GOD. The Prophet revolutionised these ideas, and gave an impetus to the God had sent also a cure. This resulted in patients replacing despair and hopelessness with faith and and

of polio, which was more prevalent in urban areas, since absolute hygiene did not permit children to build up immunity to the disease! Considering the case of polio alone the Hadith is perfectly valid. Zahabi states that this is one of the miracles pf the Prophet. The Prophet also knew that leprosy was not contagious, (16) and invited a leper to share meals with him. This fact was only proved in this century.

DRUGS AND ALCHOL:

Western literature is replete with deleterious effects of alcohol, and calls for its complete banning have gone on deaf ears. The loss of human potential, the social disruption and suffering which it causes is greater than any war known to man, yet the world persists in ignoring the injunctions of the Qur'an. (17)

Similarly the world is faced with a problem of addiction to drugs a direct result of hedonistic prescribing by medical men, since any psychological problem is treated with a tranquilliser indiscrimately, resulting in addication. The Qur'an guidance is so simple! It implores man to seek assistance from Allah in patience and in prayer, (2:45) rather than resorting to drugs, and the response of 'Sabr' required, assists in the develupment of one'ss personality, whereas drugs result in the destruction of it, it is an escape till the next dose is due and cannot solve any problem.

these remarks would apply to smoking also, since it is definitely linked to the causation of cancer of the lung, it is definitely linked to the causation of cancer of the lung, it aggravates emphysema and other lung ailments, and was clearly prohibited by the Prophet.

The rules prescribed by the Prophet for visiting the sick and attitudes of Muslims contrast shzrply with the prevailing customs

BREAST FEEDING:

The Qur'an prescribes the period of weaning to be two years confirms the latest findings of Medical Science, since a WHO study has shown that Dried Milk (Powdered Milk) and artificial feeds do not contain the level of nutrients and antibodies that human milk does, and ratio of fats to proteins in cow milk differs from that of human milk. (15)

GENERAL:

The causation of disease was accurately known to the Prophet since he advised that all vessels containing water should be covered, and Bukhari also states that the Prophet said that pestilence and disease descend from the sky at neight, i.e. it was airborn. This fact was unknown to the Greeks and this Prophetic principle was well enshrined in medical practice in the early days of Islam. When a new hospital was being designed in Baghdad, the Physicians hung pieces of meat in the various parts of the city, to find an area where putrefaction took longest to occure.

The Hadith concerning the dipping of a fly into milk is based on a sound principle in medicine, contrary to popular opinion. The Prophet said that the One wing contains disease and the other healing, at a time when it was unknown that flies carry disease. It is a common misconception that all bacteria are harmful, in fact it is just the opposite and most bacteria are beneficial, and only a small fraction cause disease, and the Prophetic injunction was based on a utilitarian principle.

Milk was of greater benefit and its wastage would cause hardships in a land where it is scarce. Modern thought it so concerned with hygiene, that two decades ago, the world withnessed an epidemic

homosexual marriages, the Qur'an had prohibited these in Surah Naml 27:54 –6 and Surah A'raf 7:88 (Shuaib) and had indeed provided guideliness on a subject that was clothed in superstition and darkness.

Similarly, the Qur'an provides information on the origin of testicular tissue to be derived from the primordial kidney, a fact which was only discovered in this century, whereas the Qur'an clearly declares that Man is derived from 'between the ribs and the backbone which can only refer to the one organ which is the kidney. 86:6 – 7. This knowledge of embryology which is contained in the Qur'an is sufficient proof that the Qur'an is of Divine origin. TheQur'an also refers to anatomical facts concerning the main vessels of blood, which if cut would lead to death as in 69:46 and the importance of the jugular vein is posited in 50:16, i.e. Allah is nearer to a person than this vein. These facts were proclaimed long before the circulation of the blood was investigated.

The creation of man through sperm, the implantation of the fertilised egg in the uterus. its development into a foetus, with bones and flesh is so vividly described in Surah al – Miminoon (23:12 – 16) that it cannot but fail to impress us of the verities contained in the Quran. These same verses deal with the creation of a human, his death and rising up in the Hereafter revealed centuries ago, whilst the West is still debating whether there is life after death The three veils surrounding the foetus as mentioned in Surah az – zumer 39:6 refer to the anatomical facts of the abdominal wall, the uterine muscular wall, and the amniotic sac which envelopes the foetus. These ayat too are incontrovertible.

so premissive that he allowed his grandchild to play on his back during the salaat and did not wish to rise from the sajda lest he disturb the child. Bcause the Quran had laid down fast rules for the respect of parents (17:23) it is not difficult to postulate that Muslim youth would be far better behaved if their parents followed Quanic injunctions on the treatment of family conflicts, relations and problems.

EXCRETIONS:

Venesection and Cupping:

This practice is mentioned repeatedly in the Hadith and its benefits are in full accord with current knowledge, especially with regard to the relief of headache due to hypertension.

Sex counselling is implied in 2:223 which according to a modern psychologist, Prof. Badri was far in advance of anything known to the sexologistsof the West. The ancient Semitic traditionswhere it was believed that the different sexual positions would affect the offspring wre refuted by the Qur'an. Sexwas regulated during certain periods, like fasting and during menstruation. It is surprising that certain western sexologists advocate sexual union during menstruation as being harmful in that blood is a medium for bacterial growth and males are likely to incure a bladder or kidney infection.

Because the Quran is so clear and specific about sexual matters Muslims would be freed from much of the sexual afflictions like impotence and frigidity which are so prominent in Western society because it is associated with Catholic feelings of guilt and sin, whereas the Qur'an has clearly demarcated what is permissible and what not. At a time when some western countries wish to legalise

Since Freud had used Talmudic concepts to base his theories on psychoanalysis which Ellengerger has proved to be without any basic, Muslim psycholgists could derive a better theory of the personality and its aberrations from a study of the Qur'an and the Sunnah.

The Prophet of Islam was the first to study critically the psychotic behaviour of a Jewish youth Ibn as Sayyad. And modern psychology haas yet to study the non – rational modes of consciousness (12)

New techniques for treating the mentally ill could be derived from the Qur'an and the Sunnah, as has been suggested in a forthcoming book by Drs Abdul Shakoor Rashid Ahmed and Attya Swellim. (13)

The King Faisal hospital in Traif has set new trends in the treatment of mentally ill by using logotherapy, a term coined by Frankl which 'refers to the meaning of man's existence' However, we could suggest that the term be spelled with a capital L, since Logos would refer to the speech of Allah ,the Qur'an, and the playing of recorded Ayat from the Qur'an at Taif Hospital has yielded better results than current western therapy of the mentally ill.

Soviet psychiatrists had long abandoned Freuds theories, and based their therapy on a nihilistic basis which is atheistic. (14)

Freuds theories on child development and Oedipus complex which resulted in the world treating children as 'miniature adults' HAS RESULTED IN THE PREVALENT PREMISSIVENESS AND ANTI – SOCIAL BEHAVIOUR IN THE West amongst the adolescent. The Prophet was very indulgent with children and was

sorrow and apprehension, two major causes of mental conflict and dissociation. We prefer to use this term for mental illness rather than insanity as will be discussed later. He recommended that one recite:

There is no Power except Allah.

Glory be to Allah.

There is also the prayer of Ibn Masud. (11)

Sleep has been mentioned in the Quran as a period of rest in Surah Nabaa 78:9 and also in Surah Furqan 25:47. Modern studies have revealed that deprivation of sleep results in profound psychological harm and personality changes. Lack of sleep intereeferes eith the chemistry of the brain and it has lately been found that dreams and that most illness is related to the chemistry of the peptides. Muslims had long ago written treatises on dreams and that dreams were connected with future events is well documented in the Qur'an concerning Sayyidna Yusuf, Sayyidina Ibrahim. Surah Yusuf 12:4 -6, 43 - 54. That dreams are now no longer regarded as spurious eventa, but are concerned with the creative process, and have a stabilising influence on mental health as well as relieving psychic tensions prove that Muslim doctors were capable of scientific deductions. It is hoped that this field will open up many other vistas for Muslim doctors to place Islamic psychology in the forefront once again.

Professor Badri in his epechal work has shown how unsubstantiated is the work and theory of Freud on mental conflict and mental disorder who attributed all human activity and motivation as being due to the sex drive with consequence that his ideas on psychoanalysis would also be inapplicable.

phenomena of a lowered incidence of hypertension in individuals who perform regular prayers, and facilities should be extended by Muslim Governments to them to conduct research in this regard. Many official and governmental schemes for the prevention of disease have failed since the project remained at an official. How wonderful are the precepts of the Prophet, since each Muslim is committed to this project, and each derives benefit according to the effort he puts into it.

The fourth and fifth Prophetic of medicine are most important and will contribute most to our current status of knowledge. This concerns the effect of emotions on disease, psychological illness and mental disorders.

That the Prophet was acutely aware of the effect of the emotions is evident from the Hadith which states that a man came to the Prophet for advice, and was told: Never be angry, meaning that a man should not act from motives of anger, and further confirmed anger by the Quran in Surah al Imaran (3:134) where those who restrain anger and pardon men are rewareded by Paradise.

The Prophet also said that anger was from the Devil, who was created from fire, and since fire is extinguished by water, he recommended wudu when a Muslim was angered. (20)
This remedy for the prevention of physical and mental illness is available to the poorest without resorting to drugs which in themselves are not without harm.

This remedy for the prevention of physical and mental illness is available to the poorest without resorting to drugs which in themselves are not without harm.

The Prophet also prescribed a unique remedy for the treatment of

anger or conflict, a whole range of hormones were secreted, mainly corticosteroids which had a profound influence on the various organs of the body and which enabled the body to meet the crises.

Hormones and chemicals were released which raised the blood pressure, which accelerated the heart rate, which mobilised glucose and fats to supply greater quantities of nutrients which were called for because of the greater needes which these crises caused. If these psycho – chemical mediators and processess were continued for any length of time, harm was caused to the body. The prinnciple of homeostasis, i.e. that the body is always mentioned in the Quran in Surah Infitar v. 6:

and also in Sura A'la verse 2 (87:2) Allah has created everything in order and due proportion:

Yet due to the stresses of living these hormones have to be secreted and if their secretion is kept sustained for any reason, their accumulation results in diseases like hypertension, heart trouble and strokes etc.

Muslim doctors have a unique opportunity of monitoring the

colour or nationality submerges and one is reminded of ones duty to Allah alone, and the Quranic dictum that it is only righteousness and piety which elevates one before Allah, assists in the fostering mutual co – operation and interest in ones fellow men, their sufferings and their achievements. That this has a very beneficial effect on the mental well being and for the development of positivistic attitudes will be dealth with later.

PHYSICAL BENEFITS OF SALAAT:

The various postures during the Salaat each have their own benefits. The ruku, the jalsa and the sajda stimulate the abdominal m muscles primarily which assists digestion, increases venous return to the heart and thus affects the circulatory system. The sajda also assists in drainage iof the sinuses which relieves headaches and postural drainage is advised today for the relief of headaches due to sinusitis.

One could equate the physical benefits of the salaat to isometric exercises which are performed by the astronauts in confined spaces, yet still keeps their muscles in perfect tone even months after immobility, but the main benefits of the salaat are firstly psychological besides the spiritual benefits which not be dealt with in this paper.

The psychological benefits were to remove 'bad thoughts, and put out the fire of anger', frustration and conflicts, since it calls upon one to submit in humbleness to Allah, the Creater. It makes revenge hateful, and forgiveness is fostered, i.e. it ennobles man and removes from him the deleterious effects of the 'stress syndrome'. The theory of the stress syndrome was proposed by Hans Selye three decades ago, and postulated that during stress,

least idea of dental hygiene, and which every dentist will affirm is in the most modern of thought and dental practice.

That the Prophet was very conscious of social relations is evident from the Hadith in Bukhari where the eating of onions and garlic is looked upon with disfavour if one enters a mosque after consuming these aromatic roots. Such was the Prophet's wisdom that he thought of the comfort and sensitivity of others to whom these fragnances could be offensive and thus detract from their prayer. (8)

A factor which is very important in the prevention of disease is exercise. The prophet laid stress on just enough esercise to make one sweat. The hikmah of the Divine imperative is being realised today in all countries where jogging and isometric exercises are being recommended for the prevention of heratrt attacks and for ensuring a healthier community. Just how fortunate the Muslims are will be evident when we consider the purely physical benefits of salaat.

Since man is gregarious by nature, he needs daily social contact. There is no other ritual, social habit or tradition in the annals of man better than the salaat to achieve this. The Quran had prohibited monasticism and the avoidance of social contact or secreting of oneself from his fellowmen. 57:27. One of the functions of the salaat jamaah is that closer links are forged between one's fellow men, it being impossible to pray on ones own and it is impossible to ignore ones neighbours, a simple greeting is sufficient to break the ice and foster congeniality. The jamaah fosters breotherhood, equality and levels out all differences in rank, social stsnding or wealth. The mosque is the ideal situation where

ulcer and he then remembered that his grandgather used to apply honey to the wound, amd within a very short time the ulcer was healed. He. asked whether anyone could offer am explanation of this unique phenomenon.6–

It is known that honey has within it certain antibiotics whose effectiveness lasts for over 5000 years, as honey from the Pharoanic tombs in Egypt has been recred still fresh. Astudy of these antibiotics would certainly lead to newer discoveries to assist in the fight against bacteria.Honey was also recommended in the Hadith for the treatment of coughs and puurpose as acupuncture. The saying of the Prophet that 'there are twu cures for twu cures for man-ind' implied honey and the Qur:an, one for the cure of bodily ills and other for spiritualmaladies.

Senna and euphorbia syrup are still used for constipation as in the days of the Prophet, and his prescription of barley and talabina soup has modern parallels as excellant nourishment during fevers.

Olive oil was used by the :rophet for the treatment of piles, pleurisy and skin ailments and fur use against ingested poisons, treatments which are still valid today. It was also used for expelling worms, as an analgesic to kill pain, and as a laxative.

Miswak or ur Aloeswood was recommended as a month wash and tooth cleanser. Suffice to quote Ibn Abbs who summarised the virtues of dental hygience as being ten:

it perfumes the mouth, strengthens the gums, dissolves phlegm, dissolves plague (scales) and opens the stomach, i.e. increases appetite, it is accordance with the regious law, it pleases Allah it increases merit and gives joy to the angels. (7)

This dictum was given at a time when the world did not have the

contain enough harm to mankind, besides the other dangers of worm infestation and so on.one of the physical befits of the Tarawih salaat is to combust fats which are released and mobilised during fasting, and after after, there are higher levels of circulating fats, which if not used by doing physical exertion such as the salaat, could cause harm.

The best drink is water according to the Hadith, and rain water is preferred since the Quran states that 'We have sent down from the clouds water, abounding in good' (6) and the Prophet chose to drink water that had been standing, probably because sediment could settle, and he preferred to drink from a leather or eathern vessel. Islamic medical men had long ago recognised that water kept in leaden vessels was harmful, yet we hardly question the fact that all modern water supplies use lead piping. One very serious and deleterious habit is the use of aerated water drinks which have been proved to effect the stumach resulting in ulcers and gastritis, loss of appetite, and one in particular, contains caffeine which can lead to addiction. How true is the Prophet's injunction that water is the best drink. The use of water for cleanliness and ritual purity is mentioned in Suarah al – Maidah 5:7 which was a very great advance on the standards of hygiene prevailing in the Fertile Crescent, and even in the 25th Century, Europeans disliked the use of water for washing and personal hygiene was unheard of.

Bukhari has classified Honey as a Medicine according to the Quranic statement in 16: 69 'There comes forth from within a Ba beverage lf many hues in which there is a healin gor men.! As late 1979, a certakn doctor wrote in a medical journal that our most modren go antibiotic ointments had failed to cure a huge

The Prophet loved milk according to another saying of Hbn abbas, and he used to wash out his mouth after drinking milk, since the residual fats were bad for the feverish and for those with headache. Htis recognised that milk is a potent allergen and is ab cause of aggergic sinusitis (headaches) according to Bukhari and ukhari and Muslim.

That milk was both fattening and assisted healing by virtue of its protein content was known to the Prophet, who prescribed it for all illness, since according to Hadith by Ibn Mas'ud Allah did not bring down any illness without also creating a remedy for it, so drink milk, since cows feed on all kinds of plants. Here we have proof that the Prophet knew about the medicinal value of plants, and this indeed gave impetus to Muslims to search for remedies and to study botanty and pharmacology.

The Prophet prohibited blowing over milk to separate the cream. This hikmah could only have come from Divine sources since our breath contains many bacteria and milk is the ideal culture medium for their propagation.

Meat is also mentioned in the Quran as food in Paradise, as is sew foods (fish) 5:97 and 52:22. Tradition states whuever eats meat continously for forty days, his heart becomes hardened. This testifies to the fact that certain meats contain hard fats which are the cause of fatty depositions in the blood vessels which lead to strokes and heart attacks.It was recommended that meat be only eaten on alternate days. The Prophet recommended mutton and chicken as being healthy to eat, and enjoined that meat be nibbled to ensure better digestion. There could not be better scientific advice than this even today. Pork was thus forbidden, since it contains 'hard' Or undigestible fats and for this reason alone

forty days had passed and she was still living, the physician was summonsed and questioned about his diagnosis. ZHe replied that since she had lost a considerable amount of weight, she would be capable of bearing children.

It is well recognised that obesity prevents conception and this wise doctor had prescribed for the patient without resorting to drugs.

Suffice to say that as far as diet is concerned in the causation and prevention of disease, the prophetic utterances prove that they emanated from Divine injunction, with the result that they are as true today as when they were proclaimed 1400 years ago.

The Quran not only proscribed eating and drinking to excess, but also recommended certain foods, like dates, which Imam Zahabi states, cannot be excelled as food, since dates were prescribed by Allah to Sayyide Mariam as in 19:25 Shake towards you the palm tree for it will drop on you fresh ripe dates.'

As – Sayyide Ayesha also relates how the Prophet recommended a mixture of dates and cucumber to her family so that she could put on weight, (7) and the Hadith contain many diverse uses of dates as nourishment had for the prevemtion of illness. Dates contain much carbohydrate (sugar) and also are rich in vitamins, expecially of theB abd C,which assist healing and nerve nutrient.

The Quran has also spelled out the virtues of milk as a source of food in two places, as being easy and agreeable to swallow, and as a food in paradise.

The Hadith by Ibn Abbas and quoted by Tirmidhi and Daud that no food or drink could replace milk is infull accord with current knowledge.

Eat and drink, but not to excess.

This statement is clarified by the Hadith which describes the physician emmissary sent by Choesroe complaining to the Prophet that no Muslim had consulted him during his month long stay in Medina, to which the Prophet replied! 'We are a Nation that only eat when we are hungry, and when we eat, we only eat a little, whereupon he replied that this was thee secret of the health of the Muslims. There are many other Hadith in support of this statment, where the Prophet said that the stomach was a tank (house) wof disease and that overeating engenders sloth and disease.

These statements are fully borne out in contemporary times, when the major causes of death are listed sd Coronary Thombosis Hypertension and its effects of strokes, diabetes, and many cancers.

In countries where there is a shortage of food, much of infection is related to food intake. Cancer of the liver, colon and stomach has a relation with the type of food ingested, (4) and in India, betel leaf has been shown to cause mouth cancers, just as smoking has been proved to increase the incidence of lung cancer.

In fact cigarette smoke contains 2000 substances of which many are carcinogenic. (5)

The Prophet said that where diet alone sufficed, one should not resort to drugs. This is illustrated in an anecdote where a wise physician in Baghdad, called a treata woman for sterility, proclaimed that there was no point in treating her since she should be dead in forty days: Whereupon the lady took to sorrowing and wailing and rcfusing to eat. After

implemented in the West. This will be evident when we consider the Prophetic principles of medicine which are the Sittah Darruriyah (The six essentials) which had to be considered in the treatment and causation of illness: (2)

1. Air, (including the effects of climate, water and soil).
2. Food: its qualitity and times of eating.
3. Bodily rest and movement (exercise).
4. Sleep.
5. Emotional effects: i.e. which emotions enhance or hamper cu.
6. Excretions and retensions: Sex is regarded as an excretion.

There principles are accepted in theory in contemporary times, however stress is laid on infective causes and to a larger extent on psycho - somatic causes. This can be readily adduced from the ZNational Health Servicr data of England, where medical prescriptions show a preponderance of antibiotics and tranquillisers which also include analgesics. This dose not infer that one should eschew these miraculous drugs, only their use should be more carefully monitored, and that proper cognisance of other factors in causation of disease should be made.

FOOD AS A CAUSE OF DISEASE

Of the above causes, Allah has considered food to be so important, that according to Zahabi (3) the entire medicine is contained in half an ayat of the Quran:

AN EVALUATION OF PROPHETIC MEDICINE IN CONTEMPORARY THOUGHT.

According to the Arabic dictum: al – Insan ramz al – wujud, (man is the symbol of existence) Muslim pysicians viewed the body as an extension of the soul, and hence medicine and religion have been closely related in Islam.

Since the Sahaba al – kiram RDA did not consider the study of Medicine to be alien, since it originated from the Prophet Shimself, Muslims have thought of medicine as being prophetic and sacred. (1)

This attitude provides the clue to the theocentric basis of medicine in Islam whereas medicine practiced in modern times is homocentric and even hedonistic, where it is geared to the satisfaction and dictates of man, without regard to ultimate effects.

Long before Pare, a French surgeon disclaiming praise from King Loiusfor having treated a fractured arm, said that it was God who cured the King , the noble Prophrt laid stress on Allah's assistance, in treating illness, likening medical practice to the planting of a seed, and then praying to God for rain. However, the Prophet went even further than mere treatment and laid stress on the prevention of illness rather than its cure, a situation which is only lately being

mental illness will have indifferent results.It is proposed that superior results will be obtained in the treatment of mental illness if Islamic norms are followed and Prophetic practics are advocated in preventing and treating mental illness.

This paper is based mainly on the celebrated book of al – Zahabi entitled Tib un – Nabawi circa 700. A.H.

It deals with various physical illnesses and their treatment and also contains a pharmacopoeia of the medicaments used in the seventh century C.E. and conatins much which is currently used in medical practice.

This is a topic which will serve as a germinus fur the revival of Medical Science according tu the Sunnah, and will not only serve as a guide to Muslim doctors, but to all those who are engaged in alleviating suffering in thw world.

Dr. G.M. KARIM.
MA. B. Sc. m.b.b.ch.

P.O. BOX 135
BETHAL
2310
SOUTH AFRICA.

SUMMARY

AN EVALUATION OF PROPHETIC MEDICINE IN CONTEMPORARY THOUGHT.

In conformity with the resolutions adopted at the First World Conferenceion Islamic Education which stressed the re – structuring of all Sciences according to Islamic principles medical practice in contemporary times is ideally suited for such reformulation and review according to the Qur'an and the Sunnah.

The present materialistic or homocentric basis of medical practice has resulted in a regrettable deviation from the noble basis upon which it was founded to the present disarrary abuse and confusion in medicine and surgery. Medical ethics have to be reformulated to accord with a theocentric basis which should ensure the best for suffering humanity according to the dictates of divine revelation and prophetic practic – the Hadith.

It is well recognised that a departure from the healthy rules of living have resultedas propounded in the Sunnah have resulted in psychological trauma with a consequent increase in diseas of stress suah as hypertension myocardial infarction strokes and much if not all of psychiatric illness. By a proper educidation of different Hadith pertaining to mental and psychological attitudes, it is possible topostulate the Islamic theory of Psychiatry which completely debunks western and accepted theories of mental illness. It will thus be evident that the various therapies concerning



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة - محرم ١٤٠٠هـ

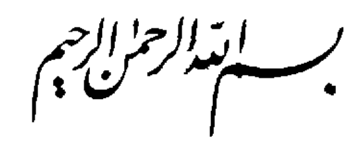
البيان الختامي

للمؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

المنعقد في الدوحة

خلال الفترة من ٥ - ١٠ محرم ١٤٠٠هـ


لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة
المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية
الدوحة - محرم ١٤٠٠ه



مقدمة

حمداً لله على جزيل نعمائه، وشكراً له على كريم آلائه، وصلاة وسلاماً على رسوله، الهادي الأمين الذي حمل الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة، وتركها على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا ضال، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن بعده من الدعاة المخلصين الذين حملوا مشعل الحق من بعده فأوصلوا الأمانة إلى من بعدهم جيلا بعد جيل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها...

وبعد:

فقد انتهت بحمد الله وتوفيقه أعمال المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية الذي انعقد بالدوحة من الخامس إلى العاشر من محرم ١٤٠٠ هـ وكان بدءاً لاحتفالات العالم الاسلامي بمقدم القرن الخامس عشر من هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم.

وقد تمخضت عن المؤتمر أعمال كثيرة من بحوث

مستفيضة في السيرة والسنة النبوية وتوصيات وقرارات، ومن أجل متابعة ذلك قمنا بطبع هذا البيان الختامي، الذي يتضمن القرارات والتوصيات التي أسفر عنها هذا الملتقى الفكري الكبير.

وأننا لنأمل من ملوك ورؤساء وحكام وقادة الرأي والفكر في الأمة الاسلامية أن تحظى نتائج هذا المؤتمر العظيم بدراساتهم، ومتابعاتهم لكي تؤتي الجهود الكثيرة التي بذلت أكلها، ولكي نبرر الحجة لأنفسنا يوم الموقف العظيم - أمام رب العالمين - يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وبهذا قد أوصلنا الأمانة إلى من يمكنهم التنفيذ واصبحوا هم المسؤولون أمام الله يوم العرض والحساب وما توفيقي إلا بالله.

ألا هل بلغت... اللهم فاشهد.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته،،

رئيس المؤتمر
عبد الله بن إبراهيم الأنصارى
مدير الشئون الدينية

الدوحة في ٧ - ١ - ١٤٠٠ هـ
٢٦ - ١٢ - ١٩٧٩م

البيان الختامي

متابعة للجهود المشكورة التي بذلت من قبل، بعقد مؤتمري السيرة النبوية في إسلام آباد بالباكستان سنة ١٣٩٦ هـ (١٩٧٦م) وفي استانبول بتركيا سنة ١٣٩٧ هـ (١٩٧٧).

واستجابة للدعوة الكريمة الموجهة من دولة قطر، باستضافة المؤتمر الثالث بالدوحة في مستهل المحرم سنة ١٤٠٠هـ، ليكون فاتحة للاحتفالات العالمية بنهاية القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر الهجريين.

وتجاوباً مع الرغبة التي أبداها السادة العلماء المشتركون في المؤتمرين السابقين، بإضافة موضوع السنة النبوية إلى السيرة في تحديد اختصاص المؤتمر.

فقد انعقد في مدينة الدوحة، المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية خلال الفترة من ٥ - ١٠ محرم

١٤٠٠ هـ (الموافق ٢٤ - ٢٩ - نوفمبر - تشرين الثاني ١٩٧٩ م).

وحضر المؤتمر واشترك في أعماله ٢٦٧ من الوزراء والعلماء وكبار المسئولين عن الشئون الإسلامية والقضاء الشرعي والإفتاء في العالم الإسلامي، والمشتغلين بأمور الدعوة والدراسات والفكر الإسلامي الذين وفدوا من سبع وأربعين دولة. وقد وردت أسماؤهم والجهات التي وفدوا منها في الملحق المرافق بهذا البيان.

كما حضر المؤتمر عن المنظمات الإسلامية الدولية كل من معالي السيد - ظفر الإسلام الأمين العام المساعد لمنظمة المؤتمر الإسلامي، ومعالي الشيخ - محمد علي الحركان الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي ودولة الدكتور معروف الدواليبي رئيس مؤتمر العالم الإسلامي لتمثيل منظماتهم والمشاركة في أعمال المؤتمر.

وفي يوم السبت الخامس من محرم ١٤٠٠ هـ، وبعد استهلال بتلاوة عطرة من آي الذكر الحكيم، افتتح المؤتمر نيابة عن صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني ولي العهد ووزير الدفاع بكلمة رحب فيها بأعضاء المؤتمر مؤكداً

أن قــدوم القرن الخامس عشر الهجري يقـف بالأمـة الإسلاميـة عـلى مفترق طرق ويتطلب منها أن تتبوأ مكانتها، وتقيم موازين القسط بين الشرق والغرب، وتحرر أرضها وتستعيد مقدساتها وعلى رأسها القدس الشريف والمسجد الأقصى الذي بارك الله حوله.

كما أهاب بعلماء المسلمين أن يبذلوا قصارى جهودهم كي يقدموا سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته للبشرية منهجاً وقدرة. هذا وقد تعهد سموه باسم دولة قطر برعاية مقررات المؤتمر وتوصياته.

وألقى فضيلة الشيخ عبد الله بن زيد آل محمود رئيس المحاكم الشرعية بدولة قطر كلمة بين فيها عظمة الشريعة الإسلامية وصلاحيتها لكل زمان ومكان، وأوضح أن السنـة النبوية هي شقيقة القرآن ومبينته، ودعا إلى الاقتداء بسيرة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام.

وتحدث معالي ظفر الإسلام الأمين العام المساعد لمنظمة المؤتمر فرحب بالمؤتمر باعتباره فاتحة الاحتفالات العالمية بالقرن الخامس عشر.

ثم ناب عن الوفود سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي،

رئيس ندوة العلماء بالهند، فشكر لدولة قطر أميراً وحكومة وشعباً حفاوتها بالمؤتمر، وتوفيرها أسباب النجاح له مؤكداً أن البعثة المحمدية هي نعمة الله الكبرى على الأمة الإسلامية وأساس حضارتها وعزتها في ماضيها، ومرتجى وحدتها وقوتها في مستقبلها.

واختتم حفل الافتتاح فضيلة الشيخ عبد الله الأنصاري مدير الشئون الدينية بدولة قطر ورئيس اللجنة التحضيرية **للمؤتمر** مرحباً بأعضاء المؤتمر ومنوهاً بأهمية إضافة السنة النبوية قرينة للسيرة في موضوعات المؤتمر وأبحاثه.

وفي أعقاب ذلك عقد أعضاء المؤتمر جلسة عمل برئاسة معالي الشيخ محمد علي الحركان الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي واختاروا الهيئة الإدارية التالية:

١ - فضيلة الشيخ عبد الله الأنصاري رئيساً للمؤتمر.

٢ - فضيلة الشيخ أبو الحسن الندوي نائباً أول للرئيس.

٣ - فضيلة الدكتور يوسف القرضاوي نائباً ثانياً للرئيس.

٤ - الدكتور عز الدين ابراهيم مقرراً عاماً.

لجان المؤتمر:

ضماناً لتيسير أعمال المؤتمر ولكي يتسع وقته لمناقشة الأبحاث العديدة له، فقد تقرر أن ينبثق عن المؤتمر أربع لجان تنعقد في ظلال السيرة النبوية والسنة الشرفة، وقد تم اختيار هيئاتها الادارية على النحو التالي:

١ - لجنة السنة مصدراً للتشريع ومنهاجاً للحياة:

الدكتور الحبيب بلخوجة	رئيساً
الأستاذ مناع القطان	نائباً للرئيس
الشيخ صلاح أبو اسماعيل	مقرراً

٢ - لجنة التربية والشباب:

الكتور كامل الباقر	رئيساً
الدكتور عبد الهادي التازي	نائباً للرئيس
د. أحمد رجب عبد الحميد	مقرراً

٣ - لجنة الدعوة والإعلام:

الشيخ محمد الغزالي	رئيساً
الدكتور أديب الصالح	نائباً للرئيس
د. ابراهيم زيد الكيلاني	مقرراً

٤ - لجنة التراث والمصادر:

الشيخ عوض الله صالح	رئيساً
الدكتور أكرم ضياء العمري	نائباً للرئيس
د. محمد مصطفى الأعظمي	مقرراً

أبحاث المؤتمر ودراساته:

عكف المؤتمر من خلال لجانه الأربع على دراسة الأبحاث العلمية المستفيضة التي تقدم بها السادة العلماء ورجال الفكر الإسلامي في العالم والتي تم اعدادها خلال العام التحضيري للمؤتمر، وبلغ عدد الأبحاث ثلاثة وسبعين بحثاً غطت جوانب عديدة من موضوعات السيرة والسنة النبوية.

وقد درست اللجان المجتمعة هذه الأبحاث وناقشتها بروية وجهد دؤوب واستخلصت منها التوصيات الواردة فيما بعد.

وفي الملحق المرافق ثبت واف بأسماء هذه الأبحاث وأصحابها، ولكي يعم النفع المرجو من هذه الأبحاث، وتقديراً لقيمتها العلمية، فإن المؤتمر يوصي بما يلي:

(١) طباعة الأبحاث مع خلاصة المناقشات التي دارت حولها ونشرها تباعاً على نطاق واسع، وترجمة

مختارات منها إلى اللغات الأخرى.

(٢) أن تتجه المؤتمرات القادمة نحو التخصص ما أمكن، بجعل كل مؤتمر مختصاً بجانب محدد من جوانب السنة والسيرة، تتوافر جميع الدراسات على استيفائه مع الأصالة والعمق والابداع - وذلك حرصاً على تعميق هذه الدراسات وتحاشياً للتكرار في تناولها.

التوصيات:

تدارس المؤتمر من خلال لجانه، وفي ضوء الأبحاث التي قدمت إليه، شئون السنة والتشريع، والتربية والشباب، والدعوة والإعلام، والتراث والمصادر والشؤون العامة للعالم الإسلامي، وأصدر بشأنها التوصيات الاتية:

(أولا) - التوصيات المتعلقة بالسنة والتشريع:

١- يؤكد المؤتمر أهمية السنة باعتبارها المصدر الثاني للتشريع، وأنها قرينة القرآن، فالقرآن وحي الله لفظاً ومعنى، والسنة وحي الله معنى، وجحود أحدهما ردة عن الإسلام.

لذلك فإن المؤتمر يشجب بكل قوة أي تنكر

للسنة، أو تهجم عليها أو تشكيك فيها. كما يستنكر أي دعوى لفصل الدين عن السياسة والدولة.

٢- يناشد المؤتمر الحكومات الإسلامية أن تنص في دستورها على أن دين الدولة هو الإسلام، وأن الشريعة الإسلامية بمصدريها الأساسيين: القرآن والسنة - هي المصدر الأصيل والوحيد للتشريع.

٣- يهيب المؤتمر بدول العالم التي توجد بها جاليات اسلامية، أن تعترف بالاسلام ضمن الأديان المعترف بها رسمياً في مجتمعاتها، وأن تكفل لمعتنقيه كافة الحقوق المقررة لاتباع الأديان الأخرى، بما في ذلك حقوق التعبد والتعليم والأحوال الشخصية وفقاً لأحكام الإسلام.

٤- يوصي المؤتمر الحكومات الإسلامية بتمويل طبع أمهات كتب السنة ومعاجمها المفهرسة وتيسير اقتنائها، وتكوين لجنة متخصصة لاصدار «موسوعة السنة» وترجمتها إلى اللغات الحية، وتعميم نشرها.

٥- يوصي المؤتمر باتخاذ الوسائل الكفيلة بتوجيه الدعاة إلى تحري الاستدلال بما صح عن رسول الله صلى الله

عليه وسلم، وبيان ارتباط التشريع والحياة بالسنة والاهتداء بها في اصلاح المجتمعات والأخذ بيدها إلى مدارج الرقي والتقدم والازدهار في مجالات الحياة المختلفة.

٦- يوصي المؤتمر الحكومات العربية أن تعمل على نشر اللغة العربية الفصحى بين غير العرب، وأن تمد يد المساعدة إلى الجاليات الاسلامية في البلاد الاجنبية بمدرسي اللغة العربية، لتمكينهم من فهم الكتاب والسنة، والحفاظ على شخصية أبنائهم الإسلامية.

٧- يوصي المؤتمر بضرورة التصدي اليقظ لكيد أعداء الإسلام ودحض شبهاتهم، ومتابعة ما ينشر عن السيرة والسنة من مفتريات للرد عليها، وبيان الحقائق الإسلامية بشتى أساليب البيان المكتوب والمسموع والمرئي وسائر الإعلام.

٨ - يوصي المؤتمر باحياء كتب تراث السيرة والسنة رواية ودراية، وتحقيقها تحقيقاً علمياً بوساطة الهيئات والمؤسسات العلمية الموثقة، والعناية بالدراسات والبحوث التي تبرز جهود العلماء قديماً

وحديثاً في وضع قواعد الحديث وأصوله متناً وسنداً، بما خص الله به هذه الأمة.

٩ - يرى المؤتمر ضرورة رصد الجهود التي تبذل باستمرار من أجل وضع أحكام الشريعة الإسلامية في صيغة مقننة، وجمعها وجعلها في متناول كل دولة إسلامية، لتفيد منها في تطبيق الشريعة الإسلامية.

١٠ - يوصي المؤتمر - إحياء لسنة النبي صلى الله عليه وسلم في خطبته الجامعة يوم عرفات - أن تذاع في هذا اليوم الخالد من موقفه العظيم، خطبة جامعة، تتولى إعدادها لجنة متعاونة من العلماء المشهود لهم بالورع والعلم والمعرفة الواسعة يبينون فيها مبادىء الإسلام وأحكامه وهديه وأحوال العالم الإسلامي وقضاياه. وتذاع هذه الخطبة على أوسع نطاق.

(ثانياً) - التوصيات المتعلقة بالتربية والشباب:

نظراً لأهمية التربية في إعداد الأجيال إعداداً شمولياً متكاملا، ليتولوا قيادة مجتمعاتهم في المستقبل بوعي وكفاية وفاعلية فإن المؤتمر يوصي بما يلي:

١ - أن تكون أهداف التربية والتعليم في البلاد الإسلامية مستمدة من الكتاب والسنة والسيرة النبوية، وأن تركز على الاتجاه الايماني للناشئة، وأن تكون الكتب المدرسية خالية تماماً من الأفكار الهدامة المناقضة للاسلام أو المناهضة له.

٢ - أن يكون للتربية الإسلامية المستقاة من سيرة النبي الكريم عليه الصلاة والسلام وسنته نصيب كبير من الحصص الأسبوعية، وأن تشمل القرآن الكريم حفظاً وتلاوة وتفسيراً، والحديث الشريف، والفقه، والتوحيد والسيرة النبوية، والشخصيات الإسلامية، وبعض البحوث والدراسات الإسلامية. وأن يكون اختيار الأساتذة على أساس الكفاءة والايمان برسالة الإسلام، قولا وعملا. وأن تعمل كليات التربية على تطوير أساليب التدريس استفادة من منهج الرسول صلى الله عليه وسلم في التربية ومن جهود المفكرين المسلمين.

٣ - الاهتمام بإعداد المعلمين وتعميق المعاني الخلقية لديهم، وأن يكون للتربية الاسلامية نصيب كبير في

مناهج إعدادهم، وأن يختاروا من ذوي الكفاءة والاخلاص والايمان والخلق الإسلامي. وأن يحرص على تحسين الظروف الموضوعية - المادية والمعنوية - لهم، ليولوا مهمتهم كل اهتمامهم.

٤ - القيام بحملات توعية توضح دور الأسرة في تربية النشء لتكمل دور المدرسة في تربية الأبناء تربية إسلامية واعية مع تكليف الجهات المعنية بالتخطيط لذلك على ضوء النظرية الإسلامية في التربية، وبخاصة لأطفال ما قبل المدرسة.

٥ - إحياء نشاط المسجد في كل مناحي الحياة وبخاصة التربوية والثقافية. والعمل على انشاء مساجد في جميع المدارس ودور العلم والكليات الجامعية.

٦ - أن تعمل الدول الإسلامية على النهوض بالتعليم الجامعي في إطار إسلامي من حيث: تنويعه: واستكمال تخصصاته، وتطوير مناهجه، وتحديث أساليبه مع تطوير البيئة الجامعية بحيث تشبع حاجات الشباب في التعليم والبحث العلمي وبما يجعلهم يفضلون جامعات الدول الاسلامية على

غيرها، ويراعى أن تكون نظم القبول في هذه الجامعات مرنة لتتيح التحرك الطلابي بينها وتستوعب أبناء الأقليات الاسلامية في البلاد غير الإسلامية.

كما يوصي المؤتمر بأن تستكمل الجامعات التخصصات التي تهم الفتاة المسلمة، وأن تنشأ كليات خاصة بالبنات، وأن تكون الدراسات الاسلامية المتعمقة أساساً للمناهج الجامعية، مع التأكيد على ضرورة العمل على استعادة العلماء المسلمين بكل الوسائل المادية والمعنوية والحيلولة دون هجرتهم.

٧ - الاهتمام بتأكيد التمايز بين الفكر الإسلامي والتيارات الفكرية الوافدة وذلك بتشجيع البحث والتأليف في فلسفة التربية الإسلامية، وعلم أصول التربية الإسلامي، وعلم النفس الإسلامي، وعلم الاجتماع الإسلامي بقصد تدريسها في كل من جامعات الدول الإسلامية. مع العمل على انشاء أقسام للدراسات العليا في التخصصات الإسلامية حتى لا يبتعث الطلاب لدراستها في بلاد غير إسلامية.

٨ - تعميق معاني التربية الجهادية في نفوس شباب الأمة الإسلامية وذلك بما يلي:

أ - اعتماد العقيدة العسكرية الإسلامية - دون غيرها - في الجيوش الإسلامية، والعمل على اصدار كتب فيها، وتطبيق أصولها في التدريب والتعليم والسلوك العسكري، مع الاهتمام بانتقاء الضباط من العناصر المؤمنة حرصاً على القدوة الطيبة، واختيار العلماء المخلصين لتولي الارشاد في الجيش والحرص على بناء المساجد في ثكناته ومعسكراته.

ب - إدخال التدريب العسكري في المدارس والمعاهد والجامعات لاعداد الشباب عسكرياً، وتعويدهم الطاعة والانضباط والنظام والحرص على إقامة معسكرات سنوية لهم.

جـ - العمل على إصدار موسوعة عن التاريخ الحربي الإسلامي طبقاً للمنهج العلمي وتخصيص جوائز سنوية لأحسن البحوث في جوانب العسكرية الإسلامية، والتأكيد على تدريس مادة الدعاية النفسية في

الكليات المختلفة.

٩ - التأكيد على نظرية الإسلام التربوية التي تؤكد استمرارية التعلم من المهد إلى اللحد وذلك بالاهتمام الشديد بتربية أطفال ما دون سن المدرسة، وانشاء مؤسسات حكومية ذات كفاية للقيام بذلك مع تدعيم المؤسسات الأهلية المهتمة بهذا الأمر.

كما يوصي المؤتمر بتنظيم برامج تربوية وثقافية للاباء والأمهات، وتدعيم جهود محو الأمية وتعليم الكبار، مع العمل على تنشيط دور المسجد الرائد في هذا المضمار.

١٠ -أن يهتم بالمهارات العملية، واشباع ميول الناشئة المهنية، والارتقاء بنظرتهم للعمل اليدوي والمهني، ولتحقيق ذلك يراعى أن تكون الجوانب المهنية والعملية جزءاً من برامج التعليم في مراحله المختلفة، مع توفير الامكانات المهنية المادية والبشرية التي تكفل تحقيق ذلك.

١١ - اصدار مجلات الأطفال وكتبهم والنشرات الخاصة بتوجيههم في البلاد الإسلامية، وعدم الاقتصار على

المترجم منها مع الحرص على اصدار كتب إسلامية تناسب السن العقلي للأطفال والشباب وتقاوم الأفكار الوافدة الهدامة، وأن تقدم المواد الملائمة للأطفال بأسلوب مشوق جذاب، يستخدم منجزات العصر التقنية، وأن تكون البرامج التليفزيونية والأفلام السينمائية ملتزمة بالأخلاق الإسلامية من احتشام وانضباط ألفاظ، وسلامة اتجاه، وتوجيه هادف.

١٢ - تكامل دور كل من المؤسسات التربوية والثقافية والإعلامية في تربية النشء، بالتخطيط للبرامج التي تقدمها هذه المؤسسات لخدمة التوجيه والتربية الإسلامية للأجيال،وإزالة أي تناقض بينها ليكمل دور كل منها دور الاخر، وتتمكن من تقديم برامج مشتركة إسلامية هادفة، وترعى نشاطات الشباب العلمية والسلوكية بعرضها بأسلوب مشوق جذاب.

١٣ - تنقية المناخ الاجتماعي العام، وواقع الحياة المحيط بالشباب المسلم من المؤثرات التي قد تؤدي إلى انحرافه عقائدياً وسلوكياً مع تدعيم كل جهد بناء

للمؤسسات والجمعيات الإسلامية في تربية هؤلاء الشباب تربية إسلامية متكاملة.

١٤ - تقديم كل عون ممكن لاتحادات الطلاب والشباب المسلم في أوروبا وأميركا وتبني انشاء مدارس لمختلف المراحل وكليات جامعية في تلك البلاد ليتربى أبناء المسلمين في بيئات إسلامية، مع امدادها بمدرسين أكفاء وبخاصة لمادتي التربية الإسلامية واللغة العربية، وكذلك بالكتب والمصادر والمراجع والأجهزة التي يحتاجونها.

كما يوصي المؤتمر بأن توجه هذه المعونات أيضاً إلى أبناء الجاليات والأقليات الإسلامية في بلدان غير إسلامية وبخاصة فيما يتعلق بالمصاحف الشريفة وكتب السيرة والسنة النبوية المترجمة إلى اللغات السائدة لديهم، ويؤكد المؤتمر على أن تكون البعثات الدبلوماسية للدول الإسلامية في هذه البلاد على مستوى رفيع من الخلق الإسلامي تحقيقاً للقدوة الطيبة.

١٥ - تيسير انشاء وتدعيم الجمعيات والنوادي الإسلامية للشباب، وموالاة تدعيمها وتطويرها إلى المنهج

الإسلامي السليم، وتنويع نشاطاتها لتشمل كل مجالات الحياة.

١٦ - تدعيم المؤسسات التعليمية في البلدان الإسلامية المحتلة والتصدي لمحاولات الطمس والتشويه التي تتعرض لها حضارة الإسلام منها، مع فتح أبواب المدارس والجامعات أمام أبناء المهاجرين المسلمين الذين اضطروا لترك ديارهم كمهاجري أفغانستان، والفلبين وأريتريا وقبرص وبلدان شرقي آسيا وغيرهم.

١٧ - بذل أقصى عون ممكن للجامعات الإسلامية الناشئة في كل من الضفة الغربية وقطاع غزة، وتيسير التبرع لها حكومياً وشعبياً وإمدادها بما تحتاجه من كفايات وخبرات وأجهزة، والاعتراف بهذه الجامعات وشهاداتها وامدادها بالبحوث والدراسات الإسلامية أولا بأول.

كما يوصي المؤتمر بأن تعامل الدول الإسلامية أبناء الفلسطينيين المقيمين فيها والوافدين إليها معاملة أبنائها في مدارسها ومعاهدها وجامعاتها.

١٨ - تخصيص كراسي استاذية للسيرة والسنة النبوية في كل من جامعات البلاد الإسلامية، تشجيعاً للبحث العلمي المعمق فيهما.

١٩ - العمل على تصفية المدارس ذات الأهداف التبشيرية الموجودة في أي بلد إسلامي، مهما كان انتماؤها، واحكام الرقابة على أي مدارس أجنبية، حتى لا تتحول إلى عوامل هدم في البلاد الإسلامية.

٢٠ - اعلان الأسبوع الأول من كل عام هجري أسبوعاً للسيرة والسنة النبوية في جميع مدارس ومعاهد وجامعات البلاد الإسلامية، ربطاً لطلابها بسيرة وسنة نبيهم، وحفزاً لهم على الاقتداء بهما.

٢١ - أن تعمل مؤسسات التعليم العالي والاعلام والهيئات العلمية في الدول الإسلامية على تنفيذ (الجامعة المفتوحة) الذي يعتمد على الاذاعة والتلفزيون تمكيناً لربات البيوت ومن فاتهم ركب التعليم النظامي من استكمال دراساتهم بوساطتها، مع الاهتمام بالدراسات الاسلامية ومنها السنة والسيرة النبوية.

(ثالثاً) - التوصيات المتعلقة بالدعوة والإعلام:

نظراً لما تتطلبه الدعوة إلى الله، من تجديد دائب في وسائلها وأساليبها، ومما للاعلام وأجهزته من تأثير بالغ في توجيه الرأي العام، فإن المؤتمر يوصي بما يلي:

(١) ضرورة اهتمام الحكومات والهيئات الإسلامية برسم سياسة اعلامية مستمدة من روح الإسلام الحنيف، باعتباره عقيدة وشريعة ونظام حياة، تلتزم بها أجهزة الاعلام والتوجيه في الدولة مع اقتراح تشكيل مجلس أعلى للتنسيق بين هذه الأجهزة يشارك في نشاطه متخصصون في الشئون الإسلامية.

(٢) تأكيد حاجة العالم الإسلامي إلى وكالة أنباء اسلامية، تضطلع بعبء الإعلام الإسلامي على المستوى العالمي وتتصدى لأساليب الإعلام المعادي، وتوفر النموذج الأمثل لتقديم الخبر الموثق، ونظراً لأن منظمة المؤتمر الإسلامي قد اتخذت بعض الخطوات لإقامة وكالة أنباء اسلامية فإن المؤتمر يناشد الدول الإسلامية أن تدعم هذه الوكالة أدبياً ومادياً وبشرياً لتستكمل مقومات وجودها ولتقوم

بأداء رسالتها على نحو فعال.

(٣) مطالبة الدول الإسلامية بتخصيص برامج خاصة دائمة عن فلسطين والقدس بوصفها حقاً اسلامياً مغصوباً وأن تبرز بطولات المقاومة والمرابطة في الأرض المحتلة وتكشف مخططات الصهيونية الهادفة إلى إخلاء الأرض وتهويدها.

(٤) انطلاقاً من الايمان بوحدة الأمة الإسلامية فإن المؤتمر يوصي الدول الإسلامية بالاكثار من البرامج التي تعرف المسلم بوطنه الإسلامي الكبير وتحارب النزعات الاقليمية والانفصالية وتوثق عرى الوحدة والاخوة بين الشعوب الإسلامية.

(٥) مطالبة الدول الإسلامية بدعم منظمة الإذاعات الإسلامية بجدة ومد يد العون لها حتى تقوم بأداء رسالتها في انتاج البرامج الإسلامية والتنسيق بين إذاعات الدول الإسلامية بأعلى كفاية ممكنة.

(٦) مطالبة ذوي الطاقات الفكرية الإسلامية أن يسهموا اسهاماً جاداً في تقديم برامج اذاعية وتلفزيونية هادفة تشتمل على كل ألوان النشاط

الفكري والابداع الفني: من قصة وتمثيلية وبحث وتحليل ونقد وتعلق.

(٧) حث مسئولي الإعلام في البلاد الإسلامية أن يعملوا على تنقية برامج البث الإذاعي والإعلامي من كل ما يتعارض مع القيم الإسلامية.

(٨) نظراً لما للصحافة من تأثير واسع الانتشار في تكوين الرأي العام فإن المؤتمر يوصي رجال الصحافة في العالم الإسلامي أن يرتفعوا إلى مستوى الكلمة المسئولة الشجاعة وأن ينأوا عن نشر كل ما يثير الحساسيات والاقليميات ويذكي عوامل الفرقة والانقسام بما يخدم أهداف الأعداء.

(٩) حفاظاً على تنشئة الأجيال على معاني الإسلام وقيمه العليا فإن المؤتمر يوصي بأن تقدم الاذاعات وأجهزة التلفزيون والصحافة في البلاد الإسلامية برامج متخصصة تحسن عرض الإسلام بلغة الزمن وثوب المعاصرة بما يثبت قدرته.

(١٠) أن تحرص أجهزة الإعلام وبخاصة في البلاد العربية على الالتزام باللغة العربية الصحيحة صياغة وأداء،

وأن تصل الجماهير بالمأثور من آداب اللغة العربية الرفيعة شعراً ونثراً، وألا تسرف في استعمال العامية وتمجيدها وذلك لتعميق صلة المسلم بلغته الفصحى الأصيلة، لغة القرآن الكريم والحديث الشريف.

(١١) الاهتمام بالسينما والمسرح، وتوظيفهما في انتاج أفلام وتمثيليات ومسرحيات هادفة، تعرض مثل الإسلام وتاريخه وأنماطاً من بطولاته، وتعالج مشكلات الحياة في ضوء توجيهات الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح.

(١٢) الاهتمام بانشاء معاهد للدعوة يختار لادارتها والتدريس فيها ذوو بالكفاءة من الموجهين لتخرج دعاة واعين يتحلون بالملاءة العلمية، وقوة الشخصية، ومرونة الاتصال، والحذق في اللغات الحية - بما يمكنهم من الدعوة إلى الله باقتدار وتأثير وحكمة.

(١٣) مناشدة الحكومات الإسلامية تشجيع الكتاب والصحفيين الإسلاميين، وتوفير المناخ الذي تترعرع فيه الكلمة الحرة المسئولة، والفكر الهادف المبدع،

والعمل على إيجاد رابطة للكتب تصون مصالحهم، وتنسق جهودهم، وتذيع انتاجهم.

(١٤) الأمة الإسلامية أمة مميزة لها شخصيتها المستقلة ولذا يوصي المؤتمر جميع الدول والشعوب الإسلامية باعتماد التاريخ الهجري في تقاويمها ومعاملاتها كما يوصي بمراعاة الأعياد الإسلامية وتوحيدها وتأكيد يوم الجمعة للعطلة الأسبوعية.

(رابعاً) - التوصيات المتعلقة بالتراث والمصادر):

يوصي المؤتمر بما يلي:

١ - انشاء مركز بحوث للدراسات المتعلقة بالسيرة النبوية، يعني بتجميع مصادر السيرة المخطوط منها والمطبوع، واختيار محققين أكفاء للقيام بمهام التحقيق العلمي والنشر الأنيق. كما يقوم هذا المركز بإخراج دراسات مرجعية (بيبلوجرافية) مفصلة، تعرف الباحثين بمصادر السيرة ومراجعها وكافة المطبوعات والمقالات والدوريات المتعلقة بها، وكذلك بالقيام بالدراسات الجغرافية والأثرية لأرض

الرسالة النبوية ومواقع الغزوات وأحداث فترة النبوة.

ويأمل المؤتمر أن تتبنى دولة قطر التي استضافت دورته الثالثة، مشروع هذا المركز.

٢ - إصدار دائرة معارف إسلامية يقوم على إدارتها وتحريرها علماء مسلمون أثبات، وذلك لامداد الباحث المسلم بمصدر رئيسي موثق للمعرفة الاسلامية، ويصونه عن الرجوع إلى دوائر المعارف والقواميس الإسلامية المشبوهة التي أصدرها باحثون متحاملون على الإسلام وتاريخه.

٣ - تشجيع متاحف البلاد الاسلامية على تخصيص قاعات للسيرة النبوية تضم المخطوطات والاثار والنماذج المجسمة والخرائط المفصلة المبينية لسيرة الإسلام في الفترة النبوية.

٤ - تشجيع ترجمة معاني القرآن الكريم والحديث الشريف وأهم الكتب التي توضح مزايا الإسلام إلى اللغات الحية ولا سيما لغات الشعوب الإسلامية، وتعريب الكتب الهامة في السيرة النبوية الشريفة

والمكتوبة بلغات غير عربية وفي مقدمتها كتابا العالمين السيد سليمان الندوي ومولانا أبي الأعلى المودودي. وكذلك دراسة الترجمات الموجودة فعلا لمعاني القرآن الكريم والحديث الشريف للتثبت من ضبطها وسلامتها من التحريف والتحذير مما يثبت انحرافه منها.

٥ - الاستفادة من الوسائل العلمية المعاصرة مثل الحاسب الآلي (الكمبيوتر) في دراسات السيرة والسنة النبوية.

٦ - مناشدة الحكومات والجامعات الإسلامية تشجيع الدراسات العليا في موضوعات السيرة والسنة بتخصيص منح دراسية لمن يتخصصون فيها، مع العمل على نشر أبحاثهم ورسائلهم لتعميم النفع بها.

٧ - يزكي المؤتمر الاقتراح المتعلق بانشاء مراكز للمعلومات والوثائق عن العالم الإسلامي ومعاهد علمية تهتم باعداد الدراسات في الحضارة والتراث والعلوم الإسلامية، ويناشد الدول الإسلامية القادرة

على توفير الأموال اللازمة لإنشاء هذه المراكز والمعاهد.

- يؤكد المؤتمر ضرورة إعادة كتابة التاريخ الإسلامي بصورة صحيحة موثقة، وأن يتولى ذلك نخبة من المؤرخين الأثبات الملتزمين بتعاليم الدين الحنيف.
- تشكيل لجنة من العلماء المعتمدين، ترشحهم لجنة المتابعة، لكتابة كتاب جامع عن السيرة النبوية، متبعة فيه أصول البحث العلمي الدقيق، وينشر هذا الكتاب باللغة العربية، ولغات العالم الإسلامي الأخرى، واللغات الغربية.

(خامساً) - التوصيات العامة

ونظراً لأن انعقاد هذا المؤتمر يجيء فاتحة لنشاط يعم العالم الإسلامي كله حفاوة بمقدم القرن الخامس عشر الهجري، فإن المؤتمر يقف في هذه المناسبة وقفة اهتمام أمام عدد من قضاياه وهمومه واهتماماته ويوصي بما يلي:

(٤) أن قضية فلسطين قضية اسلامية والعدوان عليها عدوان على دار من ديار الإسلام، وأمر

تحريرها مسئولية المسلمين في كل بقعة من بقاع الأرض والجهاد لتحريرها فريضة إسلامية مقدسة، وإذا كان المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله هو قلب هذه الدار الإسلامية، فإن كل شبر من ترابها هو مناط اهتمام المسلمين جميعاً، وإن أي تفريط في ذرة من تراب فلسطين، أو في حق من حقوق أهلها إنما هو تفريط في حق من حقوق الله، ومن يرتكب اصر ذلك فإنه يحاد الله ورسوله ويشذ عن اجماع المسلمين ويتجنب سبيل المؤمنين.

وبما أن أهل فلسطين قد أجمعوا على اختيار منظمة التحرير لتضطلع بعبء قيادة جهادهم فإن المؤتمر يؤكد أن منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني وهي قائدة جهاده.

كما يوصي المؤتمر قادة المنظمة أن يجعلوا الله رائدهم في جهادهم وأن يعملوا على ترسيخ القيم والمبادىء والأخلاق الإسلامية في نفوس شبابهم المجاهدين وأن يحفظوا لفلسطين وثورتها ومجاهديها

الوجه الإسلامي المشرق.

كما ينبغي على جميع المسلمين أن يتنبهوا إلى أن ما يجري في فلسطين إنما هو تمهيد لامتداد العدوان الاستيطاني إلى البقاع المجاورة لفلسطين، وما يجري الان في جنوب لبنان إنما هو شاهد صدق على ذلك، وعليه فإن واجب المسلمين أن يتصدوا لاحباط المؤامرة التي تحاك ضد الجنوب اللبناني.

(٢) وإن المؤتمر يستحضر في هذه المناسبة صوراً كثيرة من ديار الإسلام التي تتعرض لأنواع مختلفة من المظالم من أمثال الفيلبين وأفغانستان وأرتيريا وقبرص وغيرها، فمنها ما تحتل قوى البغي دياره عنوة من أجل امتصاص خيراتها، ومنها ما تحتاجه موجات رهيبة منظمة من التبشير لتحويل أهله عن وجهة الإسلام، ومنها ما يتعرض للتقتيل والتنكيل وأفانين التعذيب بغية طمس عقيدته بالقوة، ومنها ما يتعرض لحروب نفسية وعلمية واقتصادية بغية اخضاعه لارادة الباغين، ومنها ما يتعرض للتهديد بالعدوان المباشر لتطويعه وتيسيره في ركاب مصالح

غير المسلمين، وكل ذلك يجري، مع الأسف الشديد، بتشجيع وترتيب من قبل الدول الكبرى التي لا تزال سياسة بعضها العدوانية ضد الإسلام والمسلمين تشكل جريمة مستمرة.

وواجب المسلمين، دولا وحكومات وشعوباً وأفراداً أن يقفوا مع هذه الشعوب الإسلامية المظلومة وقفة انتصار، يسهموا فيها بدفع الظلم عنها وبمساعدتها على امتلاك ارادتها وحريتها وان المؤتمر يهيب بالحكومات الإسلامية أن تبذل قصارى جهدها في دعم هذه الشعوب، وفي تأييد الحركات الإسلامية.

وان المؤتمر يحذر كل من تسول له نفسه الإقدام على أية خطوة عدوانية على الشعب المسلم في ايران بأن الشعوب الإسلامية في العالم تعتبر ذلك عدواناً عليها جميعاً، يجب التصدي له ودفعه.

(٣) كما أن المؤتمر يطالب بحزم لوقف الاضطهاد الواقع على العاملين للاسلام في بعض الدول ويرى أم من واجب الدول الإسلامية أن تدفع الأذى عن

الدعاة إلى الله وألا تقف موقفاً سلبياً من حملات الاضطهاد.

(٤) ولا ينسى المؤتمر أحوال الأقليات والجاليات والتجمعات الإسلامية في جميع أنحاء العالم، هذه الجماعات التي يجب أن تنال حقها الطبيعي في الحياة الكريمة وفي تمتعها بكافة الحقوق المشروعة للانسان، وفي حريتها في ممارسة عبادتها، وفي تطبيق الشريعة الاسلامية في حياتها الاجتماعية، وفي تنشئة أبنائها وفقاً للمعتقدات الإسلامية، كما يؤكد تعاطفه مع تطلعاتها إلى بلوغ هذه الأهداف.

(٥) وان المؤتمر ينظر بعين التقدير إلى اتجاه بعض الدول الإسلامية إلى تأكيد هويتها الإسلامية وتبنيها للشريعة الإسلامية مصدراً للحكم ونظاماً للحياة، وان المؤتمر يبارك خطواتها، ويعلن تأييده لها في هذا السبيل.

(٦) إن المد الإسلامي يشق طريقه، بحمد الله لدى الأفراد ولدى الشعوب الإسلامية، على الرغم من جميع ظروف الاضطهاد المنظم التي تحيط به.

وسوف يكون حلول القرن الخامس عشر الهجري بالاهتمام الذي يستقبله له المسلمون - أروع مناسبة لتأكيد التعاطف الإسلامي، والاهتمام بشئون المسلمين.

إن المؤتمر ليتوجه إلى المسلمين عامة، وإلى حكامهم خاصة أن يستهلوا هذا القرن برجعة حقيقية للاسلام، فيحلوا ما أحل الله، ويحرموا ما حرم الله، ويعلنوها حياة اسلامية صريحة، يحكمها كتاب الله وسنة رسول الله، صلى الله عليه وسلم. وبهذا يستحقون تأييد الله تعالى ونصره الذي كتبه للمؤمنين.

« ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوي عزيز. الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ».

قرارات ختامية:

ويقرر المؤتمر بمناسبة اختتام أعماله ما يلي:

تكليف فضيلة رئيس المؤتمر بتشكيل لجنة متابعة

تكون مهمتها ما يلي:

أ - ابلاغ ما انبثق عن هذا المؤتمر من مقررات وتوصيات إلى جميع الجهات المعنية من حكومات وهيئات واتحادات ووزارات مختصة. ومناشدة هذه الجهات العمل على وضعها موضع التنفيذ.

ب - متابعة تنفيذ هذه القرارات.

ج - التعاون مع الدولة المضيفة للمؤتمر الرابع في الاعداد له. على أن تستمر هذه اللجنة في عملها حتى بداية المؤتمر القادم.

٢ - قبول الدعوة الكريمة الموجهة من المملكة المغربية باستضافة المؤتمر الرابع للسيرة والسنة النبوية مع توجيه الشكر إلى دولة الإمارات العربية المتحدة على تنازلها عن دعوتها السابقة باستضافة المؤتمر القادم لشقيقتها المملكة المغربية.

٣ - يحدد تاريخ المؤتمر القادم بالاتفاق مع الدولة المضيفة على أن يكون في مطلع العام الهجري ١٤٠٢ بإذن الله.

٤ - تسجيل الشكر الوفير إلى دولة قطر أميراً وحكومة

وشعباً لحسن الاستقبال وكرم الضيافة وما وفرته من امكانيات ساعدت على انجاح هذا المؤتمر.

كما يقرر توجيه الشكر إلى فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الله الأنصاري رئيس المؤتمر لدوره الرئيسي في إقامة هذا المؤتمر والإشراف على جميع تنظيماته، كما يوجه الشكر إلى جميع السادة معاونيه في اللجنة التحضيرية وكافة من عمل على انجاح المؤتمر وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبع هديهم الى يوم الدين.

وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين.

فهرس